سلسلة
الثقافة العسكرية
الرقم (٩٨)

تأريخ البعثة العسكرية العراقية الى اليمن

للفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٣

نسخة خاصة تحتوي على تصحيح
الأخطاء المطبعية بقلم المؤلف

الجزء الأول

العميد الركن المتقاعد
سيف الدين سعيد آل يحيى

دائرة التدريب / مديرية التطوير القتالي

الطبعة الاولى
حزيران ١٩٨٦

سلسلة الثقافة العسكرية الرقم (٩٨)

تأريخ البعثة العسكرية العراقية الى اليمن

الجزء الأول

العميد الركن المتقاعد
سيف الدين سعيد آل يحيى

دائرة التدريب
مديرية التطوير القتالي

الطبعة الأولى
حزيران - ١٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الجيشين العربيين الشقيقين

الجيش العراقي الباسل والجيش

اليمني المناضل مع أخلص

الولاء .

المؤلف

تنويه

إن هذه السلسلة عبارة عن مجموعة من المذكرات الشخصية دوّنها الكاتب باعتباره أحد أعضاء البعثة العسكرية العراقية الى اليمن، وما ورد فيها من معلومات لا يمثل وجهة نظر وزارة الدفاع العراقية فيرجى ملاحظة ذلك .

الموضوع	محتويات	الصفحة
الإهداء		١٧
ألمقدمة		٢١
إستهلال		٢٣
ألفصل الأول		
لمحات جغرافية عن اليمن		
١ – موقع اليمن الجغرافي		٢٥
٢ – مساحة اليمن .		٢٧
٣ – حدود اليمن .		٣١
٤ – التكوين الجيولوجي لليمن .		٣٣
٥ – السوابق الزلزالية في اليمن .		٣٤
٦ – التكوين الجغرافي لليمن .		٣٥
٧ – جبال اليمن .		٣٧
٨ – وديان اليمن .		٣٩
٩ – مناخ اليمن .		
١٠ – الأمطار في اليمن .		
١١ – أهم المدن في اليمن .		
١٢ – المعادن في اليمن .		
١٣ – الزراعة في اليمن .		
شجرة «القات»		٤٤
١٤ – التكوين السُكّاني وتوزيعه في اليمن .		٤٨
١٥ – الصناعة في اليمن .		٥٠
١٦ – التجارة في اليمن .		
١٧ – المواصلات في اليمن .		٥٣
ألفصل الثاني		
لمحات تاريخية عن اليمن		
١ – دول اليمن قبل الاسلام – في سطور		
١ً . الدولة المعينية .		
٢ً . الدولة الحضرمية .		
٣ً . الدولة السبأية .		
٤ً . الدولة الحميرية الأولىٰ .		
٥ً . الدولة الحميرية الثانية .		
٦ً . الدولة القتابية .		٥٤
٧ً . الدور الحبشي في اليمن .		
٨ً . الدور الفارسي في اليمن .		

الموضوع	الصفحة
٢ – دول اليمن بعد الاسلام – في سطور	٥٤
١ً . الدولة الزيادية .	
٢ً الدولة اليَعْفُرية .	
٣ً الدولة النجاحية .	
٤ً . الدولة الصُلَيْحيّة .	
٥ً . الدولة الزُرَيْعيّة .	
٦ً . الدولة الحاتمية .	
٧ً . الدولة المهدوية .	٥٥
٨ً . الدولة الأيوبية .	
٩ً . الدولة الرسولية .	
١٠ً . الدولة الطاهرية .	
١١ً . الفترة الأولىٰ من الاحتلال العثماني لليمن .	
١٢ً . الفترة الثانية من الاحتلال العثماني لليمن .	
١٣ً . الفترة الثالثة من الاحتلال العثماني لليمن .	
٣ – ما هي الزيدية ؟ وكيف جاءت الىٰ اليمن ؟	٥٦
٤ – أئمة اليمن الزيود .	٦١
٥ – هل سكان اليمن كلهم زيود .	
٦ – ما مدىٰ تعصّب الزيود للزيدية ؟	٦٢
٧ – موجز الوقائع البارزة في تاريخ اليمن لغاية عام ١٩٤٣ .	٦٤
ألفصل الثالث	٦٧
لمحات اجتماعية عن اليمن	
تمهيد	
ألقسم الأول	
التكوين الإجتماعي لسكان اليمن	
ألقسم الثاني	٦٨
هل هناك نظام طبقي في المجتمع اليمني ؟	
الدرجة الأولىٰ .	
الدرجة الثانية .	٦٩
الدرجة الثالثة .	٧٠
الدرجة الرابعة .	
الدرجة الخامسة .	
الدرجة السادسة .	٧١
ألقسم الثالث	٧١
أثر التصنيف الاجتماعي في ازياء الرجال باليمن	
الدرجة الأولىٰ .	٧٢

الموضوع	الصفحة
الدرجة الثانية .	
الدرجة الثالثة .	
الدرجتان الرابعة والخامسة .	٧٣
١ً . أهل المدن .	
٢ً . سكان القرىٰ في المناطق الجبلية والهضبة .	
٣ً . سكان الأغوار والمنخفضات (تهامة)	
٤ً . منتسبو الجيش اليمني .	
أ . الضباط .	٧٤
ب . الجنود .	
الدرجة السادسة .	٧٥
ألقسم الرابع	
نظام الحُكم في اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) .	
أولاد الإمام يحيىٰ حميد الدين .	٧٦
الحكومة المزيّفة .	
الحكومة غير المزيّفة .	
ما هي حكاية الرهائن في اليمن ؟	
السجون في اليمن .	٨٩
الأمن والأمان في اليمن .	٩١
طبيعة بيت المال .	
المصادر المالية لبيت المال .	
العملة المتداولة في اليمن .	٩٧
رواتب الموظفين في عهد الإمام يحيىٰ	٩٨
النظام المصرفي في اليمن .	٩٩
ألقسم الخامس	٩٩
مكانة المرأة اليمنية في المجتمع	
نظرة المجتمع اليمني الىٰ المرأة .	
عادات الزواج في اليمن	١٠١
أولاً – تعاريف .	
ثانياً – الخِطبة والعَقْد .	
ثالثاً – حفلة الزفاف .	١٠٢
أزياء النساء في اليمن .	١٠٤
ألحياة العائلية في اليمن .	١٠٥
ألقسم السادس	١٠٦
ألعمران في اليمن	
١ – المجال العمراني	

الموضوع	الصفحة
٢ – الطراز العمراني القديم .	
أ – الطراز العمراني قبل الاسلام .	
ب – الطراز العمراني بعد الاسلام .	
٣ – العمران السكني الحديث .	
اولاً – في المدن المهمة .	
ثانياً – منازل القرىٰ .	
ألقسم السابع	
صنعاء	
١٩٤٠ – ١٩٤٣	
١ – من أين جاء إسم صنعاء !	
٢ – موقعها المحلي .	
٣ . موقعها المناخي .	
٤ – ألشكل العام لمدينة صنعاء	١١٦
اولاً – المجموعة الكبرىٰ .	
ثانياً – المجموعة الوسطىٰ .	
ثالثاً – المجموعة الصغرىٰ .	
٥ – مصادر المياه في صنعاء .	١٢٠
٦ – الكهرباء في صنعاء .	١٢٨
٧ – وسائط النقل في صنعاء .	١٣٠
٨ – ألصحة العامة في صنعاء .	١٣٢
اولاً – الصحة الوقائية .	
ثانياً – المستشفيات .	
٩ – ألحمّامات الأهلية في صنعاء .	١٣٩
١٠ - المساجد والجوامع في صنعاء (الجامع الكبير) .	١٤٢
١١ – أسواق صنعاء .	١٤٧
مفردات إصطلاحية في لغة الأسواق باليمن .	١٥١
أسعار المواد المعاشية خلال ثلاث فترات زمنية :	
الفترة الاولىٰ – بعد الحرب العالمية الاولىٰ (١٩١٤ – ١٩١٨) .	١٥١
الفترة الثانية – خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ – ١٩٤٥)	
الفترة الثالثة – من بعد عام ١٩٤٨ .	
١٢ – أليهود في صنعاء .	١٥٢
اولاً – الوجود التاريخي ليهود اليمن .	
ثانياً – اليهود والمجتمع اليمني .	
ثالثاً – اليهود والدولة في اليمن .	١٥٤
رابعاً – الطابع الخاص بمساكن اليهود وأماكن عبادتهم	١٥٥
خامساً – اليهود والخمور والمجتمع اليمني .	١٥٦

الموضوع	الصفحة
سادساً – تعدد الزوجات عند يهود اليمن .	١٥٧
سابعاً – السبت وأعياد اليهود في صنعاء .	١٥٨
ثامناً . خيبة يهود اليمن بأرض الميعاد المزعومة .	
١٣ – ضواحي صنعاء .	١٥٩
ألقسم الثامن	١٦٢
ألقات والمجتمع اليمني	١٦٢
١ – ما هو القات ؟	
٢ – البديل الأسوأ .	
٣ – أين ينعقد مجلس القات ؟	
٤ – أثاث المنظرة – أو مجلس القات .	
٥ – كيف ومتىٰ ينعقد مجلس القات .	١٦٣
٦ – مجالس القات وشهر زمضان .	١٦٦
٧ – لماذا لم أجرّب القات بنفسي؟	
٨ – ألقات بين المَدْح والقَدْح .	١٦٨
٩ – مجالس النساء في اليمن .	١٦٩
القسم التاسع	١٧١
الإعلام في اليمن	١٧١
١ – صاحبة الجلالة في اليمن . . ألصحافة .	
اً . جريدة الإيمان .	
اً . مجلة الحكمة .	
٢ – السينما في اليمن .	١٧٢
٣ – التصوير في اليمن حلال وحرام . . !	١٧٣
ألقسم العاشر	١٧٤
ألمطبخ اليمني	١٧٤
١ – طعام الفطور .	١٧٦
٢ – طعام الغداء .	١٧٧
٣ – طعام العشاء .	
ألقسم الحادي عشر	١٧٨
الاعياد والعُطَل الرسمية في اليمن	١٧٨
عيد النشور – أو يوم الغدير .	
الجمعة الرجبية .	
مفردات لغوية باللهجة الصنعانية .	١٧٩
ألقسم الثاني عشر	١٨٣
ألمآتم الإسلامية الصحيحة في اليمن	١٨٣
ألفصل الرابع	١٨٦
تشكيل البعثة العسكرية العراقية الى اليمن .	١٨٦

الموضوع	الصفحة
١ – فكرة إرسال البعثة .	١٨٦
٢ – تشكيل البعثة .	١٨٧
٣ – ملحوظات حول تشكيل هيئة البعثة .	١٩٣
٤ – الإستحضارات للسفر .	
ألفصل الخامس	١٩٥
وقائع سفر البعثة العسكرية العراقية إلىٰ اليمن .	
الاثنين – ٤ / ٣ / ١٩٤٠ البعثة تغادر بغداد	
الثلاثاء – ٥ / ٣ دمشق .	١٩٦
الاربعاء – ٦ / ٣ دمشق	
الخميس – ٧ / ٣ بيروت – حيفا .	١٩٧
الجمعة – ٨ / ٣ في القطار حيفا – بورت سعيد .	١٩٩
الأحد ١٠ / ٣ – الثلاثاء ١٢ / ٣ – زيارة للقاهرة .	٢٠٠ - ٢٠١
الخميس – ١٤ / ٣ في الباخرة (NARKUNDA) .	
الاثنين – ١٨ / ٣ عدن	٢٠٤
الثلاثاء ١٩ / ٣ - عدن	٢٠٨
الاربعاء – ٢٠ / ٣ عدن – لحج – الراهدة (داخل الحدود اليمنية) .	٢٠٩
الخميس – ٢١ / ٣ إلىٰ مدينة (تعز) .	٢١٣
الجمعة – ٢٢ / ٣ صلاة الجمعة في جامع الأشرفية – تعز .	٢١٧
السبت – ٢٣ / ٣ تعز .	٢٢١
الأحد – ٢٤ / ٣ تعز .	٣٢٣
الاثنين – ٢٥ / ٣ تعز . البعثة على مائدة أمير تعز – ولي العهد .	٢٢٥
الثلاثاء – ٢٦ / ٣ تعز . البعثة تزور جامع (الجَنَدْ) .	٢٢٧
الاربعاء – ٢٧ / ٣ تعز – الحُديدة .	٢٢٩
الخميس – ٢٨ / ٣ الحُديدة .	٢٣٣
الجمعة – ٢٩ / ٣ الحديدة .	٢٣٥
السبت – ٣٠ / ٣ الحديدة .	
الأحد – ٣١ / ٣ الحديدة – عُبال .	٢٣٨
الأثنين – ١ / ٤ / ١٩٤٠ عُبال .	٢٣٩
الثلاثاء – ٢ / ٤ عبال – مدينة العبيد – حمام العليل .	٢٤٠
الاربعاء – ٣ / ٤ / ١٩٤٠ حمام العليل – مَعْبَرَ – صنعاء .	٢٤٢
الوصول إلىٰ (صنعاء) .	

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

بعد تمهيدات ومفاوضات مسبقة قامت الحكومة العراقية في أوائل عام (١٩٤٠) بإيفاد بعثة عسكرية من الجيش العراقي الىٰ المملكة اليمنية الشقيقة لغرض تحديث انظمة الجيش اليمني وتدريبه وفق الاساليب الحديثة خلال مدة أمدها ثلاث سنوات . .

ويشهد الجيش والشعب اليمنيين أن تلك البعثة العسكرية العراقية أدت رسالتها وأنجزت مهمتها علىٰ أحسن مايكون عليه الأداء والانجاز بحيث انعكست آثارهما غير المباشرة علىٰ الأحوال والأوضاع المتخلفة التي كان يعيشها الشعب اليمني منذ عدة قرون . . . !

علىٰ أن ثمة أحداث سياسية ، بسبب الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ – ١٩٤٥) ، طرأت علىٰ الساحة الدولية بوجه عام وعلىٰ منطقة الشرق الاوسط بوجه خاص عجّلت بتقرير «إعادة البعثة العسكرية العراقية» من اليمن وإلغاء فكرة إرسالها من الأساس . . فعادت البعثة الىٰ العراق ووصلت بغداد في مطلع عام ١٩٤٣ . . !

ومرّت السنون . . وكاد الناس ينسون كل شيء عن «البعثة» المذكورة لأن أحداً[1] لم يتصدّ للكتابة عنها بما تستحقه تماماً من دراسة وتقييم . . وبخاصة حول فكرة إيفادها وتشكيلها وتحديد واجباتها وكيفية تسفيرها ومناهج أعمالها في اليمن طوال ثلاث سنوات . . وماذا كانت حصيلة تلك الأعمال في نهاية المطاف . . وبالتالي الملابسات الكثيرة التي أحاطت بكيفية «إعادتها» وليس «عودتها» الىٰ أرض الوطن . . . . .

وكان المفروض ، بعد عودة البعثة الىٰ العراق ، أن يُطلبَ إليها . . أو أن تقوم هي نفسها – هيئةً أو أفراداً – باصدار اكثر من كتاب عن أعمالها ومنجزاتها العسكرية في اليمن . . إلا أن الظروف السيئة التي كانت تسود العراق عند عودة البعثة . . وسوء المعاملة التي عوملت بها من قبل المسؤولين يومها – كما سيأتي الحديث عنه في ختام الفصل التاسع من هذا الكتاب – حال دون تحقيق المهمة الختامية لأعمال البعثة فيما يتعلق باصدار كتاب أو اكثر عن خدماتها المضنية في اليمن لمدة ثلاث سنوات . . !

ولذلك نسي الناس ، ومن حقهم أن ينسوا ، الحديث عن «البعثة العسكرية العراقية إلىٰ اليمن» . . وكأنّ الحديث عنها كان مجرد أضغاث أحلام ليس إلا . . . !

ولكن أحداث الزمن . . ومنطق التاريخ . . لايمكن أن تكون أضغاث أحلام . . لأن الزمن والتاريخ دائماً بالمرصاد . . وغالبُ أحداثهما الكبيرة إنما تأتي الناسَ بغتة . . فلا يكاد الانسان يفيق من بغتتها حتىٰ يكون وجهاً لوجه مع التغيّرات الجسام التي تمخضت عنها غضبة الزمن وحساب التاريخ . . . !

ففي يومٍ ما من أيام شهر شباط عام ١٩٤٨ إهتزت أسلاك البرق من (صنعاء) لتعلن للعالم الخارجي عن حدثٍ تاريخي خطير وقع في «قلب اليمن» . . . . !

قال النبأ بغموض واقتضاب : «لقد مات إلامام يحي حميد الدين عن مرض طويل» ثم سكت . . . !

ولكن حقيقة الحدث الخطير لم تكن كذلك . . . ! إذ سرعان ما انكشف الأمر للشعب اليمني بعد سويعات معدودات . . فعلم أن إلامام يحي قد اغتيل مع رئيس وزرائه وعدد من أولاده الكبار وأحفاده الصغار وهم في طريقهم من (صنعاء) إلىٰ ضاحية قريبة للاستجمام

(١) كان زميلنا في هيئة البعثة (المقدم محمد حسن المحاويلي) قد كتب كتاباً أسماه «قلب اليمن» وذلك بعد عام أو اكثر من تاريخ عودتنا الىٰ العراق . . وصدر الكتاب عام ١٩٤٧ . ولكنّ هذا الكتاب لم يتحدث عن «البعثة العسكرية العراقية» باكثر من التي عشرة صفحة مجزّأة ومتفرقةً بين فصول الكتاب الذي تألف من ثمانية عشرة فصلاً في (٢٥٦) صفحة . . . . . !

وكان الزميل المومأ إليه قد اتصل بي شخصياً قبيل البدء بمسودة كتابه المذكور وعرض عليّ التعاون معه في مشروع الكتاب . . سيما وأنني كنت الوحيد بين أعضاء البعثة أمتلك آلة بسيطة والمواد اللازمة للتصوير الفوتوغرافي والتحميض والطبع . فكانت لديّ مجموعة كبيرة من التصاوير عن فعاليات البعثة في اليمن . .

ولما كان الهدف والمنهج اللذين يرمي اليهما الزميل المقدم محمد حسن من إخراج كتابه الموسوم أعلاه لايمكن أن يجدا هوىً في نفسي فقد رفضت التعاون معه في هذا المجال . . !وعندما تختلف الأهداف والمناهج . . لاشك وأن تختلف النتائج أيضاً . . ومن هذا المفترق الرئيس تبرز المتعة في مطالعة كتابنا علىٰ التعاقب . . . !=

(٢) هو الاربعاء – ١٨/شباط/١٩٤٨ .

يومئذ فقط تذكّر الناس شيئاً إسمه اليمن . . وأن بعثةً عسكرية عراقية كانت في خدمة جيشه منذ ثماني سنوات . . . !

ومن يدري ؟ فلعل نبأ اغتيال الإمام يحي هو الاخر لم يكن ليذكّر الناس بشيءٍ عن اليمن لولا أن ذلك الحدث الكبير كان قد اقترن يومها بإسم الرئيس المدفعي جمال جميل عضو البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن . . . . !

في ذلك اليوم نفسه كنتُ ضابطاً تلميذاً في السنة الأولى من دراستي في كلّية الأركان . . وكان آمر هذه الكلية يومها العقيد الركن السيد عبد المطلب الأمين ، رحمه الله . . والسيد الأمين – كما عرفه ضباط الجيش العراقي القدامىٰ – كان ضابطاً له رصيد قيّم من الثقافة العامة . . وبخاصة في العلوم الإنسانية . . فضلاً عن ثقافته العسكرية . . .

اليوم التالي ١٧ شباط ١٩٤٨ السبت

وفي ذات يوم من أيام الفصل الثاني للسنة الأولى أرسل السيد الأمين في طلبي شخصياً ليقول لي متسائلا : «سيفي . . ماهذه الأخبار المثيرة عن اليمن ؟ أحب أن تحاضرنا جميعاً في اقرب يوم عن اليمن . . وربما دَعوْنا ممثلين عن وزارة الدفاع والقطعات المرابطة في معسكر الوشاش [1] للاستماع الىٰ محاضرتك . . فماذا ترىٰ ؟» . .

ولما كانت عبارة الختام «فماذا ترىٰ» تنطوي علىٰ الكثير من الرقّة والتواضع ودماثة الخلق والتلميح الذكي بوجوب إعداد المحاضرة وإلقائها . . فقد لبيّت الأمر عن طيب خاطر . . ولم أطلب من الوقت اكثر من اسبوعين اثنين رغم زخم العمل الدراسي في الكلية وضيق الوقت . . وتم إلقاء المحاضرة في الوقت المعين [2] واكتسبت رضا معظم المستمعين الذين أعربوا عن استمتاعهم بسماع المحاضرة حتىٰ قال لي أحدهم : [لقد وضَعْتنا اليوم حقاً أمام الصورة الواضحة عن اليمن . . وقد كنا لانزال ننظر الىٰ النسخة السلبية من هذه الصورة . .] . .

كانت الصفحات السبعون لتلك المحاضرة المركّزة هي أول وآخر ماكتب عن «البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن» . . وقد ساعدني علىٰ كتابتها بتلك السرعة والكيفية احتفاظي بالمذكرات اليومية التي كنت أحرص علىٰ تدوينها في اليمن طوال السنوات الثلاث . . فضلاً عن مجموعة لا بأس بها من التصاوير الفوتوغرافية المتواضعة . . فقد كنا في زمن يختلف عن زماننا اليوم حيث أصبح من اليسير علىٰ المرء في يومنا هذا أن يقتني آلات التصوير الفخمة فضلاً عن الأفلام الممتازة الملونة . . . .

ومرّت السنون . . ونسي الناس من جديد كل شيءٍ عن اليمن . . خاصةً وأن فشل الثورة في اليمن عام ١٩٤٨ تسبب في إبقاء القديم علىٰ قِدمه فيما عدا استبدال إمام بإمام آخر مماثل . . هو سيف الاسلام أحمد بن يحي حميد الدين الذي استطاع إجهاض ثورة ١٩٤٨ بسرعة أذهلت رجال الثورة في حينه فاستسلموا له بدون قيد أو شرط . . . ! لقد كان سيف الاسلام احمد مشهوراً بالشجاعة الشخصية بقدر ماكان مشهوراً بالا نغلاق علىٰ نفسه وعلىٰ الرعيّة . . . وعلىٰ كل حال . ليس من أهداف كتابنا هذا التحدث عن غير وقائع البعثة العسكرية العراقية في اليمن مابين عام (١٩٤٠) وعام (١٩٤٣) . . اللّهم إلا ماكان للضرورة القصوىٰ . .

ومهما تضاربت الآراء في شخصية الإمام الجديد (أحمد) . . فقد اثبتت الوقائع أنه لم يستطع الصمود في وجه الانتفاضات الشعبية المتتالية خلال السنوات القليلة من حكمه الذي انتهىٰ بوفاته متأثراً من جراحات وكسور أصابته في تلك الانتفاضات . . .

وكان إلامام أحمد قد مهّد لولده البكر سيف إلاسلام (محمد البدر) خلافة (إلامامة) علىٰ عرش اليمن . . مما أثار غضبة بقية أنجال الامام الراحل يحي حميد الدين . . فكان ذلك من اكبر العوامل تأثيراً في التعجيل بنهاية إلامام أحمد . . ومن بعده مباشرة نهاية (إلامام الحفيد محمد البدر) . . وبالتالي نهاية (إلامامة الزيدية) في أرض اليمن . . . .

ففي اليوم السادس والعشرين من شهر إيلول عام ١٩٦٢ تمكن الثوار (الحقيقيون ...) في اليمن من تحقيق أول انقلاب عسكري ناجح وأعلنوا للعالم عن ذلك من إذاعة (صنعاء) .....

ومرةً أخرىٰ تذكّر الناس شيئا إسمه اليمن . . وهذا بدوره جرّهم الىٰ تذكّر «البعثة العسكرية العراقية» في اليمن منذ إثنين وعشرين عاماً . . . .

= ولأجل تمكين القارىء من التعرف علىٰ طبيعة كتاب «قلب اليمن» الذي أصدره الزميل المقدم محمد حسن منذ عام ١٩٤٧ ولم تظهر له طبعة ثانية – علىٰ حدّ ما نعلم . فقد خصصنا الفصل العاشر والأخير من كتابنا هذا لنقد كتاب «قلب اليمن» . . ولله علينا أن نكون في هذا النقد في غاية الإنصاف والإخلاص والله تعالىٰ من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

(١) ومنذ عهد قريب تحوّل هذا المعسكر الكبير القديم الىٰ متنزه عام للمواطنين باسم (متنزه الزوراء) في جانب الكرخ بعد أن تقرر إبعاد معظم المعسكرات عن العاصمة بغداد . .

(٢) الساعة (٩٠٠) من يوم الخميس ٧٦ / شباط / ١٩٤٨ وكان سبب التعجيل بالقاء المحاضرة هو صدور الأمر بنقل الأمين من الكلية و إحلال العقيد الركن رضيعه عارف محله اعتبارا من يوم ٧٨ / شباط / ١٩٤٨ .

وإنه لمن المحزن جداً أن يقرأ المرء عدداً كبيراً من الكتب العربية والأجنبية صدرت عن اليمن من بعد عودة البعثة العسكرية العراقية عام ١٩٤٣ وحتىٰ اليوم فلا يجد فيها شيئاً مهماً ولا دقيقاً عن أخبار البعثة المذكورة . . وكأنها لم تكن حدثاً ذي بال في تاريخ اليمن الحديث . . !

والعتاب في هذا الصدد بطبيعة الحال إنما ينصبّ علىٰ الكتب العربية والكتّاب العرب بالدرجة الاولىٰ . . ونخصّ منها ماكان قد كُتب – أو تُرجم الىٰ العربية – بأقلام شخصيات يمنية أو ذات نسب باليمن . . ولسوف نتطرق في بعض ملاحق الكتاب الىٰ بعض هؤلاء الذين لم يوفوا حق البعثة كما ينبغي فيما ذكروا عنها ! [1]

وكان موقفي الشخصي من التصدّي للكتابة عن «البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن» يتأثر دائماً بالعوامل التالية :–

- عدم إلاهتمام بالبعثة قبيل وأثناء وعند عودتها الىٰ العراق . . لا بل وإساءة معاملتها بعد الوصول الىٰ بغداد كما ذكرنا آنفاً وكما سنفصّله فيما بعد . . .
- إلانغمار بمشاغل ومشاق الخدمة العسكرية خلال بقية سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٤٣ – ١٩٤٥) حسب المناهج التوجيهية التي كانت تضعها البعثة العسكرية الاستشارية البريطانية في مقر وزارة الدفاع . . .
- طموحي الشديد للدراسة في كلية الأركان لمدة عامين تمهيداً لإكمال دراساتي العسكرية خارج العراق . . وقد تحقق لي ذلك بفضل الله تعالىٰ . .
- كل مانجمَ عن انحراف ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ ، وتسبب في حرماننا من الاستمرار في خدمة جيشنا العزيز ..... ! الأمر الذي جعلنا نعاف كل شيءٍ يتسم ولو بالقليل من الطابع العسكري . . وننصرف في «حياتنا التقاعدية المبكرة جداً» للدراسات والمطالعات غير العسكرية ....

وماذا بعد . . ؟

- عندما فشلت (الثورة الوزيرية) [2] في اليمن عام ١٩٤٨ ذهب ضحيتها عضو البعثة العسكرية العراقية المتخلّف في اليمن . . الرئيس جمال جميل . . نظراً لاشتراكه المباشر في تلك الثورة . . فكان إعدامه في العام التالي ١٩٤٩ . .

كان الرئيس جمال جميل يمثل امتداداً فردياً لوجود البعثة العسكرية العراقية في اليمن – كما سيأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله – وكان قد تسلّم من رئاسة البعثة كافة محتويات وعائديات مقرها من سجلات وأضابير ومحافظ وطابعة . . . . وبذهاب الرئيس جمال جميل عن مسرح الحياة ذهبت معه ايضاً كل الوثائق الرسمية عن حياة البعثة العسكرية العراقية في اليمن طوال ثلاثة اعوام . . . !

إنها لعمري .. وثائق تاريخية لاتُقدّر بثمن .. ! أتىٰ عليها العامة من الناس بعد فشل الثورة الوزيرية فذهبت مع ماذهب من كل المتاع الذي احتواه بيت الرئيس جمال جميل في صنعاء ... !

- وفي بداية ~~الثمانينات~~ السبعينات . ~~لم يقبلها بقليل~~ . انتقل ~~الملوك~~ الركن المتقاعد اسماعيل صفوت سعيد الىٰ رحمة الله . وهو نفسه (العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد – رئيس البعثة العسكرية العراقية في اليمن) .. ومن دواعي الأسف علىٰ فقدان هذا الرجل هو أن أحداً لم يسأله يوماً ، طوال هذه الأربعين عاماً ويزيد ، «ماذا فعلتم في اليمن طوال ثلاثة اعوام ؟» ... !

«ماذا كتبتم عن البعثة في اليمن طوال هذه الأربعين عاماً ويزيد ؟» . . . !

- ويرحيل الرئيس جمال جميل عن مسرح الحياة وانتقال ~~الملوك~~ الركن اسماعيل صفوت سعيد الى رحمة الله لم يبق من ضباط البعثة في مطلع الثمانينات غير ثلاثة :

(١) أنظر الملحق رقم (١) بهذا الكتاب ص (٢٧٧) جـ ٢

(٢) نسبة الىٰ السيدين عليّ عبد الله الوزير وعبد الله احمد الوزير اللذين قاما بتلك الثورة الفاشلة . . وآل الوزير كانت فيهم «الإمامه الزيدية» في اليمن من قبل . . وسنأتي في بعض فصول هذا الكتاب بالمزيد من التعريف إن شاء الله .

١ - المقدم المتقاعد محمد حسن المحاويلي .

٢ - العميد الركن المتقاعد عبد القادر محمد الناظمي .

٣ - العميد الركن المتقاعد سيف الدين سعيد .

أما المقدم المتقاعد محمد حسن المحاويلي ، الذي اشرنا اليه في هامشنا (١)ص١٧ ، فقد اكتفىٰ - على مايظهر - بالطبعة الاولىٰ من كتابه «قلب اليمن» ونام عليها حتىٰ يومنا هذا ... وقد بلغ الرجل من الكِبَر عِتِيّا - أطال الله في عمره - وقد أحزنني أن اراه منذ عام أو يزيد وهو يتوكأ على عصاه إذا خرج من داره لمسافات قصيرة .. ولاشك أن هذا قد نجم عن حادث دهس بسيارة طائشة .. سألتُ الله له العافية ..

وأما العميد الركن المتقاعد عبد القادر محمد الناظمي فقد كان الضابط الوحيد بين بقية زملاء البعثة الذي أستطيع الانسجام معه هدفاً وغايةً وعملاً .. ولكن الرجل كان معذوراً في إحجامه عن الكتابة حول البعثة العسكرية العراقية الى اليمن وذلك بسبب صيرورته عديلاً بالمصاهرة لسيف الاسلام (أحمد) بن الإمام يحيى حميد الدين الذي أشرنا إليه آنفاً في هذه المقدمة .. وقد نأتي الى الكلام عن هذه المصاهرة في حينه ان شاء الله ومع ذلك فإنني حينما قاربت الكتابة عن فعاليات (الملازم الأول عبد القادر الناظمي) في «مدرسة المخابرة المتوكلية» بصنعاء اليمن على عهد البعثة فقد بادرتُ الى الاتصال به شخصياً لكي استجمع منه الخبر اليقين عن تلك الفعاليات وأدونها كما هي في هذا الكتاب .. ولكنني فوجئت - ويالِلأسف - بأن الزميل الناظمي يعاني من انحراف شديد في صحته العامة بحيث لا يقوىٰ على الخروج من داره الا لضرورة قصوىٰ .. ورغم ذلك فقد زوّدني مشكوراً بأهم المعلومات الرئيسية التي تدخل في صميم فعالياته التي قام بها في مدرسة المخابرة العسكرية بصنعاء .. وأرجو أن اكون قد وُفّقت الى تدوينها في مواضعها الصحيحة من هذا الكتاب بأذن الله ..

ترىٰ . . مالذي حفزّني إذاً من جديد للكتابة عن «البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن» بعد انصرام إثنين واربعين عاماً علىٰ عودة البعثة من اليمن . . . ؟ !

اولاً - بضع اتصالات تلفونية من ضباط يعملون في دوائر مختصة بوزارة الدفاع العراقية يسألني كل منهم عما استطيع تقديمه له من معلومات عامة عن البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن وأعمالها . . . لغرض إدراج ذلك في صلب تاريخ الجيش العراقي الحديث الذي تعكف علىٰ وضعه عدة لجان منذ سبع سنوات تقريباً ولم يكتمل بعد . . فلما كنت اسألهم عن مصير الوثائق الرسمية الخاصة بالبعثة والمفروض وجودها في دوائرها الخاصة بوزارة الدفاع ووزارة الخارجية العراقية كانوا يقولون : بأنهم بحثوا عنها كثيراً فلم يعثروا عليها . . وقالوا لعلها فُقدت في حريق كان قد شب في أحد أجنحة وزارة الدفاع عام ١٩٦٣ والفيضانات التي اجتاحت بغداد مراراً عديدة ..

ثانياً - شعوري الشخصي - وأنا افتقد زملاء البعثة العسكرية العراقية الواحد تلو الآخر - بمسؤولية الكتابة في هذا الموضوع . . رغم فوات الأوان واعتلال الصحة وضآلة الحوافز وقلة الإمكانيات . .

فقلتُ لأكتب ماأستطيع . . وبقدر ماتسعفني الذاكرة في السابعة والستين من العمر الشقيّ . . ولن أسأل غير الله تعالىٰ السداد والتوفيق . . .

المؤلف

إستهلال

إن الأجواء الغريبة والظروف العجيبة التي عاشت وعملت فيها «البعثة العسكرية العراقية إلىٰ اليمن» طوال ثلاثة أعوام شِداد . . كان لابد وأن تحدّ من عزمات رجال البعثة وأن تؤثر تأثيراً سيئاً في نوعية وكمية ونتائج إنجازاتهم العسكرية رغم كل مابذلوه مِن جهد وحماس وإخلاص وتضحيات في خدمة وطنهم الأصلي «اليمن» . . . !

وقد يتعذر علىٰ أي قارئ أن يدرك أسباب وأبعاد تلك المعوّقات مالم يلمّ سلفاً إلمامةً واضحة في ثلاث موضوعات رئيسية حول اليمن وهي :-

١ - لمحات جغرافية عن اليمن .

٢ - لمحات تاريخية عن اليمن .

٣ - لمحات اجتماعية عن اليمن .

ولغرض إلايجاز وتحاشي إلاملال في هذه الموضوعات فقد اكتفينا بالتركيز علىٰ أبرز مافي هذه اللمحات . . وبالقدر الذي يحقق الإلمامة الواضحة لقارئ هذا الكتاب إن شاء الله .

المؤلف

الخريطة رقم (١)

خريطة اليمن بوضعها القديم : الحدود السياسية ، المدن ، الطرق ، الوديان .

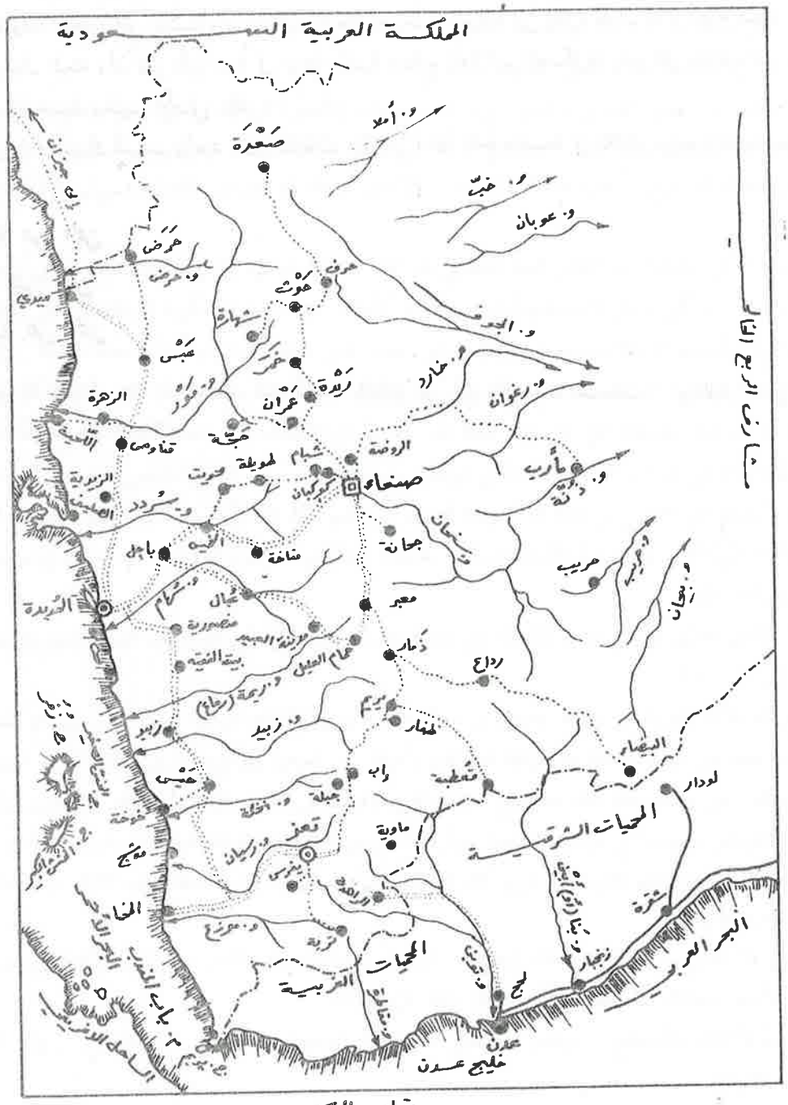

خط حدود سياسية .

طريق مبلطة .

طريق غير معبدة ولا مبلطة ، ولكنها صالحة تماماً لسير العربات عليها .

مسالك للمشاة والحيوانات .

اتجاه مجرى الوديان .

و. = وادي .

ج. = جزيرة .

م. = مضيق .

ط. = خط طول .

ع. = خط عرض .

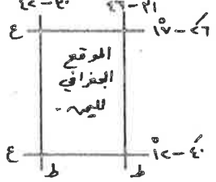

الفصل الأول

لمحات جغرافية عن اليمن

(أنظر الخريطة رقم - ١ - في الصفحة السابقة ص - ٢٢ -)

١ - موقع اليمن الجغرافي .

يقع اليمن في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية مابين خطّي العرض (١٢ْ - ٤٠ْ) و (١٧ْ - ٢٦ْ) شمال خط الاستواء .. وبين خطّي الطول (٤٢ْ - ٣٠ْ) و (٤٦ْ - ٣١ْ) شرق «كرينتش - Greenwich» .

٢ - مساحة اليمن (حالياً ١٩٤٠ - ١٩٤٣) .

تبلغ مساحة اليمن حالياً نحواً من (٧٤ ر ٠٠٠) أربعة وسبعون ألفاً من الأميال المربعة ، أو (١ ر ٩٥٠ر٠٠٠) كيلومتر مربع كما تقول مصادر أخرىٰ . . يقطنها مايتراوح تعداده بين أربعة الىٰ خمسة ملايين نسمة . . وبذلك يكون معدل الكثافة السكانية مابين (٢٠) الىٰ (٢٥) نسمة لكل كيلومتر مربع . . وهؤلاء السكان علىٰ ثلاثة مذاهب إسلامية هي :

١ . الزيدية ، وهم الأغلبية في التعداد السكاني .

٢ . الشوافع .

٣ . الاسماعيلية .

وهناك أقلية من اليهود تضاربت الروايات في مجمل عدد نفوسهم في اليمن نظراً لعدم وجود إحصاء سكاني رسمي في اليمن أصلاً . . إلا أن من الممكن قوله في هذا الصدد أن عددهم لايتجاوز العشرة الآف نسمة ذكوراً واناثاً . . موزعين في المدن والأرياف . .

٣ - حدود اليمن

يذكر المؤرخ اليمني الشهير أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في كتابه المشهور بـ «الإكليل[1]» ، وهو الحُجّة الموثوقة في تاريخ اليمن ، أن موقع اليمن القديم كان يتاخم معظم جزيرة العرب . . فيحده من الشمال نجد والحجاز ، ومن الشرق خليج البصرة ، ومن الجنوب البحر العربي ، ومن الغرب بحر القلزم - أي البحر الأحمر . . .

أما اليوم (١٩٤٠ - ١٩٤٣[2]) فقد باتت حدود اليمن كالآتي :

يحده من الشمال المملكة العربية السعودية ، بما فيها عسير ، ومن الشرق والجنوب شطراً من الربع الخالي ومجاميع المحميات البريطانية بما فيها محمية (عدن) ، ومن الغرب البحر الاحمر من مضيق باب المندب جنوباً وحتىٰ بلدة (ميدي) الساحلية شمالاً . . . !

٤ - التكوين الجيولوجي لليمن

عندما نتكلم عن اليمن من الناحيتين الجغرافية والتاريخية القديمة فاننا نقصد اليمن الذي كان يحده من الشمال الخط الوهمي المار من أعالي الحجاز الىٰ نجد ، ومن الشرق الخليج العربي ومن الجنوب البحر العربي ومن الغرب البحر الأحمر . . .

أما إذا تكلمنا عن اليمن من الناحية الجيولوجية فانما نتكلم عنه كجزء لايتجزأ من شبه الجزيرة العربية التي كانت في دور من الادوار الجيولوجية الموغلة في القِدم قبل (٢٨٠) مليون سنة جزءاً لايتجزأ من القارة الافريقية وأمريكا الجنوبية والهند واستراليا والمنطقة القطبية الجنوبية . . وكانت هذه الكتلة العظيمة من اليابسة تسمىٰ بـ (كُونْدوانالاند - Gondwanaland) . . وعندما بدأت هذه الكتلة من اليابسة تتجزأ أو يبتعد بعضها عن بعض بفعل موجات عارمة من الزلازل والبراكين قبل حوالي (٢٨٠) مليون سنة ، تكونت عدة أطباق جيولوجية هائلة (Geological—plates) يتراوح عددها بين (٨ - ١٢) طبقاً . . وكل طبق يشمل قارة بأسرها . كالطبق الافريقي والطبق الامريكي والطبق الآسيوي . . والخ . . ، وفي داخل هذه الأطباق الرئيسية تكونت أطباق ثانوية (Sub—Plates) قبل (٢٠٠) مائتي مليون سنة ، فكان منها الطبق العربي ومركزه في الاراضي السعودية ، وكان لبنان طرفاً منه واليمن طرف آخر . . ومعروف أن شبه الجزيرة العربية هي اليابسة المستطيلة الشكل بطول (٢٢٠٠) كيلومتر وعرض (١٢٠٠) كيلومتر . . وتتجه بالنسبة لخطوط الطول من

(١) عشرة أجزاء . نسخة منها كانت محفوظة في المكتبة الشخصية للإمام الراحل يحيىٰ حميد الدين ...

(٢) جاء في الصفحتين (٥و٦) من كتاب «عدن واليمن ADEN and THE YEMEN» لمؤلفه (السير برنادر رايلي Sir Bernard ReiLLY) أول حاكم لعدن عينته وزارة المستعمرات البريطانية مابين عام ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، وسنأتي الىٰ بيان هوية هذا الكتاب في فصول قادمة ، جاء ماموجزه ونحن نترجمه الىٰ العربية : -

الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي . . ومنذ ذلك الإنشطار الجيولوجي القديم أصبحت شبه الجزيرة العربية طبقاً ثانوياً مستقلاً . . لاهو من آسيا ولاهو من افريقيا . . . رغم أن الجغرافيين يعتبرون شبه الجزيرة العربية من القارة الاسيوية . . ومع ذلك فهي لاتزال تصل الشرق بالغرب (آسيا وأوربا) ، والشمال بالجنوب (آسيا وافريقيا) . . وبانفصال القارة الافريقية عن القارة الاسيوية حدث هذا الأخدود الجيولوجي العظيم الذي أمتلأ بمياه البحر فسُمّي قديماً ببحر (القلزم) . . ثم سُمي فيما بعد بالبحر الاحمر بسبب حمرة الشعاب المرجانية المزدحمة في مياهه كما يقولون . . .

ونظراً لموقع اليمن من شبه جزيرة العرب فقد أصابه الشيءُ الكثير من هذه التغيرات الجيولوجية الهائلة فأكسبته كل صفات ومميزات الطبيعة الزلزالية والبركانية . . (البركانية الخامدة) . .

ويقول العلماء في هذا اليوم أنه لاتزال آثار عملية الإنشقاق الجيولوجي ظاهرة الىٰ الآن في التصاوير التي التقطتها الأقمار الصناعية للمنطقة . .

لقد اظهرت هذه التصاوير الوجه المتجهم لهضبة اليمن بسبب الألوان الداكنة للجبال الشاهقة المحيطة بها من كل اتجاه . . والتي تتجاوز ارتفاعات بعضها ثلاثة الآف متر عن سطح البحر . . !

علىٰ أن منطقة الجزيرة العربية – واليمن منها خاصة – كانت قد شهدت منذ حوالي ثلاثين مليون سنة نشاطاً بركانياً غير عادي ، مما أسفر عن تكوين سلاسل من الجبال البركانية تغطي ثلث مساحة اليمن . . ولما كان علماء الجيولوجيا يقدّرون الأعمار بمئات وألوف الملايين من السنين . . فقد قالوا بأن النشاطات البركانية الحديثة في اليمن عمرها مليونان من السنين . . وقال بعض الباحثين بأن بعض تلك الأنشطة البركانية حدثت منذ ألفي عام تقريباً . .

---

١ . محميات عدن الغربية

١ . سلطنة لحج . او سلطنة العبدلي . وهي أقدم المحميات غربي عدن . وعاصمتها (لحج) أو (الحوطة) . . وعندما يذهب سلطان لحج في زيارة رسمية الى عدن تطلق له احدىٰ عشرة طلقة مدفع تحية لمقدمه . ويُخاطب بصاحب السمو . . ويبسط هذا السلطان سيطرته علىٰ قبائل (ألصُبَيحة) . .

٢ . سلطنة الفضلي وتشتمل على نصف مقاطعة وادي (أبْيَن) الخصبة . وعاصمتها (زنجبار)(ف) . وكانت عاصمتها سابقاً (شقرة) .

٣ . مشيخة العقربي . وهي مقاطعة صغيرة ملاصقة لمحمية عدن وعاصمتها (بير أحمد) .

٤ . سلطنة العولقي العليا . وعاصمتها (نصاب) . وكانت عاصمتها سابقاً (يشبوم) .

٥ . مشيخة العولقي العليا . وعاصمتها (سعيد)(ف)

٦ . سلطنة العولقي السفلىٰ . وعاصمتها (اهوار) أو (أحور) .

٧ . إمارة بيحان . وعاصمتها (بيحان)(ف) أو (بيحان القصب) .

٨ . سلطنة يافع السفلىٰ . وعاصمتها (جعار)(ف) . وكانت عاصمتها سابقاً (القارة) .

٩ ـ ١٣ . سلطنة يافع العليا . وتنقسم الى عدة أقسام فرعية مستقلة . ولمعظمها معاهدات منفصلة مع الحكومة البريطانية . . وعاصمتها (المحجبة) .

١٤ . سلطنة العوذلي . وعاصمتها (لودار)(ف) . وكانت عاصمتها سابقاً (زارة) .

١٥ . سلطنة الحوشبي . وعاصمتها (مُسَيْمِير) .

١٦ . مشيخة العلوي . [ولم يذكر عاصمتها] .

١٧ . إمارة الضالع . وعاصمتها (الضالع) . وتشتمل هذه الامارة على مقاطعات جبل (جحاف) . كما تشتمل إسمياً على اراضي (القتيبي) و (ردفان)(ف) .

١٨ . مشيخة شعيب . وعاصمتها (عوابل) .

١٩ . دثينة . وعاصمتها (موديا) .

ملحوظة : ان الحرف (ف) يرمز الى ان هذه المقاطعات أُوجدت عند قيام الاتحاد في عام ١٩٥٩ .

٢ . محميات عدن الشرقية

٢٠ سلطنة شهر والمكلاّ أو سلطنة القعيطي . وهي أقدم واكبر محميات عدن الشرقية . ولسلطانها أحدىٰ عشرة طلقة مدفع للتحية عند زيارته الرسمية لعدن . ويُخاطَب بصاحب السمو . . وعاصمتها (المكلاّ) .

٢١ . سلطنة صيَون . أو سلطنة الكثيري . وعاصمتها (صَيَون) .

٢٢ . سلطنة كثن وسوقطرة . وتشتمل على جزيرة سوقطرة والاراضي الساحلية في كثن والتي تسكنها قبيلة (المهرا) . . وعاصمة السلطنة (حديبو) على الساحل الشمالي من سوقطرة .

٢٣ . سلطنة الواحدي . ويحكمها سلطانان واحديّان : الأول في (بلحاف) . والثاني في (بير علي) . ولكلٍ منهما معاهدة مستقلة مع الحكومة البريطانية .

● بعد الاطلاع على هذه المهزلة الاستعمارية . . هل يملك الانسان الا أن يضحك . . ثم يعتبر . . . !

وتنعكس آثار تلك الانشطة البركانية ، ليس فقط علىٰ تكوين طبقات الصخور البركانية والشقوق الغائرة التي اظهرتها تصاوير الأقمار الصناعية مؤخراً ، بل وتنعكس ايضاً علىٰ ماتمخضت عنه تلك الأنشطة البركانية من تكوين مايسمىٰ بـ «النشاطات النارية» في أنحاء مختلفة من هضبة اليمن . . والتي تظهر علىٰ شكل غازات وأبخرة تتصاعد من بعض الجبال المخروطية الشكل ، أو علىٰ شكل مياه ساخنة متدفقة من بعض الينابيع التي صار يستخدمها السكان في الإستحمام والعلاج الطبيعي . . نظراً لاحتواء بعضها علىٰ الكبريت المذاب فيها طبيعياً . . وقد اشتهر من بين هذه الأماكن ماهو موجود في جبل (اللّيسي) الواقع شرقي مدينة (ذَمار)(١) . . وقد تبلغ الحرارة في مياه جبل (الليسي) نحواً من (٥٠) درجة مئوية . . وقد تزيد علىٰ ذلك أحياناً . . .

٥ – **السوابق الزلزالية في اليمن**

إستناداً الىٰ ماقدمناه عن تاريخ التكوين الجيولوجي لليمن . . فلاشك وأن تاريخ السوابق الزلزالية في اليمن يواكب تاريخ ذلك التكوين الجيولوجي . . لذا فليس بوسع الانسان أن يعرف التاريخ الحقيقي لبدء تلك السوابق الزلزالية في اليمن . .

فلما رجفت الأرض بجبال اليمن في منطقة (ذَمار) في الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٨٢ ، وتوالت الهزات الارضية فيها بدرجات متفاوتة خلال الفترة ١٣ – ٣٠ ديسمبر ، وبلغ عددها (١٧٧) هزة ، وأتت علىٰ الكثير من القرىٰ فجعلتها خراباً يباباً ، وقتلت وجرحت وشردت من الناس خلقاً كثيراً . . عندئذ فقط نشط بعض الباحثين اليمنيين المعاصرين في استقصاء الخبر عن السوابق الزلزالية في اليمن ونشروا بعض دراساتهم في الصحف التي تصدر اليوم في (الجمهورية العربية اليمنية) . . وكان في مقدمة الباحثين الدكتور عبدالعزيز المقالح ، مدير جامعة صنعاء ، الذي نشر مقالاً عن زلزال كان قد وقع في منطقة (صعدة) في شمال اليمن خلال شهر يناير من عام ١٩٤١ ، وهو العام الثاني من وجود البعثة العسكرية العراقية في اليمن ، وقد كنتُ يومها أسكن وعائلتي داراً قديمة استأجرتها من السيد عبدالكريم المطهر في محلة (بير شمس) من منطقة (بير العزب) . . فشعرنا في حينه وكأن الدار توشك علىٰ الإنهيار بنا . . فأسرعنا خارجين منها الىٰ ساحة مكشوفة كانت مقابل الدار تماماً . . ثم انتهت الأزمة بسلام . . ولقد نشرت مجلة «الحكمة اليمنية» يومها اخبار زلزال (صعدة) ، الذي امتد أثره الىٰ (صنعاء) ، علىٰ طريقتها (المتوكلية) الخاصة . . وهي طريقة التخاطب مع شعب جاهل لايفقه من أمر دنياه غير الخرافات والأساطير . . !

وكان زلزال (صعدة) هذا قد وقع يوم السبت الثالث عشر من شهر ذي الحجة الحرام عام ١٣٦٠ – أي في اليوم الرابع من عيد الاضحىٰ المبارك .

ونشر الباحث اليمني المعاصر السيد عبدالله الحبشي دراسة غير موسعة عن الزلازل اليمنية في جريدة «الثورة» الصنعانية تحت عنوان «زلازل اليمن في التاريخ» نقتطف منها بايجاز مايلي :–

[«أفرد العلاّمة علي بن أبي بكر العرشاني (المتوفى سنة ٥٥٧ هـ) كتاباً خاصاً في موضوع الزلازل ، ذكر فيه أن أول زلزلة في اليمن تحدثت عنها المراجع الاسلامية وقعت في زمن الخليفة العباسي المأمون سنة ٢١٢ هـ ، وقد امتدت من صنعاء الىٰ عدن وتهدمت فيها المنازل والقرىٰ وهلك خلق لايحصىٰ .

«في سنة ٥٤٩ هـ . وصف المؤرخ علي بن حسن الخزرجي في كتابه (العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك) زلزالاً عظيماً في منطقة (إب) قال إنه في تلك السنة سقط من السماء حجر عظيم بالقرب من بلدة (جِبْلة) فرجفت الارض بأهلها رجفة شديدة امتدت الىٰ عدن فهلك عدد كثير من الناس وانهدم كثير من الحصون والقرىٰ والمساكن . .

«وفي سنة ٨٣٥ هـ . انفجر بركان في جبل بالبحر بين جزيرة (قمران) وجزيرة (وهلك) بالبحر الأحمر وظهرت فيه نار ودخان ، وبعد ذلك بثلاث سنوات (٨٣٨ هـ) ظهرت نار في أخد جبال المنطقة السابقة فكان يُسمع دويها كالرعد القاصف من أمكنة بعيدة . .] . .

وذكر السيد عبدالله الحبشي بيانات مثيرة للإنتباه عن عدد الزلازل التي شهدتها اليمن في القرن الحادي عشر الهجري . . نقتطف منها مايلي :–

---

(١) وهي المدينة التي ذاع صيتها من جديد عندما اجتاحت منطقتها موجات زلزالية عارمة في شهر ديسمبر من عام ١٩٨٢ . وسنأتي بعد قليل الىٰ تفصيل هذا الخبر ان شاء الله .

الخريطة رقم (٢)

[«في سنة ١٠٢٩ هـ . حدثت زلزلة في عموم اليمن كادت تذهب بالأركان (الجبال) استمرت ثلاثة أيام بلياليها . . وانشقت دار المطهر التي في (صعدة) بشمال اليمن وخرب جانب منها وكذلك في المكينة الحمدة والقرىٰ المجاورة . .

«وفي سنة ١٠٣٩ هـ . وقعت زلزلة بصنعاء وماحولها . . وتكرر ذلك في سنة ١٠٥٦ .

«وفي سنة ١٠٨٥ هـ . شهدت مدينة (ضوران) القريبة من مدينة (ذَمار) حوالي ثلاثين زلزلة كما تقول المراجع التاريخية . . ثم مرت المدينة بكارثة مماثلة في العام التالي حتىٰ تناثرت الصخور من جبل (ضوران) وامتدت الىٰ صنعاء . .»] . .

واستناداً الىٰ هذه المجموعة الصغيرة من الأخبار عن الزلازل في اليمن يتضح لنا أن هضبة اليمن المكتضة بالجبال البركانية لها تاريخ عريق بالسوابق الزلزالية يسبق تاريخ (عاد) و (ثمود) و (معين) و (سبأ) و (حِمْيَر) . . . . وأن المنطقتين (صعدة) ، في شمال الهضبة ، و (ذَمار) ، في وسط الهضبة ، هما اكثر المناطق الأخرىٰ صلة بالسوابق الزلزالية في اليمن . . ثم جاءت زلازل ديسمبر ١٩٨٢ لتضع منطقة (ذَمار) في المقدمة وقد أصابها من الخراب والدمار الشيءُ الكثير . . . !

• ونحن نسأل الباحثين في تاريخ السوابق الزلزالية باليمن إن كانوا يستطيعون الكشف عن زلازل يمنية يعود تاريخ وقوعها الىٰ ماقبل القرن السادس الهجري والسادس الميلادي . . . ! ولولا العلاّمة علي بن أبي بكر العرْشاني (ت – ٥٥٧ هـ) . . لتعذر علىٰ الباحثين المعاصرين أن يعرفوا شيئاً عن السوابق الزلزالية في تاريخ اليمن الحديث فضلاً عن تاريخها القديم . . . !

٦ – التكوين الجغرافي لليمن

لأول نظرة علىٰ خريطة اليمن الطبيعية يحسب الانسان أن اليمن هو امتداد لجبال الحجاز وعسير . . ومع ذلك فهناك بعض الفوارق . . منها أن (٨٠٪) من أرض اليمن يقع علىٰ مرتفع صخري بركاني كبير يعلو بقية مناطق شبه الجزيرة العربية . . فعلىٰ هذا المرتفع الصخري نجد أعلىٰ جبال جزيرة العرب حيث ترتفع قمة جبل (النبي شعيب) في شمال غرب اليمن الىٰ (٣٧٢٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر . . كما أن هناك أحواضاً جبلية (Mountainous — Basins) في المرتفعات المركزية (Central — highland) يزيد ارتفاعها عن (٢٠٠٠) ألفي متر عن مستوىٰ سطح البحر ومحاطة بالجبال . . وفيها أخصب تربة زراعية . . مما ساعد علىٰ استيطان سكاني واسع . . وإن العاصمة (صنعاء) نفسها تقع في داخل أحد هذه الاحواض الجبلية علىٰ ارتفاع (٢٣٥٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر . . وإن مجموع هذه الأحواض الجبلية يشكل السطح الجنوبي المرتفع بالنسبة لشبه الجزيرة العربية . .

لقد اصطُلح علىٰ أجزاء هذا السطح بالأحواض الجبلية ويُقصد بذلك المرتفعات المسطحة المحاطة بالجبال . . وأهل اليمن يسمونها بـ (القيعان) جَمْع (قاع) ، وغيرهم يسميها بالسهول . . والمعنىٰ واحد تقريباً . . ويطلق اهل اليمن إسم (القاع) علىٰ كل سهل أو منبسط واسع من الارض تحيط به الجبال . . وتكون التسمية منسوبة الىٰ اكبر وأهم المدن الواقعة في كل (قاع) ، فيقولون : قاع صنعاء ، قاع عمران ، قاع البون . . الخ . . وكلها تصلح لاقامة مشاريع زراعية ضخمة عند توفر المياه .

وسطح اليمن بوجه عام له اتجاهان رئيسيان : الأول نحو الشرق ابتداءً من الساحل الشرقي للبحر الأحمر وانتهاءً بالمنحدرات الشرقية نحو الربع الخالي . . ، أما الاتجاه الثاني فهو نحو الشمال ابتداءً من خليج عدن وانتهاء بالحدود اليمنية السعودية . . ويمكن تقسيم هذا السطح الجغرافي الىٰ عدة مناطق جغرافية متميزة عن بعضها البعض كمايلي :–

١ – المنطقة الساحلية علىٰ البحر الأحمر (وبضمنها جزر البحر) The Coastal Strip along The Red Sea .

يتراوح عرض هذه المنطقة مابين (٤٠ – ٨٠) كيلومتراً . . وهي ارض ساحلية تمتد بطول (٥٠٠) كيلومتر علىٰ طوار الساحل الشرقي للبحر الاحمر ابتداءً من تخوم مضيق باب المندب جنوباً وامتداداً الىٰ الحدود اليمنية – السعودية شمالاً . . ويُطلق علىٰ السهل الغربي منها إسم (تهامة) بسبب انخفاضه وحرارة طقسه في الصيف . . وطبيعة الارض هنا رملية بوجه عام . . فالقريب منها الىٰ ساحل البحر تكثر فيه الاماكن السبخة بفعل مياه البحر التي تتسرب اليها جوفياً . . أما البعيدة منها عن ساحل البحرفتكثر فيها الكثبان الرملية . . وكلما توغلنا نحو الشرق تضاءلت الكثبان الرملية وحل محلها الطمي الذي تاتي به سيول الامطار فيستقر عند مخارج الأودية المتجهة غرباً نحو البحر الأحمر . . ويتميز القسم الجنوبي من السهل الساحلي بضيق مساحته وتغير تربته الىٰ حصوية تزداد فيها نسبة الملوحة فيما عدا الوديان التي تحمل الطمي من الجبال الداخلية . . ويبلغ معدل ارتفاع الارض في الأقسام الشرقية من هذه المنطقة الساحلية حوالي (٢٠٠) مائتي متر عن مستوىٰ سطح البحر .

أما الجزر التابعة لهذه المنطقة الساحلية فهي : (انظر الخريطة رقم – ٢ – صفحة ٢٦) .

١ . جزيرة (قران) مقابل بلدة (الزيدية) شمالي (الصليف) ، يبلغ طولها حوالي (٢٠) عشرين كيلومتراً ، وتبلغ مساحتها (١٨٠) كيلومتراً مربعاً ، وعدد سكانها (٣٠٠٠) ثلاثة الآف نسمة .

٢ . جزر (الزبير) مقابل رأس عيسىٰ جنوب غرب الصليف .

٣ . جزر (زقر) و (الحنيش الكبير) و (الحنيش الصغير) مقابل بلدة (الخوخة) . . وهي جزر غير مأهولة .

٤ . وهناك جزر عديدة اخرىٰ تبالة الساحل اليمني ليست بذات أهمية تذكر . .

٢ – المنطقة الجبلية الغربية – The Western Mountains

وتشمل نسبة كبيرة من جبال (السراة) التي تمتد من (عدن) جنوباً والىٰ الحجاز شمالاً . وتتميز بشدة الانحدارات المطلة علىٰ المنطقة الساحلية (تهامة) . . وتنقسم هذه المنطقة الىٰ قسمين :–

١ . الجبال الغربية : وهي السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب الىٰ الشمال علىٰ طوار المنطقة الساحلية (تهامة) مباشرة وتتراوح ارتفاعاتها مابين (٨٠٠ – ٣٧٢٠) متراً فوق مستوىٰ سطح البحر . وسفوحها شديدة الوعورة والانحدار . . ويبلغ معدل عرض هذه المنطقة مابين (٩٠ – ١٠٠) كيلومتر من الغرب الىٰ الشرق . . ويتخللها عدد كبير من الأودية العميقة التي تندفع فيها سيول الامطار الغزيرة باتجاه الغرب مخترقة المنطقة الساحلية حتىٰ تنتهي الىٰ البحر الأحمر . . وسنأتي بعد حين الىٰ ذكر أسماء هذه الأودية بالتفصيل . . وقد تتسع بطون ومخارج هذه الوديان وتمتلئ برواسب الطمي فتشكل أخصب الاراضي للزراعة وتربية الحيوانات . . أما الأماكن الضيقة منها وذات الانحدار الشديد فلا تتشكل فيها تربة تصلح للزراعة لأن سرعة تدفق السيول منها لاتترك شيئاً من الطمي المحمول من المرتفعات الجبلية .

إن هذه المنطقة الجبلية الغربية تصلح لاقامة العديد من السدود المهمة لحجز مياه الامطار . . وعلىٰ سفوح هذه الجبال ووديانها تكثر المدّرجات الزراعية التي تشتهر بها اليمن كما سنأتي الىٰ ذكرها بعد حين .

٢ . الجبال الداخلية : وهذه تقع مباشرة الىٰ شرق الجبال الغربية . . فتطل علىٰ منطقة الهضبة الداخلية بينما تطل الجبال الغربية ، كما أسلفنا ، علىٰ المنطقة الساحلية (تهامة) . والواقع أن الجبال الداخلية تتفرع أصلاً من الجبال الغربية إلا أن الجبال الداخلية تتميز بكونها غير مترابطة مثل الجبال الغربية وأقل وعورة منها . . ولاتأخذ شكلاً منتظماً في مواقعها . . فكأنها قد انتثرت انتثاراً كما تنتثر حبات عِقْدٍ انقطع خيطه علىٰ حين غرّة . . ! وقد تجتمع في مناطق معينة لتحيط بمسطّحات فسيحة من الارض فتشكل حوضاً جبلياً جاهزاً للإستيطان السكاني كما اوضحنا ذلك في مستهل البحث .

ويتراوح عرض هذه المنطقة مابين (١٠٠ – ١٥٠) كيلومتراً من الغرب الىٰ الشرق . ويطلق عليها إسم سطح اليمن نظراً لكثرة مسطّحاتها الارضية المرتفعة . . وتتميز هذه المنطقة بعدم وجود وديان عميقة تفصل بين جبالها ، بل تكثر فيها المياه الجوفية والآبار . .

٣ . منطقة الهضبة الداخلية : تقع شرقي الجبال الداخلية وفي ضمنها أحياناً وتتخللها أودية تجري فيها مياه الامطار المتساقطة علىٰ الجبال الداخلية . . وتتراوح ارتفاعاتها مابين (١١٠٠ – ٢٠٠٠) متراً فوق مستوىٰ سطح البحر وتنتهي شرقاً الىٰ رمال الربع الخالي . .

٤ . المنطقة الشرقية : تقع مابين الهضبة الداخلية والحدود الغربية لصحراء الربع الخالي ، وهي مزيج من الهضاب والكثبان الرملية . . وتتراوح ارتفاعاتها مابين (٧٠٠ – ١٠٠٠) متراً فوق مستوىٰ سطح البحر .

والواقع أن مرتفعات اليمن هضاباً وجبالاً هي امتداد لسلسلة جبال السراة الممتدة شمالاً الىٰ الحجاز . . غير أن الغطاء البركاني الواسع أعطاها شكل الهضبة المرتفعة بحيث اصبحت من أعلىٰ جهات شبه الجزيرة العربية وتحتوي علىٰ الكثير من التشكيلات المخروطية البركانية . .

إن هذه الصورة العامة التي ترسمها لنا معظم المراجع الجغرافية عن التكوين الجغرافي لليمن ليس من السهل إدراكها لأول وهلة على صفحات الكتب مالم يكن القارئ قد وصل الىٰ اليمن ثلاث مرات علىٰ الأقل : الاولىٰ عن طريق البحر الأحمر

نهاراً ، والثانية عن طريق الجو نهاراً أيضاً ، والثالثة عن طريق القوافل والسيارات نهاراً أيضاً ثم تجوّل في المناطق الخمسة تجوالاً استطلاعياً مع تيسر الإمكانيات اللازمة لمثل هذا التجوال . .

فنحن ضباط البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن عندما سافرنا الىٰ اليمن عام (١٩٤٠) لم يكن هناك قطر عربي واحد يعرف الخطوط الجوية المدنية للسفريات . . لذلك سافرنا من بغداد الىٰ دمشق الىٰ بيروت الىٰ حيفا بالسيارات ، ومن حيفا الىٰ بورت سعيد في مصر بالقطار ، ومن بورت سعيد الى عدن بالباخرة بعيداً عن الساحلين العربي والافريقي فلم ندر متىٰ مررنا بالساحل السعودي ولا الساحل اليمني . . ثم سافرنا من عدن الىٰ (تعز) الىٰ (الحُديدة) الىٰ (صنعاء) بالسيارات علىٰ طريق شديدة الوعورة . . كثيرة الخطورة . . ومرهقة غاية الإرهاق . . فلما وصلنا الىٰ (صنعاء) كانت السيارات الجديدة التي ركبناها من (عدن) الىٰ (صنعاء) قد فقدت اكثر من نصف عمرها الفني من جراء وعورة الطرق البدائية . . !

وكل ما استطعنا تصوّره من طبيعة التركيبة الجغرافية لليمن خلال تلك السفرة الشاقة هو أننا مررنا بأراضي ساحلية بين عدن وسلطنة لحج ثم أخذت الارض تتموج وترتفع تدريجياً حتىٰ الحدود اليمنية الجنوبية . . ثم أخذنا بالتصعيد في ارض جبلية حتىٰ وصلنا الىٰ (تعز) المعلقة علىٰ سفحٍ من جبل (صَبْر) . . وعندما توجهنا من (تعز) الىٰ (الحُديدة) أخذنا بالانحدار تدريجياً الىٰ اراضي متموجة انتهت الىٰ أرض براح هي ارض (تهامة) . . وعند نهايتها الغربية التقينا بالبحر الأحمر في ميناء (الحديدة) . . فلما غادرنا هذه البلدة سرنا شمالاً علىٰ طوار ساحل البحر الاحمر لمدة ثلاث ساعات تقريباً ثم انحرف مسيرنا نحو الشرق حتىٰ وصلنا الىٰ بلدة (عُبال) وهي من مدن تهامة والتي تعتبر مفتاح السفوح الغربية . . وصارت الارض ترتفع بنا تدريجياً الىٰ (مدينة العبيد) الموبوءة منطقتها بالملاريا الخبيثة فلم نتوقف عندها . . وهنا بدأ التسلق الحقيقي نحو الهضبة تسلقاً شاقاً خطراً لايمكن وصفه بالكلمات . . ولايمكن تصوير حقيقته إلا بالاشرطة السينمائية . . فلما استوينا علىٰ سطح الهضبة بعد ثلاثة أيام من المعاناة الشديدة رأينا الهضبة نفسها محاطة بسلاسل ومجموعات غير منتظمة من الجبال الشامخة . . . !

وخلاصة الصورة عندي – إن كنتُ مصيباً – هي أن اليمن عبارة عن هضبة عظيمة ترتفع بمعدل (٢٣٥٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر وتحتضنها مجاميع عظيمة من العُقد والسلاسل الجبلية تتميز سفوحها الغربية بشدة الانحدار والوعورة نحو ارض تهامة والبحر الاحمر ، كما تتميز سفوحها الشرقية بمختلف درجات الانحدار شرقاً نحو شطرٍ من الربع الخالي ومعظم المحميات الشمالية الشرقية الخاضعة لعدن ، وليست هناك سفوح شمالية ولاجنوبية لأن سلسلة جبال (السراة) الأم إنما تمتد من جنوب اليمن علىٰ تشكيلات متنوعة حتىٰ مشارف (العقبة) في شمال البحر الاحمر . . . !

ولعل اجتهادي الشخصي في تقديم الشكل الطوبوغرافي بعد هذه الصفحة يساعد القارئ علىٰ تصوّرٍ أوضح لطبيعة التركيبة الجغرافية لليمن . . .

ولدينا شخصان ممن شاهدوا تضاريس سطح اليمن من الطائرة ننقل فيما يلي وصف كلٍ منهما لتلك التضاريس لكي يتسنىٰ للمرء أن يقارن بينها وبين الصورة التي يراها المستطلع علىٰ الأرض . .

الصورة الأولىٰ : تاريخها – عام ١٩٥١

صاحبتها – طبيبة فرنسية ذهبت للعمل في اليمن . . وقد نلتقي معها في بعض الفصول القادمة . . قالت الراوية ، وهي تحوّم بالطائرة فوق السهل الساحلي لليمن :–

[« . . .وتهامة ليست واسعة ، فعرضها بين (٣٠ – ٥٠) كيلومتراً تقريباً[1] . .

«لم نجد اختلافاً كبيراً بين جبال اليمن ومرتفعات الحبشة في (أسمرة) وضواحيها في الجانب الآخر للبحر الأحمر . . فهي مرتفعات داكنة تقطعها وديان يرىٰ الانسان فيها ممرات رملية صفراء حفرتها السيول تسير بين الحقول الزراعية المنتشرة ثم تصبح هذه المرتفعات اكثر وضوحاً . .

(١) اختلف الرواة في مقدار عرض السهل الساحلي لليمن . . وذلك بسبب اختلاف المفهوم الجغرافي لهذا السهل عند كلٍ منهم . فالذين يقصدون السهل الرملي لتهامة فانهم يقدرون عرضه مابين (٣٠ – ٥٠ – ٦٠) كيلومتراً . أما الذين يقصدون السهل الساحلي كله مابين البحر وبداية المرتفعات الجبلية الغربية فانهم يقدرون عرضه مابين (٤٠ – ٨٠) كيلومتراً .

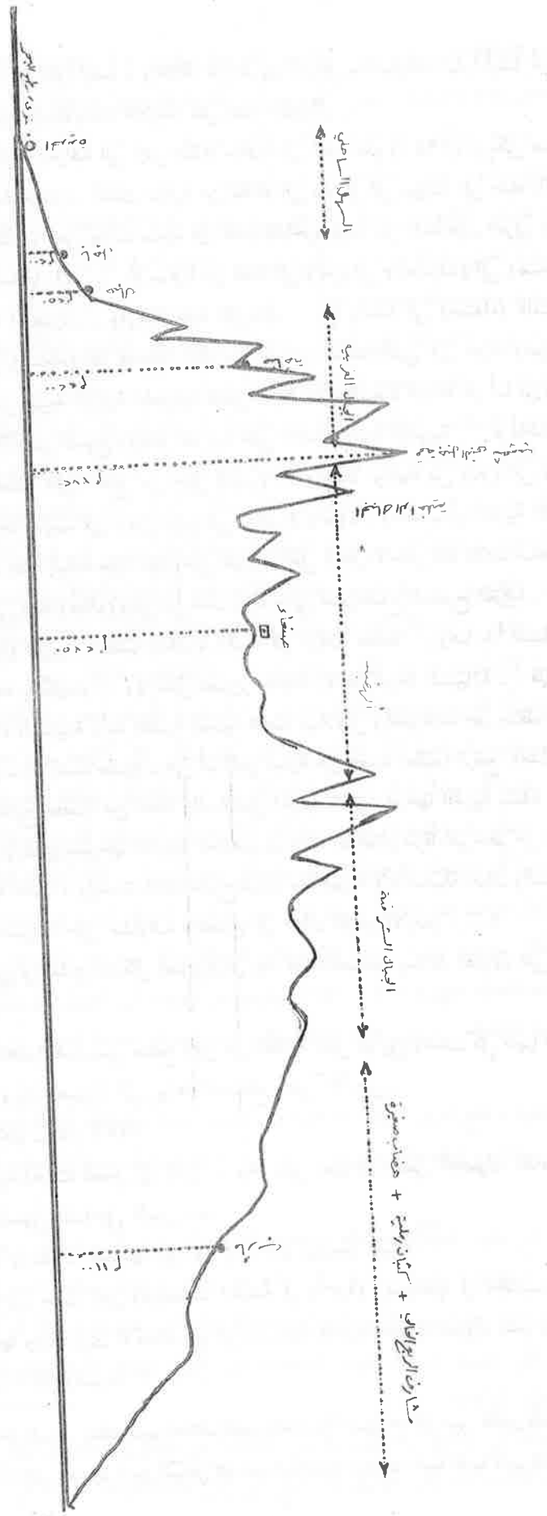

خطط رقم (١)

خطط تصوّري لقطع عمودي عرضاني للتركيبة الجغرافية لليمن على خط وهمي يمتد مابين (الحديدة – صنعاء – مأرب).

«وكانت طائرتنا تسير فوق وديان تحيط بها الجبال ، وعلىٰ المنحدرات يشاهد الانسان المدّرجات[1] الزراعية الخاصة بجبال جنوب الجزيرة العربية ، ففي قمم الجبال مساحات ضيقة من الارض ، وتحتها مدرّجات اكثر اتساعاً .. ولقد استطعت أن احصي اكثر من خمسة عشر مدرجاً بعضها فوق بعض تمتد أفقياً في مساحات واسعة .. وكل هذا ليس من عمل الطبيعة ، بل إنه نتيجة جهود قديمة وبهذه الطريقة حافظ اليمنيون الجبليون علىٰ أراضيهم فوق مرتفعات تهطل عليها أمطار غزيرة ، وعرفوا كيف يروونها بانتظام من الخزانات والقنوات .

«والمدرجات الزراعية الخضراء تلتف حول قمم الجبال كخطوط تحيط بخارطة ضخمة .. وتتعلق البيوت هنا وهناك في أعالي الجبال منفردة ومجتمعة مكونةً قرى صغيرة .... الخ»] . انتهىٰ

ونحن لانعتقد بان هذه الرواية قد أعطت اية صورة حقيقية عن التركيبة الجغرافية لليمن ، ومع ذلك فقد أعطتنا صورة لظاهرة جغرافية خاصة تتعلق بأساليب الزراعة في اليمن سنأتي الىٰ تفصيلها بعد حين . . .

الصورة الثانية : تاريخها – عام ١٩٦٥

صاحبها – كامل زهيري ، رئيس تحرير مجلة الهلال المصرية ، كان قد سافر الىٰ اليمن في مهمة صحفية اثناء وجود الجيش المصري في اليمن (١٩٦٢ – ١٩٦٧) . . . ومكث هناك أثنىٰ عشر يوماً ثم عاد الىٰ القاهرة فنشر مقالاً في (الهلال) بعنوان «١٢ يوماً في اليمن» ، العدد (٩) ، السنة (٧٣) اول سبتمبر ١٩٦٥ – ٥/جمادى الاولىٰ/١٣٨٥ هـ . نوجز منه الآتي :–

[« . . . . ذهبتُ الىٰ اليمن في الفجر ، وعدت منها في الفجر ايضاً . . واستطعت بذلك أن أرىٰ سلاسل الجبال ، وأعماق البحار وبطون الصحراوات كما لم أرها في حياتي من قبل . وفي طريق العودة عدت من طريق مطار الحديدة . . ومررنا على البحر الأحمر فوجدنا أن سلاسل الجبال في اليمن تكاد تتصل بسلاسل الجبال في غرب البحر الاحمر ، وأن البحر هو مجرد أخدود يفصل بين تلك السلاسل اليمنية وتلك السلاسل الافريقية . . غير أن فارقاً كبيراً تلاحظه في نوع الجبال هنا وهناك . . لأن جبال اليمن عالية عاتية عاصية تتوسط ارض اليمن ، ثم تنحدر ديواناً الىٰ الغرب فتكاد تنتهي بالبحر الاحمر . . والىٰ الشرق والشمال الشرقي حتىٰ تكاد تنتهي بالربع الخالي . . والجبال في اليمن تصل الىٰ ارتفاع (٥٠٠٠و) قدم[2] . . ولعلك تحسّ بهذا الارتفاع بمجرد وصولك اليها ، ضربات وخفقات في صدرك من ضيق التنفس إن لم تكن قد تعودت من قبل علىٰ حياة الجبال . . وقال لي صديق في الطائرة : إن ماتراه تحتك يثبت ان البحر الاحمر ليس سوىٰ اخدود شقته البراكين ففصل بين سلاسل الجبال اليمنية وسلاسل جبال الصحراء الشرقية الافريقية . .

«وكانت الطائرة تقطع الجو وسلاسل الجبال لاتنتهي ، وقد بدأ لون جبال اليمن الاسود الداكن يختفي ، ثم بدا اللون الأصفر والجيري والاحمر يختلط كأنها امواج من الصخر تلتقي بأمواج اخرىٰ من الصخور ! واللون يقل جفوةً وغلظة ، ويزداد رقةً نسبية ، وهوادةً في الارتفاع واتزاناً في الانحدار ، واذا بسلسلة من الجبال لاترىٰ مثيلاً لها في جمالها الأخاذ . . لانها تشبه تماماً ورقة الشجر الجافة بعروقها الممتدة المنفصلة ، وقد امتدت هذه العروق وديواناً وانفصلت طرقاً ، لاشك أن السيول والامطار تُسير فيها الطبيعة وتنقشها نقشاً فريداً «] انتهىٰ .

إن المتتبع لهذا الوصف لابد وأنه سيدرك كيف انتقلت الطائرة من سلاسل الجبال الشاهقة غربي اليمن الىٰ وسط الهضبة اليمنية حيث اعتدلت طبيعة الجبال واشكالها وارتفاعاتها . . .

وبقيت هناك حقيقة واحدة هي أنه مالم يكن راكب الطائرة عالماً جغرافياً أو ضابطاً عسكرياً متخصصاً . . فقد يستحيل تقديم وصف جغرافي دقيق وصحيح للتركيبة الجبلية في أية منطقة جبلية من العالم . . وربما انفردت جبال اليمن بخصائص مميزة عن بقية الجبال الأخرىٰ . . .

٧ – جبال اليمن

تتميز جبال اليمن بارتفاعاتها الشاهقة التي تبلغ أحياناً (٣٧٢٠ – ٣٧٦٠) متراً ، أي حوالي (١٠٠٠ر١٠ – ١٠٠٠ر١٢) قدم عن مستوىٰ

(١) هذه المدرّجات الزراعية تشبه الى حدّ ما «الجنائن المعلقة» في (بابل) القديمة وسنأتي الى تفصيل الكلام عنها بعد حين . (أنظر الشكل رقم -١٠ ص ٤٠)

(٢) بل الى مايزيد على (١٠٠٠ر١٠) عشرة آلاف قدم .

سطح البحر . . كما تتميز بشدة انحداراتها ووعورة مسالكها التي تنعكس على صعوبة المواصلات وشق الطرق وتعبيدها علىٰ مقياس واسع يؤمّن ربط المدن المهمة بالأقاليم والأرياف حيث تكون جميع القرىٰ معلّقةً في أعالي الجبال لأسباب عديدة سنأتي الىٰ ذكرها بعد حين . .

إن العمود الفقري لجبال اليمن يتمثل بسلسلة جبال (السُّراة) التي تمتد من شرق مضيق باب المندب الىٰ أقصىٰ شمال الحجاز عند مشارف العقبة . . ويبلغ عرضها الإجمالي من الغرب الىٰ الشرق مابين (٨٠ ـ ١٠٠) كيلو متر . . وتتخلل هذه الجبال الهضاب المرتفعة والوديان الكثيرة . . ونذكر فيما يلي عدداً من أهم [1] جبال اليمن كما رأينا بعضها وسمعنا عن البعض الآخر اثناء إقامتنا في اليمن (١٩٤٠ ـ ١٩٤٣) وما قرأنا عنه بعد ذلك :ـ

١ً . جبل النبي شعيب : يقع في الشمال الغربي من اليمن . . وهو أعلىٰ جبالها إذ يبلغ ارتفاعه حوالي (٣٧٦٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر . .

٢ً . جبل شبام : يقع في الشمال الغربي من (صنعاء) ، ويبلغ ارتفاعه حوالي (٢٩٥٢) متراً عن مستوىٰ سطح البحر .

٣ً . جبل ضوران : يقع بالقرب من مدينة (ذمّار) وعلىٰ بُعد (٩٦) كيلو متراً الىٰ الجنوب من (صنعاء) . . ويبلغ ارتفاعه حوالي (٣١٠٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر . .

وهو من الجبال المشهورة بسوابقها الزلزالية كما نوهنا عنه آنفاً . . .

٤ً . جبل حَيْد عيسىٰ : يقع الىٰ الجنوب الشرقي من (ذمّار) بحوالي (٤٠) كيلو متراً . . ويبلغ ارتفاعه (٣٠٩٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر .

٥ً . جبل سمارة : البالغ ارتفاعه (٣٠٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر ، ويقع في منطقة (يريم) . مابين (إب) و (يريم) .

٦ً . جبل شهارة : يقع في منتصف المسافة مابين (صنعاء) و (صعدة) في شمال اليمن ، ويشكل أحد المعاقل الجبلية المستعصية في اليمن . . وكان اليمنيون قد استعصموا في هذه المعاقل إبان حروبهم الطويلة مع الجيوش العثمانية قبل الحرب العالمية الاولىٰ (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . .

٧ً . جبل الأهنوم : وهو الجبل الذي كان قد هاجر اليه (الفتىٰ يحيىٰ حميد الدين) بصحبة والده الإمام المنصور سنة (١٣٠٧ هـ) حيث اكمل دراساته الدينية المتقدمة علىٰ يد القاضي عبد الله بن احمد المجاهد الذماري . . ، وجبل الأهنوم هذا يجاور جبل شهارة .

٨ً . جبل اللّيسي : يقع الىٰ الشرق من (ذمّار) . . وهو ايضاً من أصحاب السوابق الزلزالية والبركانية المدمرة . . والشاهد على ذلك ينابيعه الكبريتية الساخنة . . .

٩ً . جبال خولان :

١٠ً . جبال آنس :

ونستعمل هنا كلمة (جبال) بصيغة الجمع للدلالة علىٰ مدىٰ تداخل هذه الجبال بعضها مع بعض في هاتين المنطقتين بسبب عدم انتظام تكوينها الطبيعي كما اشرنا الىٰ ذلك آنفاً . وهذا الشيء نفسه ينطبق على العديد من الجبال الاخرىٰ في اليمن . . وتقع جبال (خولان) و (آنس) في المنطقة الشرقية من هضبة اليمن . .

١١ً . جبل صرواح : يقع عند (صرواح) مابين (صنعاء) و (مأرب) .

١٢ً . جبل صرير : يقع عند مدينة (قعطبة) في الجنوب الشرقي من اليمن . .

١٣ً . جبل صَبِرْ : يقع عند مدينة (تعز) في جنوب اليمن ، ويبلغ ارتفاعه نحواً من (٣٠٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر . .

١٤ً . جبل نُقُم : يقع شرقي العاصمة (صنعاء) وملاصقاً لها . . فكأن هذه المدينة العريقة قد برزت من بين قدمَيْ هذا الجبل الأسود

(١) شيئان في جغرافية اليمن لايدخلان تحت حصرٍ ولاعدد : الجبال والوديان . . ويليهما في ذلك أسماء القرىٰ والقبائل . .

الأجرد الذي يهيمن عليها من ارتفاع لايقل عن ثلاثة الآف قدم بالنسبة لمستوىٰ سطح البحر . . علماً بأن (صنعاء) نفسها ترتفع عن سطح البحر (٢٣٥٠) متراً .

١٥ً . جبل عُصُر : يقع غربي العاصمة (صنعاء) ويبعد عنها بضع كيلو مترات .

١٦ً . جبل حراز : يقع في أوسط غرب اليمن عند (مناخة) ولايقل ارتفاعه عن ثلاثة الآف متر عن مستوىٰ سطح البحر . .

٨ – وديان اليمن

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالىٰ أن لايكون هناك نهر واحد في جميع أرجاء اليمن . . ولكن نفس هذه الإرادة السماوية عوّضت هذا البلد الجبلي البركاني بشبكة هائلة من الوديان الكبيرة ذات الفروع الكثيرة التي تنساب فيها مياه الأمطار الموسمية طوال أيام السنة تقريباً شريطة عدم انقطاع أو احتباس هذه الامطار لاكثر من موسم . .

وكما ان جبال اليمن تميزت بالارتفاع والانحدار . . كذلك تميزت وديان اليمن بالأعماق الكبيرة والإنحدارات الشديدة . . وهذا أيضاً مما انعكست آثاره على عمليات شقّ طرق المواصلات وتعبيدها علىٰ أوسع مقياس . . . وتلك معضلة لايدرك أبعادها غير المهندسين المختصين بأعمال الطرق والجسور والأنفاق . . ونعدد فيما يلي أهم وديان اليمن الكبيرة والمشهورة جداً :ـ

أ ـ **الوديان الغربية** (أنظر الخريطة رقم ـ ١ ـ) .

وهي الوديان التي تنحدر من جبال الهضبة غرباً حتىٰ تكاد تنتهي الى البحر الأحمر . . ونبدأ بها من الشمال :

١ً . وادي حَرَض : يقع جنوبي بلدة (حرض) . . ومصبّه شمالي بلدة (ميدي) الساحلية .

٢ً . وادي مَوْر : وهو من اكبر وديان اليمن تقريباً ، ويسمىٰ بـ (ميزاب اليمن الغربي) ، وينحدر من جبال الهضبة الشمالية مابين (صعدة) و (عمران) حيث تجتمع اليه عدة فروع هابطة من جبال (عمران) و (شهارة) . . ويكون اتجاه مجراه العام من الشمال والشمال الشرقي الىٰ الجنوب الغربي ثم ينتهي الىٰ البحر الاحمر شمالي بلدة (اللّحية) . . وإن معظم فروع هذا الوادي تنساب فيها المياه طوال أيام السنة عند عدم انحباس الأمطار . .

٣ً . وادي سُرْدُد : وهو يتألف من عدة فروع تنحدر من جبال (كوكبان) ، وبعضها ينحدر من جبال (حَضور) و (حراز) . . ويكون اتجاه مجراه العام من الشرق الىٰ الغرب حتىٰ ينتهي الىٰ البحر الأحمر جنوبي (الصليف) . .

٤ً . وادي سُهام : ينحدر من جبال (خولان) و (آنس) . . ويمر من جنوبي جبال (حراز) ثم ينتهي الىٰ البحر الأحمر جنوبي (الحُديدة) . .

٥ً . وادي ريمة ـ أو رماع : ينحدر من جبال (آنس) ويمر بجبل (ريمة) في مناطق زراعية خصبة ، ثم ينتهي الىٰ البحر الاحمر في شمال غربي مدينة (زبيد) . .

٦ً . وادي زبيد : ينحدر من الجبال الواقعة غربي منطقة (يريم) فيمر بمناطق في غاية الخصوبة الزراعية ثم ينتهي الىٰ البحر الاحمر غربي مدينة (زبيد) . .

٧ً . وادي نخلة : ينحدر من جبال (عُدَين) وينتهي بالقرب من المدينة الساحلية (الخوخة) . .

٨ً . وادي رسيان : ينحدر من شمال غربي (تعز) وينتهي عند بلدة (موشج) الساحلية .

٩ً . وادي موزع : ينحدر من مرتفعات (تربة) وينتهي عند ميناء (المخا) علىٰ البحر الأحمر . .

ب ـ **الوديان الشرقية**

١٠ً . وادي أملا : ينحدر من الجبال الواقعة شرقي (صعدة) ويتجه شرقاً ليضيع في شبه صحراء .

١١ً . وادي خُبّ : ينحدر من جبال (برط) شمال شرق اليمن ويتجه شرقاً الى رمال الصحراء . .

١٢ً . وادي عوبان : كـــذا . . .

١٣ً . وادي الجوف : ينحدر من جبال (أرحب) باتجاه الشرق حتىٰ ينتهي في أواسط (الجوف) . . وهو دائم الجريان ، ويبلغ معدل عمق الماء فيه حوالي (٨٠ سم) سنتمتراً وبعرض متر واحد أو يزيد . .

١٤ً . وادي خارد : يعتبره البعض تابعاً لوادي الجوف . .

١٥ . وادي أُذُنة : أو وادي مأرب : ويسمىٰ بـ (ميزاب اليمن الشرقي) ، ينحدر من جبال (اللّسي) نحو الشمال الشرقي فيمر بمأرب . . ثم ينتهي الىٰ الربع الخالي . .

١٦ . وادي سنحان : ينحدر من جنوب (صنعاء) نحو الجنوب الشرقي ليشكل فرعاً مهماً من فروع وادي (أذنه) . .

١٧ . وادي حريب : ينحدر من جبال (رداع) باتجاه الشمال الشرقي فيمر ببلدة (حريب) ثم ينتهي الىٰ رمال الصحراء .

جـ ـ الوديان الجنوبية

١٨ . وادي بنا أو أبيَن : تنحدر فروعه الكبرىٰ من جنوبي (رداع) ومن (السوادية) و (دمت) ثم تجتمع في مجرىٰ واحد كبير يتشكل الى الشرق من بلدة (قعطبة) اليمنية ثم ينحدر جنوباً عبر الحدود اليمنية الجنوبية مخترقاً المحميات الشرقية التابعة لعدن ثم ينتهي عند المدينة الساحلية (زنجبار) عاصمة سلطنة الفضلي . .

١٩ . وادي تبان : أو توبن : تنحدر فروعه من جبال (إب) و (قعطبة) و (الحشاء) و (صَبِر) ثم تجتمع على مسافة تقرب من عشرين كيلو متراً شمالي (لحج) لتنتهي أخيراً الىٰ خليج (عدن) . .

٢٠ . وادي مقاطرة : ينحدر من مرتفعات (تربة) جنوبي (تعز) ويتجه جنوباً الىٰ خليج (عدن) أيضاً .

٩ ـ مناخ اليمن

يخضع مناخ اليمن الى ثلاثة عوامل جغرافية رئيسية هي :

١ . إختلاف تضاريس الارض .

٢ . نوعية الرياح التي تهب على سطح اليمن .

٣ . كون المنطقة الشرقية من اليمن تحادد صحراء الربع الخالي .

ويمكن اعتبار هضبة اليمن كلها من المناطق المعتدلة في مناخها طوال أيام السنة . . فدرجات الحرارة فيها تتراوح مابين (١٥°) الىٰ (٣٠°) درجة مئوية . . وجميع مناطق الهضبة تتميز بالخصوبة الزراعية . . وقد تنخفض درجات الحرارة في مناطق الهضبة شتاءً طوال الليل الىٰ (٣° ـ ١٠°) درجة مئوية تحت الصفر . . ولكنها سرعان ماتأخذ بالارتفاع بعد شروق الشمس وارتفاعها في الأفق فتكون عندئذ في حدود (١٥° ـ ٢٠°) درجة مئوية . . وتتميز بهذا النوع من المناخ معظم المدن المنتشرة في الهضبة . . سيما القسم الاوسط والقسم الشمالي منها . .

ورغم الارتفاعات الشاهقة لجبال اليمن وكثافة السُحب التي تنساق اليها من ثلاثة بحار (الهندي والعربي والأحمر) فلا تتساقط الثلوج علىٰ جبال اليمن نظراً لجفاف الهواء . . إلا أن هذا لايمنع من تَجَمّد المياه المعرضة للهواء الخارجي ليلاً . . كما ويتساقط البَرد ايضاً من حين الىٰ آخر . .

وبينما يتميز المناخ في الهضبة بالجفاف نرىٰ معدل درجات الرطوبة في الأغوار تتراوح مابين (٩٠ ـ ٩٥) في موسم الأمطار . . وفي مثل هذا المناخ المعتدل لايحتاج الناس إطلاقاً الىٰ تغيير ملابسهم عند تَغَيّر الفصول الاربعة . . بل بامكانهم الاكتفاء بنوع واحد من الملابس الربيعية أو الخريفية . . !

أما في مناطق الأغوار ـ أي السهل الساحلي الغربي (تهامة اليمن) ـ الممتدة على طوار البحر الأحمر والتي يبلغ عرضها نحواً من (٤٠ ـ ٨٠) كيلو متراً فيكون المناخ فيها شبيهاً بالمناخ المداري . . فالارض قاحلة محترقة بلهب الشمس والطقس فيها حار جداً في أشهر الصيف حيث تبلغ درجة الحرارة نهاراً (٤٤°) أو (٤٦°) درجة مئوية . . أما شتاءً فقلما تهبط درجات الحرارة فيها الىٰ أدنىٰ من (١٥°) درجة مئوية . . ويندر أن يسقط المطر فيها مالم تهب عليها الرياح الجنوبية الغربية . .

وأما المنطقة الشرقية من اليمن فالمناخ فيها صحراوي يتميز بالحرارة الشديدة صيفاً وبالبرودة شتاءً ، ويسود المنطقة جفاف في الهواء باستثناء الجهات المتاخمة لمرتفعات الهضبة المركزية حيث تعتدل فيها درجة الحرارة اعتدالاً نسبياً . .

جدول بياني عن مناخ اليمن

المناطق المناخية	المنطقة الساحلية (٠ ـ ٢٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر	الجبال الغربية (٢٠٠ ـ ٢٢٠٠) متر	المرتفعات المركزية (٢٢٠٠ ـ ٣٧٦٠ ـ ٢٣٠٠) متر	الجبال الشرقية (٢٣٠٠ ـ ١١٠٠) متر	الصحراء الشرقية (١١٠٠ ـ ٠) متر
المناخ	إستوائي	شبه استوائي الىٰ معتدل	معتدل	معتدل الىٰ شبه استوائي	صحراوي
النباتات	القطن . التمور . المانجو . الموز . البابايا ـ شجرة مثمرة تنمو في اميركا الجنوبية نخيل الدوم	البن . اشجار الفاكهة المختلفة .. الحبوب . القات .	البن . الأعناب . اشجار الفاكهة المختلفة . الجوزيات . اللوز . الفستق . الحبوب .. القات .	الاعناب . اشجار الفاكهة . الحبوب ، التمور ، نخيل الدوم ..	قليل من شجيرات العلّيق والدّغل ..

ان الحالة المناخية في المنطقة الساحلية (القسم الشرقي منها عند مخارج الوديان) تساعد علىٰ زراعة الخضراوات في موسم الشتاء ، بينما تكون زراعة الخضراوات في المناطق الجبلية والهضبة خلال أشهر الصيف . . وعن طريق التبادل بين المنطقتين تكون الخضراوات متيسرة في جميع المناطق خلال الفصلين الشتوي والصيفي . . . !

١٠ - الأمطار في اليمن

اليمن من الأصقاع الجغرافية التي تتوقف فيها الحياة على هطول الأمطار نظراً لانعدام الأنهار فيها . . فاذا حدث الجفاف من جراء احتباس المطر لأكثر من عام هلك الزرع والضرع . . .

وتسقط الأمطار في اليمن عادة خلال فترتين :

١ . في شهري نيسان ومايس .

٢ . في الأشهر تموز وآب وإيلول .

وقد تشذ الحالة عن هذه العادة في بعض السنين حيث يتقدم موعد الامطار أو يتأخر . . والامطار التي تسقط في اليمن تعُرف بالأمطار الموسمية كالتي تسقط في جنوب الهند والصين واليابان . . ومن النادر أن تسقط هذه الأمطار شتاءً في اليمن . .

وتتميز الأمطار التي تسقط على هضبة اليمن وجبالها بشدة الهطول وسرعته وقِصَر فترته . . فقد يبلغ معدل سقوط المطر سنوياً مابين (٥٠ ـ ١٠٠) سم ولايبلغ كذلك في المنطقة الشرقية التي تشح فيها الامطار عادة . .

ولماكان سطح التربة رملّي خفيف حتىٰ في داخل المدن والقرىٰ . . فقلما تحدث أية أوحال في الطرقات بسبب تلك الامطار . . وعندما تتوقف الامطار عن الهطول يصبح الهواء منعشاً جداً . . يغري الانسان السويّ على الخروج من البيت والتجول في انحاء المدينة . . ومن ناحية اخرىٰ . . فان هذه الأمطار الغزيرة تشكل سيولاً جارفة تسبب في أحيان كثيرة أضراراً في الارواح والممتلكات . . وخاصة اذا كانت المساكن والمزارع في اماكن منخفضة من بطون الوديان أو مخارجها . . وقد أصبح من المتعارف عليه لدىٰ السكان في مثل هذه الاماكن أنه في حالة هطول الامطار الغزيرة جداً يقوم سكان القرىٰ العالية في الجبال بانذار السكان المقيمين في اطراف الوديان لكي يأخذوا حذرهم من مداهمة السيول .. أما وسيلة تبليغ الانذار فهي النداء الصارخ بالاصوات او قرع الطبول او إطلاق العيارات النارية في الهواء .. وكل من يتهاون في هذه الانذارات لابد وان يجرفه السيل فيهلك هو ومن معه من إنسان وحيوان ...

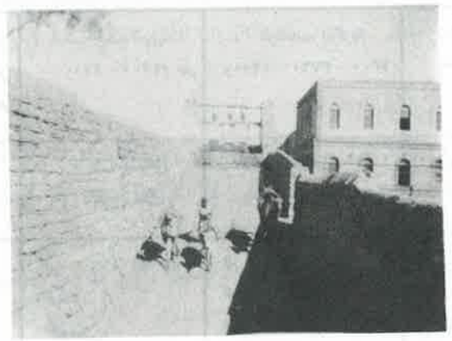

الصورة رقم (١)

المَسْنىٰ - أي المُسْتقىٰ ، محل الاستقاء .

كيفية استقاء الماء من الآبار الكبيرة .

إن هطول الامطار في اليمن بهذه الغزارة يجعل جميع الوديان ومسطّحات الهضبة تختزن الكميات الهائلة من المياه ثم تعود فتدفعها للناس على شكل عيون وينابيع وآبار غزيرة الماء العذب فيستعمله الناس للشرب والسقي والزراعة .. ناهيك عن اهتمام المزارعين في اختزان مياه الامطار داخل خزانات طبيعية بين الوديان وخزانات اصطناعية يُعرف الواحد منها بإسم «مَاجِل» وهو عبارة عن حفرة كبيرة تحفر في المكان المناسب على شكل دائرة لايقل نصف قطرها عن اربعة امتار وعمقها نحواً من ستة أقدام .. ثم يجري إكساء جدرانها الداخلية مع القعر بالحجارة الصلبة المبنية بمادة (النورة) - قبل أن يعرفوا الاسمنت - ومادة النورة هذه تسمىٰ في اليمن بـ (القَضَاض) ، وهم يقولون بأن القضاض أطول عمراً من الاسمنت في شدة المقاومة لعوامل التعرية .. فهو يعمّر نحواً من (٣٠٠ - ٤٠٠) سنة وأنه من مبتكرات اليمن الموغلة في القِدم ...

وغالباً مايجعلون لكل «ماجل» عدداً كافياً من الدرجات للنزول عليها كلما هبط مستوىٰ الماء داخل الماجل لأي سبب .. ونادراً مايكون الماء في هذه المواجل صالحاً للشرب بسبب ركود الماء فيه وعدم جريانه .. يضاف الى ذلك جهل الناس بقواعد النظافة في استعمال هذه الخزانات ..

أما في المدن .. فالناس يحصلون على حاجاتهم من مياه الشرب عن طريق الآبار ذات الاحجام المختلفة .. ويجري الاستقاء منها بواسطة (القِرَب) الجلدية الكبيرة تعلّق بالحبال الغليظة على بكرات مثبتة فوق فوهة البئر بطريقة خاصة .. ويقوم جمل او جملان أو ثلاث ، حسب سعة البئر وغزارة الماء فيه ، بعملية الاستقاء وذلك بارسال حبال القِرَب الى اسفل البئر والجمال في حالة صعود على مجال منحدر وطويل ، حتىٰ اذا امتلأت القِرَب بالماء قامت الجمال بسحب الحبال المربوطة على ظهورها الى اعلىٰ البئر والجمال في حالة انحدار على المجال .. حتىٰ اذا وصلت القِرَب الى اعلىٰ البئر افرغت مياهها في حوض كبير يتكفل بتوزيع المياه الى أي اتجاه يراد .. (أنظر الصورة رقم - ١ -) ..

وتتميز مياه هذه الآبار كلها تقريباً بالعذوبة والنقاوة عند وصولها الى حوض التوزيع .. أما بعد ذلك فالأمر يختلف بالنسبة للاساليب التي يمارسها الناس في التصرف بتلك المياه .. وسيكون لنا في بعض الفصول القادمة تمات لهذا الحديث إن شاء الله .

١١ - أهم المدن في اليمن (راجع الخريطة رقم -١- صفحة ٢٢) .

أولاً - في وسط الهضبة

١ . صنعاء : وهي عاصمة المملكة رقم (١) ، ترتفع بنحو (٢٣٥٠) متراً عن مستوىٰ سطح البحر .. وتقع بين جبل (عَيْبان) و (عَصُر) من الغرب وجبل (نُقُم) من الشرق .. وتُعدّ مركز السلالة الثانية من أئمة اليمن ..

ولنا عن (صنعاء) أحاديث طويلة ومختلفة سنعرض لها في الفصول القادمة ...

٢ . عَمْران : من المدن المهمة والقريبة الى غربي صنعاء .. لقد استمع العالم الى اسم هذه المدينة لاول مرة خلال الحرب الاهلية في اليمن التي اعقبت الثورة الناجحة عام ١٩٦٢ وذلك عندما انعقد مؤتمر عمران لايقاف تلك الحرب وإحلال السلام في ربوع اليمن ولكن المؤتمر لم ينجح لأسباب ...

٣ . حَجَّة : تقع الى الشمال الغربي من عمران ... وهي من المدن الحصينة التي تشرف من ارتفاع (١٧٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر على منحدرات الهضبة اليمنية وعلىٰ تهامة اليمن .. وفي وسط مساكن هذه المدينة تقوم قلعتها البيضاء فوق مرتفع مخروطي الشكل .. ويمكن القول بأن هذه المدينة ذات الأهمية السياسية والحربية ماهي إلا حصن كبير .. وتبدو الحياة فيها كأنها حياة داخل أحد المعاقل العسكرية .. وتحيط بها القبائل الزيدية التي يعتمد عليها الإمام .. وفي هذه المدينة كان سيف الاسلام أحمد ، ولي العهد ، قد اقام ردحاً من الزمن .. ثم أقام في (صعدة) .. الشبيهة بمدينة (حَجَّة) .. والقبائل المحيطة بهذه المواقع الحصينة هي قبائل (حاشد) و (بكيل) القويتين .. اللتين تستطيعان تجهيز ما لايقل عن (٥٠,٠٠٠) خمسين ألفاً من المقاتلين الاشداء عند الحرب .. فحينما اغتيل الإمام يحي في يناير عام ١٩٤٨ غادر سيف الاسلام أحمد ، ولي العهد وأمير (تعز) ، الى (حَجّة) بسرعة مذهلة حيث استنفر قبائلها .. وبذلك تمكن من إجهاض تلك الثورة في عقر دارها وانتقم لأبيه ....!

٤ . مناخة : تقع الى الجنوب الغربي من (صنعاء) وترتفع بمقدار (٨٠٠٠) ثمانية آلاف قدم عن مستوىٰ سطح البحر .. وهي من أهم المدن التي تسيطر على الطريق الرئيسي القديم (الحُديدة - باجل - مناخة - صنعاء) .. وكان هذا الطريق طريقاً عسكرياً سَوْفيّاً ، اي ستراتيجياً ، بالنسبة للجيوش العثمانية في اليمن كما سيأتي خبره في الفصول القادمة باذن الله .. ومنطقة (مناخة) هي موطن الشيعة الاسماعيلية في اليمن .

٥ . كوكبان : تقع الى الشمال الغربي من (صنعاء) ، وإذا ذُكرت (كوكبان) ذُكرت معها (شبام) لشدة قربها منها وعلاقتها بها .. وكلتاهما تبعدان عن (صنعاء) مسافة (٣٦) كيلومتراً .. ويرجع تاريخهما إلىٰ ماقبل الاسلام .. وشأنهما في ذلك شأن معظم المدن اليمنية المهمة .. ففيها آثار سبأية .. وأن جامع (شبام) نفسه مشيد في موقع أحد المعابد الحميرية ..

أما (كوكبان) فأنها ترتفع عن (شبام) بمقدار (٣٥٠) متراً .. ويصل بينهما مسلك للمشاة يستغرق قطعه حوالي الساعة الواحدة ..

وفي الوقت الذي تقوم فيه (كوكبان) بمهمة القلعة المدافعة عن المنطقة ، تقوم (شبام) بمهمة المركز التجاري والحقل الزراعي في سهلها الخصب ..

٦ . ذَمار : تقع الى الجنوب من (صنعاء) على ارتفاع (٧٦٥٠) قدماً عن مستوىٰ سطح البحر .. وقد كانت فيما مضىٰ معقل «الزيدية» في اليمن .. وعاصمتها المذهبية .. ومع مرور الزمن وأحداثه التاريخية كاد الناس ينسون (ذَمار) لولا أنها من أصحاب السوابق الزلزالية العنيفة في اليمن .. (راجع مبحث السوابق الزلزالية في اليمن - ص ٣٥) ..

ثانياً - في شمال الهضبة

٧ . خَمَرْ : تقع الى الشمال من (صنعاء) .. وهي البلدة الثانية التي شاءت لها الاقدار أن يسمع العالم بإسمها خلال الحرب الأهلية التي أعقبت التغيرات الهامّة في اليمن عام ١٩٦٢ حيث انعقد فيها مؤتمر (خمر) في اوائل مايو ١٩٦٥ ..

وبهذه المناسبة نود أن نوضح بأن اهمية هذه المدن لاتنبع من أهمية مركز المدينة ، كمدينة فقط ، إنما تنبع أهميتها من أهمية القبائل العربية المستوطنة من حولها ..

٨ . حَوْث : وتقع الى الشمال من (خَمَر) ، وتشكل معها ومع البلدة المجاورة (شَهارة) موقعاً أو منطقةً جبلية حصينة تجاه أية قوات عسكرية تقليدية تتقدم من (صنعاء) الى شمال اليمن .. وستأتي بقية الكلام عن ذلك في حينه إن شاء الله ..

٩ . شَهارة : تقع عند جبل (شهارة) البالغ ارتفاعه (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف متر عن مستوىٰ سطح البحر ، وهي عبارة عن حصن منيع .. ومن أمنع حصون اليمن تقريباً .. وقد ذكر الهمداني أن جبل شهارة هو مورد الحجر الذي يستخدم في صنع الخواتم المعروفة وهو خرز يماني ذو عروق بيضاء يسمىٰ (العرواني) .. ومن عجائب بلدة (شهارة) جسرها الحجري الشهير الذي يربط بين جبلين شامخين هما (شهارة الأمير) و (شهارة الفيش) .. ويرتفع هذا الجسر الحجري عن سطح الارض المجاورة له بمقدار (٣٠٠) ثلاثمائة متر..!

كان هذا الجسر العجيب قد شُيّد في مطلع القرن السابع عشر للميلاد .. قام بعمارته المعمار اليمني الموهوب (صالح اليمني) ، وكان هذا الجسر يتألف من ثلاثة طوابق للعبور .. طابق فوق طابق .. ولكنه مع مرور الزمن والإهمال انهدم الطابقان السفليان وبقي الطابق العلوي لكي يشهد على عبقرية المعمار (صالح اليمني) ...!

١٠ . صَعْدَة : وكانت تسمىٰ قديما (جُمُعَة) أو (جُماعَة) وهي تقع في أقصىٰ شمالي اليمن وسط عقدة جبلية بركانية شديدة الوعورة ترتفع (١٨٠٠) متر فوق مستوىٰ سطح البحر ، وتبعد عن صنعاء بمقدار (٢٤٣) كيلومتر... وهي أيضا من أصحاب السوابق الزلزالية كما أسلفنا .. (راجع مبحث السوابق الزلزالية في اليمن ـ صفحة ٢٥) .

وتُعتبر (صعدة) مركز السلالة الاولىٰ من أئمة اليمن منذ أن وصل اليها حفيد القاسم الرسّي بالمذهب الزيدي عام (٢٨٥ هـ ـ ٨٩٧ م) كما سيأتي عنه التفصيل في الفصل القادم ...

ثالثاً – **في شرق الهضبة**

١١ . مأرب : وتقع الى الشمال الشرقي من (صنعاء) .. وهي أشهر من نار على علم في التاريخ القديم ..

١٢ . الجوف : وتقع في المنطقة الشمالية الشرقية على وادي الجوف عند مشارف الربع الخالي ... والواقع أن كلمة (الجوف) هنا لاتعني مدينة معينة بالذات بل هي منطقة وادي وفير المياه وقد استوطنها المعينيون منذ فجر التاريخ .. وتشتهر فيها بلدتان هما : (براقش) و (الحَزْم) ..

١٣ . البيضاء : وتقع في اقصىٰ الجنوب الشرقي من الهضبة .. وهي من المدن الحدودية المهمة بالنسبة للمحميات سابقاً واليمن الجنوبي لاحقاً .

١٤ . جريب : تقع على الحدود الشرقية الى الجنوب الشرقي من (مأرب) بحوالي (٣٥) ميلاً ، وهي تواجه بلدة (بيحان) في المحميات سابقاً .

رابعاً – **في الجنوب**

١٥ . تعز : وهي العاصمة رقم (٢) في اليمن .. نظراً لموقعها السياسي والعسكري بالنسبة لعدن والمحميات سابقاً .. ونظراً لأهميتها الادارية والاقتصادية بالنسبة لحكومة (صنعاء) دائماً ..

١٦ . إبْ : تقع الىٰ الشمال الشرقي من (تعز) ، وترتفع بمقدار (٦٧٥٠) قدماً عن مستوىٰ سطح البحر ..

١٧ . قعطبة : مدينة حدودية جنوبية تقع مابين (إب) و (البيضاء) ..

١٨ . يريم : تقع الى الشمال الشرقي من (إب) ، وترتفع بمقدار (٩٠٢٠) قدماً عن مستوىٰ سطح البحر ..

١٩ . زبيد : تقع الى الجنوب الشرقي من مدينة (الحديدة) ، ويمر بها وادي زبيد .. وقد كانت فيما مضىٰ مركز نشاط علمي اسلامي اشتهر من علمائها الكثيرون .. وسيكون لنا حديث خاص عن هذه المدينة التاريخية في الفصل القادم إن شاء الله ...

خامساً – **المدن الساحلية** (على البحر الأحمر) .

٢٠ . ميدي : تقع عند الحدود اليمنية ـ السعودية .. ولنا عودة للكلام عن هذه البلدة في فصل متأخر من هذا الكتاب ..

٢١ . اللّحيّة : تقع في منتصف المسافة تقريباً مابين (ميدي) و (الصليف) ....

٢٢ . الصليف : تقع شمال (الحُديدة) ومقابل جزيرة (قمران) ..

٢٣ . الحُديدة : وهي الميناء البحري الرئيسي لليمن على البحر الاحمر .. ولنا عودة للكلام عنها في فصل آخرُ من الكتاب ..

٢٤ . المخا : تقع الى الجنوب الغربي من (تعز) ، وكانت تسمىٰ في زمن الحميريين بـ (موزا ـ MUZA) .. كما كانت الميناء البحري الرئيسي لليمن .. وفي عام ١٩١١ تعرضت للمدافع البحرية الايطالية فدكّت حصونها بما فيها من المدافع العثمانية .. كما تعرضت في عام ١٩١٥ ، إبان الحرب العالمية الاولىٰ ، الى قصف مماثل فصار الميناء خرابا لم يبق من معالمها سوىٰ (الفنار) ...!

١٢ – المعادن في اليمن

توجد في اليمن معادن مختلفة منذ قديم الزمان . . ولا غرابة في ذلك طالما كان تكوين اليمن الجيولوجي تكويناً بركانياً كما أسلفنا في مقدمة هذه اللمحات الجغرافية . .

وقد عرف سكان اليمن أستخدام العديد من هذه المعادن في صناعاتهم القديمة . . وخاصة الحديد والنحاس . . فقد كانت لهم خبرة مكتسبة في التعدين عن طريق المشاهدة والتجربة والممارسة . . ولايزال بعض الناس في اليمن يستخرجون الحديد الخام من منطقة (صعدة) الجبلية في شمال اليمن . .

وقد وصف المؤرخون القدامىٰ المعادن في شبه جزيرة العرب . . فذكر الهمداني[1] في كتابه «صفة جزيرة العرب» الكثير من الخبر عن المعادن الموجودة في اليمن بما فيها الذهب ، وكذلك قال فيها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» . . وحتىٰ في «التوراة» جاء الخبر عن الذهب في (خَوْلان) باليمن وقد أسماه بـ (حويلة) ... !

ولا غرابة فيما ذكره المؤرخون القدامىٰ عن وجود المعادن في اليمن بما فيها الذهب .. فها نحن ذا في الثمانينات من القرن العشرين للميلاد تطالعنا كافة وسائل الإعلام عن أكتشاف مختلف المعادن الثمينة في بقاع عديدة من المملكة العربية السعودية ذات الارجاء الواسعة وذات التراكيب الجيولوجية والجغرافية المتنوعة .. فلقد أكتشفوا الذهب في مناطق جبلية بركانية .. كما أكتشفوه أيضاً في طبقات الطين بقعر البحر الأحمر ... ! وكان آخر ما سمعناه من الإذاعات المُعْتَمَدة في نهاية شهر آب / ١٩٨٤ أنهم أكتشفوا منجماً للفحم في إحدىٰ المناطق الشرقية من المملكة .. وبكميات تجارية ... !

ومما يجدر ذكره هنا أن الجبال والأغوار في المملكة السعودية ماهي إلا أمتداد طبيعي لجبال اليمن وأغواره الممتدة على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر . .

وربما تميزت هضبة اليمن وجبالها بوجود العديد من خامات الأحجار الثمينة مثل (البقران) ذو الألوان المختلفة الجذابة . . ومعدنه في جبال (آنس) . . ويضيف الهمداني في «صفة جزيرة العرب» قوله بوجود فصوص (السعوانية) في جبال (شهارة) و (عبشان) . . وهناك (العشاري) وهو حجر سماوي اللون في منطقة (عشار) وقد نُسب هذا الحجر اليها . . وتقع بالقرب من صنعاء . . أما أحجار العقيق اليماني فشهرتها لاتقل عن شهرة سَدّ مأرب . . حتىٰ غدت لهذه الأحجار الثمينة صناعة خاصة وسوق رائجة في داخل اليمن وخارجه . . .

١٣ – الزراعة في اليمن (حالياً ١٩٤٠ ـ ١٩٤٣) .

إذا هطلت الامطار في اليمن بالمعدل المطلوب . . في الوقت المطلوب . . وشمّر أهله عن ساعد الجدّ والعمل الدءوب . . تحولت بقاع اليمن إلىٰ جناتٍ وعيون . . وزروعٍ ومقامٍ كريم . . .

قال تعالىٰ :

« لَقَدْ كَانَ لِسبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ » فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ» ١٥ – ١٦ – سبأ .

ولهذا سُميّت اليمن باليمن الخضراء . . وأسماها الرومان بالعربية السعيدة «Arabia Felix»

ومشكلة الزراعة في اليمن تتمثل في أمرين جوهريين هما :

الأول – الأعتماد الكلي على هطول الأمطار ومعدّلاته . . .

(١) المؤرخ اليمني الشهير أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني صاحب «الإكليل» ـ راجع هامشنا (١) ص ٢٣ من هذا الكتاب . .

الثاني ـ المقدار المتيسر من فسحة الأرض الصالحة للزراعة . . ذلك لأن التكوين البركاني لليمن ، كما أسلفنا ، قد أحالها الى مجمّعات هائلة من السلاسل والعُقد الجبلية الجرداء بحيث لم يترك فيها تربة صالحة للزراعة إلا فسحات قليلة على سفوح الجبال وأطراف الوديان والقيعان . . لذلك وجب على المزارعين من أهل اليمن ان يجهدوا كثيراً في تمهيد تلك الفسحات القليلة وتصنيعها على شكل مدّرجات تشبه الى حدٍّ كبير (الجنائن المعلّقة) أو ماهو أعجب منها بكثير . . ! وليس غريباً بعد هذا أن نسمع من يقول بأن المُزارع اليمني من أكثر المزارعين في العالم بذلاً في الجهد والعرق والصبر أيضاً . . . . . ونعرض فيما يلي شكلاً تخطيطياً لأحد المدّرجات الزراعية : ـ

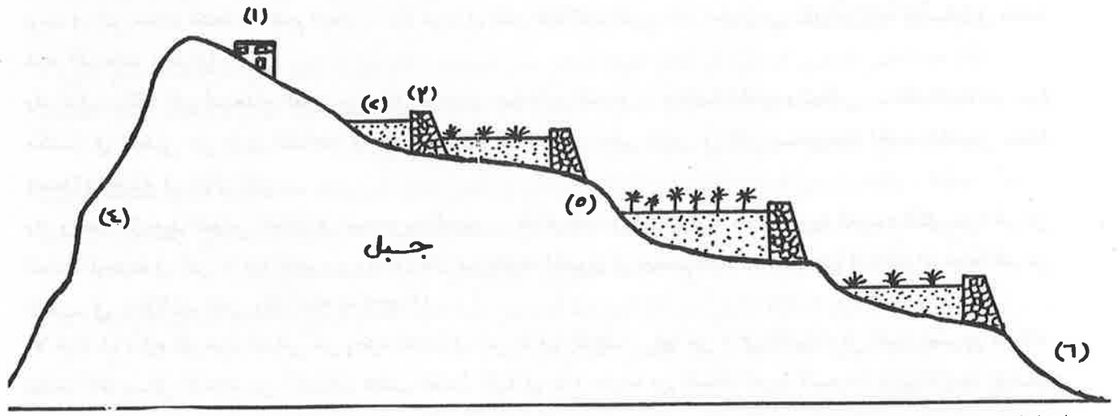

الشكل رقم (١)
ألمُدرّجات الزراعية

إيضاحات
(١) المسكن .
(٢) التربة الزراعية المستصلحة أو المصطنعة .
(٣) الجدار الساند للتربة .
(٤) ألسفح المتروك لشدة انحداره .
(٥) ألسفح الصالح للمدرجات .
(٦) قعر الوادي .

الصورة رقم (٢)
المدّرجات الزراعية في منطقة جبال (حراز) غربي الهضبة .

إن هذه المدرجات الزراعية عبارة عن حقول مقسّمة تفصل بينها جدران من الحجر أقيمت على منحدرات سفوح الجبال . . وقد ترتفع بعض هذه الجدران الى مايزيد على العشرة أقدام ثم يجري إملاء الفراغ من خلفها بالتراب الخصب الذي قد يضطر المُزارع الى نقله من بطن الوديان الى أعلى . . وهذا الأسلوب من تهيئة التربة اللازمة للزراعة الناجحة يكون أكثر ضرورة لزراعة حقول البن اليمني الشهير . . ويصعب على أي إنسان أن يتصور مبلغ الجهد والعرق اللذين يبذلهما المزارع اليمني من أجل كسب قوته وقوت عياله وما ينبغي أن يدفعه أيضاً عن التعشير . . . !

ومما يجدر ذكره أن هذه المدرجات الزراعية المنتشرة فوق الكثير من السفوح والمنحدرات الجبلية في اليمن لم يتكامل وجودها على صورتها الحالية في ليلة وضحاها . . إنما هي حصيلة جهود مضنية جداً بذلَتْها عشرات الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل . . وهي مع ذلك في أمسّ الحاجة الى جهود أجيال المستقبل لصيانتها ورعايتها على الدوام مع تحديث الوسائل وتطويرها قدر المستطاع .

ويرجع تاريخ الجهود المبذولة في إقامة المدرجات الزراعية في اليمن الى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي في عهد الملكة الصُلَيْحيّة [١] (أروىٰ بنت احمد الصليحي) الملقبة بـ (بلقيس الصغرىٰ) التي أنفقت ميزانية عام كامل لمساعدة المزارعين على توسيع شبكة المدرجات الزراعية وتحسينها وصيانتها . .

إن جهود الملكة أروىٰ ، على علوّ قدرها ، لا تعني أن الأجيال التي سبقتها منذ عشرات القرون لم تبذل جهوداً عظيمة في إقامة المدرجات الزراعية ورعايتها . . إلا أنه في الوقت نفسه كانت هناك فترات إهمال لهذه المدرجات بسبب الحروب الداخلية في اليمن . .

وستتضح هذه النقطة بجلاء تام عندما نمضي في تناول الفصل القادم المعنون «لمحات تاريخية عن اليمن» . . .

ولما كان المُزارع اليمني يخشىٰ احتباس الأمطار من حين لآخر كخشيته الموت أو أشد خشية . . لذلك كان عليه أن يهتم كل الإهتمام في خزن مياه الأمطار بأية طريقة . . ويهتم أيضاً بأسلوب دقيق للري يحقق أقصىٰ درجة من الأستفادة من تلك المياه . .

ولما كان هذا المُزارع يحرص على توفير كل شبر من التربة الصالحة للزراعة وأن هذه التربة لاتتيسر في أعالي الجبال فقد صار لزاماً عليه أن يجعل مساكنه في الأعالي ويجعل مزارعه في المنحدرات السفلىٰ . . ، وثمة سبب آخر لجعل المساكن في الأعالي ألا وهو (الأمن) . .

ففي الأعالي يأمن المزارع على نفسه وعلى عياله وعلى حيواناته من اعتداء الآخرين عليه . .

إن هذا الطراز الغريب من الزراعة والسكن يجعل حياة المُزارع وأهله اكثر مشقةً وعناءً من غيره وذلك بسبب الصعود والهبوط المتواصلين يومياً مابين المسكن والمدرّجات الزراعية . . فالمزارع ينزل من الصباح الباكر الى مدرجاته فلا يرجع صاعداً الى مسكنه في الأعالي إلا مساءً . .

وللمُزارع اليمني خبرة واسعة وطويلة بمواسم الزراعة والأمطار توارثها جيلاً عن جيل . . ولكنه لايزال يعتمد في الأستدلال على مواسم الزراعة برصد النجوم الخاصة ومراقبتها في أوقات معلومة من أيام السنة . .

ومما ورد في كتاب «جغرافية البلاد العربية» للعميد طه باشا الهاشمي [٢] ، رحمه الله ، قوله عن الزراعة في اليمن : ـ

[« . . . . . ومع أن الزراعة في المنطقة الجبلية شاقة إلا أن الناس أقبلوا على الزراعة إقبالاً عظيماً لأنها مدار معيشتهم وسبب رزقهم . . والواقع أن قطر اليمن من الأقطار التي تسد محصولاتُها حاجاتها ، فلا تحتاج الى الخارج إلا في بعض مواد لايمكن أقتناؤها في الداخل . . . فجميع الحبوب والبقول تنبت في اليمن ، وكذلك أشجار الفاكهة . والعسل يقوم مقام السكر ، وزيت السمسم يستعمل في الإضاءة بدلاً عن النفط . .

«ويُزرع القطن ويُغزل وتصنع منه الأقمشة للمجالس والأثاث . . وأينما وليت وجهك رأيت المزارع منتشرة في الوديان وعلى سفوح الجبال والذرىٰ وفي السهول . . ومما يدل على أعتناء القوم بالزراعة انهم يهيئون المزارع الصناعية في السفوح المنحدرة الصخرية برفع الأحجار منها وأكساء الأرض بالتراب الذي يرفعونه من أسفل الوادي . . فتصبح تلك السفوح ضيقة طويلة مهيأة للزراعة .

(١) نسبةً الى علي بن محمد الصُلَيْحي الذي يرجع نسبه الى (سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان) . وكان قد أسس دولةً فاطمية (إسماعيلية) موالية للدولة الفاطمية في مصر وذلك في منطقة جبال (حراز) حكمت اليمن مابين (٤٣٩ ـ ٥٣٢ هـ) ، (١٠٤٦ ـ ١١٣٧ م) .

(٢) كان رحمه الله قد خدم في الجيش العثماني السابع المرابط في اليمن مدة تقرب من أربع سنوات . . فلإكتسب مؤخراً في جغرافية البلاد العربية . ومنها اليمن . كان لديه رصيد طيب من المعلومات الجغرافية عن هذا البلد .

«وهذه المزارع المدرّجة المنتشرة في جميع الأنحاء الجبلية لاتخلو منها منطقة . . وفي الهضاب تنتشر المزارع في ضواحي القصبات والقرىٰ . أما في تهامة فيزرعون الأرض الواقعة على جوانب الوديان للإستفادة من مياه السيول عند نزول الأمطار ، وهذه السيول تحمل معها تربةٍ غرينية تترسب في الوديان وعلى جوانبها . . فيحرث الناس تلك الأرض وتهيئون منها حقولاً للزرع ويحيطون كل مزرعة بأكوام من التراب . . وعند جريان السيول يصرفون مياهها الى تلك المزارع بالسواقي . »] أنتهىٰ .

ويتضح من كلام العميد الهاشمي ، رحمه الله ، أن أسلوب الزراعة في ووديان تهامة اليمن هو أقل عناءً ومشقةً للمزارعين . . وقلة العناء والمشقة هنا نسبية . . فمزارعو تهامة ربما نالهم من مشقة حرارة الطقس ، خاصة في الصيف ، مايقارب أو يعادل المشقة التي يعانيها المزارعون الجبليون من جراء تهيئة الحقول والصعود والنزول إليها في كل يوم . .

وزراعة الحبوب المختلفة في اليمن تستمر على مدار فصول السنة . . ! ففي المكان الواحد ترىٰ زروعاً قد آن أوان حصادها . . وأخرىٰ في أول مرحلة النماء . . والأخرىٰ تحت الزرع . . والى جانب هذا وذاك ترىٰ حقولاً يجري حرثها وتهيئتها للزراعة . .

وفي منحدرات وديان تهامة ، وفي بلاد الجوف (القسم الشرقي الشمالي من الهضبة) وغيرها تعطي البذرة الواحدة ثلاث غلّات وفي الرابعة تُستعمل علفاً للحيوانات . . ! وبعض المزارع تجود بغلّتين والثالثة للعلف . . نقول هذا رغم أن وسائل الزراعة لاتزال بدائية كما كانت عليه منذ عدة قرون . . . !

وتتعدد أنواع اشجار الفاكهة في اليمن كما تتعدد نوعيات وأصناف كلٍ منها . . ففي الأعناب مثلاً . . يوجد أكثر من عشرين نوعاً من الأعناب . . ومن أشهرها :

١ . الصعدي : نسبةً الى مدينة (صعدة) في شمال اليمن . .
٢ . الرّوْضي : نسبة الى ضاحية (الروضة) شمال صنعاء . .
٣ . المسوري : نسبة الى جبال (مسور) . .
٤ . أصابع زينب : وهو يشبه عنب (ديس العنز) عندنا في العراق . .
٥ . الكشمش : وهو من الأصناف المرغوبة جداً . .
٦ . العاصمي : الشبيه بالأجاص أو (الآلو) كما يسميه أهل بغداد . . وقد سُمي بالعاصمي نسبةً الى الوالي عاصم باشا الذي استورد فصيلته الى اليمن . .
٧ . الوادي : نسبةً الى وادي (ظهر) الواقع شمال غربي صنعاء . .
٨ . الشامي : نسبةً الى الشام . .
٩ . التبوكي : نسبةً الى تبوك في الحجاز . .
١٠ . الرومي : وهو صنف مستورد أيضاً . .
١١ . بيض الحمام : نظراً الى حجم ثمره . . .
١٢ . البياض : يمتاز بشدة حلاوة مذاقه . . .
الخ . . . . . .

ومن فاكهة اليمن : الحمضيات ، التين ، المشمش ، التفاح ، الأجاص ، الموز ، الرمان ، السفرجل ، الخوخ ، الكمثرىٰ ، والنخيل أيضاً . . .

إلا أن في اليمن شجرتان فقط تجمع بينهما الشهرة ويفرّق بينهما التناقض :
شجرة البن . .
وشجرة القات :

فكلتاهما شجرتان مشهورتان . . ولكن شهرتهما هذه علىٰ طرفَيْ نقيض . . فالأولىٰ شجرة نافعة والثانية شجرة خبيثة . . ! ورغم خبث الخبيثة هذه . . فإنك لو خيّرت أهل اليمن جميعاً بالإبقاء علىٰ أحدىٰ هاتين الشجرتين والإلغاء الثانية لأسباب خاصة لقالوا لك بلسان واحد : لتبقىٰ شجرة القات في اليمن ولتذهب كل الأشجار الأخرىٰ الىٰ الجحيم . . !

قال شاعرهم :

زُمُّرداً يَقطفُ الأصحابُ أوقاتا * يصفو به العيش أحياناً وأوقاتا
ياعاذلي عن حصول القات مُتْ كمداً * لانترك القات أحياءً وأمواتا

لذلك صرفنا النظر عن بقية مايُزرع في اليمن من خضراوات وبقول وتوابل ونباتات صبغيّة ودباغية وأعشاب خاصة . . لنقصر كلامنا فيما يلي على الشجرتين المتنافستين في اليمن : شجرة البن وشجرة القات . . .

شجرة البن :

شجرة لايتجاوز ارتفاعها ثلاثة أمتار وهي تُزرع في المرتفعات التي تتراوح مابين (٤٫٠٠٠) أربعة آلاف الىٰ (٥٫٠٠٠) خمسة آلاف قدم عن مستوىٰ سطح البحر وتخرج أغصانها من أسفل جذع كثير العُقد . . فاذا قلّ محصولها السنوي لأي سبب قطعوها من أسفل الجذع فتُنبت أغصاناً جديدة في الجذور . . ولقد سمعنا أن أول مرحلة من مراحل زراعة شجرة البن إنما تبدأ بزراعة بذور البن في مستنبتات خاصة . . حتىٰ اذا نبتت النبتة وأستوت على ساقها وأورقت جرىٰ نقلها الى الحقول المختارة لزراعتها . . وعندئذ تحتاج الى رعاية دقيقة . . وخاصةً المحافظة على جذورها من الجفاف . . فاذا أصبحت شجرة مثمرة وجب حجب الماء عن جذورها بالتدريج . .

تُزرع أشجار البن في صفوف منتظمة . . ولابد من تظليلها بنباتات أخرىٰ عالية وخاصة شجيرات البن النامية . . ويجري إرواء مزارع البن بنظام ريّ دقيق عبر قنوات تتفرع من مستودع رئيسي يختزنون فيه مياه الأمطار . . وعادةً يحفرون تحت كل شجرة بن حوضاً صغيراً يجري إملاؤه بالماء بين حين وآخر . . وتظل الشجرة خضراء دائماً وتحمل أزهاراً وثماراً في وقت واحد . . إلا أن هناك موسمان رئيسيان لتفتّح الأزهار ، وقد تكون ثلاثة مواسم . . وتبعاً لذلك يتم جني الثمار مرتين على الأقل . . وتكون أزهار البن بيضاء وردية اللون . . أما حبة البن وهي على الشجرة فقد تكون بحجم حبة البندق وذات لون داكن فيه أحمرار . . وبداخلها نواة ذات فلقتين . .

وتثمر شجرة البن عادةً بعد أربع سنوات من زرعها . . وقد تعمّر نحواً من ثلاثين عاماً إذا روعيت الرعاية اللازمة . . .

يكون شهر أيار بداية موسم لجني الثمار . . ويتم هذا بهزّ أشجار البن هزاً لطيفاً فتتساقط ثماره علىٰ مفارش تُفرش علىٰ الأرض . . ثم يتركون هذه الثمار لكي تجفّ وتتصلب قشرتها قبل تعبئتها في الزكائب - أي الأكياس الكبيرة . . .

إن متوسط المحصول السنوي للشجرة الواحده يقرب من (٩٠ - ١٠٠) كيلو غرام من الحبوب الخام الجافة مع قشورها . . . علماً بأنهم لايعزلون حبوب البن عن قشورها في مناطق زراعتها . . بل يبعثون بالبن الخام الى ميناء (الحُديدة) حيث تجري عليه عمليات التنقية وفرز الحبوب عن قشورها . . ويقوم بهذه الأعمال عادة نساء من الطبقة الفقيرة لقاء أجور بسيطة لاتتناسب ومشقة العمل الفردي الذي يقمن به طوال النهار . . وأغلبية هؤلاء النسوة العاملات من العبيد الأفارقة ويُطلق عليهم في اليمن إسم (الأخدام) . . . ورجالهن يعملون في صيد الأسماك ونقل الأحمال في الميناء . .

وتتم عملية التنقية من الأتربة والشوائب وفرز القشور بواسطة غرابيل مصنوعة من حُصُرٍ كبيرة مدورة ذات تصميم مناسب لهذا العمل البدائي . . ومن ثم تجري تعبئة البن المنظف في زكائب ذات طبقتين منسوجة من ألياف النخيل أو القنّب . . وبعد ذلك يقوم الحمالون بنقلها على ظهورهم الى الميناء بأجور بخسة جداً . . فاذا أوصلوا الأحمال الى الميناء أستلمها منهم حمالون آخرون يخوضون بها الشاطئ الى حدّ صدورهم . . وهناك يطرحونها في السنابيك التي تقوم بنقلها الى سفن شراعية متوسطة الحجم تحمل البن اليمني الى الموانئ المهمة في حوض البحر الأحمر ومنها الى مختلف أنحاء العالم . . وهؤلاء الحمالون من الرجال كنسائهم العاملات في تنظيف البن الخام لاينفكون عن ترديد الأهازيج الخاصة بهم طوال مدة عملهم . . . وبذلك ربما هانت عليهم هذه المهنة الشاقة . . !

إن تجارة البن وتجارة الجلود تشكلان الدخل الرئيسي لليمن . . ويقوم المزارعون ببيع محاصيلهم من البن الى تجار الجملة في مناطق الزرع . . وهؤلاء التجار يبيعون ذلك الى المصدّرين في (الحُديدة) . . حيث تحملها السفن التجارية الى بلاد العالم عبر البحار . .

وقد لاتخلو هذه العملية التجارية من إجحاف كبير بحقوق المزارعين . . ذلك أن الجمل الواحد يحمل علىٰ ظهره زكيبتين في كل زكيبة حوالي تسعين كيلو غراماً من البن الخام يدفع فيها تاجر الجملة للمُزارع مابين عشرين الىٰ ثلاثين ريالاً . . ثم يبيعها الى التاجر المصدّر في (الحديدة) بمبلغ مائة ريال . . !

فأذا سألتَ : لماذا لايذهب المُزارع نفسه الىٰ الحُديدة فيبيع محصوله هناك مباشرة ؟

فيجيبك بعض العارفين أن المُزارع لايستطيع أن يفعل ذلك .. لأن التاجر الكبير هو الذي يموّل المُزارع في كل سنة علىٰ حساب المحصول القادم .. فلا يبقىٰ للمُزارع عند التسليم اكثر من عشر ريالات تقريباً عن كل زكيبة ... !

فأذا سألتَ : لماذا يقترض المزارعون بهذا الشكل ؟

فإنك لن تجد من حولك مَن يجيبك على هذا السؤال المحرج لأُولي الأمر . . ! لأن الواحد من هؤلاء ولاّة الأمور لايشرب قدح القهوة اليمنية الفاخرة قبل أن يضع فيه ملعقةً صغيرة من مرتّىً أسود اللون هو العنبر المستخرج من أسماك المحيط الهندي . . قيل عنه أنه حلو المذاق ومقوٍّ للباه . . وأن الملعقة الصغيرة منه تكلف خمس ريالات يمنية (من ريالات المغفور لها ماريا تيريزا) وهي ريالات كبيرة من الفضة الخالصة ... !

وقليل من غير أهل اليمن من يعرف جيداً أن الخمس ريالات هذه تعادل راتب جندي متطوع في جيش الأمير الذي يشرب قدح القوة الممزوج بعنبر أسماك المحيط الهندي ... !

قيل لنا في تلك الأيام الخوالي . . أن ميناء (الحديدة) يُصدّر نحواً من (٨٠٫٠٠٠) ثمانين ألف زكيبة من البن اليمني سنوياً . . يذهب معظمها الى البلاد الأمريكية والباقي الى ايطاليا وفرنسا ومصر حيث يجري خلطها مع أنواع من البن الرخيص المستورد . . أما ألمانيا وبريطانيا فأنهما تفضلان البن المستورد من أمريكا الجنوبية . . وخاصة البرازيل . . .

إن أشهر أنواع البن في اليمن هو البن المطري نسبةً الى جبل بني مطر الواقع الى الجنوب الغربي من (صنعاء) . . .

شجرة القات (بايجاز) :

القات شجرة دائمة الخضرة يُطلَق علىٰ أوراقها الإسم العلمي (كاثا إيديولس ـ Catha edulis) وتُنسب من حيث البحث العلمي بإسم (كاثا إيديولس فورسكالس ـ Catha edulis forskalis) نسبةً الىٰ العالم السويدي (بيتر فورسكال ـ Peter Forskal) الذي كان قد رافق (كارستن نيبور ـ Carsten Niehbur) في رحلته الىٰ اليمن عام ١٧٦٣ . . إلا أن العالم السويدي (فورسكال) قضىٰ نحبه عند وصوله الىٰ مدينة (يريم) اليمنية إثر مرض أصابه هناك فمات عن عمر يناهز الواحد والثلاثين عاماً تاركاً أوراق مذكراته مع رفيق رحلته (نيبور) الذي قام بنشرها في كتابه عام ١٧٧٥ . .

ونبات القات يشبه الىٰ حدٍ ما النبات المعروف في اوربا بإسم (Euonymus europaeus) .. وهو من فصيلة (سلاستراسيه ـ Celastra ceae) النباتية وقد يسمىٰ بإسمها (سلاسترس ـ إيديولس Celastrus edulis) ، وقد يسمىٰ بـ (كاثا فورسكالي ـ Catha Forskalii) ... الخ .. ويبلغ ارتفاع شجرة القات نحواً من (٦ ـ ٩) أقدام أو أكثر . . وهي شجرة معمرة لها قابلية احتمال برودة الطقس وهبوب الرياح . وتكون زراعتها غالباً في مناطق الهضبة العليا باليمن علىٰ ارتفاع يتراوح بين (١٠٠٠ ـ ١٥٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر . . وقد تُزرع في المدرّجات الزراعية مع اشجار البن فيظلّل أحدها الآخر من الشمس ويقي أحدها الآخر من تقلبات الأحوال الجوية . .

ومن مميزات شجرة القات أنها لا تُزهر . . وأن أوراقها ذات خضرة فاتحة . . وقد يكون في بعضها مسحة احمرار . . ومذاقها عادةً قلوي . .

وقد اختلف الباحثون في أصل موطن القات . . فمنهم من يؤكد أن القات دخل الىٰ اليمن من الحبشة في تاريخ لم يتفق عليه كل الباحثين . . ولكنهم قدّروه بالقرن الرابع عشر الميلادي . . أو قبل ذلك بقليل . .

وهنالك أصناف عديدة من القات تختلف نوعياتها باختلاف المناطق التي يُزرع فيها . . وهذا الاختلاف في النوعيات يؤدي الىٰ اختلاف في التأثيرات التي يتركها هذا النوع أو ذاك من القات في جسم الشخص الذي يستعمله . . فهناك قات يُشيع الحزن والكآبة في الشخص .. ونوع آخر يبعث فيه البهجة والانتعاش .. وغيره قد يؤدي بصاحبه الىٰ الأرق الشديد .. وكل هذه الاختلافات مردّها الىٰ اختلاف أنواع التربة التي يُزرع فيها القات ..

لقد أجرىٰ عدد من العلماء بعض الدراسات المختبرية علىٰ القات فوجدوا أنه يحتوي علىٰ العناصر الكيمياوية التالية :

أ . كاثين (Cathin) وهي مادة شبه قلوية .

ب . كاتين (Catin) + كاثنين (Cathinin) شبه قلوية وكلتاهما قابلتان للذوبان والتبلور .

جـ . إيديولين (edulin) + إفدرين (ephedrin) شبه قلوية .

د . كاثيدين (Cathidin) .

هـ . حامض التانين (Tannin) ، وخمسة حوامض كيماوية أخرىٰ . .

و . وعشرة عناصر كيماوية ثانوية اخرىٰ . . . .

إن القات في بداية تناوله لايعطي تأثيراً مقبولاً . . فقد يشعر المرء بدوخان وارتجاف وخفقان . . وبعد ساعة أو اكثر تزول هذه الاعراض ليحل محلها الهدوء العميق والفكر الرائق النشيط مما قد يدفع بصاحبه الىٰ بديع الكلام في الحديث والشعر والفكاهة . . ولكن المدمنين علىٰ استعمال القات يصابون بالأرق والنحول وسوء الهضم وشلل نسبي في الجهاز البولي مما يسبب خروج البول قليلاً قليلاً بشكل لا إرادي . . وأخيراً وليس آخراً يسبب انحطاطاً في النشاط الجنسي . .

علىٰ أن المدمنين للقات في اليمن يشكلون ٩٥ ٪ من مجموع سكان المدن رجالاً ونساءً وشباباً . . وربما ٧٥ ـ ٨٠ ٪ من سكان الريف . . !

ومن الذين أدلوا بدلوهم في الحديث عن (القات) الرحّالة العربي المعاصر السيد أمين الريحاني صاحب كتاب «ملوك العرب»[1] ، وكان قد زار اليمن في عام ١٩٢٢ وحلّ ضيفاً على الإمام يحي ومكث حوالي ثلاثة اشهر في حِلٍ وترحال .. وأتم تأليف كتابه هذا في (١٤/ ايلول/ ١٩٢٤ ـ ١٥/صفر/ ١٣٤٣) .

قال الريحاني في الصفحة ٩١ ـ ٩٢ ج١ ماخلاصته : ـ

[«... ألقات عند أهل اليمن هو حشيشهم وأفيونهم ومسكرهم وهم يدمنونه إدمان الاوربيين الخمر .. قال شاعرهم :

زُمُرُّداً يقطف الاصحابُ أوقاتا * يصفو به العيش أحياناً وأوقاتا

ياعاذلي عن حصول القات مُت كمدا * لانترك القات أحياءً وأمواتا

«إن في القات على مايظهر خاصة الحشيش الاولىٰ أي الكيف ، وشيئاً من خاصة الأفيون المخدرة ، وبعض مافي المسكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة أخرىٰ هو يطرب النفس ويخدر الحواس ويشحذ الذهن بل يبعث ، على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فيقويه على السهر والعمل في الليل . قد تحققتُ بنفسي أنه يؤرق ، ويُحدث في المعدة يبوسةً وانقباضاً وفي الفم جفافاً وعفوصةً مثل البلوط فيطلب صاحبُه الماء كثيراً . ولكني لم أُحس بشيءٍ من الكيف أي خفة النفس ولم ينتبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتفعل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المحسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره فيمن يستعمله مرةً غير تأثيره فيمن يستعملونه دائماً ، ويفضلونه على خبز يومهم ، لاريب في أن القات مضر بالصحة والنسل فهو يُفقد المرء الشهية للطعام ويُفسد أسباب الهضم ، ويُحدث مثل الأفيون شللاً في مجاري البول ، ولا يقوّي الباه بل يُضعفه . إن إسمه العلمي «Catha edulis» وهو نبت شبيه بالبطم إلا أن شجرته صغيرة ، وورقه مثل ورق العفص ... الخ»] .

ونحن نعقّب على قول السيد الريحاني فنقول : ـ

إن تشبيه القات بالحشيش والأفيون والخمر تشبيه غير دقيق إن لم يكن غير صحيح بالمرة ....

---

(١) «ملوك العرب» أو ـ رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية (أقسام) أو (فصول) في جزئين بمجلد واحد . مزيّن بالخرائط والرسوم . وصدرت طبعته الثانية من دار صادر ـ بيروت عام ١٩٢٩ وهي طبعة مصححة ومزيدة .. ومنها نسخة محفوظة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد .

القسم الاول ـ عن الملك حسين بن علي ملك الحجاز .

القسم الثاني ـ عن الإمام يحي حميد الدين ملك اليمن .

القسم الثالث ـ عن الادريسي ـ عسير .

القسم الرابع ـ عن السلطان عبد الكريم فضل ـ لحج .

القسم الخامس ـ عن السلطان عبد العزيز آل سعود ـ نجد

القسم السادس ـ عن آل الصباح شيوخ الكويت .

القسم السابع ـ عن آل خليفة شيوخ البحرين .

القسم الثامن ـ عن الملك فيصل الاول ـ ملك العراق .

فالحشيش والأفيون والخمر كما هي معروفة لدىٰ المدمنين عليها والمشاهدين لأحوالهم وسلوكهم تُفْقِد العقل والصواب وتُحيل مدمنيها الى أحقر المخلوقات وأتعسها .. والقات لايفعل بمدمنيه كل هذه الأفاعيل حتىٰ ولو طال بهم مجلس القات أياماً وأسابيع متواصلة .. وقد يهلك بعضهم في نهاية المطاف ولكنه لايصل أبداً الىٰ حالة الحشاشين والأفيونيين والخمريين في ليلة حمراء واحدة ...!

- ألقات يُطرب النفس ... صحيح ، كما يقول «القاتيّون» من أهل اليمن ، ولكنه أبداً لايُخدّر الحواس الخمس ولا الحاسة السادسة أيضاً ....
- ألقات يشحذ الذهن ... صحيح جداً ، والدليل على ذلك دواوين الشعر التي دوّنها الشعراء «القاتيون» في مجالس القات على مدىٰ الأجيال ...
- ألقات يبعث في صاحبه النشاط .. صحيح ايضا .. ولكنه لايقوّيه على السهر .. بل يؤرقه عصبياً .. أما تقويته على العمل .. فان صّح ، ولا أظنه يصح ، فليس في اليمن من يعمل في الليل ويضّحي (بالكيف) الذي بذل رزقَ يومه من الريالات في سبيل شرائه ...!
- والقات لايظهر تأثيره فيمن يستعمله مرة واحدة ولا مرتين .. بل لابد من المداومة .. ولذلك فان الحكم الذي اصدره السيد الريحاني عن طبيعة القات ومفعوله ليس بالحكم الدقيق عندما وضع القات والحشيش والأفيون والخمر كلها في قفص اتهام واحد وادانهم جميعاً بمادة تجريم واحدة خلافاً لكل القوانين والأعراف ..
- القات يُحدث في المعدة يبوسة فيطلب صاحبه الماء بكثرة .. ولكنه لايُحدث فيها انقباضاً .. لأن الانقباض والإمساك إنما يحدثان في الأمعاء حيث يفعل فيها القات فِعلَ أشد المقّبضات ...
- القات مضر بالصحة والنسل والجهاز البولي .. صحيح تماماً .. والأصح منه هو أن القات يُهلك الحرث والنسل معاً .. فلا يُبقي علىٰ مالٍ لا للمعيل ولا للعيال .. فالمال يفنىٰ عن طريقين : تكاليف شراء القات من جهة .. وضياع جُلّ الاوقات في مجالس القات من جهة اخرىٰ ...!

كيف تعرّف أهل اليمن لأول مرة علىٰ هذه «الشجرة الملعونة» ؟

لقد تعددت الروايات وتنوعت الأساطير . . وربما كان أقرب هذه الروايات للقبول مبدئياً هو ماذكره السيد أمين الريحاني قبل اكثر من نصف قرن في كتابه «ملوك العرب [1] » من أبيات شعرية نظمها رفيقه في الرحلة الضابط الشاعر قسطنطين بني [2] بعد ان استمع الىٰ الرواية المعتمدة لدىٰ أهل اليمن عن كيفية اكتشاف القات والتي تقول بأن أحد الرعاة افتقد شاةً له من بين القطيع فراح يطلبها . . وبعد مشقة البحث عنها وجدها في حالة استرخاء غريب تحت ظل شجرة خضراء زاهية وفي فمها بعض الاوراق من تلك الشجرة . . ولم يفطن الىٰ شيءٍ من حكاية تلك الاوراق إلا بعد أن تكررت حادثة شرود تلك الشاة اكثر من مرة . . . الأمر الذي دفعه إلىٰ استكشاف العلة عن طريق التجربة . . فلما ذاق الشجرة بدت له حقيقتها . . ومنذ ذلك اليوم وأهل اليمن لايبيعون شجرة القات الواحدة بعشر شجرات مثقلات بأجود انواع البن في اليمن . . !

عندما استمع مسطنطين الى هذه الرواية اليمنية تفتقت قريحته الشعرية عن الأبيات التالية :-

الـقـاتُ فـيـه عُـجـابُ	*	كما يـقـول الصِّـحـابُ
دَرَتْ بـه الشاةُ لـمّـا	*	أنْ طـاردَتْـهـا الـذئـاب
ذاقـتـه فـاستـعـذبـتـه	*	وسال منهـا الـلـعـاب
أمسىٰ يُـجَـمِّـعُ مـنـه	*	حـتـىٰ تملّىٰ الـجَـراب
مشىٰ يُـحّـدث عـنـه	*	وفي الحديث الصواب
فصـدّقـوه وذاقوا	*	مـثـلـه واستـطـابوا

(١) راجع هامشنا (١) صفحة (٤٥) من هذا الكتاب ..

(٢) قسطنطين بني : ضابط سوري برتبة ملازم كان يخدم في الجيش الحجازي أيام شريف مكة الملك حسين بن علي ، ويقول أمين الريحاني عن ذلك في الصفحة (٧٣) ج١ : -

[«... جئت صديقي القديم (قسطنطين بني) وكان يقيم في (جدة) .. فسألت جلالة الملك حسين ان يأذن لقسطنطين أن يرافقني الى اليمن فأجاب تلطفاً سؤلي .. فسافرنا متوكلين على الله - أنا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً اميركياً ، وقسطنطين في ثوب ملازم في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً .

«كانت بلاد اليمن يومها عام ١٩٢٢ في حرب أهلية وخارجية .. ولم يكن هناك شخص واحد يؤيد سفر الريحاني الى اليمن بما في ذلك القنصل الاميركي في عدن ..! وكان حاكم عدن يومذاك (الميجر جنرال سكوت - Maj . Gen . T. E. SCOTT) ، وكان معاونه الاول (الميجر رايلي) ...»] ..

والميجر رايلي هو مؤلف كتاب «عدن واليمن - ADEN and the YEMEN» - راجع هامشنا (٢) صفحة (٣٣) من هذا الكتاب .. ونقدم فيما يلي نخة موجزة عن مؤلف هذا الكتاب ترجمناها من مقدمته : -

السّير برنارد رايلي : Sir Bernard Reilly , K. C. M. G , CiE . O. B. E.

- في عام ١٩٢٢ كان المعاون الاول لحاكم عدن (الميجر جنرال سكوت – Maj. Gen. T. E. Scott)
- في عام ١٩٣١ كان آخر مقيم بريطاني في عدن يرتبط بحكومة بومبي في الهند إبان الاستعمار البريطاني .
- مابين عام ١٩٣٢ – ١٩٣٧ كان المقيم الرئيسي الوحيد في عدن بوصفه مندوباً سامياً يرتبط بحكومة الهند .=

ولأوراق شجرة القات مذاق تغلب عليه المرارة الخفيفة نسبيا ، فمذاقها يشبه الى حدٍّ ما مذاق اوراق شجيرة الرمان الصغيرة .. على أنني شخصياً لم أحاول مطلقاً في أي يوم من أيام السنين الثلاث التي أمضيناها في اليمن أن اتذوق طعم وريقات القات لكي اعلم عن تجربة حقيقية المذاق الحقيقي لهذه الأوراق .. ذلك لأنني كرهت الطريقة التي يتناول فيها أهل اليمن هذه الاوراق .. وقد كرهت ذلك منذ وصولنا الى أول نقطة حدودية يمنية في الجنوب ونحن في طريق السفر من (عدن) الى (تعز) .. ولنا في الفصول القادمة عودة خاصة لتفصيل ذلك ..

ورُبّ لبيب يسألني : [«إذا كنت شخصياً لم تحاول مطلقاً ان تتذوق طعم وريقات القات طوال ثلاثة اعوام في اليمن .. فكيف استطعت إذن أن تقدم لنا كل هذه التعقيبات على اقوال الريحاني وقاموس «ويبستر webster» وغيرهما ..؟»] .

اقول : لقد كنت كثير السؤال والاستفسار والاستقصاء من أصهاري وأصدقائي وزملائي اليمنيين الذين لم يبخلوا علينا باجاباتهم الصريحة ليس عن (القات) فحسب ، بل وحتىٰ عن امور اجتماعية اخرىٰ كثيرة لايفصحون عنها عادةً لغريب ...!

ومنذ أن عرف أهل اليمن شجرة القات تحوّل اهتمامهم الزراعي من «البن» الى «القات» .. فاذا تذكّرنا قلة المساحات الصالحة للزراعة في جبال اليمن .. أدركنا جيداً مدىٰ التنافس الذي نشب بين البن والقات على مرّ السنين .. ونظراً لعدم وجود إحصائيات رسمية مدروسة في هذا الصدد فقد يصعب علينا أن ندرك ونحدد أبعاد تدهور زراعة البن في اليمن على حساب القات ....!

ولما كانت مبيعات القات تدرّ من الأرباح مالا يحلم به البن في أعزّ أيامه من ذلك التاريخ (١٩٤٠ - ١٩٤٣) ، ولا يزال الأمر كذلك حسبما نسمع او أشد منه ، فلا غرابة في شدة تعلّق أهل اليمن بالشجرة الخبيثة هذه حتىٰ يقيّض الله تعالىٰ من يجتثّها من فوق الأرض ولا يترك لها من قرار ...!

وحُب أهل اليمن للقات يكاد يكون عشقاً له .. بل عشق إدمان .. وهم ينفقون في شرائه ماهم في أمسّ الحاجة إليه لقوت عيالهم من خبز وزيت وتمر وزبيب ....!

والقات على أصناف عديدة من الجودة .. ولكل صنف منها ثمن معلوم .. وهو يباع على شكل ربطات او شدّات ذات قياسات متعارف عليها .. وكل ربطة تضم بضع عشرة غصينات أو عساليج غضّة من غصينات شجرة القات تكون وريقاتها الخضراء الزاهية في غاية الطراوة إذا كانت من النوعية الجيدة .. ويجري عادة تغليف ربطات القات بأوراق نبات الذرة أو الموز أو أية أوراق اخرىٰ تحفظ ربطة القات من الجفاف أو حتىٰ من فقدان طراوة الوَرَيقات ..

= في عام ١٩٣٤ قام نيابة عن الحكومة البريطانية بمفاوضة الحكومة اليمنية حول عقد (معاهدة صنعاء) .

- مابين عام ١٩٣٧ – ١٩٤٠ كان أول حاكم بريطاني علىٰ عدن يرتبط بوزارة المستعمرات البريطانية .
- في عام ١٩٥٨ جاء الىٰ عدن ليعمل رئيساً للجنة الاستعلامات بخصوص منع استيراد «القات» من اليمن الىٰ محميات عدن .
- له اختصاص عميق في العلاقات العدنية - اليمنية منذ الحرب العالمية الاولىٰ .. وكان قد رافق الكولونيل هارولد جاكوب في بعثة فاشلة الىٰ اليمن عام ١٩١٩ .

وكما تختلف نوعيات القات كذلك تختلف أسعاره .. فقد يبلغ ثمن الربطة الواحدة من القات الجيد مايزيد على ثلاث ريالات من ريالات (السيدة ماريا تريزا) .. وربما كانت هناك أنواع ممتازة جداً من القات تباع الربطة الواحدة منه باكثر من هذا المبلغ .. ومن الأصناف المعروفة بجودتها مايزرع في منطقة (تعز) و (الوادي) و(يريم) و (برع) وغيرها كثير .. والجودة تنحصر في مذاق الاوراق وطراوتها وطراوة عساليجها .. وهناك نوع ممتاز يسمىٰ بـ (البخاري) لايستطيع الحصول عليه إلا الأثرياء ...

أما الأصناف الأقل جودة والاعتيادية فقد تباع الربطة الواحدة منها مابين ربع ريال الى ريال أو اكثر حسب الجودة الاعتيادية .. وتختلف اصناف القات من حيث جودتها باختلاف المناطق التي تزرع فيها .. ومثلها في ذلك تماماً كمثل شجرة البن .. فهي الاخرىٰ على أصناف في الجودة ، كما اسلفنا ، ولكل صنف ثمنه الخاص ..

ومُدمن القات كمدمن التدخين- ولا نزيد على ذلك احتراماً للمدمنين- ، فمدمن القات لايكتفي بربطة واحدة ولا ربطتين من القات .. بل قد يحتاج الى اكثر من ذلك لكي يحصل على «الكَيْف» الذي قال عنه السيد أمين الريحاني ...

و «الكيف» المطلوب من القات هو ما أوصل صاحبه الى حالة من النشوىٰ والخيال والأحلام .. ولكنها أبداً لاتصل بهم الى حدّ التخدير المعروف عن المخدرات أو المسكرات إطلاقاً .. ولكن لإدمان القات أضرار صحية اخرىٰ تستوجب اهتمام المسؤولين عن الصحة العامة لأفراد الشعب ..

فاذا افترضنا أن أحدهم كان يكتفي بربطتين من القات العادي في اليوم الواحد- وهذا مايندر حصوله- ، وأن هذا الرجل ينفق ريالاً واحداً فقط ثمناً لقاته وليس لقوته اليومي .. فذلك يعني ان مجموع ماينفقه شهرياً على القات فقط يبلغ (٣٠) ثلاثين ريالاً ..! فما الذي سيبقى من دخله الشهري لقوت عياله إن كان دخله الشهري لايزيد على اربعين او خمسين ريالاً ؟!

وكيف سيكون الحال مع ضابط من الجيش إذا كان برتبة ملازم أو ملازم أول ولا يزيد راتبه الشهري يومذاك عن عشر ريالات فقط . . ؟ !

ثم كيف سيكون الحال مع الجندي الذي لايزيد راتبه الشهري علىٰ الخمس ريالات . . ؟ !

وليس في هؤلاء جميعاً شخص واحد لايستعمل القات ؟

وأخيراً . . وليس آخراً . . كيف سيكون حال المجتمع اليمني -ككل- إذا كان ٩٩٪ من رجاله و٧٥٪ من نسائه و٨٥٪ من شبابه يستعملون القات إلىٰ حدّ الإدمان . . ؟ !

وإنه ليحزننا أن نسمع اليوم أن هذه النِّسب الثلاثة قد ارتفعت الى نهايتها العظمىٰ (١٠٠٪) وأن اسعار بيع القات قد بلغت أرقاماً جنونية يصعب تصديقها ...!

وللقات في اليمن مجالس خاصة .. نرجئ الحديث عنها الى الفصل الثالث من هذا الكتاب .. وليس هذا الفصل عنا ببعيد إن شاء الله .

١٤ – التكوين السكاني وتوزيعه في اليمن (١٩٤٠-١٩٤٣) انظر الخريطة رقم(٣) صفحة (٤٩)

إن التكوين السكاني في عموم اليمن ذو طابع قَبَلِيّ عشائري صِرف موغل في القِدم -حتىٰ قبل أن تقوم الدولة المعينية والسبأية والحميرية . . ! ويلعب التكوين الجيولوجي والجغرافي في التكوين السكاني وتوزيعه دوراً رئيسيا لأنه هو المسؤول الأول عن تقسيم اليمن الىٰ عدة مناطق سكانية شبه منعزلة عن بعضها البعض نظراً لانعدام طرق المواصلات وشدة وعورة الارض بما فيها من جبال ووديان صعبة المسالك حتىٰ بالنسبة للحيوانات . .

والتكوين الجيولوجي والجغرافي لم يترك إلا القليل من الاراضي الصالحة للزراعة . . وهذا بدوره اضطر غالبية السكان- وهم مزارعون- الىٰ استغلال كل شبر مربع من بطون الوديان وسفوح الجبال السفلىٰ للزراعة . . وهذا بدوره اضطرهم الىٰ بناء مساكنهم في الأعالي ضماناً للأمن والمراقبة . . ذلك لأن النزاعات المسلحة بين هذه المجمّعات السكانية أمر لامفر منه في غياب التطوير والتحديث وقوة القانون . . .

وهناك أسباب أخرىٰ لهذا التشتت السكاني في اليمن . . ومن أبرزها النزعة الاستقلالية التي يحرص عليها شيوخ القبائل . . وأن هؤلاء الشيوخ القَبَليّون يفرضون لأنفسهم أنساقاً مختلفة من التقسيمات الادارية للمناطق التي يستوطنونها . . وهذا مما ينجم عنه المزيد من

الخريطة رقم (٣)

خريطة التوزيع السكاني في اليمن بوضعه القديم

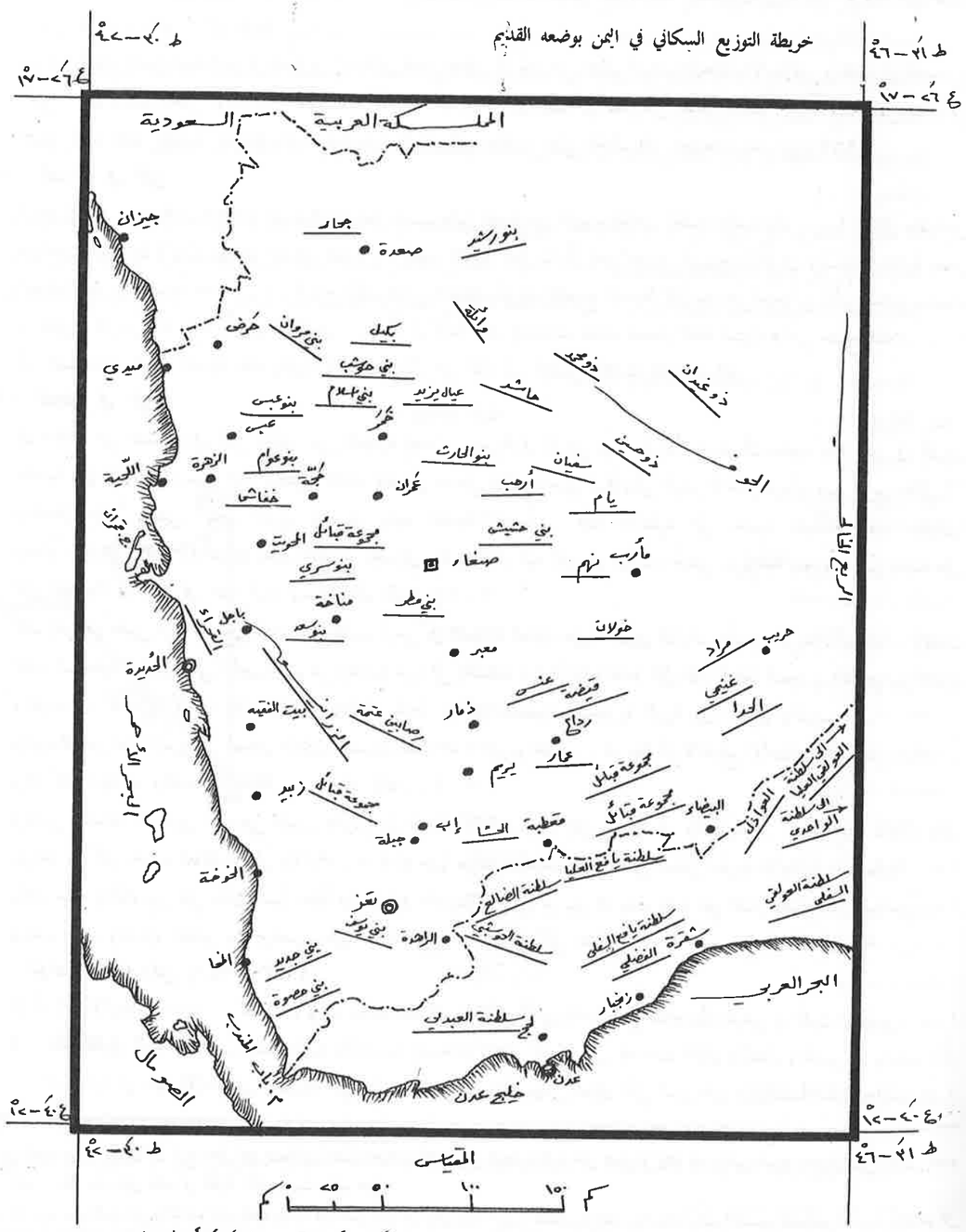

(مثال) بنو الحارث : قبيلة من السكان المرتبطين بالأرض ارتباطاً ريفياً لا يتنقلون وراء كلأ أو ماء، فهذا هو الطابع المميز للتوزيع السكاني في اليمن .

التشتيت السكاني . . ولما كان مجمل التعداد (التخميني) لسكان اليمن يتراوح بين الأربعة والخمسة ملايين نسمة (في الاربعينات) فان ظاهرة التشتت السكاني تزداد سوءاً نظراً لقلة عدد السكان . . إذ أن معظم التجمعات السكانية لايزيد عدد افرادها عن معدل يتراوح ما بين (٣٠ - ١٠٠) نسمة . . !

إن هذا الطابع القبلي العشائري في التكوين السكاني لليمن يمكن أن يُعتبر من اعظم أسباب التخلف الاجتماعي والحضاري للمجتمع اليمني . . كما ويُعتبر بنفس الوقت من اعظم المشاكل المستعصية التي يواجهها أي نظام من انظمة الحكم الحديثة . . وليس هناك ممن أدرك أبعاد هذه المعضلة المعقدة مثل الحكومات اليمنية التي تعاقبت علىٰ الحكم في (صنعاء) بعد ثورة ١٩٦٢ .

١٥ – الصناعة في اليمن

لم نجد في اليمن (١٩٤٠ - ١٩٤٣) أية صناعة ترتبط بنَسبٍ وثيق الصلة مع المفهوم المعاصر لكلمة «الصناعة» . . . ! إذ كل مافيها من صناعات معدودة لاتزال بطابعها البدائي القديم . . أللهم إلا إذا جاز لنا أن نعتبر مصنع النسيج القائم في (صنعاء) بادارة بعض اخواننا المصريين مصنعاً حديثا . . . . ! ومع ذلك فنحن لانعتقد بأن هذا المصنع البسيط كان مصنعاً ناجحاً . . لأن مبيعات منتجاته لا تغطي اكثر من ٧٥ ٪ من أصل التكاليف . . ! أو أن كلفة تلك المنتجات تعادل ضعف كلفة استيرادها من خارج البلاد . . . !

أما الصناعات اليمنية القديمة فقد يكون لنا معها اكثر من لقاء في الفصل الثالث إن شاء الله . .

١٦ – التجارة في اليمن

إن ماقلناه عن الصناعة في اليمن ينطبق علىٰ التجارة ايضا . . مع فارق تاريخي في غاية الأهمية هو أن حدود بلاد اليمن في القرون الماضية - كما ذكرنا في مستهل هذا الفصل - كانت تمتد من مدخل الخليج العربي شرقاً والىٰ البحر الاحمر غرباً ، ومن الربع الخالي [1] والحجاز شمالاً وحتىٰ البحر العربي ومضيق باب المندب جنوباً . . فاذا ما نظرنا الىٰ حدود المملكة اليمنية المتوكلية (حالياً - ١٩٤٠ - ١٩٤٣) أدركنا مدىٰ «التقوقع الجغرافي» الذي صار اليه اليمن في الوقت الحاضر . . وهذا بدوره يفرض نفسه علىٰ كل المجالات الأخرىٰ في هذا البلد ومنها المجال التجاري . .

كان اليمن فيما مضىٰ من التاريخ القديم يمثل قطب الرحىٰ في التجارة العالمية علىٰ مستوىٰ القارات (آسيا - افريقيا - أوربا) . . وكانت المدن الساحلية الرئيسية علىٰ البحر العربي من (عدن) غرباً الىٰ (مسقط) شرقاً بمثابة نقاط الإرتكاز للخط التجاري البحري بين الشرق والغرب . . تماماً كما كانت بلاد الرافدين والشام نقاط ارتكاز للخطوط التجارية البرية بين الشرق والغرب . . .

واليوم تقتصر تجارة اليمن علىٰ تصدير مادتين رئيسيتين فقط هما : البن والجلود . . شريطة أن لاتنقطع الأمطار الموسمية عن البلاد . . وإلا كان الجدب والقحط والهلكة . . والعياذ بالله . . !

ويقاس النشاط التجاري الخارجي لليمن بمقياس نشاط وإمكانيات ميناء اليمن الوحيد في (الحُديدة) . . وهو ميناء لايزال يلعق جراحه من آثار الحرب العالمية الاولىٰ (١٩١٤ - ١٩١٨) حينما تعرّض للقصف العنيف من السفن الحربية الايطالية والبريطانية . . . !

وكان ميناء (المخا) من قبل ذلك أسوأ حظاً من ميناء(الحديدة) . . إذ لم يبق مما يدل عليه غير الفنار القائم عند الساحل . . !

ويقف ميناء (عدن) العظيم يَعُدّ ويحصي علىٰ تجارة اليمن أنفاسها في كل مجال . . . . !

١٧ – المواصلات في اليمن (١٩٤٠ - ١٩٤٣) .

كما أن اليمن لاتوجد فيه انهار . . كذلك لاتوجد فيه مواصلات بالشكل الذي يتناسب مع مقام دولة تعيش في القرن العشرين . . . !

أ . **حالة الطرق الرئيسية** : بين المدن المهمة والعاصمة (صنعاء) لاتزال تقتصر علىٰ خدمات الجمال والبغال والحمير . . وعندما فكّر المسؤولون في عهد الإمام يحي بالطريقة التي تناسبهم لتحسين حالة بعض الطرق لكي تسير عليها سيارات الحكومة والمسؤولين لم

---

(١) من المعلوم جغرافياً وتاريخياً أن الربع الخالي كان صقعاً كبيراً عامراً بالحياة تسلكه القوافل التجارية البرية حتىٰ تصل الىٰ بلاد نجد وأرض السواد (بلاد الرافدين) وأرض الشام ايضا . . وقد جاء دليل ذلك في القرآن الكريم حيث يقول تعالىٰ :

* «وجعلنا بينهم وبين القرىٰ التي باركنا فيها قرىً ظاهرةً وقدّرنا فيها السَّيْرَ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين * فقالوا ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم أحاديثَ ومزّقناهم كل مُمَزّق إن في ذلك لآيات لكل صَبّارٍ شكور» ١٨ – ١٩ سبأ .

القرىٰ المباركة هي قرىٰ الشام . . والقرىٰ الظاهرة هي التي بين اليمن وارض الشام . . وكلمة (القرىٰ) تعني المدن .

يجدوا خيراً من أسلوب «السُّخرة» . . وهو أسلوب يفرض علىٰ كل منطقة سكانية يمر منها الطريق أن يقوم أهلها بتحسين حالة ذلك الطريق بوسائلهم الهزيلة التي كان يعمل بها إنسان القرون الوسطىٰ . . . ! وعند عدم استطاعة سكان المنطقة من القيام بالسخرة المفروضة عليهم وجب أن يدفعوا مبلغاً معيناً من المال للحكومة بإسم فتح الطرق لأبناء الشعب . . . !

لذلك لم يستطع المسؤولون أن يحققوا أو يُنجزوا غير الطرق الرديئة التي لاتصلح حتىٰ لمسير الدراجات البخارية او سيارات الجيب العسكرية في أحسن الاحتمالات . . !

إن سوء حالة الطرق في اليمن تنعكس آثاره المباشرة علىٰ الحالة الاقتصادية العامة في البلاد فتتركها في مستوىٰ طاقة الجمال والبغال والحمير . . . !

أما الطرق الثانوية التي تربط مراكز الأرياف مع بعضها فقد ضاقت بها ذرعاً حتىٰ البغال الجبلية المتمرّسة . . ! وسيكون لنا حديث آخر عن سوء حالة الطرق الرئيسية عندما نتناول الفصل الخاص بسفر البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن عن طريق (عدن - تعز - الحديدة - معبر - صنعاء) . . . . وعندئذ فقط تتكامل الصُوَر الحقيقية لهذا الموضوع . . وندرج فيما يلي أهم طرق المواصلات في اليمن ومسافاتها بالكيلو مترات : -

إسم الطريق	طوله بالكيلو متر
تعز - الحديدة .	٢٥٦
تعز - الراهدة - الشريجة .	٥٧
الحديدة - صنعاء	٢٢٦
صنعاء - تعز (الطريق الداخلي) .	٢٥٦
صنعاء - عمران - حَجّة .	٥٠ - ٧٧
صنعاء - شبام - ثلاء .	٣٤ - ١٣
صنعاء - صعدة .	٢٤٣
صنعاء - مأرب .	١٧٨
صنعاء - ذمار - البيضاء .	١٠٠ - ١٦٨
الحديدة - جيزان .	٢٠٦
تعز - المفرق - المخا .	٦٣ - ٤٤
تعز - التربة .	٦٥
ميديّ - حرض .	٣٢
حيس - الخوخة .	٢٨
مأرب - حريب .	٩٩
إب - جبلة .	٦

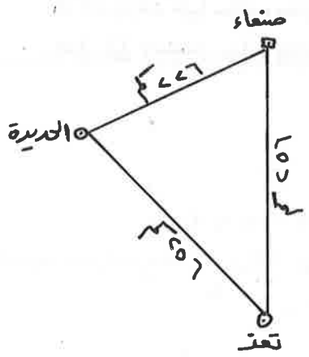

٢ . المواصلات السلكية :

كانت مقتصرة علىٰ أسلاك البرق الممتدة بين العاصمة (صنعاء) وأهم المدن الرئيسية في اليمن . . ويرجع الفضل في إنشائها الىٰ الوالي العثماني (عبد الله باشا) عام ١٣١٨ هـ ، وكان عبد الله باشا هذا قائداً للجيش العثماني في اليمن ثم أصبح والياً علىٰ اليمن بعد عزل حسين حلمي باشا . .

وأسلاك البرق هذه مرفوعة علىٰ مختلف الانواع والاشكال من جذوع الاشجار اليابسة المثبّتة فوق دعائم مبنية بالحجارة والطين علىٰ هيئات هزيلة ومضحكة . . كثيراً ما كانت سيول الأمطار تتكفل بتخريبها فتنقطع المواصلات البرقية لعدة أيام وأسابيع ريثما

يجري تصليح أو إعادة بناء تلك الدعائم بطريقة «السخرة» أيضاً . . . . !

علىٰ أن اليمن يرتبط بالعالم الخارجي عن طريق التلغراف الدولي الذي تسيطر عليه (عدن) سيطرة تامة . .

٣ . **المواصلات اللاسلكية :**

هناك محطة لاسلكية في صنعاء من أقدم طراز . . ولايستطيع أحد الاقتراب منها بدون ترخيص مقيّد من الإمام . . وموقع هذه المحطة يلاصق المباني الملكية التي تضم «المقام الشريف» أو «المخيم المنصور» أو «الديوان الملكي» . . ولا أحد غير الإمام وقلّة من رجال حاشيته يعرف كيف ومتىٰ تعمل هذه المحطة اللاسلكية . . ؟ ! أما (عدن) البريطانية - ١٩٤٠ / ١٩٤٣ فقد تعلم الشيء الكثير عن هذه المحطة . . وربما اكثر مما يعلمه الإمام نفسه . . . !

٤ . **المواصلات التلفونية :**

لم نجد في اليمن أية مواصلات تلفونية علىٰ الاطلاق . . ومع ذلك رأينا واحداً أو اكثر من المسؤولين في حكومة الإمام يحتفظون بآلة التلفون فقط كقطعة أثرية غالية في اماكن وظائفهم . . وسنذكر بعض هؤلاء في سياق الخبر عنهم في الفصول القادمة إن شاء الله .

٥ . **البريد :**

لاتزال خدمة البريد في اليمن تعتمد علىٰ «السُّعاة» من البشر وعلىٰ «البغال» من الحيوان . . فالرسالة البريدية من (صنعاء)الىٰ (عدن) مثلاً . . تستغرق حوالي اسبوعين في أحسن الظروف . . وليس في ذلك ما يُغيظ أي انسان في اليمن عدا صاحب الرسالة إن كان يتوقف عليها معاشه ومعاش عياله . . إذ ليس في اليمن شيء أرخص من الوقت . . ولنا عودة في الكلام عن «البريد» حينما نصل الىٰ (صنعاء) سالمين باذن الله . .

* **إنتهىٰ الفصل الاول من الكتاب .**

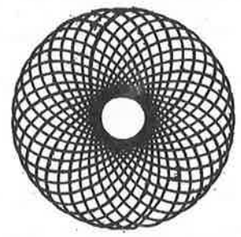

الفصل الثاني

لمحات تاريخية عن اليمن

ليس من أهداف هذا الفصل التوغل في تفاصيل تاريخ اليمن قبل وبعد ظهور الإسلام . . لأن ذلك كله محفوظ في كتب التاريخ للأمة العربية ومعروف بالضرورة لدىٰ كل الدارسين والباحثين المعنيين بهذا التاريخ . .

إلا أن هدفنا الرئيسي في هذا الفصل هو التعرف علىٰ كيفية ظهور «الإمامة الزيدية» في العالم الإسلامي بوجه عام وفي اليمن بوجه خاص حتىٰ انتهائها الىٰ الإمام يحيىٰ بن محمد حميد الدين الذي في عهده كان وصول البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن (١٩٤٠ - ١٩٤٣) . . . ولوصل الماضي البعيد بالماضي الوسيط والحاضر القريب بإيجاز مفيد نقدم فيما يلي هذا العرض التاريخي المجمل عن اليمن : -

١ - **دول اليمن قبل الاسلام - في سطور .**

أ . **الدولة المعينية** - Kingdom of Main .

حكمت اليمن من (٤٠٠٠ - ١٠٠٠) قبل الميلاد ، وقيل حكمت من (٣٠٠٠ - ١٠٠٠) ق . م

كانت عاصمتها القديمة (معين) ثم تحولت الىٰ (قرناو - Qarnaw) علىٰ وادي الجوف في الشمال الشرقي من اليمن . .

لقد حاول الرومان خلال القرن (٢٤ ق .م) الاستيلاء علىٰ الجنوب العربي بحملة عسكرية ارسلوها بقيادة (إيليوس كالوس - Aelius Gallus) ، إلا أن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً قبل ان تصل الىٰ شمالي اليمن . . ويروي المؤرخ (سترابو - strabo) أن الدليل النبطي من (بترا) كان قد تعمّد تضليل الحملة وتوجيهها نحو صحراء الربع الخالي . . . . .

ب . **الدولة الحضرمية** - Kingdom of Hadhramaut

حكمت اليمن من (١٠٦٠ - ٩٨٠) قبل الميلاد ، ويزعم بعض المؤرخين أنها اندمجت مع مملكة (معين) في عام (٩٨٠) ثم انفصلت عنها في عام (٦٥٠) ق . م . ثم خضعت لملوك سبأ .

كانت عاصمتها (شبوة - shabwa) علىٰ وادي (عرمة) .

ج . **الدولة السبأية** - Kingdom of saba "sheba" .

حكمت اليمن من (٨٥٠ - ١١٥) ق . م . ، وربما كان ظهورها قبل ذلك (١٠٠٠ - ١١٥) ق . م .

كانت عاصمتها في عهد الملوك (مأرب - Mareb) علىٰ وادي (أُذُنة) ، وفي عهد المكارب - جَمْع (يكرب) صارت عاصمتها (صُرْواح - Surwah) عند جبل (صرواح) الىٰ الشمال الشرقي من (صنعاء) ...

د . **الدولة الحميرية الأولىٰ** - The first Kingdom of Hmyar

حكمت اليمن من (١١٥ - ق . م) الىٰ (٢٧٥ - ب . م) ، وقيل حكمت من (١١٥ - ق . م) الىٰ (٣٠٠) ب . م .

كانت عاصمتها (مأرب) ثم (ظفار - Dhofar) علىٰ وادي (بَنا) الذي يخترق جنوب الهضبة بالقرب من بلدة (يريم) حالياً في الجنوب الاوسط من اليمن ..

ه . **الدولة الحميرية الثانية** - The Second Kingdom of Hmyar or Kingdom of Tababiaa . أو دولة التبابعة

حكمت اليمن من (٢٧٥ - ٥٢٥) ب . م ، وقيل من (٣٠٠ - ٥٢٥) ب .م .

كانت عاصمتها (ظفار) ، ثم (صنعاء - SANAA) .

و . **الدولة القتابية** - Kingdom of Qattaban

حكمت اليمن من (٨٦٥ - ٥٤٥) ق .م

كانت عاصمتها (تمنا - Timna) أو (تمنع) علىٰ وادي (بيحان) ..

- من مواقع عواصم هذه الدول اليمنية القديمة يُلاحَظ أن حضارات اليمن القديمة كانت تتركّز في مناطق الوديان من مشرق اليمن حيث تلتقي سفوح الجبال الشرقية برمال مفازة (صَيْهَد) وهي (رملة السبعتين) وهي جزء من الربع الخالي ..
- إن هذه التواريخ التي ذكرها المؤرخون عن مبدأ ظهور هذه الدول القديمة ومدة الفترات التي حكمت فيها اليمن لاتزال عرضةً

للشك وعدم اليقين التام نظراً لقلة الآثار التي تم اكتشافها حتىٰ الآن .. ومالم يجر التنقيب عن الآثار بمقياس واسع بعد إجراء مسح آثاري شامل في اليمن .. فستظل المعلومات الدقيقة والجازمة تحت التراب .. وسيظل المؤرخون يرجمون بالغيب الىٰ ماشاء الله .. !

٧ . **الدور الحبشي في اليمن**

من عام (٥٢٥ – ٥٧٥) ميلادي ..

٨ . **الدور الفارسي في اليمن**

من عام (٥٧٥ – ٦٣٢) ميلادي .

٢ – دول اليمن بعد الاسلام (عام الفيل – ٥٧٠ م) ، (عام الهجرة – ٦٢٢ م) .

١ . في السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨ م) دخل أهل اليمن في الاسلام .. وظلوا كذلك طوال عهد الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية في الشام يحكمهم عمال الخلفاء من دار الخلافة ..

وكان أبو موسىٰ الأشعري وقبيلته (الأشاعر) أول من دخل الاسلام من اهل اليمن ، وفي سنة (٦٣٠) م عاد أبو موسىٰ الأشعري الىٰ وادي (زبيد) في اليمن وشيد جامعاً لايزال يُعرف اليوم بجامع الأشعري .. وبعد مائتي عام خطط مؤسس الدولة الزيادية مدينة (زبيد) من حول جامع الأشعري ..

وبعد عودة أبو موسىٰ الاشعري الىٰ اليمن تعاقبت بعوث الدعوة الاسلامية الىٰ اليمن .. فكان بناء الجامع الكبير في (صنعاء) من قِبَل (فروة بن مُسَيْك ، و وَبْربن يوحانس الأنصاري ، وفيروز الديلمي) ، وكان بناء جامع (الجَنَد) بالقرب من (تعز) علىٰ يد الصحابي الجليل (مُعَاذ بن جَبل) رضي الله تعالىٰ عنهم اجمعين ..

٢ . في القرن التاسع الميلادي (٢٠٢ هـ) إنفصلت اليمن عن الخلافة العباسية إبان خلافة المأمون .. وقامت سلسلة من الدول والدويلات تحكم اليمن بالتعاقب علىٰ الوجه التالي : –

اولاً – **الدولة الزيادية** : (نسبةً الىٰ محمد بن عبد الله بن زياد الأموي) .

حكمت في اليمن من (٢٠٥ – ٤٠٢ هـ) ، ٨٢١ – ١٠١٨ م

كان مركزها في (زبيد) .

ثانياً ـ الدولة اليعْفُرية : (نسبةً الىٰ ابراهيم بن يعفر الحميري) .

حكمت في اليمن من (٢٢٥ – ٣٩٣ هـ) ، ٨٣٩ – ١٠٠٧ م .

كان مركزها في (شبام) ثم (صنعاء) .

ثالثاً ـ الدولة النجاحية : (نسبةً الىٰ الأمير نجاح) أحمد مولى بني زياد (الدولة الزيادية) .

حكمت من (٤٠٣ – ٥٥٥ هـ) ، ١٠١٣ – ١١٦٥ .

كان مركزها في (زبيد) .

رابعاً ـ الدولة الصُلَيْحية : دولة فاطمية إسماعيلية (نسبةً الى علي بن القاضي محمد الصُليحي ، الذي يرجع نسبه الى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان) ..

حكمت من (٤٣٩ – ٥٣٢ هـ) ، ١٠٤٧ – ١١٤٠ ، وكانت موالية للدولة الفاطمية في مصر .

كان مركزها في (حراز) ثم في (جِبلة) بالقرب من مدينة (إب) .

خامساً ـ الدولة الزُريعية : (نسبةً الى بني زُريع الهمدانيين) .

حكمت من (٤٧٠ – ٥٦٩ هـ) ، ١٠٧٧ – ١١٧٦ م .

كان مركزها في (عدن) ..

سادساً ـ الدولة الحاتمية : (نسبةً الى السلطان حاتم بن علي بن الغشم المغلسي) ..

حكمت من (٤٩٢ – ٥٦٩ هـ) ، ١٠٩٩ – ١١٧٦ م .

كان مركزها في (صنعاء) ثم في (شبام) .

سابعاً ـ الدولة المهدوية : (نسبةً الى علي بن مهدي الحميري) ..

حكمت من (٥٥٣ – ٥٦٩ هـ) ، ١١٥٨ – ١١٧٤ م .

كان مركزها في (زبيد) .

ثامناً ـ الدولة الأيوبية : (نسبةً الى السلطان صلاح الدين الأيوبي) ..

حكمت من (٥٦٩ – ٦٢٥ هـ) ، ١١٧٣ – ١٢٢٩ م لحساب الدولة الفاطمية في مصر ..

كان مركزها في (زبيد) .. وقيل في (تعز) ...

تاسعاً – **الدولة الرسولية** : (نسبةً الىٰ المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي ينتهي نسبه إلىٰ جَبَلة بن الأيهم آخر ملوك بني غسان في أرض الشام) .

حكمت من (٦٢٥ – ٨٥٨ هـ) ، ١٢٢٩ – ١٤٦٢ م . وكانت هذه الدولة من اكثر دويلات اليمن حرباً مع الأئمة الزيود في شمال اليمن ..

كان مركزها في (تعز) ..

عاشراً – **الدولة الطاهرية** : (نسبةً الىٰ علي بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين) من موالي الرسوليين علىٰ عدن ..

حكمت من (٨٥٨ هـ – ٩٣٢ هـ) ، ١٤٥٤ – ١٥٢٨ م . وفي عهد هذه الدولة دخل الشراكسة الىٰ اليمن في زمن السلطان قانصوه الغوري في مصر (١٥١٧ – ١٥٣٨ م) .

كان مركزها في (المقرانة) عند بلدة (رداع) الحالية .

- في عام (٢٨٠ هـ) – أي في مطلع قيام الدولة اليعفرية في اليمن (٨٣٩ م) كان بدء ظهور (الامامة الزيدية) في اليمن كما سنأتي الىٰ تفصيله بعد حين .. وقد عاصر الأئمة معظم الدول والدويلات اليمنية التي قامت بعد إلانسلاخ عن الخلافة العباسية . ولكن نفوذ الأئمة ظل محصوراً في مناطق ضيقة من شمال اليمن مثل : (صعدة) و (ذمار) ..
- في القرن السادس عشر ميلادي خضعت أجزاء من اليمن لحكم الدولة الفاطمية في مصر (المماليك الشراكسة – ١٥١٧ – ١٥٣٨ م) .
- ثم كان الاحتلال التركي العثماني لليمن علىٰ ثلاث فترات : –

الفترة الأولىٰ – عام (١٥٣٨م – ٩٥٤ هـ) وقام الأئمة الزيود بالتصدي لهذا الاحتلال .. وأرغموا العثمانيين علىٰ الجلاء الىٰ تهامة اليمن ..

الفترة الثانية – عام (١٥٦٩ م – ٩٧٦ هـ) واستمرت الحرب بين الأئمة والأتراك حتىٰ كان الجلاء مرةً ثانية الىٰ تهامة اليمن ..

الفترة الثالثة – ظل اليمن محتفظاً بسيادته قرابة (٢٢٠) عاماً .. ثم دبّ النزاع بين الأئمة أنفسهم حتىٰ استنجد أحدهم (المتوكل محمد بن يحيىٰ بن المنصور علي) بأمير مكة يومها (الشريف محمد بن عون وتوفيق باشا لإمداده بقوات عثمانية ....) . ولكن هذه القوات أُرغمت ايضاً علىٰ التراجع الىٰ تهامة ...

وفي عام (١٨٧٢ م) عاد العثمانيون بقوات جديدة بقيادة أحمد مختار باشا وتمكنت من احتلال (صنعاء) ولكنها لم تستطع التوغل في شمال اليمن حيث يعتصم اليمنيون بالمعاقل الجبلية المنيعة .. وكانت سلطة الإمامة قد تركّزت في عائلة (حميد الدين) .. ودامت الحروب بين الطرفين لمدة تقرب من نصف قرن انتهت بانتصار الإمام (يحيىٰ بن محمد حميد الدين) في معركة (شهَارة) المشهورة مما اضطر العثمانيين الىٰ عقد معاهدة صلح مع الإمام يحيىٰ سنة (١٩١١ م) عُرفت بمعاهدة (دعان) ، ودعان جبل وبلدة معروفين غربي مدينة (عمران) شمال غربي (صنعاء) ... أما المصير العثماني في اليمن فقد قررته السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولىٰ (١٩١٤ – ١٩١٨) التي خسرها العثمانيون مع حلفائهم الألمان .. فصدر الأمر بانسحاب العثمانيين من اليمن نهائياً الىٰ غير رجعة ..

كان ذلك عرضاً مجملاً لتاريخ اليمن منذ قيام الدولة المعينية عند مشارف الربع الخالي في شمال شرق اليمن وحتىٰ قيام المملكة اليمنية المتوكلية في مطلع القرن العشرين للميلاد . . .

والآن ... إلىٰ مجمل تاريخ المذهب الزيدي والأئمة الزيود انتهاءً بالإمام يحيىٰ بن محمد حميد الدين الذي في عهده كان وصول البعثة العسكرية العراقية الى اليمن .

٣ – ماهي الزيدية وكيف جاءت الىٰ اليمن ؟

الزيدية هي إحدىٰ بضع عشرة فرقة من فرق الشيعة المتعددة والمتشعبة ... وفرقة الزيدية إشتقّت إسمها من الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه ...

كان الإمام زيد بن علي ، رضي الله عنه ، يرىٰ أن شخصه أحق بالخلافة الإسلامية من هشام بن عبد الملك الأموي (١٠٥ – ١٢٥ هـ) .. ولا غرابة فيما كان يراه الإمام زيد من حقه هذا .. فهو لم يبتدع جديداً في تاريخ أهل البيت منذ انتقال الرسول الأعظم ، صلىٰ الله عليه وسلم ، الىٰ الرفيق الاعلىٰ .. ومروراً بمأساة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومن بعده الحسن والحسين رضي الله تعالىٰ عنهم جميعاً .. فهي سلسلة متواصلة من المآسي توارثها آل البيت كابراً عن كابر ...

فلما قام زيد بن علي يطلب «حقاً» سارع اليه أهل الكوفة مناصرين .. وحرضوه علىٰ الخروج علىٰ الأمويين فتبعه من أهل الكوفه وما حولها أربعين ألف سيف ... !

وبادر اكثر من عاقل ومخلص فنصحوا الإمام زيداً بالعدول عن ذلك وذكّروه بما وقع لجدّه الحسين يوم ناصره خلق كثير ثم نكص معظمهم علىٰ عقبيه فلم يبق من حول الحسين غير شرذمة قليلة لاتقوىٰ علىٰ شيئ .... ! كما ذكّروه بما فعله اهل الكوفة انفسهم مع الحسين رضي الله عنه .. فكان جوابه : «لقد بايعوني فوجبت البيعة في عنقي وأعناقهم» ...

فلما وقعت الواقعة بينه وبين بني أمية تفرّق عنه اكثر الذين بايعوه علىٰ النصرة .. فلم يبق من الأربعين ألفاً إلا القليل .. ! وسقط زيد بن علي شهيداً في القتال .. وكان ذلك في عام (١٢٢ هـ) .. ولم يَسْلم الشهيد من المُثْلة والتشهير ثم الإحراق بالنار .. !

وهرب إبنه يحيىٰ الىٰ خراسان حيث ظل هناك متخفياً يبث الدعوة ويُرسل بالدعاة ويستعد للثورة .. ولكن مصيره كان أسوأ من مصير أبيه .. فقد قُتل في حربه مع الوليد الثاني بن يزيد الثاني الأموي .. ثم صُلِب ثم أُحرق بالنار ثم نُسف رماده في يَمّ الفرات .. وكان ذلك في عام (١٢٥ هـ) ...

وقد روَىٰ العديد من الثقاة أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان ، رضي الله عنه ، كان يميل الىٰ الإمام زيد بن علي وينصره .. بينما كان الكثير من الشيعة يقولون بإمامة أخيه محمد الباقر .. ثم بابنه جعفر الصادق .. ولأن زيد بن علي كان يغلب عليه الإعتدال في التشيّع اعتدالاً يُغيظ الغلاة من الشيعة .. وكان وجه الاعتدال يتمثل في اكثر من اتجاه .. من ذلك مثلاً أن زيد بن علي ، رضي الله عنه ، كان لايفتأ يترضّىٰ علىٰ الخليفتين الأولَيْن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .. فلما رفض الشيعة بيعته سمّاهم زيدٌ بالرافضة[1] .... !

ويقول ابن خلدون في تاريخه ماخلاصته : –

[عندما اعتلىٰ الخليفة العباسي المأمون كرسي الخلافة ظهر الدعاة الطالبيون وأعلنوا الرئاسة في العراق لمحمد بن ابراهيم طباطبا . ومحمد هذا هو الابن الاكبر لابراهيم فهو محمد بن ابراهيم طباطبابن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وعندما قُتل محمد بن ابراهيم طباطبا ظهر جعفر الصادق بن محمد وقد نودي به في الحجاز] .. أما في اليمن فان حكاية (الزيدية) كما يلي : –

في نهاية القرن التاسع الميلادي (القرن الثالث الهجري) كانت القبائل الهمدانية في شمال اليمن في تنازع شديد فيما بينها .. حتىٰ ظن الناس أن الحل الوحيد لمنازعاتهم إنما يأتي علىٰ يد رجل منصف ومحايد يتوسط فيما بينهم .. فبادروا في عام (٢٨٠ هـ – ٨٩٢ م)

(١) كان هذا اقتباساً وتلخيصاً وتنسيقاً من عدة مراجع معتمدة تبحث في المذهب الزيدي وفِرَق الشيعة الأخرىٰ .. ومن تلك المراجع علىٰ سبيل المثال :
كتاب «مختصر التحفة الاثنىٰ عشرية» – اختصار وتهذيب علاّمة العراق السيد محمود شكري الآلوسي – ١٣٠١ هـ المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٣ م .
كتاب «نهج السلامة الىٰ مباحث الإمامة» لأبي الثناء الشهاب الآلوسي الكبير .
كتاب «طوق الحمامة في مباحث الإمامة» للامام المؤيد بالله يحيىٰ بن حمزة الزيدي .
كتاب «ملوك العرب» للريحاني – ج ١ – ص ١٢٩ – ١٣٤ / ط٢ – دار صادر – بيروت ١٩٢٩ .

طالبين الىٰ يحيىٰ بن الحسين بن القاسم الرّسّي أحد الاشراف المتحدرين من آل البيت[1] ، وكان يقيم في المدينة المنورة ، التوجه اليهم في اليمن لحسم النزاعات فيما بينهم .. ولما قدِم يحيىٰ الىٰ (صعدة) أفزعته حالة النزاع القائم بين قبائل همدان .. فعاد أدراجه الىٰ المدينة المنورة[2] .. ولكن القبائل عادت بعد بضع سنوات وألحّت علىٰ عودة يحيىٰ بن الحسين ليتولىٰ أمرهم فتوجه يحيىٰ مرة ثانية الىٰ اليمن **واستطاع في مطلع عام (٢٨٥ هـ–٨٩٧ م) من تاسيس اول دولة زيدية في اليمن ولقّب نفسه بالهادي الىٰ الحق المبين .. ولم تكن له** أية مطامح شخصية[3] .. بل على العكس فقد كان رجلاً زاهداً في الدنيا[4] .. وكان يقول : [أقسم بالله العظيم .. لو أنني أعلم أن هناك من هو أجدر مني للقيام بهذا الواجب بالوقت الحاضر لكنتُ تبعته حيثما كان .. أو أحارب تحت رايته ...][5] ..

وكما نجح يحيىٰ بن الحسين في تحقيق المصالحة بين القبائل المتحاربة في اليمن .. فقد نجح أيضا في إفهامهم مبادئه القائمة علىٰ اساس العلاقة الدائمة بينه كإمام وبينهم كشيعة ينتسبون اليه .. فكان يقول لهم : [لأجل أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر أنا وانتم جميعاً فانني سألتزم في معاملتي لكم بالكتاب والسُّنة .. وإنني سأوثركم علىٰ نفسي .. ولا انتهز مغنماً لنفسي .. وسأعطيكم أول شطرٍ من اي مغنم نحصل عليه .. وسأكون في مقدمتكم عند مجاهدة العدو .. وفي مقابل ذلك .. أطلب منكم أمرين : التمسك بكتاب الله تعالىٰ وإطاعة تعاليمي في السّر والعلن .. ولي عليكم الطاعة مادمتُ أنا في طاعة الله ...][6] .

وأصبحت نظرته الواضحة في القيادة قواعد متماسكة في إدارة شيعته .. وصار هو نفسه يتقاضىٰ راتباً مقرراً من بيت المال كبقية رجال دولته .. وكان يطلب الىٰ كل عامل من عماله علىٰ الأقاليم أو المدن أن يدفع إيجاراً من راتبه عن الدار التي يستأجرها لسكناه .. ولاينبغي له أن يقبل أية هدية .. ومن إصلاحاته أنه وضع حداً فاصلاً مابين أملاك (بيت مال المسلمين) وبين الأملاك الشخصية ..

وقد رُوي عنه أنه كان يرفض استعمال منشفة اليد أثناء التغسيل إذا علم بانها تعود الىٰ بيت مال المسلمين .. !

ولما توفي الإمام[7] الهادي يحيىٰ بن الحسين دُفن في (صعدة) ولايزال ضريحه فيها .. ولقد اصبحت التعاليم الثابتة التي وضعها الهادي يحيىٰ بن الحسين أساساً لنظام الدولة الزيدية .. وقد كانت التعاليم الوحيدة التي دامت حتىٰ القرن العشرين للميلاد .. ومن تلك التعاليم أن أي شخص تتوفر فيه شروط الإمامة الأربعة عشرة ، من بينها الانتساب الىٰ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، يمكنه أن يصبح إماماً زيدياً ....[8]

والزيدية تحصر الإمامة في أولاد فاطمة الزهراء عليها السلام فلا تجوز في غيرهم .. فالإمام الزيدي إما أن يكون حسنياً أو حسينياً طالما استوفى شروطاً عدَّدوها كالآتي : –

أن يكون :

١ . مكلّفاً (بالغاً) .	٥ . علوياً .
٢ . ذكَراً .	٦ . فاطمياً .
٣ . حُراً (أي ليس بعبد) .	٧ . عَدْلاً .
٤ . مجتهداً .	٨ . سخياً .

(١) الىٰ (٦) – قمنا بترجمة هذه المحتويات من كتاب باللغة الانكليزية هذه هي هويته : –

Traveller's Guide To Yemen " Prepared by Fritz Piepen burg - - on behalf of the Yemen Tourism Company Sana a , April 1983 . Yemen Arab Republic .

واشتملت ترجمتنا علىٰ الصفحات (48 — 47)

وقد ساعد في تأليف هذا الكتاب من الوجهة التاريخية عن اليمن الدكتور سلطان ناجي من جامعة (عدن) .

(٧) (٨) قال الريحاني في الصفحة (١٣٤/١٢٩)ج١ [أن السيد يحيىٰ بن الحسين جاء الى اليمن من العراق يدعو الناس الى المذهب الزيدي..فأقام في صعدة يعلّم عدة سنين ودُعي الإمام . هو رسول الزيدية الأول في اليمن . . ولكن الذي أسس الإمامة في صعدة هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالقاسم الرسّي المذكور . .] . .

•لايمكن أن يكون السيد يحى بن الحسين هذا قد جاء من العراق الى اليمن . . لأنه هو وجدّه القاسم كانا قد فرّا الى السند في الهند هرباً من العباسيين بعد مقتل محمد بن ابراهيم طباطبا . . لذلك فالاقرب للصحيح هو أن يكون يحي بن الحسين قد جاء من المدينة المنورة في الحجاز وليس من العراق . . إنه يحي بن الحسين بن القاسم الرسّي بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه حينما بعثه الرسول الكريم ، صلىٰ الله عليه وسلم . داعياً للإسلام في اليمن . . .

دخلت في الأسلام على يد علي بن ابي طالب كرم الله وجهه .

(٨) وهاتين الفقرتين اعلاه هما أيضاً بقية ما ترجمناه من الكتاب الانكليزي المنوه عنه في هامشنا رقم (٦) أعلاه .

٩ . ورعاً .
١٠ . سليم العقل .
١١ . سليم الحواس .
١٢ . سليم الاطراف .
١٣ . صاحب رأي وتدبير .
١٤ . مقداماً فارساً .

وأهم هذه الشروط عندهم أن يكون الإمام :

١ . مكلفاً (بالغاً) .
٢ . حراً .
٣ . مجتهداً .
٤ . مقداماً فارساً .
٥ . علوياً فاطمياً .

وقالت الزيدية بأن الإمامة بعد الحسن والحسين شورىٰ في وُلدهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الىٰ دينه ، مستوفياً للشروط كلها .. فانه هو الإمام المنتظَر ..

وبسبب هذا الشرط (مقداماً فارساً .. شاهراً للسيف ..) تشعبت الزيدية الىٰ ثلاثة فِرق ..... ! فقد ذكر الشهر ستاني (٥٤٨ هـ) في كتابه «المِلَل والنِّحَل» هذه الفِرق الثلاث فقال : –

١ . الجارودية – نسبةً الىٰ أبي الجارود ، زياد بن أبي زياد الذي سُمي سَرْحوباً .. والسرحوب كما قيل شيطان أعمىٰ يسكن البحر .
وهذه الفرقة زعمت أن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، نّص علىٰ استخلاف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، بالوصف دون التسمية ، فالإمام بعده علي بن ابي طالب .. كما أن هذه الفرقة تختلف والفِرق الاخرىٰ في الإمام المنتظَر ..

٢ . السليمانية – نسبةً الىٰ سليمان بن جرير ، قالوا بأن الإمامة شورىٰ بين الخلق وهي تصحّ في المفضول مع وجود الأفضل .. وأثبتوا إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

٣ . الصالحية والبترية – فالصالحية هم أصحاب الحسن بن صالح بن حي ، والبترية أصحاب كثيرالنوىٰ الأبتر ، وهما متفقان في المذهب وقولهم في الإمامة كقول السليمانية إلا أنهم توقفوا في أمر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ..

لم يستقم الأمر للزيدية طوال عهد بني أمية . . فلما استخلف العباسيون تغير الحال . . فقامت هناك دولة زيدية في طبرستان علىٰ عهد الخليفة العباسي المنتصر بالله وهو الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني العباس . . كما قامت دولة زيدية أخرىٰ في اليمن حكمت ما بين عام (٢٨٨ - ٣٠٣ هـ) . . ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار في حكم البلاد لفترات طويلة بسبب النزاعات والانشقاقات فيما بينهم من جهة ومع دار الخلافة من جهة أخرىٰ . . وظلت الحال كذلك حتىٰ مَلكَ الأيوبيون علىٰ اليمن حينما ارسل السلطان صلاح الدين الأيوبي أخاه (توران شاه) الىٰ اليمن فتقدم الىٰ مدينة (زبيد) ثم دانت له كل اليمن (٥٦٩ هـ) . . فلما استتب له الأمر عاد الىٰ مصر . . ثم وجّه السلطان صلاح الدين الىٰ اليمن أخاه الملك العزيز سيف الإسلام [1] (طغتكين) فوصلها عام (٥٧٧ هـ) وظل يحكم اليمن حتىٰ توفي عام (٥٩١ هـ) . . ثم تعاقب علىٰ اليمن حكام كثيرون . . وظلت الإمامة الزيدية في منأىً عن التقلبات السياسية في البلاد . . حيث انتقلت السلطنة من الأيوبيين الىٰ الرسوليين [2]، وهم من موالي الايوبيين وملكوا اليمن مدة طويلة [3] . . ثم أعقبهم العثمانيون علىٰ اليمن عام (٩٥٤ هـ) . . وظلت الحروب الداخلية سجالاً بين الأئمة الزيود وبين العثمانيين أمداً طويلاً ربما ناهز أربعة قرون تخللتها فترات استقرار عديدة . .

وقبل ان يثبّت العثمانيون أقدامهم علىٰ هضبة اليمن كانت هناك فترات من الفوضىٰ وعدم الاستقرار في اليمن بسبب التنازع علىٰ الإمامة . . فكانت تلك الفترات من أسوأ ما مرّت به الزيدية في تاريخها الطويل حتىٰ سقطت هيبة اولئك الأئمة الىٰ الحضيض . . بعد أن كان اليمن في عهد الأئمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل علىٰ (عُمان) وحضرموت ويمتدالىٰ الحجاز . . فالإمام شرف الدين بن شمس الدين (٩٣٠ هـ) كان من الفاتحين الكبار . . ، والإمام المهدي احمد بن حسن استولىٰ علىٰ اليمن كله بما فيه عُمان وحضرموت . .

(١)كان صلاح الدين الايوبي - علىٰ ما يقال - أول من ابتكر واستعمل هذا اللقب (سيف الاسلام) ، وظل يستعمله أئمة اليمن بعد ذلك حتىٰ انتهىٰ نصيبهم من الدنيا في عام ١٩٦٢
(٢) و(٣) راجع (تاسعاً) صفحة (٥٥) ..

ولكن الإمامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً . . ولم تكن دائماً مستقلة . . فقد حكم القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء العثمانيين . . ثم استولىٰ السلطان سليمان القانوني علىٰ بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٧ م) ومنها عدن وقسم من اليمن . . بيدَ أنه ما عتم أن ثار أهل اليمن علىٰ العثمانيين فاخرجوهم من البلاد بعد عشرين عاماً واستمرت الإمامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مائة عام . . ولكن ما إن حلّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتىٰ سَرَت عدوىٰ الاستقلال والانفصال الىٰ شريف (أبي عريش) في شمال اليمن . . والىٰ عامل الأئمة في الجنوب اليمني . . فثار الاول واستقل في تهامة . . وثار الثاني واستقل في (لَحج) ثم استولىٰ علىٰ (عدن) . . . !

فلما كانت سنة (١٨٤٩ م) عاد العثمانيون بقيادة توفيق باشا الىٰ اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا علىٰ أبي عريش وتقدموا نحو (صنعاء) ولكنهم لم يستطيعوا احتلالها ولا تمكنوا من البقاء في هضبة اليمن واضطروا الىٰ التراجع الىٰ المنطقة الساحلية وظلوا يترقبون الفرص . . .

سبق أن قلنا بأن للإمامة الزيدية جملة شروط . . منها أن يكون الإمام فارساً مقداماً ، وهذا من الشروط الرئيسية . . ويمكن ترجمته الىٰ عبارة أوضح وأدق هي أن الإمامة الزيدية يمكن أن تؤخذ قسراً بالسيف .. وهذا بدوره يعني أن بقية الشروط الثانوية (راجع الصفحتين ٥٧و٥٨) لم تعُد بذات أهمية لأن السيف أقوىٰ منها . . لذلك استمر النزاع والتنافس علىٰ الإمامة الزيدية طوال عدة قرون تخللتها فترات استقرار وهدوء نسبية كلما قام إمام قوي حازم . . . . يتوقف دوام إمامته علىٰ قوة شخصيته وقوة الظروف التي تكون في صالحه . . .ولذلك كانت الإمامة تنتقل من سلالة الىٰ سلالة . . ومن بيت الىٰ بيت . . . .

ومما يروىٰ أن أحد المطالبين بالإمامة الزيدية واسمه كما قيل (عبد الله بن أحمد بن علي العباس) كان قد ظهر لمجمع شيوخ الزيدية أنه لا تتوفر فيه إلا سبعة شروط فقط من الاربعة عشر شرطاً الواجب توفرها في الإمام الزيدي . . فقال لهم : «أما الشروط الاخرىٰ فهي متوفرة لدي . . » ، فلما سألوه عنها . . نهض من مجلسه . . وامتشق الحسام وقال لهم : «هي ذي بقية الشروط . . » ! والأغرب من ذلك هو أن مجمع شيوخ الزيدية أقرّ أنتخابه إماماً وبايعوه علىٰ الفور . . ولقبّوه بالإمام المهدي . . . !

وبلغت الفوضىٰ ذروتها عندما قام في (منطقة صنعاء) سبعة أئمة في آن واحد يتنازعون فيما بينهم علىٰ الإمامة . . !

وفي عام (١٠٦٥ هـ - ١٦٥٥ م) قام في وقت واحد أربعة أئمة في اليمن وكلهم من بيت واحد يُدعىٰ بـ (آل القاسم) ، قام أحدهم في مدينة (صعدة) والثاني في (شهارة) والثالث في (رداع) والرابع في (الحجرية) . . . . !

وفي عام (١٠٩٧ هـ - ١٦٨٥ م) قام في آن واحد ستة أئمة يتنازعون الإمامة بينهم . . ، وكل منهم في بلد خاص (صعدة) ، (رداع) ، (أللَّحيَّة) (ضوران) بالقرب من (ذمار) ، والخامس في (كوكبان) والسادس في (خَمَر) . . !

وقد أدت تلك المنازعات بطبيعة الحال الىٰ عدة انتكاسات في مسيرة الزيدية في اليمن . . كانت كلها في صالح القوات العثمانية المتربصة في المنطقة الساحلية من اليمن . . حتىٰ أنها تمكنت من احتلال (صنعاء) اكثر من مرة وإجلاء الأئمة الزيود الىٰ المناطق الجبلية الشمالية والشرقية . . .

ونظراً لِمَا أصاب سكان اليمن من ويلات الحروب الاهلية بين الأئمة قام سادة اليمن في سنة (١٨٧٢ م) واستعانوا علىٰ إمامهم بالعثمانيين فدعوهم الىٰ (صنعاء) ، وبذلك وطدّ العثمانيون اقدامهم في أعالي هضبة اليمن الىٰ حين . . أي لمدة قصيرة . . ذلك لأن اهل اليمن لايصبرون علىٰ حكم الدخلاء . . ففي سنة (١٨٩١) ثار اليمنيون علىٰ العثمانيين وأخرجوهم من صنعاء . . وظلت الحروب سجالاً بين الطرفين وبين الأئمة انفسهم طوال ربع قرن من الزمان . . حتىٰ قام الإمام محمد المنصور [1] والد الإمام يحي حميد الدين . . فبعث العثمانيون الفريق أحمد فيضي باشا لإخماد ثورة المنصور . . فتقدم الجيش العثماني الىٰ (صنعاء) فحاصرها واستولىٰ عليها . . فانسحب الإمام المنصور الىٰ معقل الزيدية في (صعدة) . . وكان ذلك في عام (١٨٩١ م) . ولم يقف الإمام المنصور مكتوف الأيدي . . بل كان يترقب سوء الظروف الدولية بالنسبة للامبراطورية العثمانية . . فاستطاع بعد حين أن يحشد قوات كبيرة في شمال اليمن ثم قام بالتعرض علىٰ المراكز العثمانية في كلٍ من بلدة (حَجّة) و (عمران) و (صوداح) . . وبالتالي حاصر العاصمة (صنعاء) . .

(١)كان والد الإمام يحيىٰ مفتي (صنعاء) . . وذا نفوذ كبير في عهد الإمام شرف الدين (٩٣٠ هـ) . فلما توفي شرف الدين عام (١٩٠٢ هـ) انتُخب محمد المنصور بالإجماع خَلَفاً له ولُقّب بالمنصور .

إلا أن العثمانيين كانوا لا ينفكون عن تعزيز قواتهم العسكرية في اليمن للمحافظة علىٰ توازن القُوىٰ بينهم وبين اليمن ككل . . ولذلك ظلت الحروب سجالاً بين العثمانيين والأئمة الزيود في اليمن . .

وقد أُتيحت الفرص الكثيرة إبان تلك الحروب لظهور رجل قوي هو (يحيىٰ بن محمد حميد الدين) . . وكان عمره في سنة (١٩٠٢م) خمسة وثلاثون عاماً . . حتىٰ إذا توفي والده الإمام محمد المنصور عام (١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م) إتجهت الأنظار الىٰ (يحيىٰ) . . فانتخبوه إماماً وفق شروط المذهب الزيدي . . ولقِّبَ بالإمام المتوكل علىٰ الله . . وكانت فاتحة اعماله الكبرىٰ شن الحرب القومية علىٰ العثمانيين . . فحاصرهم في (صنعاء) عام (١٩٠٥) وضيّق عليهم الخناق لمدة ستة اشهر في غمرة مجاعة عارمة شملت كل اليمن حتىٰ أكل الناس فيها لحوم الحمير . . فاضطر العثمانيون الىٰ الاستسلام دون قيد أو شرط ودخل الإمام يحيىٰ (صنعاء) سنة (١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥م) وترك العثمانيين يقيمون في منطقة (مناخة) وتهامة . . وحاول العثمانيون عقد صلح مع الإمام يحيىٰ . . إلا أن المفاوضات بهذا الشأن فشلت بسبب الشروط الثقيلة التي اشترطها عليهم الأمام يحيىٰ . . فكان لابد من تجدد القتال . . علىٰ أن أحمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة بالعراق عاد الىٰ اليمن بخمسين الف جندي . . واستولىٰ علىٰ (صنعاء) ثانية . . فتراجع الإمام يحيىٰ الىٰ المناطق الجبلية الوعرة في الشمال لاستدراج الجيش العثماني الىٰ ارض صعبة أشبه بالكمين في جبال (شهارة) حيث اندحر فيها الجيش العثماني شر اندحار . . وكانت معركة شهارة هذه هي المعركة الفاصلة بين الطرفين . .

وفي هذه المعركة الفاصلة غنم رجال الإمام يحيىٰ ما يقرب من ٨٥ ٪ من كافة أسلحة الجيش العثماني . . حتىٰ قيل أن بندقية (الماوزر) الشهيرة صارت تباع بريال واحد . . . ! وأن من استطاع أن يجرّ مدفعاً عثمانياً الىٰ داره صار مُلكاً له . . . . !

وحاول العثمانيون عقد شكلٍ من أشكال المصالحة أو الهدنة مع الإمام يحيىٰ . . ولكنه لم يدم طويلاً . . والمعروف أنه في عام (١٩٠٨) م - ١٣٢٧ هـ أُرغم فيه السلطان عبد الحميد الثاني علىٰ التنازل عن العرش والخلافة الإسلامية . . فساءت الأحوال في اليمن اكثر من السابق . . وفي سنة (١٩١١ م) كانت القبائل اليمنية قد تاقت الىٰ الحرب . . فهجمت علىٰ (صنعاء) وأحاطت بها تطلبها بإسم الإمام . . ولكنها لم تفز ببغيتها كما فازت في حصار عام (١٩٠٥ م) . . وكان الوالي العثماني يومئذ عزت باشا . . وكانت الدولة العثمانية علىٰ شفير الحرب مع ايطاليا . . لذلك فقد سعىٰ عزت باشا ، بما كان يتمتع به من حنكة ودراية وخبرة واخلاق كريمة ، الىٰ مصالحة الإمام يحيىٰ فتم له عقد معاهدة صلح (شوال ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م) أمدها عشر سنوات ، وكان من بنودها أن يعترف الإمام بالسيادة العثمانية وأن تقبل الدولة العثمانية بأن لايكون في اليمن غير المحاكم الشرعية التي يعيّن الإمام قضاتها . . كما تعهدت الدولة العثمانية أن تدفع للإمام ورجاله السادة ومشايخ (حاشد) و (بكيل) مشاهرات مالية قدرها (٢٥٠٠) ليرة ذهبية . . وبما أن الزيود ، بموجب مذهبهم ، لايتوجب عليهم دفع الزكاة لغير إمامهم ، فقد وجب علىٰ الموظفين العثمانيين أن يجمعوا الزكاة بإسم الإمام ويقدمونها له بعد حسم (٢,٥ ٪) رسم الجباية . .

وبعد عقد هذه المعاهدة عاد الإمام يحيىٰ الىٰ (شهارة) وظل علىٰ الولاء مع العثمانيين ماداموا يدفعون المشاهرات ويجمعون الزكاة للإمام . . ولكن العثمانيين لم يستطيعوا الإستمرار علىٰ تنفيذ هذين الشرطين نظراً لتورطهم بدخول الحرب العالمية الأولىٰ الىٰ جانب المانيا . . فساءت أحوالهم في اليمن ومع ذلك فان الإمام يحيىٰ لم ينقلب عليهم ولا ساعدهم علىٰ السيد الإدريسي في تهامة ولا علىٰ الانكليز في عدن . . وكان الانكليز في ذلك الوقت يفاوضون الإمام يحيىٰ بصورة غير مباشرة ويضغطون عليه لكي يتخلىٰ عن ولائه للعثمانيين وينضم الىٰ الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين بن علي في الحجاز . . أو أن يعقد معهم معاهدات . . ولكن الإمام يحيىٰ رفض كل محاولاتهم الأمر الذي حمل الانكليز علىٰ احتلال منطقة (الحُديدة) ومن ثم تقديمها لقمة سائغة لصديقهم الادريسي

القصاصة : تحل محل الأسطر ٦ و ٧ و ٨ من ص ٦١

وفي شهر صفر من عام (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨م) دخل الامام يحي (صنعاء) وأقام دولة اسلامية فيها ولقب نفسه بالامام المتوكل على الله ..

ولأسباب خاصة .. فاننا نقف من شخص الامام يحي حميد الدين ودولته الاسلامية المتوكلية (الفتيّة)، خلال العشرينات من القرن العشرين للميلاد، موقف الحياد، وعند هذا الحد فقط ... ونترك الباقي الى ذمة التاريخ وضمائر المؤرخين ووجدان الدارسين والباحثين ... !

إمام عسير . . إلا أن الإمام يحيىٰ تمكن من استعادة الحديدة في عام ١٩٢٥ دون أن يلقىٰ مقاومة من الانكليز لاسباب تتعلق بالتطورات السياسية في المنطقة العربية بأسرها . . .

في عام ١٩١٧ غادر العثمانيون بلاد اليمن بأمر من السلطان العثماني محمد رشاد الىٰ غير رجعة . . بعد أن أوشكت الامبراطورية العثمانية علىٰ الإنهيار بسبب ما أصابها من ويلات الحرب العالمية الاولىٰ في جميع الجبهات . . فلم يقتصر انسحابها النهائي علىٰ اليمن وحده . . بل شمل كل البلاد العربية قاطبة من المحيط الى الخليج . . . . !

وفي شهر صفر من عام (١٣٣٧ هـ ـ ١٩١٨ م) دخل الامام يحيىٰ (صنعاء) وأقام دولة فيها ونحن نقف من شخص الإمام يحيىٰ حميد الدين ودولته الاسلامية المتوكلية (الفتيّة ..) خلال العشرينات من القرن العشرين للميلاد . نقف عند هذا الحد .. ونترك الباقي إلىٰ ذمة التاريخ وضمائر المؤرخين ووجدان الدارسين .

٤ – أئمة اليمن الزيود

كان أولهم رقم (١) : الهادي الىٰ الحق المبين يحيىٰ بن الحسين بن القاسم الرَّسيّ بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وكانت مدة إمامته (٢٨٤ ـ ٢٩٨ هـ) ، (٨٩٧ ـ ٩١١ م) .

وكان آخرهم رقم (٦٩) : محمد البدر بن أحمد بن يحيىٰ بن محمد حميد الدين.. ، وكانت مدة إمامته الخائبة (١٣٨٢-١٣٨٢ هـ) (١٩٦٢ ـ ١٩٦٢ م) عندما قامت ثورة سبتمبر ١٩٦٢ فهرب بجلده من اليمن ولم يعُد اليها ثانيةً . . وقد لايعود الىٰ الأبد . . !

*«. . . . . وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفُسَهُم يَظْلِمون» ١١٨ ـ النحل .

٥ – هل سكان اليمن كلهم زيود ؟

كلاّ . . . . . ففي اليمن مذهبان آخران عدا الزيدية هما : ـ

أ . الشافعية ـ وهي المذهب الرئيسي الثاني في اليمن بعد الزيدية . . والزيدية هي الغالبة . . . ووجه التغليب فيها أنها مذهب الإمام ورجال دولته جميعاً ومعهم الجيش . . .

وموطن الشوافع في اليمن يشمل جنوب الهضبة وتهامة . . ومن أهم مدنهم مدينة (زبيد) و (بيت الفقيه) . .

ب . الإسماعيلية ـ [وهي فرقة كبيرة من الشيعة الإمامية تنتسب الىٰ اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر أخو زيد بن علي زين العابدين إمام الزيدية الأول . . وهي تحصر الإمامة بعد جعفر الصادق بابنه الاكبر اسماعيل . ولقد انقسمت هذه الفرقة علىٰ نفسها كالآتي : ـ

أ . المباركية ـ وهم اصحاب المبارك ، يعتقدون بأن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه الاكبر اسماعيل ثم ابنه محمد وهو خاتم الأئمة والمهدي المنتظَر .

ب ـ الباطنية وهؤلاء يُرسلون الإمامة بعد اسماعيل بن جعفر الصادق في أولاده بنصّ السابق علىٰ اللاحق ، ويزعمون وجوب العمل بباطن الكتاب دون ظاهره ..

جـ . القرامطة ـ وهم أصحاب قُرمط ، قيل هوالمبارك . . وقيل غيره . . وأما المبتدع الأصلي لهذه الفرقة فإسمه (حمدان) ، وقيل إن قرمط إسم لقرية من قرىٰ واسط منها حمدان . . ومذهبهم أن اسماعيل بن جعفر خاتم الأئمة وهو حيّ لايموت ، كما ويقولون باباحة المحرمات . .] [1] .

---

(١)كان هذا مقتبساً من كتاب «مختصر التحفة الاثنىٰ عشرية» ـ راجع هامشنا (١) صفحة (٥٦) ..

وجاء بعد الصفحة (٢٠٥) ج١ من كتاب «ملوك العرب» للسيد أمين **الريحاني قوله** : ـ

[«الاسماعيلية : نسبةً الىٰ اسماعيل ابن جعفر الصادق . . . . . .

ومن فِرَق الاسماعيلية :

وموطن الاسماعيلية موزع في اكثر من قطر حول مضيق باب المندب . . علاوة علىٰ أقطار اخرىٰ بعيدة كالهند . . أما في اليمن فأنهم يتواجدون في منطقة (مناخة) - جبل (حراز) . . وقراهم معلقة في قمم الجبال . . وهي قرىٰ محصنة يصعب الوصول اليها . . وقد عارض الاسماعيليون سلطة الإمام في اليمن علىٰ أسس مذهبية منذ عدة قرون .. ولكنهم رضخوا لسلطة الإمام يحيىٰ حميد الدين . . ومن اشهر قراهم قرية (حاطب) وفيها - علىٰ حدّ زعمهم - ضريح ناشر الاسماعيلية في اليمن واسمه (حاتم بن ابراهيم الحميري) . .

٦ – ما مدىٰ تعصّب الزيود للزيدية ؟

إن المذهب الزيدي يتسم بالإعتدال . . فليس فيه تعصّب أعمىٰ . . وأن تاريخ اليمن الحديث لم يعرف في أئمة الزيود تعصباً إلا من حيث إصرارهم الشديد علىٰ العزلة اليمنية عن العالم الخارجي . .

جاء في مطلع الفصل السادس من كتاب «ملوك العرب - KINGS OF ARAB» للكولونيل البريطاني (هارولد جا كوب) - Colonel (Harold Jacob) [1] قوله : -

[« . . . . . إن الزيود لاينوون تحطيم المذهب السنّي (الشافعي) ولايعملون علىٰ ذلك . . ولهذا فإن الإمام يحيىٰ أعقل من الذين يحملون رتبة لواء من موظفينا المسؤولين ، واكثر حكمة من أحد جنرالاتنا عندما اعتقد خلال الحرب العظمىٰ الاولىٰ بأن الحل الوحيد بالنسبة لمشكلة العرب هو تحطيم عقيدتهم . . !

«ولقد انتظرت اليمن طويلاً لمجيءِ الرجل القوي . . وها هو ذا قد وصل . . ولسوف يعيد الأمن والنظام بعد الفوضىٰ والاضطراب إذا ماكففنا أيدينا نحن الإنكليز بعيداً ولم نُفسد عليه عمله . . . . . الخ] . .

إن الذي قال هذا الكلام الواضح الصريح عن الإمام يحيىٰ ليس عربياً ولازيدياً ولامسلماً . . . بل هو المعاون السياسي الأول للمندوب السامي البريطاني في عدن ، والمستشار الرئيسي للشؤون السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية للمندوبين السامين في مصر خلال الحرب العالمية الأولىٰ . . !

أما عن اعتدال المذهب الزيدي فبامكاننا أن نقدم الحكاية التالية التي ظل يرويها الرواة طوال هذه الحقبة الزمنية من حكم الإمام دون أن تفقد شيئاً من رونقها ولا من جدّتها .. ولامن مغزاها أيضاً ..

قالوا : رفع بعض علماء الشافعية في اليمن شكوىٰ الىٰ الإمام يحيىٰ يتظلمون فيها من تعصّب أحد السادة الزيود ومقالته السيئة بحق الشوافع لكونهم لايقيمون الصلاة علىٰ هيئتها الصحيحة بقدر ما يتعلق الأمر بعدم إسبال الذراعين الىٰ أسفل حسب المذهب الزيدي والشيعي . . فما كان من الإمام يحيىٰ إلا أن أمر باحضار السيد الزيدي المتعصّب مع خصومه المتظلمين الىٰ (صنعاء) . . فلما حضروا أجلسهم الإمام في ديوانه الذي يعمل فيه . . ولم يكلم أحداً منهم بشيءٍ . . حتىٰ اذا نودي لصلاة الظهر قاموا اليها جميعا وراء الامام يحيىٰ فصلّىٰ بهم جميعاً وفق المذهب الزيدي . . فلما انتهت الصلاة كان السيد الزيدي المتعصب يبتسم انتصاراً لرأيه . . وتعجّب الشوافع من مسلك الإمام في هذا الصدد . . . . . ! خاصةً وأن الإمام لم يحدّث أحداً من الطرفين بشيءٍ . . بل جمع الطرفين علىٰ طعام الغداء . . حتىٰ اذا حان وقت صلاة العصر نهض الإمام فصلىٰ بهم صلاة العصر . . وكانت صلاته هذه المرة وفق المذهب السنّي الحنفي . . فلما قُضيت الصلاة إلتفت الإمام نحو السيد الزيدي المتعصب وقال له : «تباً لك . أنا إمام المسلمين ولست إمام الزيود فقط . . » ثم أرسل بالسيد الزيدي المتعصب الىٰ السجن بتهمة محاولة التفرقة بين المسلمين . . . !

---

١ . النزارية - ينتسبون الى المعزّ الفاطمي . يقيمون في بومبي بالهند وعددهم نحواً من مائتي الف ، اكثرهم تجار اغنياء .. ورئيسهم الاكبر (أغا خان) .

٢ . السليمانية - في اليمن ويسمون ايضا بالمكارمة . . هم أصلاً من (نجران) من قبيلة (يام) الكبيرة ، عددهم لايتجاوز العشرة آلاف ، وداعيتهم (علي بن محسن) المقيم في (بدر) موالي الادريسي ، ويوجد منهم في الهند نحو الف نسمة اكثرهم موظفون في الحكومة .

٣ . الداوودية : - وهم من بني (مُرّة) ، أي مرّة اليمن وليس مُرّة نجد ، يقيمون في عدن و الحديدة وبيت الفقيه وفي الجبلين (حراز) و (همدان) ، ويُطلق عليهم كذلك إسم (البُهرة) ، وعددهم في اليمن لايتجاوز الخمسة آلاف . . ولكن البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون يربو عددهم علىٰ ثلاثمائة الف ، اكثرهم تجار اغنياء . . وداعيتهم اليوم (طاهر بن محمد سيف) المقيم في سوارة . .

كل هذه الطوائف اسماعيلية تنتسب الىٰ اسماعيل بن جعفر الصادق . . وكلها باطنية لأنها تُبطن بعض أسرار الدين فلا يعلم منها عامة الناس غير القليل . .] .

* ونحن نترك تفاصيل الاختلاف بين الروايتين - رواية (التحفة الاثنىٰ عشرية) ورواية (ملوك العرب للريحاني) . نتركها للمعنيين في تاريخ المذاهب الاسلامية والمتخصصين فيها .

(١) الكولونيل جاكوب : الى الهامش (١) في الصفحة التالية . . .

[خطب السيد علي عقبات ، وهو اديب (يمني) كبير ، وخطيب مصقع ، وحفاظة للأشعار والأخبار ، وهاجر الى مصر ، ودرس في الازهر ، وحين رجع اليمن كان يخطب في مساجد صنعاء مرشداً ، وواعظاً ومحاضراً وكان يتطرّف في تشيعّه ، ولا يقتصر على تخطئة أو لوم الذين حاربوا علياً يوم الجمل وصفّين أو خرجوا عليه وأبادهم «يوم النهروان» بل ويزعم أن الذين لم يبايعوا علياً . رضي الله عنه ، إثر وفاة الرسول . صلىٰ الله عليه وسلم ، وهم جمهور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قد خالفوا النصّ ! وقد كاد أن يثير فتنة لولا أن الإمام يحي بن محمد حميد الدين قد زجه بالسجن ، ومنعه من إثارة تلك المواضيع التي كادت أن تشعل نار الفتنة بين الناس ، ولم يُخرجه من المعتقل إلا بعد أن تعهّد بأن لا يجهر بها .....] (٣٢) (١).

ويتحدث السيد الشامي عن نفسه في ص ٧٩/٧٨ من كتابه هذا فيقول :

[..... وظللتُ دونما تطرّف متمسكاً بمبادئ «الزيدية» التي لا يضيق بها الجدل ولا الحوار .. ولقد صدق الدكتور احمد محمود صبحي حين قال في كتابه «الزيدية» لا أكاد أجد مذهباً اكثر سماحة ، وأعدل قصداً تجاه الخصوم من الزيدية ، بل إن منهج مفكريهم في العرض لَفَريد ، إذ تُعرض مختلف الآراء على السواء في نزاهة وموضوعية ثم يُرجّح المفكر مايراه ، لاشطط ولا إسفاف .. الخ .. ص ٧٢٩] .

إلىٰ هٰهنا .. وسلوك الإمام يحيىٰ في هذه القضية الدينية المذهبية يبعث علىٰ الارتياح . . والتقدير ايضاً . . ولكننا إذا مانظرنا الىٰ الامام يحيىٰ من الزاوية التي يسوس منها هاتين الطائفتين من المسلمين بقدر ما يتعلق الأمر بحقوق كلٍ منهما في وظائف الدولة وأعمالها لوجدنا فيها غاية التعصب . . ! فليس للشوافع طريق لتسنم المناصب المهمة في الدولة الزيدية . . علماً بأن بين الشوافع جمهرة من العلماء الأفذاذ الذين يصلحون لكل المناصب . . . !

إن هذه التفرقة الادارية بين الطائفتين . . هي الأخرىٰ ليست من الاسلام في شيءٍ . . ولكنها في نظر السياسة الداخلية قد تعني الشيء الكثير من وجهة النظر الأمنية وسلامة الدولة ومع ذلك فان العدل لايقبل بمثل هذه التفرقة . . والعدل هو أحد الشروط الأربعة عشرة الواجب توفرها في الإمام الزيدي . . وأخيراً وليس آخراً . . فان العدل أساس المُلك .

---

(١) من ص (٧٨) من كتاب «رياح التغير في اليمن» للسيد احمد بن محمد الشامي اليمني - ط / ٢ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) منشورات المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع - صنعاء .

أنظرها هنا (١) ص (٩٠) جـ١ :

الكولونيل جاكوب :

- ضابط قديم في الجيش البريطاني . «Jacob Colonel Harold F. K. S. I»
- حائز علىٰ وسام جوقة الشرف الفرنسي . «KINGS of ARAB» LONDON' 1923»
- مؤلف كتاب «العطور العربية» .
- المعاون السياسي الاول للمندوب السامي البريطاني في عدن .
- المعتمد السياسي في محميات جنوب شبه الجزيرة العربية .

ومن مطالعة كتابيه «العطور العربية» و «ملوك العرب» يتضح للقارئ مدىٰ ثقافته السياسية والتاريخية والأدبية ليس في اللغة الانكليزية أو عن الشعب الانكليزي أو غيره من الشعوب الغربية فقط ... بل عن الشعوب العربية والإسلامية برجه عام وعن الشعب العربي في جنوب غرب الجزيرة برجه خاص .. ففي كتبه هذه يُكثر من الإستشهادات بالآيات القرآنية الكريمة كأي كاتب إسلامي .. كما ريستشهد كثيراً بأشعار العرب وأمثالهم ويتذوقها .. وله اطلاع واسع في تاريخ العرب القديم والحديث .. والرجل رغم كرنه من ضباط الجيش اصلاً إلا أنه قد بلغ في دراساته وأبحاثه مبلغ المستشرقين .. ولكنه ويالاسف ينحر في كتاباته منحىٰ فئة المستشرقين غير المنصفين للعرب والمسلمين ... ! وإن كتابه «ملوك العرب» هذا قد سبق في تأليفه وصدوره كتاب «ملوك العرب» للرحالة اللبناني السيد أمين الريحاني .. فكان صدور الأول في عام ١٩٢٣ وكان صدور الثاني في عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ .

٧ – موجز الوقائع البارزة في تاريخ اليمن لغاية عام ١٩٤٣

التاريخ	الوقائع
٤٠٠٠ - ١٠٠٠ ق . م وقيل ٣٠٠٠ - ١٠٠٠	قيام الدولة المعينية - في (معين) ثم (قرناو) علىٰ وادي الجوف .
٢٤٠٠ ق . م	حاول الرومان غزو الجنوب العربي ففشلوا فشلاً ذريعا .
١٠٦٠ - ٩٨٠ ق . م	قيام الدولة الحضرمية في (شبوة) علىٰ وادي (عرمة) .
٨٦٥ - ٥٤٥ ق . م	قيام الدولة القتابية في (تمنا) او (تمنع) علىٰ وادي بيحان .
٨٥٠ - ١١٥ ق . م	قيام الدولة السبأية في (مأرب) علىٰ وادي (ذُنّة) ثم في (صرواح)
١١٥ ق . م - ٢٧٥ ب . م	قيام الدولة الحميرية الأولىٰ في (مأرب) ثم في (ظفار) على وادي (أبْيَن) أو (بَنا)
٢٧٥ - ٥٢٥ ب . م	قيام الدولة الحميرية الثانية في (ظفار) ثم في (صنعاء) .
٥٢٥ - ٥٧٥ ب . م	غزو الاحباش لليمن .
٥٧٥ - ٦٣٢ ب . م	الفُرس في اليمن لطرد الأحباش .
٦٢٨ م	دخول اليمن في الاسلام .
القرن التاسع الميلادي (٢٠٢ هـ)	إنفصال اليمن عن الخلافة العباسية في (بغداد) .
٨٢١ - ١٠١٢ م	قيام الدولة الزيادية في (زبيد) .
٨٣٩ - ٨٧٣ م	= = اليعفرية في (شبام) ثم في (صنعاء) .
١٠١٣ - ١١٦٠ م	= = النجاحية في (زبيد) .
١٠٤٧ - ١١٣٨ م	= = الصُليحية في (حراز) ثم في (جِبْلة) .
١٠٧٧ - ١١٧٣ م	= = الزُريعية في (عدن) .
١٠٩٩ - ١١٧٣ م	= = الحاتمية في (صنعاء) ثم في (شبام) .
١١٥٨ - ١١٧٣ م	= = المهدوية في (زبيد) .
١١٧٣ - ١٢٢٩ م	= = الأيوبية في (زبيد) ، وقيل في (تعز) .
١٢٢٩ - ١٤٥٤ م	== = الرسولية في (تعز) .
١٤٥٤ - ١٥١٧ م	= = الطاهرية في (المقرانة) قرب (رادع) .
٨٩٧ م (٢٨٠ هـ)	ظهور الزيدية في اليمن .
١٥١٧ - ١٥٣٨ م	ظهور الشراكسة في اليمن .
١٥٣٨ م -	بدء الفترة الأولىٰ لوجود العثمانيين في اليمن .
١٥٦٩ م -	بدء الفترة الثانية = = = = .
١٧٨٩ م -	بدء الفترة الثالثة = = = = .
١٨٣٩ م	إستيلاء الانكليز علىٰ (عدن) ، وكانت القوات المصرية في اليمن بقيادة ابراهيم باشا تزحف جنوبا لاحتلال إقليم (الحجرية) شمال غربي عدن . وفي نفس هذا العام طلبت انكلترا من محمد علي باشا والي مصر أن يسحب قواته من اليمن .

التاريخ	الوقائع
١٨٥٠ م	نشوب الفوضىٰ داخل اليمن حينما قام تسعة أئمة في آن واحد يتنازعون فيما بينهم حكم اليمن خلال الست سنوات التالية واستطاع الاتراك الاحتفاظ بموطئ قدم في ساحل تهامة .
١٨٧٢ م	إستولىٰ الاتراك العثمانيون علىٰ صنعاء وأتموا احتلال اليمن بأكمله .. وقسّموه إدارياً الى اربعة (سناجق - جمع سنجق) - أي متصرفية أو محافظة هي : صنعاء ، عسير ، الحديدة ، تعز . وقسّموا السناجق الى أقضية ونواحي .
١٩٠٤ م	إنتخاب الإمام يحيىٰ بن محمد حميد الدين وقيامه بالجولات الأخيرة من محاربة أهل اليمن للعثمانيين . .
١٩٠٧ م	ظهور السيد الادريسي في (عسير) بمساعدة الانكليز ..
١٩١١ م	عقد معاهدة (دعان) بين العثمانيين وبين الإمام يحيىٰ يستطيع الأخير بموجبها تعيين حكام ، أي (عمّال) للأقاليم الزيدية في اليمن بينما يقوم العثمانيون بتعيين الحكام للاقاليم الشافعية في الجنوب
١٩١٤ - ١٩١٨ م	الحرب العالمية الاولىٰ . بقاء الإمام يحيىٰ علىٰ ولائه للعثمانيين ، ومقاومته للضغوط الانكليزية الهادفة الىٰ عقد معاهدات خاصة مع الإمام يحيىٰ . . .
١٩١٨ م	خروج العثمانيين النهائي من اليمن بعد أن خسروا كل شيئ في الحرب العالمية الاولىٰ . . ودخول الإمام يحيىٰ (صنعاء) .
١٩٢٦ م	عقد معاهدة بين إيطاليا والإمام يحيىٰ .
١٩٣٤ م	عقد معاهدة (صنعاء) بين الانكليز والإمام يحيىٰ . . ولكن مسألة تثبيت الحدود بين اليمن والمحميات الانكليزية ظلت معلقة حتىٰ الخمسينات من القرن الحالي (العشرين) . . !
١٩٣٤ م	الحرب السعودية - اليمنية بسبب استيلاء ابن سعود علىٰ عسير .
١٩٤٠ - ١٩٤٣	**ألبعثة العسكرية العراقية إلىٰ اليمن .**

إنتهىٰ الفصل الثاني من الكتاب .

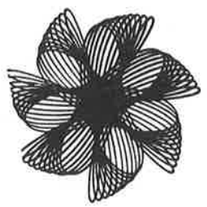

ألفصل الثالث

لمحات اجتماعية عن اليمن

١٩٤٠ – ١٩٤٣

تمهيد :

لقد كان خطأً جسيماً ذهاب البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن في عام ١٩٤٠ وليس بين أعضائها الخمسة من الضباط ضابط واحد له ثمة إلمامة بالأحوال الاجتماعية السائدة في القطر اليمني الشقيق تُمكّنه ورفاقه الآخرين من كيفية التعامل الصحيح والتصرف السليم مع أهل تلك البلاد حكومةً وشعباً وجماعاتٍ وأفراداً . . . !

إن كل الذي كان يدور في خلد أعضاء هذه البعثة من تصورات عن الحالة الاجتماعية في تلك البلاد هو أن اليمن بلد متخلّف عن الركب الىٰ حد البداوة المطلقة وأن أهله ليسو بأكثر من مجموعات بدوية علىٰ رأسها شيخ بدوي يسمونه الإمام . . .

فاذا أضفنا الىٰ هذه التصورات المغلوطة ماكان يروّج له «المتفرنجون» من حكايات غريبة و أساطير عجيبة عن أهل اليمن لاعن سوء قصد بله عن جهالة مطبقة . . لتبين لنا مقدار ماكانت عليه الصورة القاتمة في أذهان اعضاء البعثة عن اليمن يوم توجهوا للسفر اليه وهم يحملون علىٰ كواهلهم أعظم مسؤولية عسكرية أُنيطت لأول مرة في تاريخ الجيوش العربية الحديثة . . !

فلما وصلت البعثة الىٰ (صنعاء) وجدت الجاليات الإيطالية والروسية ومعهم يهود صنعاء قد انتهوا من تشويه سمعة مهمة البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن ونجحوا في تسميم أفكار الكثيرين من رجال الإمام وحاشيته ضد البعثة القادمة من العراق . . . . !

أما الجالية الانكليزية في صنعاء فقد احتفظت لنفسها بمهمة «الرقيب» علىٰ البعثة وأعمالها وسلوكها وتصرفاتها . . وذلك نيابةً عن حكومة (عدن) البريطانية . . .

وقد يسأل سائل عن الكيفية التي كان يجب العمل بها لإلمام اعضاء البعثة بالاحوال الاجتماعية في اليمن . . فنقول باختصار : إن ذلك كان من صميم واجبات وزارة الدفاع العراقية لانها المسؤول التنفيذي عن إيفاد البعثة . . ثم وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ومعاهدها الثقافية . . بما في ذلك مكتباتها ألعامة . . وبالتالي وزارة الإعلام ومؤسساتها الإعلامية . .

ألقسم الأول

التكوين الإجتماعي لسكان اليمن

قبل كل شيئ : يجب أن نعلم أن المجتمع اليمني ليس مجتمعاً بدويا متنقلاً رحّالاً علىٰ الاطلاق . . فهو لا يعرف الخيمة البدوية بتاتاً ولا يملكها . . ذلك لأنه يرتبط بالارض التي يزرعها ارتباطاً عجيباً ربما يفوق ارتباط الجنين برحم أمه . . . !

إن هذا الارتباط الوثيق بين الانسان اليمني وأرضه ناجم عن طبيعة التكوين الجغرافي والتكوين السكاني اللذين تحدثنا عنهما في الفصل الاول «لمحات جغرافية عن اليمن» . . وعليه فان أقصىٰ ما نستطيع قوله في تحديد هوية الفرد اليمني الذي لا يسكن المدن الكبيرة والصغيرة هو أن هذا الفرد (قَبليّ) وليس (بدوي) . . وأن جماعته التي ينتمي اليها هي القبيلة المستقرة في أرضها . .

إن معظم القبائل التي ورد ذكرها في مؤلفات المؤرخ اليمني الشهير (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ـ القرن العاشر الميلادي) لا تزال موجودة حتىٰ يومنا هذا . . والحقيقة أن اسماء القبائل اليمنية ومواطنها مذكورة في التاريخ العربي القديم الذي يتناول عهود ما قبل الاسلام . .

إن كل فرد في القبيلة اليمنية يُسمىٰ بالقبيلي . . وكل قبيلي يعتبر نفسه (عضواً أصيلاً) في قبيلته . . وهو يعلم أن بأمكانه الاعتماد كلياً علىٰ قبيلته . . ومن ناحية اخرىٰ نراه سريع التلبية للقتال دفاعاً عن شرف أي فرد آخر من افراد قبيلته . . وبهذا تكون لديه رابطتان قبليتان في آن واحد : رابطة فردية وأخرىٰ اجتماعية . . وهذا مما يعزز في نفسية افراد القبائل روح الإنتماء الىٰ القبيلة . . ولن يتصور القبيلي مجتمعاً أوسع من مجتمع قبيلته . . فاذا ما ارتكب القبيلي جريمة قتلٍ خطأً فان جميع أفراد قبيلته يساهمون في دفع دية القتيل . . .

هنالك ميزات خاصة تتميز بها القبيلة اليمنية :-

أ . إن كل فرد في القبيلة ينتسب الىٰ الجد الأعلىٰ لتلك القبيلة . مثال ذلك أن «حاشد» هو اسم الجد الاعلىٰ الذي أوجد قبيلة حاشد . و «بكيل» هو الجد الاعلىٰ الذي أوجد قبيلة بكيل . . وكان كلٌ من حاشد وبكيل أخوين وولدين للجد الاعلىٰ (حمدان) . .

وحِمدان يتحدَّر من (سبأ) عن طريق (كحلان)..وتسلسل النسب ينتهي دائماً في (قحطان) الأب الأعلىٰ لجميع عرب الجنوب .

وربما كان قحطان هذا هو المذكور في التوراة بإسم (جوكتان) - Joctan المتحدِّر من (سام) بن (نوح) في الجيل الرابع . .

٢ . إن كل قبيلة يمنية تقطن إقليماً معيناً من أقاليم اليمن . . وهذا الاقليم يُعتبر في نظر القبيلة اليمنية هو الوطن الأصغر لها ولا يُتوقَع من الفرد القبيلي اليمني أن يرتفع بشعوره الىٰ مستوىٰ الوطن الاكبر الذي هو اليمن بأسره مالم يتعرض هذا الوطن الاكبر الىٰ خطر خارجي جسيم . .

إن الاقليم الذي تسكنه القبيلة له حدود مثبتة مع جيرانها . . فلا يجري بيع ولا شراء أية أرض في الاقليم إلا ضمن القبيلة . . . ! وثمة عامل آخر نجم عن هذا الارتباط المتين بين الانسان اليمني وأرضه . . ذلك هو تملّكُ اليمني لأرضه أو علىٰ الأقل أنه مشارك فيها مع شخص أو اكثر . .

ويتمثل استقرار اليمني في تشييد القرىٰ وسكناها . . والانتماء الىٰ وحدة القبيلة القروية . . وهذا النوع من القبائل المستقرة تختلف تقاليدها الاجتماعية عن تقاليد القبائل العربية في بقية الاقطار . . خاصةً وأن القبائل اليمنية في ظل الإمامة الزيدية إنما تخضع للأحكام الاسلامية الأصيلة تماماً كما هي الحال في قبائل المملكة العربية السعودية أو ربما اكثر التزاماً بتلك الأحكام . .

ومعروف بالضرورة أن تطبيق الأحكام الاسلامية الأصيلة يتميز بسريان مفعولها علىٰ جميع الافراد سواءً كانوا من سكان المدن أو من سكان القرىٰ . . فالكل سواسية أمام الحدود الشرعية . . وليس هناك قانونان في اليمن : مدني وعشائري . . كما هي الحالة في العديد من البلاد العربية الاسلامية . . وبذلك تكون الاحكام الاسلامية الأصيلة قد أماتت كل التقاليد القبلية العامة في القبائل اليمنية . . والشيء نفسه ينطبق علىٰ سكان المدن في اليمن . .

القسم الثاني

هل هناك نظام طبقي في المجتمع اليمني ؟

لولا وجود اليهود في اليمن . . والتعصّب الذاتي لدىٰ السادة «الزيود» لانعدمت كل أشكال الطبقية في المجتمع اليمني . . . وذلك لسبب جوهري واحد هو أن جميع الأفراد سواسية أمام الأحكام الاسلامية الإصيلة . . فاذا ارتكب أحد الأفراد جريمة القتل العمد قُطعت رأسه بسيف الجلاد . . وإذا ارتكب أحد اولاد الإمام يحيىٰ مثل هذه الجريمة قُطِعَ رأسه بنفس الطريقة علىٰ ملأكبير من الناس . . إلا أن هناك مايمكن أن يُسمىٰ نظام درجات في المجتمع اليمني . . كما تقتضيه سنن الحياة وتضبطه العقيدة الاسلامية . قال تعالىٰ :

* «وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ورفع بعضَكم فوق بعض درجات ليبْلُوَكُم فيما آتاكم . .» ١٦٥ - الأنعام .

ولما كانت العبرة في أسلوب التطبيق والتنفيذ وليس بالمسميات والاصطلاحات المُميزة بين هذا النظام أو ذاك . . فبامكاننا القول أن هذه الدرجات أيضاً قد أُسيء استعمالها في المجتمع اليمني الىٰ الحد الذي جعلها أقرب الىٰ النظام الطبقي منه الىٰ نظام الدرجات الذي عناه الإسلام . .

وقد يصح تصنيف المجتمع اليمني الىٰ ست درجات :-

الدرجة الأولىٰ – هي العائلة الحاكمة : وتشمل الإمام يحي وأولاده (سيوف الاسلام)[1] البالغ عددهم ثلاثة عشر ولداً ذكراً ثم حريم العائلة الحاكمة . .

وبحكم مركزه الديني (الروحي) والعلمي والقيادي فان الإمام يتمتع بأعظم درجات الاحترام والطاعة من قِبل منتسبي جميع الدرجات الأخرىٰ في المجتمع اليمني . . وبأقل من ذلك قليلا يتمتع به ابناؤه سيوف الاسلام . .

إلا أننا وجدنا الإمام يحي قد تجاوز غير قليل في هذا المجال . . ذلك أن من يتشرف بزيارته أو المثول بين يديه من المواطنين اليمنيين ، بما فيهم اولاده سيوف الاسلام ، يكون ملزماً بتقبيل يديه وركبتيه أيضا . . . وكان البعض يزيد علىٰ ذلك فيقبّل قدميه بدلاً من

(١) «سيف الاسلام» لقب كان السلطان صلاح الدين الأيوبي يُلقب به أولاده . وبما أن الأيوبيين حكموا اليمن ردحاً من الزمن كما اسلفنا في الفصل الثاني «لمحات تاريخية عن اليمن» فقد ظل أئمة اليمن يستعملون هذا اللقب نفسه لأولادهم .. وعلى الأخص في زمن الإمام يحيىٰ حميد الدين .

ركبتيه[1] . . . ! ثم يتراجع القهقرىٰ . . فان كان زائراً إلتمس له مكاناً متواضعاً في حضرة الإمام . . وإن كان ماثلاً لحاجة أو شأن ظل واقفا حتىٰ يقضي له الإمام . . وليس بوسع أحد أن يعترض او ينتقد هذه الظاهرة اللاّإسلامية . . لأن أولاد الإمام كلهم يفعلون نفس الشيء إذا ما حضروا مجلس الإمام . .

والإسلام يرفض هذه المظاهر كل الرفض . . وقد كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يرضىٰ بقيام مَن في المجلس حين يدخل عليهم . . وكان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس . . وليس الإمام أعظم درجة عند الله تعالىٰ من النبي الكريم . . . !

ولما كنا نحن – اعضاء البعثة العسكرية – نجهل هذه الأبهة والمراسيم في حضرة الإمام يحيىٰ ، فان أحداً منا لم ينحنِ بقامته لتقبيل يد الإمام عند أول مثولنا بين يديه عقب الوصول إلىٰ (صنعاء) . . مع العلم أن وزير خارجية اليمن كان برفقتنا في تلك المواجهة الاولىٰ . . وقد سبقنا هو بالسلام علىٰ الإمام وقبّل يديه فقط ولم يتيسر له تقبيل ركبتيه لأن الإمام كان جالساً علىٰ (العرش) . . وأمامه مكتب متواضع . . ! والإمام لا يستقبل في غرفة (العرش) إلا أكابر الشخصيات أو الهيئات الزائرة لليمن أو العاملة فيه . . . !

وغرفة (العرش) هذه هي (بدعة) أخرىٰ لا يقبلها الاسلام الحنيف . . فإن كان في الاسلام من يستحق أعظم عروش الدنيا فهو أعظم الرسل والأنبياء جميعاً محمد عليه الصلاة والسلام . . !

والذي كان يحيرني شخصياً يومذاك (١٩٤٠ - ١٩٤٣) هو أن الإمام يحيىٰ كان يجلس للناس بعد صلاة الجمعة وغير الجمعة . . وكان مجلسه هذا علىٰ الارض في ظل شجرة . . فيفد اليه ذوو الحاجات والتظلمات ليقضي بينهم ....!

ووجه الحيرة عندي في هذا هو ذلك التناقض الكبير مابين (غرفة العرش) و (الديوان) و (تحت الشجرة) . . ! إنها خليط عجيب غريب وغير متجانس من أساليب الحكم والقضاء بين الناس في القرن العشرين للميلاد ...!

الدرجة الثانية – السّادة . . وهم الذين يؤكدون كونهم من آل البيت حسباً ونسباً . . وأنهم هم الذين آزروا الإمام من أول الجهاد وحتىٰ النصر على العثمانيين ونيل الاستقلال . . لذلك أسند اليهم أرفع المناصب في الدولة . . فمنهم الأمراء والقضاة والحكام والعُمّال (أي المحافظون) واكبر قادة الجيش ورؤساء المحاكم الشرعية والقضائية ... الخ . . ولم يشذ عن شرط هذه السيادة العلوية سوى رجل كبير واحد في حكومة الإمام هو القاضي محمد راغب بك رفيق وزير الخارجية وهو تركي الجنسية آثر البقاء الى جانب الإمام يحي بعد خروج الأتراك من اليمن . .

ولأصحاب هذه الدرجة الثانية تُقدّم الطاعات والاحترامات التي هي الأخرى من الدرجة الثانية بعد درجة الإمام وسيوف الاسلام ... وتشمل أيضا تقبيل الأيدي والركب والأذيال .... !

ولأصحاب هذه الدرجة يقول اليمني عند مخاطبته لهم : (سِيدي) مع مدّ الياء الأخيرة مداً يسيرا . . ولايشذ عن تقديم هذه الطاعات والاحترامات كائن من كان من بقية الدرجات الاجتماعية . . ومع مرور الزمن أصبحت كلمة «سِيدي» ظاهرة من ظواهر الأدب

(١) نذكر فيما يلي الدليل المادي على شيوع هذه الظاهرة غير الاسلامية منذ السنوات الأولى لقيام مملكة الإمام يحي – فعندما وصل السيد أمين الريحاني الى (عدن) سنة ١٩٢٢ في طريقه الى (صنعاء) كان لابد له من ملاقاة ممثل الإمام يحي في عدن (القاضي عبد الله العَرَشي) ليزوده بكتاب المغادرة من عدن . . وإليك صيغة هذا الكتاب الموجه الى شخص الإمام كما أوردهُ الريحاني في ص – ٨٢ / ج ١ من كتاب رحلته «ملوك العرب» :-

[..... بسم الله الرحمن الرحيم ..... أمدّ الله مدة مولانا . ومالك أمرنا أمير المؤمنين . والحجة على الخلق أجمعين . المتوكل على الله رب العالمين . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يُردَّد في كل وقت وحين .

وبعد فصدورها للسلام . مُقَبّلةً براطن الأكف والأقدام . وهي لكم صحبة السيد الماجد .. أمين الريحاني الذي فيه سبقَ الإشعار من المملوك اليكم برصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة .. الخ] .

تعليق : إذا كان الإمام يحي هو مالك الأمر ...

واذا كان الامام يحي هو حجة الله على الخلق اجمعين ...

فما الذي أبقاه هذا القاضي العرشي لله سبحانه. وتعالى .. ؟ !

وعلام تقبيل براطن الأكف والأقدام ... وقد نهىٰ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن مجرد القيام له في المجالس ..... !

الشعبي في اليمن يتداولها الناس فيما بينهم للتدليل على المودة والاحترام .. وصار من الطبيعي أن تخاطب الزوجةُ زوجها بكلمة «سيدي» مودةً واحتراماً واعترافاً بالدرجه والقوامة .....

ولأصحاب هذه الدرجة الثانية امتياز آخر على بقية العباد .. ألاَ وهو تخضيب لِحاَهم الكبيرة بالحنّاء لتكون في صباح اليوم التالي حمراء صفراء تسرُّ الناظرين ... !

الدرجة الثالثة – درجة الفقهاء وهم بمثابة الطبقة المثقفة في المجتمع اليمني .. فإليهم تُسند مختلف الواجبات والوظائف التي لاعلاقة لها بالفقه ولا بعلوم القرآن الكريم ولا الحديث الشريف إطلاقاً .. ! فليس غريباً أن ترى مأمور دائرة البريد واحداً من الفقهاء .. وليس عجيباً أن ترى مدير المستشفى في (صنعاء) فقيهاً من الفقهاء أو المتفيقهين ... وهكذا ... !

والقليل من هؤلاء الفقهاء من يتولى وظائف الحكام الشرعيين أو تدريس الفقه الاسلامي في «المدرسة العلمية» في (صنعاء) وهي أرقى معهد تعليمي في اليمن .. قيل بأن مدة الدراسة فيها إثنى عشر عاماً ..... ! وليس في هذا من غريب .. لأن الطلاب المقبولين فيها لايزيد مستواهم الدراسي عن (الكتاتيب) التي يسمونها في اليمن (المعلامات) جمع (معلامة) .... !

وسعيد هو ذلك الفقيه الذي يتولى تعليم القرآن الكريم للأولاد الذكور داخل المدن أو في القرى .. وهناك عدد أو أعداد من الفقهاء يمتهنون صنعة الشعر للتكسب منها في المناسبات الكثيرة ... وهؤلاء يشكّلون القصيدة العريضة لوعّاظ السلاطين في اليمن ... !

الدرجة الرابعة – وهذه الدرجة يندرج فيها التجار والملاّكون وشيوخ القبائل والموظفون الصغار وأصحاب المهن الحرّة ... وبالتالي ضباط الجيش .... !

ولاندري لماذا أصبح «وعّاظ السلاطين» من الفقهاء ارفع درجة من ضباط الجيش وشيوخ القبائل ..... ؟ ! ولكن تاريخ اليمن يقول بأن شيوخ القبائل وضباط الجيش كانوا دائما المصدر الوحيد لقلق الإمام وخوفه على كرسي الحكم والإمامة ....

الدرجة الخامسة – هي درجة الفلاحين المزارعين وباعة الخُضر والحبازين والجزارين .. وليست هناك درجة أدنى من درجة هؤلاء سوى يهود اليمن .. مع العلم أن الفلاحين في اليمن يؤلفون اكثر من (٧٥ ٪) من مجمل تعداد السكان ... ! وقد يكون الجزارون في نظر أهل اليمن أحطّ أصناف هذه الدرجة الخامسة .. !

إن هذا النمط من التصنيف الاجتماعي ليس من عدالة الاسلام في شيء .. لأنه يتنافى مع كل المبادئ والأصول والمفاهيم التي أرسى الإسلام قواعدها في المجتمع الاسلامي منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .. قال تعالى :

* «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير» ١٣ – الحجرات .

وقال عليه الصلاة والسلام :

(... كلكم لآدم .. وآدم من تراب) ..

وقد يكون أحد الجزارين في واقع الحال اكثر تُقىً من أحد سيوف الاسلام أو السادة أو الفقهاء .. وعندئذ يكون هذا الجزار اكرم عند الله تعالى من اولئك جميعاً .. هذا هو مفهوم الطبقات والدرجات في الاسلام الحنيف .. وماعداه هو الهباء ... !

ولقد عرفنا «سيفاً» من سيوف الاسلام الكبار يومها كان يمتلك قطيعاً من «الحريم» .. ورغم عجزه البدني عن العدل بين هذا القطيع من الحريم فقد أضاف اليه في الآونة الأخيرة فتاةً غير يمنية في عمر الزهور .. لم يمسسها عشرات الأعوام مكتفياً بزيارتها كل بضع سنوات في قصرٍ من قصوره في (صنعاء) .. ولم يفك أسار هذه الزهرة الذابلة غير دويّ المدافع في صنعاء صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ .. يوم قامت أول ثورة ناجحة في اليمن لتكتب الفصل الختامي في تاريخ الذين أساءوا تطبيق نظام الدرجات الاجتماعي في اليمن كما أمرَ الله به أن يكون .. !

ولقد عرفنا «سيفاً» آخراً من سيوف الاسلام كان شخصاً عابثاً لاهياً نزقاً لن يتورع عن انتهاك اعراض الناس الذين يقبّلون أطراف أذياله صاغرين .. ؟

ولولا أن للأموات حرمة لدى الاحياء لكنا وضعنا كل النقاط على كل الحروف لكي يعلم الذين لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى ليس بظلاّم للعبيد ...

الدرجة السادسة – اليهود .. أهل الذمّة .. وهؤلاء في الواقع يشكلون مجتمعاً خاصاً متميزاً بهم نظراً لطبيعة انعزالهم عن المجتمع اليمني .. شأنهم في ذلك شأن بقية اليهود في العالم حيثما وُجِدوا .. فهم دائماً وأبداً كبقعة الزيت الطافية فوق سطح البحر .. ، ومع ذلك فقد كانوا ينعمون في عهد الإمام يحيىٰ بجميع امتيازات أهل الذمة التي منحهم إياها الاسلام .. وليهود اليمن في كتابنا هذا بحث لاحق ومفصل إن شاء الله ..

• ولم نجد النصارى ، من أهل الذمة ، في اليمن على الاطلاق ... !

القسم الثالث

أثر التصنيف الاجتماعي في أزياء الرجال باليمن

طالما كانت هناك أصناف من الناس في المجتمع اليمني ، كما أسلفنا ، فلا بد وأن يسري تأثير ذلك على أزياء الملابس التي يرتديها اولئك الناس .. واختلاف المناطق المناخية في اليمن له تأثيره الخاص في اختلاف الأزياء .. فسكان المناطق الجبلية والهضبة يرتدون ملابسهم من نسيج واحد طوال فصول السنة الأربعة .. فهم لايقتنون ملابس خاصة بالشتاء وأخرى خاصة بالربيع أو الخريف وأخرى خاصة بالصيف .. بل يكتفون بالملابس الربيعية أو الخريفية فقط لكل فصول السنة ..

أما سكان المناطق التهامية فانهم لايرتدون غير الملابس الصيفية الخفيفة جداً .. هذا في المدن التهامية .. أما في القرى المبعثرة في تلك المناطق الحارة جداً فقد لايرتدي اهلها اكثر مما يستر العورة من قماش رخيص ... !

وعلى هذا الأساس تنقسم أزياء اهل اليمن من حيث درجاتهم الاجتماعية كما يلي :–

الدرجة الأولى – البيت الحاكم :

١. الإمام – عمامة اسطوانية بيضاء ذات ذؤابتين يُسمّونها في اليمن (عَذْبَتين) واحدتها (عَذْبة) ، وهما عبارة عن فضلتين من طرفَيْ العمامة إحداهما قصيرة بطول ست بوصات تقريباً والاخرى بطول ١٢ – ١٥ بوصة تقريباً ، تتدلّى العذبة القصيرة على الطرف الايسر من العمامة .. بينما تتدلى العذبة الطولية على الرقبة مابين لوحَيْ الكتف .. ولذلك ينعتون الإمام بـ (ذو العذبتين) .. ثم يرتدي ثوباً طويلا فضفاضاً بأكمام واسعة ، ومن فوقه جُبّة من الجوخ الأحمر .. ويتمنطق على الثوب بنطاق عريض من الجلد والنسيج موشّىً بالذهب والفضة .. يضغط في الجنب الأيمن على خنجر مرصّع القبضة في غمد معقوف موشّىً بالذهب يسمى (الضَّمَة) خاص بالدرجتين الاولى والثانية . ثم يشتمل من فوق منكبه الأيسر بقطعة من الشال الثمين يتدلّى منها على الظهر بمقدار ثلاثة أقدام تقريباً واكثر من ذلك مايتدلى على الجنب الايسر من الصدر وإلى ماتحت النطاق ثم ينعطف صاعداً نحو الجنب الأيمن ليحيط بقبضة الخنجر ويلتف من حوله ..

أما القدمان فيدخلان في حذاء جلدي متواضع ....

وقد تختلف تفاصيل هذه المواصفات كلاً أو بعضاً تبعاً للظروف .. فملابس العمل في الديوان تختلف عن ملابس الاحتفالات والاستقبالات والأعياد ... إلا أن الاساس واحد لايتغير : عمامة بيضاء ذات عذبتين ، وثوب وجُبة ونطاق و (جَنْبِيَّة) أي الخنجر وحذاء والشملة أي قطعة الشال ..

٢. سيوف الاسلام – يرتدون زيّاً مشابها لزي والدهم الإمام فيما عدا العذبة القصيرة الخاصة بالإمام لتميزه عن الباقين ..

الدرجة الثانية – السادة :

يرتدون العمامة البيضاء من دون ذؤابة (عَذْبة) ، وقد لاتكون العمامة اسطوانية الشكل ... ويرتدون من الأثواب والجبة والأنطقة والأحذية مايقلّ في جودته قليلاً عما يرتديه الإمام وسيوف الاسلام .. ولاتخلو انطقتهم بتاتاً من الخناجر الثمينة .. لأن الخنجر سمة مميزة لكل يمني في البلاد عدا ضباط الجيش والموظفين الثانويين في الحكومة .. ويطلق أهل اليمن على الخنجر إسم (الجَنْبِيَّة) اشتقاقاً من

الجنب الايمن الذي يضع السادة خناجرهم عليه تحت الأنطقة العريضة .. علماً بأن غير السادة يضعون خناجرهم تحت أحزمتهم من فوق السُّرة ... ! وكان المفروض أن يُسمُوا هذه الخناجر بـ «القُدْمّية» اشتقاقاً من كلمة «قُدّام» كما هو الشائع عند اهل الحجاز لأنهم يحملونها أمام اجسامهم وليس على جوانبهم .. ولما كان اهل الحجاز ونجد يلفظون القاف (ق) جيماً (ج) فعليه تكون اللفظة «جُدْمّية» . ولما كان اهل اليمن يلفظون القاف (ق) كافاً فعليه تكون اللفظة «كُدْمّية» ..

وخناجر الاغنياء أغمادها من الفضة ومقابضها من قرون الزرافة الشفافة ، وتتميز خناجر سكان الجبال عن خناجر سكان تهامة وسكان الاقاليم الصحراوية الشرقية بالاغمدة الخشبية التي تلتف حولها خيوط جميلة خضراء من جلود الخراف .. كما تتميز بالمقابض المصنوعة من قرون البقر المرصعة بالنقود النحاسية البيزنطية القديمة .. ويضعون الى جوار الجنبية كل ماقد يخطر على بال أحدهم .. فكل شيء ممكن ...

وللجنبية عند اهل اليمن قيمتان : قيمة حقيقية فيما تُستعمل له ، وقيمة اجتماعية تقليدية .. وبكلتا القيمتين تكون الجنبية أعز مايطوي عليه حزام اليمني أو نطاقه .. وفي انتزاعها منه عنوةً اكبر إهانة لشخصه ... !

والعجيب في هذا الصدد هو أن الجدال أو الخصام قد يصل بين رجلين من اهل اليمن ، وخاصةً في المدن ، الى حد الاحتدام والصدام .. ويعلو تصارخهما الى عنان السماء ويشد احدهما بتلابيب الآخر شداً عنيفاً والشرر يتطاير من عينيه .. والعرق يتصبب منهما .. ولكن أحداً منهما لايمد يداً الى قبضة جنبيته على الاطلاق .. وقبل أن تستفيق انت من ذهولك يكون المتخاصمان قد انصرفا من ميدان القتال ... !

وأغرب من ذلك أن هذا اليمني إذا ما دفَعْتَه بيدك مجرد دفعة بسيطة لخطأ أو تقصير بدر منه .. فسرعان مايثور عليك ثورة حمقاء قد لاتهدأ إلا عند مرجع من مراجع الشكوىٰ والقضاء ... !

وجُبّة السادة غالبا ماتكون من الجوخ الأسود المشبوك .. يزينها صف من الازرار الذهبية الأنيقة ولايُشبك اعلاها ، وأكمامها عريضة تحتها ثوب ابيض .. أما النطاق فتزينه الآيات القرآنية .. ومن تحته (الجنبية) في غمد من الفضة .. أما (الشملة) فتكون شالاً ازرق اللون وأطرافها مزينة بخيوط الذهب ..

ويتميز أفراد الدرجتين الأولىٰ والثانية باقتناء المسابح الثمينة ، إلا أن مسابح الدرجة الاولىٰ أثمن ، وفي حالة عدم استعمالها لسبب ما فقد يجعلها صاحبها على شكل حلقتين او ثلاث ثم يطوق بها رقبة مقبض (الجنبيه) ... ! وتكون ذؤابة المسبحة مدلاّة الى الأسفل ....

الدرجة الثالثة – الفقهاء :

يرتدون العمامة البيضاء من دون (عذبة) طبعاً .. ولكنهم يزيدون في طول قماشها زيادة نسبية لتظهر بحجم اكبر وعلى شكل قبة غير مدببة تمييزاً لها عن عمائم الدرجتين الاولى والثانية ..

وكما يكون التمييز بين أشكال العمائم ، ونوعيات الملابس والأنطقة والخناجر والشيلان .. كذلك يكون التمييز بين أقلام الحبر (الباندانات ــ Fountain - pen) التي يغرزها افراد هذه الطبقات الثلاث في طيات عمائمهم إعلانا عن كونهم الطبقة المثقفة من أبناء الشعب .. ومن المألوف لدى الفقهاء أن يستعملوا طيات عمائمهم بمثابة مَحافِظ مكتبية (آرشيف) يحفظون داخلها القصاصات الورقية المفتولة على هيئة السكاير والتي هي الكتب والمخاطبات والعرائض الرسمية المتداولة بين ذوي العلاقة في الدوائر الحكومية ..... ذلك لأن الكثير من هؤلاء الفقهاء أو القضاة قد يتلقّون هذه القصاصات الورقية من أصحابها المراجعين وهم في طريقهم الى مكاتبهم أو في طريق عودتهم الى دورهم .. فما على الفقيه أو القاضي إلا أن يحشر تلك القصاصات المفتولة حيثما تيسر لها مكان بين طيات عمامته ... ! وربما كان هذا هو السّر في تضخم عمائم الفقهاء والقضاة في الحكومة الإمامية المتوكلية باليمن .... !

ويرتدي الفقهاء الثياب الفضفاضة ذات الاكمام الواسعة من دون جُبّة .. ويشتملون من فوق منكبهم الايسر بشملة متواضعة أقل جودة ومظهراً من شملات السادة .. أما أقدامهم فقد تكون عادةً في أحذية متواضعة أيضاً أو في نعال ...

الدرجتان الرابعة والخامسة :

وأصحاب هاتين الدرجتين يختلفون في أزيائهم باختلاف مناطق سكناهم والأعمال والمهن التي يمارسونها .. ولذلك نصنّف أزياءهم كالآتي :ــ

١ . **أهل المدن** : يعتمّون بالعمامة البيضاء الشبيهة بعمائم الفقهاء ويرتدون القمصان أو الثياب الفضفاضة ذات الاكمام الواسعة يشدون عليها بالأحزمة الجلدية المزركشة ويغرزون في الجهة الأمامية منها خنجرا (جنبية) ذو غمد معقوف ومزخرف .. ولايرتدون الجبة طبعاً .. ولكنهم يحملون على اكتافهم (الشملة) التي يشتملون بها للزينة .. وعند الضرورة يستعملونها بمثابة السجادة للصلاة .. وأحيانا يستعملونها بدل الاكياس لحمل بعض المشتريات من السوق ، وغالباً مايستعملونها لتغطية رءوسهم من أشعة الشمس صيفاً إذا مازادت درجة الحرارة في الجو على (٣٥) درجة مئوية .. أما أقدامهم .. فقد تكون في أحذية بلدية متواضعة أوفي نعال ...

وأما الأطفال الصغار والصبيان فانهم يضعون على رءوسهم طاقية اسطوانية الشكل قصيرة وسميكة ، ويرتدون جلباباً قصيراً وسترة ذات ألوان ونقوش غير متجانسة ...

وهناك فئة من أهل المدن الأغراب عن اليمن يرتدون زّياً يتميزون به عن اليمنيين .. فهم يضعون على رؤوسهم (القلباغ) التركي المصنوع من جلد الماعز ، أو يعتمّون بعمائم صغيرة وخفيفة ليست من الطراز اليمني ، ويرتدون الثوب او القميص الابيض الطويل ومن فوقه سترة مدنية ولا يشدون حزاماً ولا نطاقاً ولا يحملون (جنبيةً)) - أي خنجراً ولا يشتملون شملةً .. ولكنهم يضعون اقدامهم في أحذية متطورة يحصلون عليها بمناسبات السفر الى (عدن) وغير عدن .. وقد استحسن هذه القيافة الكثير من الشباب والكهول اليمنيين فصاروا يرتدونها .. ولسان حالهم يقول : لماذا يتهمنا العالم الخارجي بالتخلف وقد قطعنا كل هذا الشوط في تطوير الأزياء اليمنية .. ؟ ! .

٢ . **سكان القرى في المناطق الجبلية والهضبة** : تكون عمائمهم زرقاء داكنة لأنها مصبوغة بالنيّلة .. وتكون عادةً بحجمٍ اكبر من عمائم سكان المدن ، وربما ظهرت للعيان كذلك بسبب شعور رؤوسهم الكثيفة .. كما أن طراز شدّها يختلف عن عمائم أهل المدن .. وهم يرتدون القمصان أو الثياب القصيرة الى حدّ الركبة لكي يسهل عليهم القيام بالاعمال الزراعية ، وقد يرتدون مايشبه النصف فروة لوقاية الصدر والظهر في موسم الشتاء خاصة .. ويشدون على ثيابهم بأحزمة جلدية رخيصة ولكنها لاتخلو بتاتاً من الخنجر (الجنبية) ذو الغمد المعقوف المتواضع ...

إن الخناجر سمة مميزة لدى جميع القبائل في شبة الجزيرة العربية .. ولكنها تزداد تميّزاً في الجنوب العربي وعلى وجه الخصوص في اليمن ...

أما أقدام سكان القرى .. ففي أحسن الاحوال تكون في نعال .. وإلا فالحفاء هو القاعدة وغيره الإستثناء .. !

*ونؤجل الحديث عن أزياء النساء في اليمن الى موضع آخر من هذا الكتاب حيثما تقتضي المناسبة ....

٣ . **سكان المنخفضات أو الأغوار (تهامة)** : وهؤلاء هم أخفّ أهل الأرض لباساً .. خاصة في القرىٰ المنتشرة بعيداً عن المدن التهامية .. فقد يكتفي أحدهم بما يستر عورته فقط وما يستر رأسه من أشعة الشمس المحرقة .. وليس غريباً في هؤلاء الناس أن يخافوا على رؤوسهم ولا يخافون على أقدامهم .. ذلك لأن أقدامهم نفسها قد استحالت إلى نعال .. أو أقسىٰ من نعال .. ! وقد ترىٰ رجال ونساء قبيلة (الزرانيق) المشهورة في تهامة يضعون على رؤوسهم قبعة كبيرة من الحصير اثناء اشتغالهم في العراء .. حتىٰ إذا التجأوا الى الظل تحت عُشَشِهم المخروطية المصنوعة من أغصان الأثل والقش ، رفعوا القبعة المكسيكية ووضعوا اعلى رؤوسهم طاقيات خفيفة مصنوعة من القصب الخفيف ...

٤ . **منتسبو الجيش اليمني** :

أ . **الضباط** : لماكان تأسيس الجيش اليمني قد تم علىٰ اكتاف الضباط العثمانيين الذين آثروا البقاء في اليمن عقب خروج العثمانيين نهائياً من اليمن عام ١٩١٨ فقد ظل الطابع العثماني يطبع زيّ الملابس التي يرتديها الضباط في الجيش اليمني ولكن بشكل رخيص جداً .. فقيافة الضابط اليمني في جيش الإمام يحيىٰ تقتصر علىٰ :

لباس الرأس (القلباغ) العثماني المصنوع من جلد الماعز ..
سترة طويلة ذات جيوب شبه عسكرية وذات أزرار كيفما اتفق ..
سروال طويل من أي قماش رخيص .. حذاء بلدي .. والكثير منهم لايعرف الجوارب .

وباختصار .. فأن قيافة الضابط اليمني في جيش الإمام يحي قد تكون أسوأ قيافة ضباطية في العالم ... !

وفي الفصول التالية التي تتحدث عن أعمال البعثة في الجيش اليمني تفاصيل كثيرة في هذا الشأن .. سنأتي اليها تباعاً في حينه إن شاء الله .. وسنعزز ذلك بالتصاوير الفوتوغرافية ..

ب . **الجنود**

أما جنود الجيش النظامي القائم على نظام التطوع فانهم يعتمون بعمائم زرقاء كرجال القبائل .. ويأتزرون بمئزر ابيض أو ثياب بيضاء قصيرة يحتزمون عليها بالمِحزَق وهو حزام عريض تُرصّ فيه اطلاقات البندقية .. وهو مُرصّع بثقوب أو عيون شبيهة بتلك التي تكون في أوجه الأحذيه الجلدية .. ولكنها ذات الوان متعددة ، واحياناً لايكون تحت الحزام اكثر من (فوطة) تستر الجسم الى حد الركبة .. وقد تكون الثياب البيضاء ذات اكمام طويلة يعمد الجندي الى عقدها وراء الكتفين .. والجنود الذين يخدمون في الاقاليم البعيدة حيث القبائل في القرى والأرياف فانهم يتميزون بشعورهم الطويلة النافرة من اطراف عمائمهم الزرقاء الداكنة ، وثيابهم المشبعة بصبغة النيلة التي غالبا مايرتدونها قبل أن تجف من هذه الصبغة لكي تصطبغ بها جلودهم فتسد مساماتها وهم يعتقدون أن ذلك يقيهم من البرد في ليالي الشتاء .. ولايصحّ قول من قال بأنهم يفعلون ذلك حداداً على الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .. فلا حِداد على الحسين عند الزيود .. وهم لايُحدّون على أمواتهم بتاتاً .... وتُعتبر مدينة (حريب) على الحدود الشرقية من أهم مدن الجنوب العربي في صناعة (النيلج) أي النيلة ..

وهناك بعض قبائل البدو في الانحاء الشرقية من اليمن والمتاخمة للمحميات الشمالية الشرقية وشطراً من حدود الربع الخالي يَطْلون جلودهم بشحم الغنم أو الزيوت الثقيلة لاتقاء البرد ومقاومة جفاف الهواء .. ولايتضايقون من الروائح الكريهة التي تنبعث من جلودهم والتي لايُطيقها غيرهم من البشر السويّ .. !

أما جنود النظام الإلزامي فملابسهم تختلف كثيراً عن ملابس جنود الجيش المتطوع ، وهي باختصار : عمامة خفيفة وثوب قصير وسترة وكلها مصنوعة من قماش وطني أصفر اللون ...

وكل جنود الجيش اليمني حفاة تماماً لا يعرفون حتىٰ النعال .... !

الدرجة السادسة – اليهود :

ليهود اليمن زيّ خاص مستقل بكل مواصفاته الخاصة التي تجعلك تميز هذا اليهودي بسرعة خاطفة حتىٰ في أحلك الليالي ظلمة ... ومن خصائص زيّ اليهود في اليمن أنه زي موحد لجميع اليهود .. لافرق فيه بين يهود المدن أو القرى أو الأرياف .. أو بين يهود الهضبة والجبال ويهود المشرق أو تهامة .. ولافرق فيه بين الغني والفقير .. لذلك يستحيل على اليهودي اليمني أن يُخفي نفسه عن أحد من الناس حتىٰ ولو وضع رأسه في طاقية إخفاء مسحورة ... !

ونحن إذا وصفنا لك زيّ يهودي واحد من يهود صنعاء .. فكأنما وصفنا لك زيّ جميع اليهود في اليمن شريطة أن تنظر إليه من أعلى الى أسفل :–

* طاقية صغيرة سوداء فوق الرأس ..
* ضفيرتان ، أو سالفتان تتدليّان من جانبي الطاقية على الصدغين .. وبقية شعر الرأس محلوق درجة صفر ..
* لحية خفيفة عند الشباب ، وكثّة عند الكهول وفوضىٰ عند الشيوخ ..
* زَنّة سوداء طويلة – أي ثوب (دشداشة) ..
* صدرية ، أو نصف فروة ..
* حزام من الجلد .. لاجنبية من تحته ...
* القدمان غالباً في نعال ..
* شملة من الصوف سوداء اللون على الكتف اليمني – وليس اليسرى .

وهذا الزيّ اليهودي الموحد غير قابل للتعديل ولا للتبديل ما لم يغادر اليهودي حدود اليمن الى حيث ألقت رحلها أم قشعم :.. ! وقد غادرها فعلاً الى الأرض المحتلة من فلسطين بعد عام ١٩٤٨ ..

القسم الرابع
نظام الحُكم في اليمن
١٩٤٠ - ١٩٤٣

لقد تخلخل نظام الحكم في اليمن بعد العشرينات من هذا القرن العشرين للميلاد فصار له وجهان :

وجه اسلامي صحيح ..

ووجه إسلامي محرّف ..

أ . الوجه الاسلامي الصحيح – وهذا يشمل كل مايتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية الغراء المستمدة من الكتاب والسُّنة ...

فالقاتل المتعمد تُقطع رأسه بالسيف على مشهد كبير من الناس ..

والسارق والسارقة تُقطع يداهما على ملأ من الناس ..

وقاطع الطريق تُقطع يده وإحدىٰ رجليه من خلاف ..

والزانية والزاني غير المُحَصَنَيْن يُجلد كل واحد منهما مائة جلدة ..

أما المحصن والمحصنة ففيهما الجلد والرجم ايضا ..

والخ ....

ولا اعتراض لنا ولا تعليق على هذا الوجه الاسلامي من نظام الحكم في اليمن لأنه مُستَمد من أحكام القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة .. وسنذكر بعد قليل كيف أن تطبيق أحكام السماء هذه نشر الأمن العام والاطمئنان التام ليس في ربوع اليمن فحسب .. بل وفي ارجاء المملكة العربية السعودية أيضا من البحر الأحمر الى الخليج العربي ... !

وليس من أهداف كتابنا هذا أن نتفصّل في هذا المجال وإلاّ لكتبنا عنه الشيءَ الكثير.....!

٢ . الوجه الاسلامي المحرّف – وهو الوجه الذي اختلط فيه الطابع الاسلامي مع طابع العصر دونما انسجام ولا توافق ولا تنسيق ...

فقد اختلطت «الإمامة» بالملكية .. فصار الإمام إماماً زيدياً ومِلِكاً وصاحب جلالة من دون عرش ولا تاج .. ولكنه لم يُعدَم من عَلَم أحمر اللون يتوسطه أفقياً سيف أبيض تعلوه ثلاثة نجوم بيضاء ومن تحته نجمتان بيضاوان ، وهذه النجوم الخمسة ترمز الى (الله + محمد + عليّ + الحسن + الحسين) العترة النبوية المطهرة رضوان الله تعالىٰ عليهم أجمعين ... وقيل أيضاً بأنها ترمز الىٰ أركان الاسلام الخمسة ....! ونترك لاهل اليمن القدامىٰ حق التصويب ...

واختلط مبدأ انتخاب الإمام انتخاباً زيدياً بمبدأ ولاية العهد بالوراثة فنسفت بذلك الشروط الزيدية الأربعة عشرة الواجب توفرها في الأمام المنتخَب ....

ولم يكن لليمن في حكم الزيود ولآية للعهد ، ولكنه قيل بأنه في سنة ١٩٣٦ كان قد وصل الى (صنعاء) العالم الديني الشافعي الحضرمي السيد محمد بن عقيل من علماء (جاوة) المعروفين .. فأشار على الإمام يحيىٰ وأقنعه بضرورة العمل بولاية العهد وإسنادها الى أفضل أولاده أسوةً بما هو جارٍ في الحكومات العربية والاسلامية المجاورة .. وبهذه الطريقة يتم حصر الإمامة في بيت حميد الدين وقطع الطريق على الطامحين بالإمامة حتىٰ الأبد ...

ولعل السيد محمد بن عقيل قد ندم اخيراً أشد الندم على إبداء تلك المشورة التي نجمت عنها كل المآسي في اليمن منذ عام ١٩٣٦ ولغاية عام ١٩٦٢ .... !

واستناداً الى تلك المشورة الناقصة بادر الإمام يحيىٰ الى جمع مجلس العلماء وقرر ولاية العهد لأكبر اولاده سيف الاسلام أحمد الذي رجحت كفته على بقية إخوته الاثني عشر .. وكان من أبرز عوامل الرجحان في كفة سيف الاسلام احمد هو قدرته الحربية في الانتصار على قبيلة (الزرانيق) في تهامة اليمن وهم اولو بأس شديد ودامت الحرب بين الطرفين مدة عامين شديدين[1] .. ومنذ ذلك التاريخ - أي منذ الإستماع الى مشورة السيد محمد بن عقيل الحضرمي - قامت ولآية العهد في مملكة الإمام يحي حميد الدين ... !

وبمناسبة الحديث عن ولاية العهد في مملكة(الإمام)ندرج فيما يلي أسماء أولاد الإمام يحيىٰ الاحياء منهم لكي تتضح لنا معالم الورطة التي تورط بها الإمام يحيىٰ في حكاية ولاية العهد التي أشار بها السيد الحضرمي الذي غاب عن ذهنه أن هؤلاء الثلاثة عشر ولداً ليسو من

(١) كان ذلك عام ١٩٢٨ ...

أم واحدة .. بل من عدة أمهات .. كل واحدة منهن تنتمي الى قبيلة مهمة من قبائل اليمن الشديدة البأس .. وأن كل قبيلة من هذه القبائل تريد ولاية العهد أو الإمامة للولد الذي تنتمي أمه اليهم ..... !

بعد فشل ثورة عام ١٩٤٨ ، التي اغتيل فيها الامام يحيىٰ ، بويع وليُّ العهد سيف الاسلام احمد بن يحيىٰ حميد الدين إماماً على اليمن .. فكان همه الأول تثبيت ولاية العهد لابنه سيف الاسلام محمد البدر .. وكان ذلك بدء التنافس والصراع بين الإمام أحمد وبين بقية اخوته الذين لايخلو بعضهم من عناصر الافضلية ورجحان الكفة على سيف الاسلام محمد البدر فيما يتعلق بولاية العهد .. وكان أبرز هؤلاء إثنان .. سيف الاسلام الحسن وسيف الاسلام عبد الله ...

فلو كان لدىٰ الإمام أحمد مايكفي من الحكمة وبُعد النظر لجعل ولآية العهد شورىٰ يتشاور فيها مجلس شيوخ الزيدية بعيداً عن كل الضغوط من أي جانب كان .. فان اختلط الأمر على هذا المجلس لأية اسباب .. فعندئذ يكون من الحكمة والعدل جعل ولاية العهد في سيف الاسلام الحسن ومن بعده لسيف الاسلام عبد الله .. شريطة أخذ الميثاق منهما بأن لا ينقلا ولاية العهد الى أبنائهما حتىٰ يحظىٰ كل ولد من اولاد الامام يحيىٰ بحقه من ولاية العهد ..

إلا أن الإمام احمد ركب رأسه وضرب بحقوق إخوته عرض الحائط ثم طوّق نفسه وولده وإخوته بفتيل ذريّ فظيع ثم أشعل رأس الفتيل ... وبذلك كتب بخط يده نهاية المصير ليس لعائلة حميد الدين وحدها .. بل وللإمامة الزيدية بالذات ... !

أولاد الإمام يحيىٰ حميد الدين

للإمام يحيىٰ أربع زوجات شرعيات على الدوام ، فأذا اراد التزوج بزوجة جديدة طلّق واحدة من الأربعة وتزوج الجديدة دون أن تغادر الزوجة المطلقة قصر الإمام الى أهلها .. وقد جاءه من هذه الزوجات (٣٤) أربعة وثلاثون ولداً مات منهم (٢١) واحد وعشرون .. وله خمس بنات متزوجات . أما الاولاد الذكور الباقون على قيد الحياة حتىٰ الآن (١٩٤٣) هم : ـ

١ . سيف الاسلام أحمد ـ أمير لواء تعز .. وولي العهد .
٢ . سيف الاسلام الحسين ـ أمير لواء صنعاء .
٣ . سيف الاسلام عبدالله ـ أمير لواء الحديدة ... ووزير المعارف ورئيس المجلس العسكري العالي أو الأعلىٰ ..
٤ . سيف الاسلام الحسن ـ أمير لواء إب .
٥ . سيف الاسلام علي ـ وزير الاقتصاد والمواصلات والاشغال العامة .
٦ . سيف الاسلام القاسم ـ وزير الصحة ..
٧ . سيف الاسلام المحسن ـ شقيق سيف الاسلام عبدالله ..
٨ . سيف الاسلام المطهر .
٩ . سيف الاسلام إسماعيل .
١٠ . سيف الاسلام العباس .
١١ . سيف الاسلام إبراهيم .
١٢ . سيف الاسلام يحي .
١٣ . سيف الاسلام عبد الرحمن ـ وهو اصغرهم سناً .

ترىٰ .. ماذا يمكن أن يكون تعقيبنا على مثل هذا الموضوع في بلد كاليمن تميّز حكمه بأعجب المفارقات والمتناقضات ؟

إن الانسان في اليمن الحاضر لا يكاد يشعر بوجود شيئ يسمىٰ بالعالم الخارجي .. ولذلك فهو لا يدرك أبعاد هذا المجهول ومدىٰ تأثيره على مسار الأحداث في كل شبر من الكرة الأرضية .. وقد عاش اهل اليمن دهراً طويلاً يزيد على الألف عام في ظل الأئمة ـ ولا نقول الإمامة ـ ولا علم لهم بما كان يدور في فلك الزمن بالنسبة لمضيق باب المندب وميناء عدن خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ... وفجأةً ارتفع العلم البريطاني فوق أعلىٰ قمة بركانية خامدة من الجبال المحيطة بعدن إعلاناً باحتلالها في عام ١٨٣٩ !

وأئمة اليمن يقتل بعضهم بعضاً على مسافةٍ تقل عن الآلف كيلومتر عن ميناء عدن .. !

ولذلك كانت الاسباب دائماً متوفرة ليفقد هذا اليمن هدوءه واستقراره في أية لحظة ... ومنذ أن قرر الإمام يحيىٰ أن يمزج الخّل

بالعسل ـ أي الملكية وولاية العهد بالإمامة الاسلامية الشوريّة الشيعية بالجمهورية الأصيلة اضطرب حبل الأمن والهدوء والاستقرار أيما اضطراب .. حتىٰ كان عام ١٩٤٨ حين تمخضت الأحداث عن اغتيال الإمام يحيىٰ ، كما هو معروف . ولم يفلح ولي عهده بانقاذ السفينة التي فقدت ربانها الحقيقي الذي لم يترك من بعده من يصلح تماماً للوقوف وراء الدفة من جديد .. !

وبلاد اليمن مقسّمة إدارياً الى أربعة ألوية ادارية هي :

أ . صنعاء .
ب . الحديدة .
جـ . إب (وكان سابقاً في صَعْدَة) ..
د . تعز .

وفي كل لواء عدد من الأقضية ، وفي كل قضاء عدد من النواحي .

كان الإمام يحيىٰ قد استخدم عدداً من رجاله القدامىٰ بصفة أمراء على مراكز الألوية قبل أن يبلغ اولاده مبلغ الرجال .. وكان قسم من اولئك الرجال القدامىٰ ممن جاهدوا مع الإمام جنباً الى جنب حتىٰ حصلوا على الاستقلال .. وكان من بين اولئك الرجال إثنان بارزان من آل الوزير الذين سبقت لأجدادهم الإمامة على اليمن[1] .. وهما : السيد علي عبدالله الوزير والسيد عبدالله احمد الوزير .. فالأول منهما كان الإمام يحيىٰ قد جعله أميراً على لواء (تعز) ، وجعل الثاني أميراً على لواء الحديدة ..

وهذان اللواءان من أهم ألوية اليمن الاربعة بما فيها (صنعاء) ..

فلما بلغ بعض اولاد الإمام مبلغ الرجال وزع بينهم إمارات الألوية الأربعة .. فكان تقسيمهم كما يلي : ـ

لواء صنعاء ـ سيف الاسلام الحسين ، يعاونه عامل صنعاء (والعامل هو المتصرف او المحافظ) ..
لواء الحديدة ـ سيف الإسلام عبدالله ، يعاونه عامل الحديدة ..
لواء تعز ـ سيف الاسلام احمد ولي العهد .
لواء إب ـ سيف الإسلام الحسن .

وبهذا يكون الإمام يحيىٰ قد ضرب اكثر من عصفورين بحجر واحدة :

اولاً ـ تسليم إمارات مراكز الألوية الى اولاده الذين اختارهم اختياراً دقيقاً .

ثانياً ـ سحب الأميرين (علي عبدالله الوزير) و (عبدالله احمد الوزير) الى صنعاء ليكونا بعد اليوم تحت رصده المباشر .. فقد كان يحسب لهما الف حساب .. عِلماً بأن الأمير (علي عبدالله الوزير) لم يكن ليصلح إماماً في أي يوم من الأيام لأنه يفقد شرطاً جوهرياً من شروط الامامة هو سلامة البدن من العاهات .. وكان السيد علي الوزير قد فقد إحدىٰ عينيه في مرض الجدري عندما كان لا يزال صبياً .. ومنذ سنين طويلة والسيد علي الوزير يضع على عينيه النظارات السوداء .. والظاهر أن الإمام يحيى كان يخشىٰ هذه الشخصية القوية بالذات ..

ثالثاً ـ تدريب سيوف الاسلام عملياً على إدارة هذه الألوية وسكانها .. لذلك منحهم صلاحيا ت غير محدودة لكي تمكنهم من تنفيذ الواجبات المطلوبة منهم .

كان كل واحد من أمراء هذه الألوية الأربعة هو نائب الإمام والحاكم بأمره ، وكان أيضاً أمير الجيش المرابط في اللواء ، وكان ايضاً أمين خزائن بيت المال في اللواء ، وكان ايضاً المرجع المباشر في أمور القضاء .. وبذلك اصبح أمراء الولايات أو الألوية هم المسؤولون عن كل شيئ أمام والدهم الإمام .. وكانوا لا يحيدون قيد شعرة عن اتّباع أساليب الإمام في كل صغيرة وكبيرة .. حتىٰ في طريقة معاملة الناس والجلوس لهم في فناء مكشوف للاستماع الى شكاواهم وتظلماتهم ....

وبهذه الطريقة استطاع الإمام يحيىٰ أن يجمع بين يديه كل مقاليد الحكم المركزي المطلق .. وبمرور الزمن اعتاد الناس في اليمن على هذا النمط من الحكم .. وقد يكون الإمام مصيباً الى حدّ ما في فرض هذا النمط من الحكم بالنسبة للفترة التي أقام بها الإمام هذه الدولة واليمن حديث عهدٍ بالحروب الطويلة الطاحنة بين الأئمة أنفسهم وبين الأئمة والأتراك .. إلا أنه لا يمكن أن يظل هذا الطراز من أنظمة

(١) كان منهم الإمام المنصور بالله محمد بن عبد الله بن الوزير.

الحكم صالحاً الى الأبد .....

فلأجل زيادة طفيفة في راتب أحد الجنود كان لابد من وصول قصاصة الورق الصغيرة المتضمنة بعض الكلمات في هذا الشأن الى ديوان الإمام في (صنعاء) للحصول على (الموافقة الشريفة) بصدد تلك الزيادة .... !

فاذا استطعنا أن نتصور في مخيلتنا عدد الآلاف من قصاصات الورق التي تصل يومياً الى ديوان الإمام .. فينبغي علينا ايضاً أن نتصور أيّ رجل قويّ البنية هو هذا الإمام الذي يجلس في ديوانه على الارض لينظر في كل ذلك السيل المتدفق من القصاصات يومياً وعلى مدار الشهر والعام ..؟ !

وبسبب هذا الجهد العظيم - من غير طائل ... - أُصيب الإمام يحيىٰ بمختلف أمراض الشيخوخة قبل الأوان وفي مقدمتها مرض النقرس .. داء الملوك .... !

وقد يسأل سائل : «فأين هي حكومة الإمام يحيىٰ إذن ؟» ..

نقول : ليس لدىٰ الإمام يحيىٰ حكومة بالمعنىٰ المفهوم .. إلا أن لديه ديواناً ، أو بلاطاً ، ليس بالمعنىٰ المفهوم ايضاً .. ! وهذا ما يلائم حالته وظروفه تمام الملائمة .....

لقد ذكرنا في مستهل هذا القسم الرابع (نظام الحكم في اليمن) بأن الإمام يحيىٰ حينما بلغ أولاده الكبار مبلغ الرجال أسند الى عدد منهم الوزارات التالية : -

الأمير سيف الاسلام عبدالله - أميراً للواء الحديدة ، ووزيراً للمعارف ، ورئيساً للمجلس العسكري الاعلىٰ ، ومندوباً عن الإمام في المؤتمرات العربية والدولية ..... !

الأمير سيف الاسلام علي - وزيراً للاقتصاد والمواصلات والأشغال العامة ..

الأمير سيف الاسلام القاسم - وزيراً للصحة ..

ومنذ قيام دولة الإمام يحيىٰ كان الإمام قد أسند وزارة الخارجية للقاضي محمد راغب بك رفيق التركي الجنسية الذي آثر البقاء في اليمن الىٰ جانب الإمام عند انسحاب العثمانيين نهائياً من اليمن .. وقد وطّد هذا الرجل مركزه بالمصاهرة حينما زوّج إحدى بناته من سيف الاسلام القاسم وزير الصحة ..

والقاضي محمد راغب كان قد وُلد ونشأ وأكمل دراسته العليا في كلية الحقوق بالأستانة . وبعد تخرجه عمل في السلك الدبلوماسي .. وهو يتقن اللغات الفرنسية والروسية والايطالية .. لذلك تمكن من التدرج السريع فأشغل عدة مناصب دبلوماسية في بطرسبرغ وبخارست وبرلين ونابولي في إيطاليا .. وكان في فترةٍ ما - من فترات الحكم العثماني في العراق - متصرفاً في لواء العمارة . كما كان متصرفاً في لواء الحديدة أيام العثمانيين .. ولم تَفُتْه فرصة التغيير في تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني وقيام تركيا الكمالية .. فقد عمل مترجماً لمصطفىٰ كمال فترة قصيرة .. ولكن ميوله السياسية لم تنسجم مع الحركة الكمالية .. فغادر تركيا الىٰ اليمن .. ووهب خدمته لهذا البلد الاسلامي .. والرجل من المتحمسين لقيام الجامعة الاسلامية التي دعا اليها المصلح الاكبر السيد جمال الدين الافغاني .. وقد نجح الرجل نجاحاً طيباً في تسيير دفة السياسة الخارجية لحكومة الإمام يحيىٰ حتىٰ النهاية .. والرجل قد نَيف علىٰ السبعين من عمره (خلال وجود البعثة العسكرية العراقية في اليمن) .. ويسكن قصراً مهيباً في الأحياء الجديدة من صنعاء (بئر العزب - ساحة شرارة) ، وهذا القصر في أصله كان مسكناً للإمام يحيىٰ عندما عاد الىٰ صنعاء بعد خروج العثمانيين من اليمن قبل أن يشيد له القصر المسمىٰ حالياً بدار الشُكر ..

وبعد أن كان السيد محمد راغب بك في صباه ورجولته يرتدي القبعة الافرنجية ، ومن قَبلها الطربوش ، والملابس الخاصة برجالات السلك الخارجي في تركيا والاقطار الاوربية .. صار اليوم ، وهو في السبعين من عمره يرتدي العمامة البيضاء الجميلة المهذّبة حسب ذوقه الرفيع . وتحت الثوب اليمني المفتوح من الأمام ينتهي قميصه الحريري المخطط بشَيةٍ حول رقبته تشبه (الياقة) البيضاء فلا ينقصه سوى رباط الرقبة ، وهو يرتدي الجبّة الفضفاضة ذات اللون البنفسجي .. ولا يحمل خنجراً ولا حربةً ولا سيفاً .. ولكنه يُضفي علىٰ جمال ملابسه الأنيقة جمال طلعته ذات البشرة البيضاء المشربة بحمرة وردية وبعينيه الزرقاوين ولحيته الأنيقة البيضاء .. وإنك لتحب أن تراه حينما يخرج من داره صباحاً الىٰ ديوان الإمام وهو راكب جواداً ناصع البياض .. فيخيّل اليك أنك تنظر الىٰ أحد البرامكة الكبار

متوجهاً الىٰ قصر هارون الرشيد ... !

لقد كان القاضي محمد راغب بك الساعد الايسر بحق وحقيق للإمام يحيىٰ حميد الدين .. ولقد أحب اليمن كما أحب الإمام .. وهو في قرارة نفسه يتمنىٰ لو استطاع أن يفعل شيئاً لاخراج اليمن وشعبه من قوقعة العزلة القاتلة .. وهو لا يخاف من الجهر بأفكاره هذه كما يخاف كل رجال الإمام الكبار من الهمس بأفكارهم ... وكثيراً ما حدّث الشخصيات الأجنبية الكبيرة التي تزور اليمن حول ذلك فيقول : [... نحن نعمل علىٰ ترقية هذه البلاد المحبوبة رغم ما في ذلك من معوقات وصعوبات .. وان هذه المعوقات من عمل رجال متعصبين يخشون أن يفتحوا نافذة ويطلّوا منها علىٰ العالم الخارجي .. ونحن لانعرف اليأس ولا القنوط .. ولقد بدأنا في إدخال إصلاحات جدية علىٰ طريقة الحكم في بلادنا بقصد التخفيف قدر الإمكان من الأعباء الملقاة علىٰ عاتق الإمام حفظه الله والتي زادت كثيرا وتجاوزت حدود طاقته وقد نيّف علىٰ السبعين ....] ..

ومنذ قيام دولة الإمام يحيىٰ كان الإمام قد أودع كل ثقته في رجل كبير من رجاله هو القاضي عبدالله حسين العَمْري ، وهو اليوم الساعد الأيمن للإمام وكاتم أسراره ورئيس وزرائه ووزير داخليته ومستشاره الأول في السياسة الداخلية للبلاد .. وفوق ذلك فهو وزيره للحربية .... ! وإن شئت قل هو الأول والآخر من رجال الإمام يحيىٰ .. لذلك فهو يتمتع بأعلىٰ الصلاحيات ، والرجل في حوالي الستين من عمره ولكنه يفوق الشباب همةً وحيويةً ونشاطاً ..

كما يفوق كل الشيوخ من رجال الإمام في حدّة ذكائه وسداد مشورته .. وهو فوق كل ذلك رجل تقيّ في غاية الورع .. رقيق الحاشية .. دمث الأخلاق .. عظيم التواضع .. لا تغيب البسمة الرقيقة عن وجهه قط .. وكل هموم الدولة ومشاقها لا تمنعه عن القيام بخدمة والده (القاضي حسين العَمْري) وقد أقعدته الشيخوخة وأمراضها منذ مدة طويلة وكذلك والدة القاضي عبدالله .. وكنا نسمع من الناس العارفين بأن هذا (الولد الشيخ عبدالله العمري) حريص علىٰ انتهاز كل دقيقة ممكنة ليقوم فيها علىٰ خدمة والديه كما تقوم به الممرضات المخلصات .. وكان والده من كبار العلماء المرموقين في زمانه .. وكان الإمام يحيىٰ نفسه قد درس علىٰ يديه .. وقد توفاه الله تعالىٰ في عام وجودنا باليمن ١٩٤٢ عن عمر ناهز (١٢٥) عاماً .... !

ورغم كل هذه الخصال الحميدة التي ذكرناها عن القاضي عبدالله العمري ، إلا أن الرجل كان عزوفاً عن أي تغيير في مسيرة البلاد ....!

ونستميح القارئ عذراً عن شططنا في الحديث عن حكومة الإمام يحيىٰ حينما أطلنا التعريف بالوزيرين الكبيرين (القاضي محمد راغب بك) و (القاضي عبدالله العَمْري) فقد كان لابد من ذلك .. والآن نستأنف بقية السؤال : أين بقية الوزارات ؟

وزارة المالية - ليست هناك وزارة للمالية .. لأن (بيت مال المسلمين) مسؤول عنه الإمام يحيىٰ نفسه مباشرة ولا يُشرك في هذه المسؤولية المباشرة أحداً من العالمين ... !

وزارة الزراعة - توجد الزراعة .. ولا توجد وزارة .... !

وزارة الصناعة - لا توجد صناعة ولا وزارة .. !

وزارة التجارة - توجد تجارة بدائية ولا توجد وزارة .. !

وزارة العدل - العدل كله بيد الإمام ... !

وزارة الاوقاف - توجد أوقاف ولا توجد وزارة .. !

وزارة الريّ - لا توجد أنهار ولا سدود ولا وزارة ... !

وزارة الإعلام - لا يوجد إعلام ولا توجد وزارة .. !

وزارة الشؤون البلدية والقروية - توجد بلدان وقرى ولا توجد وزارة .. يقوم العمال (المحافظون) بهذه الشؤون علىٰ طريقتهم الخاصة ... ونحن إذا دققنا النظر في الوزارات الموجودة فقط وبرؤسائها نجدها مجرد مسمّيات لاحياة فيها علىٰ الا طلاق .. وإن شئت قلت لا وجود لها البتة .. وربما انطبق عليها قول الشاعر :

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فأنت لو فتشت كل شبر من ارض اليمن لمَا وجدت أثراً لأمكنة ودواوين تلك الوزارات التي أُنيطت رئاستها بسيوف الاسلام الثلاثة : عبد الله وعليّ والقاسم .. ولا حتىٰ وزارة الخارجية التي أنيطت بالرجل الكفء القاضي محمد راغب بك رفيق .. ولا حتىٰ وزارة الداخلية والحربية ورئاسة الوزراء المناطة بالقاضي عبد الله العمري .. فكل هؤلاء الرجال لا يملك أحدهم ديواناً لوزارته .. **ولا وكلاء وزارات ولا سكرتاريّين (ولا سكرتيرات ....) ولا هم يحزنون ...! والأنكىٰ من ذلك كله هو أن أحداً منهم لا يملك** صلاحية القرار علىٰ تعيين (كنّاس) في الدولة إلا بموافقة الإمام ... !

إن مراكز هذه الوزارات هي الوسائد أو(المتاكي)أي المتّكآت التي يتكئ عليها هؤلاء(الوزراء)في ديوان الإمام يحيىٰ.. والكل يجلس بين يدي الإمام علىٰ الارض كما يجلس الأولاد في الكتاتيب بين يدي (الملاّء) ... ! أما موظفو وزاراتهم فهم الكتبة من الفقهاء الذين يجتمعون في زوايا وخبايا ما يُسمىٰ بـ(المقام) وهو المبنىٰ الكبير الذي فيه ديوان الإمام ..

ثم أمعن النظر في مفردات ونوعيات الوزارات المسندة الىٰ بعض سيوف الاسلام :

فسيف الاسلام عبد الله هو : أمير لواء الحديدة ..

ووزير المعارف ..

ورئيس المجلس العسكري الأعلىٰ ..

ومندوب والده الإمام الىٰ المؤتمرات العربية والدولية ..

ولا أحد يدري كيف يعمل وزير المعارف وهو يقيم في الحديدة ؟

ولا أحد يدري كيف يعمل رئيس المجلس العسكري الاعلىٰ وهو يقيم في الحديدة ؟

ولا أحد يدري كيف يعمل سيف الاسلام عبد الله كل ذلك وهو موّزع بين المؤتمرات العربية والدولية ... !

أليست هذه كلها مهزلة .. ؟ !

وسيف الاسلام عليّ هو : وزير الاقتصاد ..

ووزير المواصلات والأشغال العامة ..

ولا أحد يدري ماهو اقتصاد اليمن .. وما هي برامجه وأين تكون ؟ ! والا فقصاد عِلمٌ قبل كل شيئ .. وسيف الاسلام علي ليست لديه شهادة مدرسة ابتدائية .. !

ولا أحد يدري ما هي وأين هي طرق المواصلات الصالحة في اليمن .. ؟

ولا أحد يدري اين هي المواصلات السلكية واللاسلكية في اليمن (عدا التلغراف الذي يعود فضل تأسيسه للعثمانيين) .. ؟

ولا أحد يدري ما هي الأشغال العامة في اليمن ؟

أين هي القناطر على الأقل (وقد رأينا في اللمحات الجغرافية عن اليمن كثرة الأودية المتشابكة التي يحتاج بعضها الىٰ تجسير وقناطر بسبب فيضان السيول الجارفة عند هطول الأمطار الموسمية ...) ..

وسيف الاسلام القاسم هو : ما شاء الله .. وزير الصحة ... !

ولا أحد يدري ما الذي يفعله وزير الصحة في بلد يسكنه أربعة أو خمسة ملايين بني آدم وليس فيه غير مستشفىٰ حكومي واحد في العاصمة (صنعاء) لا يدخله مريض حقيقي من الباب الأمامي إلا ليخرج ميتاً من الباب الخلفي ... !

ولا أحد يدري ما الذي يفعله وزير الصحة في بلد ليست فيه صيدلية واحدة بالمعنىٰ المفهوم .. وكل ما هناك مخزن لبعض الأدوية لا يُصرف منه قرص اسبرين واحد بدون قصاصة ورق تافهة تحمل ختم سيف الاسلام القاسم بالموافقة علىٰ الصرف .. !

تلك كانت الصورة المزيفة للحكومة المزيفة في اليمن ..

أما الصورة غير المزيفة لحكومة الإمام يحيىٰ فهي كالآتي : ـ

١ ـ تتألف حكومة الإمام من : الإمام يحيىٰ حميد الدين (المتوكل على الله رب العالمين ..) ..

المستشارون المقربون وهم : القاضي عبد الله حسين العَمْري ـ الساعد الأيمن للإمام .

القاضي محمد راغب بك رفيق ـ الساعد الايسر للإمام .

القاضي حسين المطّهر ـ مقدّم الديوان .

الكاتب الأول : القاضي عبد الكريم المطهر ـ يعاونه عدد كبير من الكتبة المختارين ..

الوزراء بلاوزارات حقيقية : سيوف الاسلام الذين تحدثنا عنهم آنفا .

٢ ـ مقر الحكومة ـ في (المقام) : إما في الديوان .. إذا كان الطقس في الخارج لا يناسب صحة الإمام ..

وإما في فناء المقام الفسيح تحت ظل شجرة كبيرة معروفة لدى الخاص والعام .. اذا كان الطقس مناسباً ..

٣ ـ مجلس الحكومة ـ إن الجلوس علىٰ الأرض فوق المطارح أو حتىٰ البُسط الشعبية هو القاعدة .. وما عداه هو الإستثناء ... !

٤ ـ المكاتب ولوازمها ـ المتّكآت أو (المتاكي) أي الوسائد الغليظة ، ولا حاجة للمناضد ولا الكراسي .. أقلام الحبر العصرية (الباندانات) .. ومكانها الطبيعي في طيات العمائم علىٰ سبيل الأبهة والتطور .... !

لا حاجة للطابعات لأنها لا تتمتع بالثقة التي يمتاز بها خط الكاتب .. فضلاً عن كونها تسبب تبذيراً كبيراً في القرطاسية وشراء الطابعات ولوازمها ....

لا حاجة الىٰ الورق الكثير لأن أعظم المعاملات واخطرها قد لا تحتاج الىٰ اكثر من قطعة ورق بأبعاد (١٥ × ٢٠سم) .. ولا يهم من أي نوع كان هذا الورق .... .

فاذا ما لاحظ الإمام أو الكاتب الأول فضلةً زائدة من حجم الورق وأنها تنفع وتتسع لمعاملة أخرى تناول المقص المعلق في رقبته فاقتطع الفضلة الزائدة وطرحها الىٰ جانبه ... !

فمن لوازم مكتب الديوان إذن هو المقص الذي يُعلّق في الرقبة بخيط متين يصل الىٰ حضن الإمام أو الكاتب وهو متربع علىٰ الارض ... !

والإجابة علىٰ المطالب أو الاستفسارات تكون علىٰ نوعين أو اكثر من الدرجات : فان كان الأمر اعتيادياً **صدّره** الامام في أعلىٰ الورقة بعبارة «لابأس» ، وإن كان الأمر **ذا أهمية** كانت الاجابة بخط الإمام نفسه مع تعزيزها بالختم الإمامي .. ثم ترميل[1] الجواب والختم بالرّيق[2] الأحمر وتلك إشارة جازمة لتنفيذ الأمر .... !

ولاحاجة الىٰ نظام الملفّات (الآرشيف) .. لأن الملّف يعجز عن احتواء آلاف القصاصات الورقية الصغيرة ... التي لا ينفع معها غير المسامير الطويلة التي تُدقّ علىٰ الجدران وتُشكّ فيها تلك القصاصات كما تُشك شرائح لحم القصّ في السّفود ... !

لا أعتقد أن شخصاً زار اليمن في **عهد الامام يحيىٰ** ، وحضر ديوان الإمام المسمىٰ بـ (المخيم المنصور) وتمكن من مشاهدة سير العمل اليومي في ذلك الديوان يستطيع أن يكتب لنا عن تلك المشاهدات العجيبة كما كتبها السيد أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» وكانت رحلة الريحاني الىٰ اليمن في عام ١٩٢٢ ..

---

(١) الترميل : مشتق من الرمل . والمقصد هنا ذَرّ الرمل الناعم علىٰ الرسائل المكتوبة بالحبر السائل لكي يجف الحبر سريعاً .. ويكون ذلك بعد ختم الجواب بالختم الإمامي الأحمر **انظر نموذج الختم الرسمي للامام في المرسلات ص ١٩٢ جـ ٢** [4]

(٢) الرّيق : تعبير آخر للذرور الرمل الناعم فوق الحبر...

لقد استطاع الريحاني أن يحتوي كل تلك المشاهد بحكم طبيعة زيارته الخاصة للإمام يحيىٰ .. فهي زيارة إتسمت بأكثر من طابع يغلب عليها الطابع السياسي الذي أفسح للريحاني مجلساً خاصاً في ديوان الإمام ومكّنه من الاطلاع علىٰ كل شيئ تقريبا مما كان يحدث ويجري في ذلك الديوان .. وهذا مما مكن الريحاني أيضاً من أن يحفظ دقائق ملامح الإمام يحي وقسمات وجهه ثم يرسم صورةً قلميّة للإمام فيها غير القليل من الشبه الواقعي بالشكل الحقيقي لصورة الإمام (أنظر الصفحة التالية ص ٨٣) ..

لقد مكث الريحاني في اليمن ثلاثة اشهر فقط .. ومكثنا نحن (البعثة العسكرية العراقية) في صنعاء ثلاث سنوات .. فاستطاع الريحاني أن يشاهد الكثير من وقائع العمل في ديوان الإمام ليلاً ونهاراً ... ولم نستطع نحن أن نشاهد شيئاً من ذلك بأعيننا ولو لمرة واحدة .. وذلك بسبب طبيعة مهمتنا العسكرية .. فنحن عندما أُذن لنا بمقابلة الإمام يحيىٰ إثر وصولنا الىٰ صنعاء لم تجرِ المقابلة في ديوان العمل اليومي .. بل جرت في غرفة العرش .. ولم يحضر تلك المقابلة سوى وزير الخارجية القاضي محمد راغب بك رفيق .. وسنأتي في فصل لآحق من هذا الكتاب الىٰ وصف تلك المقابلة في غرفة العرش .. فلذلك آثرنا أن ننقل للقارئ فيما يلي ، مع بعض التصرف والتنسيق ، ماكتبه الريحاني حول ديوان الإمام يحيىٰ المعروف بالمخيم المنصور ...

قال الريحاني في الصفحة (١٦٠ / ١٧٢) وهو يصف الإمام يحيىٰ اثناء عمله اليومي في الديوان : ـ

[ديوان الإمام يسمىٰ ـ المخيم المنصور ـ ..

هاهو جالس علىٰ الفراش الأسود فراش ألملك وفراش الادارة ، في فمه «تخزينة» من القات .. وعلىٰ رأسه عرقية[1] نسيجها أسود تتخللها خيوط صفراء . وقد نزع سيفه وبردته وعمامته تجرّداً للعمل ...] (أمعن النظر في الرسم الذي أدناه) .

[ديوانه بسيط ، قريب من الارض . لارفعة ولا ترفّع فيه .. يجلس متربعاً وأمامه منضدة صغيرة وحبر وورق واقلام .. ويجلس عن يمينه كاتبه الأول رئيس الوزراء القاضي عبد الله العمري ، والىٰ يمين القاضي عبدالله ثلاثة من الكتّاب الفقهاء رؤوسهم فوق أيديهم وأيديهم علىٰ رُكَبهم يكتبون ، وقبالهم من زملائهم ثلاثة آخرون .. وفي وسط الديوان جنديان جالسان أمام الإمام .. بيد أحدهما الختم الإمامي والمحبرة الحمراء يختم الرسائل والخطوط والأوامر التي تُدفع إليه ، وبيد الثاني رزمة من القات ينتخب منها الاوراق الطرية الرَّخصة يقدمها لسيده الاكبر ... !

يُفتح الديوان في شهر رمضان[2] في الساعة الثامنة مساء فيجيئ جندي ببريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وتقاريره ، ويضعها أمام القاضي عبدالله العمري موزّع الأعمال ومديرها .. فيفضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكير[3] صغيرة وكبيرة .. ، ويقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب أو ذاك بالجواب علىٰ ما يستطيع البت فيه دون الإمام ، ثم يقدم له ما يستوجب النظر الإمامي فيأمر بما يجب في شأنها .. وهو يطّلع علىٰ كل مايُكتب في الديوان ويعلق عليه بالحرف (هـ) إثباتاً ، أو بكلمة سلام ، وغالبا ما يؤرخه بخطه ويدفعه اذاك الىٰ مأمور الختم[4] فيختمه ويُرسَله[5] ثم إلىٰ من يلفّه ويبرمه علىٰ شكل لفافة .. ويكتب عليها إسم صاحبها ...

(١) عرقيّة : طاقية ، (عرقجين) ....

(٢) كانت هذه المشاهدات في وقت شهر رمضان ..

(٣) السواكير : ويقصد بها السكاير ..

(٤) لاندري كيف فات الريحاني أن يسميه بحامل اختام الملك ..!

(٥) راجع هامشينا (١) و (٢) ص ٨١ .

نُسخة بيدنا من الصفحة ٦٨ / ج١ / ط٢
من كتاب «ملوك العرب»
للسيد أمين الريحاني
سنة ١٩٢٩

حضرة الإمام يحيىٰ
في طاقية الشغل

تاريخ الصورة ـ ١٩٢٢
المكان ـ المخيم المنصور ، أو الديوان ـ صنعاء .
وسيلة الرسم ـ الذاكرة والقلم .. (لأن الريحاني رسم الصورة في محل إقامته بصنعاء) .
دقة الرسم ـ ٥٠ ـ ٦٠ ٪
سبب الرسم ـ امتناع الإمام وتحريم تصوير شخصه بالذات .. أنظر ص (١٧٣) من كتابنا هذا .

إن أول ماشاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن هي طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض فلم أدرِ ماهي تلك القصاصات المكردسة التي رأيتها لأول مرة أمام منضدة أمير الجيش في بلدة (ماوية[1]) إلا بعد أن وصلتنا منه ، ونحن في إب[2] برقية كتبها مأمور البرق في إب علىٰ شقة «كابون» من مخلفات الدولة العلية العثمانية في اليمن .. ثم وصلتنا . ونحن في ذمار[3] برقية اخرىٰ كتبها مأمور البرق في ذمار علىٰ قصاصة من معروض باللغة العثمانية مرفوع الىٰ جناب قائمقام حراز[4] ... فالإمام يحي الذي غنم من الاتراك المدافع والرشاشات والبنادق والعتاد .. غنم ايضا ماتركه العثمانيون في دواوين ودوائر وظائفهم في اليمن من الورق والدفاتر والكابونات والعرائض .. ولم يأمر بتقطيعها الىٰ قصاصات باستعمالها في دوائر البرق السلكي فقط بل في كافة دوائر الحكومة المتوكلية بما فيها المخيم المنصور .. ديوان الإمام ... !

إنه ليندر استعمال الغلاف ـ أي الضرف ـ في اليمن إلا في المراسلات الرسمية الخارجية .. أما في البلاد .. وبين اهل اليمن فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف ... !

(١) تقع الى الشرق من تعز (راجع الخريطة رقم ـ ١ ـ ص ٢٢) ..

(٢) تقع الىٰ الشمال الشرقي من تعز ..

(٣) تقع في منتصف المسافة تقريباً مابين صنعاء و إب ..

(٤) قضاء حراز في جبل حراز الىٰ الجنوب الغربي من صنعاء ..

يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكارة فتفكّها فاذا هي رسالة من حضرة الإمام وقد تكون مكتوبة بخطه الشريف .. فتقرأها ثم تنظر فيما فيها من هامش أو حاشية خالية من الكتابة فتقطعهاوتكتب عليها جوابك .. ثم تلّف الجواب كالسيكارة وتدفعها الىٰ الرسول الذي جاء برسالة الإمام ... ! وإذا أسرفتَ في الورق وأضعت مقدار ختمٍ منه دون أن تسوّده تُوبَّخ علىٰ ذلك .. وقد تُعزَل إذا كنت موظفا في الحكومة .. ! أما اذا جاءك كتاب في غلاف فتشقّ الغلاف وتستعمل ظهره للمراسلة .. واذا كانت الرسالة من شخص في مثل مقامك وهي بقدر علبة الكبريت تعيدها اليه والجواب في أي مكان ابيض منها ... ! وفي هذه الأحوال يجب عليك أن تكون بارعاً في مهنةِ الإختزال والاختصار والرموز ..... !

كل هذا مما جعل الديوان الإمامي ودوائر الحكومة والجيش علىٰ اعظم قدر من الحساسية في هذا الصدد .. فكان لابد وأن يكون (المقصّ) من أهم أدوات المكاتب بعد القلم والمحبرة لِيُستعمل في قص الاجزاء البيضاء من أوراق المرسلات واستعمالها مجدداً .. وغالباً مايجري تعليق هذا المقص بخيط يتدلىٰ من الرقبة الىٰ صدر الكاتب أو في وسط حضنه ... !

والرعية في اليمن ترفع شكاواها وتظلماتها الىٰ حضرة الإمام بأساليب عجيبة وأفانين غريبة .. وفي بعضها مايُسلّي المحزون ويُضحك الثكلىٰ ...

ومما قرأتُه من هذه الشكايات سطران من رجل يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك .. فهو - أي الحمار - يلبط وينعق كثيراً في الليل .. فصدر الأمر الىٰ صاحب الحمار أن يقيّد الحمار ويشكمه خلال الفترة مابين مدفع السحور ومدفع الإفطار[1] ... !

جاء السيد علي زبارة (وزير[2] المالية ووكيل الضيافة) يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير للتموين والضيافة .. فاغتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع وينظر فيما تكردس علىٰ رأسه من الرسائل والحسابات .. لأن مكتبه عزيزي القارئ فوق رأسه .. في طيات عمامته .. وفي تجويف العمامة ايضاً ... ! فنزع عمامته البيضاء وشرع يُخرج من طياتها وتجويفها القصاصات الورقية المبرومة كالسكاير .. ثم صار يقتطع منها الفضلات البيضاء ويعود يخبئها في طيات العمامة من جديد .. ثم يمزق الباقي .. !

ومن الغرائب والعجائب أن بعض الناس في اليمن يرفعون شكاواهم نظماً في بيت أو بيتين من الشعر فسرعان ماتؤتي ثمارها المرجوة حتىٰ ولو كانت إعانةً مالية .... ومن ذلك مثلاً هذه الرسالة :

أو وزير المالية

(١) لأن أهل اليمن في شهر رمضان ينامون في النهار ويقومون في الليل ..

(٢) ليس هناك مايُسمىٰ بوزارة المالية في حكومة الإمام يحيىٰ .. بل هناك (بيت المال) . ولايمكن أن يكون السيد علي زبارة اكثر من مأمور صَرْف ينفذ تعليمات الإمام ... أما كلمة (الضيافة . أو وكيل الضيافة) فالمقصود منها إدارة ضيوف الحكومة القادمين الىٰ (صنعاء) ..

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيتُ أرجو ٭ ريالاً في ريالٍ في ريال
فسمنٌ والحبوب وما سواها ٭ لشهَر الصوم فالمصروف غالي

ونعود مرةً أخرىٰ الىٰ المخيم المنصور ....

الديوان مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلّمون ويجلسون ويسكتون .. ! أما الرجل الوحيد المباح له الكلام والصياح فهو الحاجب عند الباب .. وكثيراً ماكنا نسمع صوته ولا نرىٰ شكله :

٭ الوَجَعْ بكَبْدَكْ[1] .. قُلْت لَكْ الإمام مشغول ذا الحين[2] ...
٭ ناهي[3] .. ناهي .. جَوَابَكْ تحت[4] الختم .. البَلاَ بْروحَكْ ظَلْ مكانك ...
٭ أُسكُتْ يايَهودَه[5] .. البَرَصْ يعْميك .. أُسكُتْ ..

فاذا لم يسكت ذلك المراجع .. يصيح الحاجب بأحد العساكر المنتسب الىٰ جبال آنس :

دِرْلُو البُنْدُق يا آنسي[6] ... - أي أدِرْ أو وَجّه عليه البندقية ..

وهناك مراجع آخر في نفس الوقت من الفقهاء ذو مكانةٍ يكلم الحاجب فيردّ هذا عليه :

علىٰ رآسي .. حسن الحرازي[7] يا سيدي ....

فيردّ عليه الإمام أو الكاتب الأول قائلاً : لينتظر ..

فيجيب الحاجب :

٭ هو يشتهيْ[8] السفر ذا الحين ..

فيجيب الكاتب : لينتظر ..

فيردّ الحاجب :

٭ يقول الحرازي إن العامل[9] .... (ولم يُكْمل الحاجب) لأن الإمام احتدم غيظاً فيصيح بالحاجب :

ضَربَك آلله بْرُوحَكْ .. أُسكُت .. أُخرج .. !

وتنتهي «المهزلة الديوانية» ... !

---

(١) هذا حوار يتكرر يومياً في الديوان بأساليب مختلفة حسب اختلاف الأشخاص وحاجاتهم ..

(٢) ذا الحين : يعني الآن .. فوراً ..

(٣) ناهي : طيب .. حاضر ..

(٤) ورقة المراجع عند صاحب الختم سيختمها بعد قليل ..

(٥) يايهوده : يايهودي ..

(٦) آنسي : أي من سكان جبل آنس في وسط الهضبة ..

(٧) حرازي : نسبة الىٰ جبل حراز جنوب غرب صنعاء ..

(٨) يشتهي : يريد .

(٩) العامل : المتصرف ، المحافظ .

وعند الإمام يحيىٰ أخصائيون [1] يستشيرهم ويستعين بهم .. هاهو السيد احمد الكبسي المقدم الأول ، الخبير بشؤون العشائر وأطماع رؤسائها وطغيانهم .. قد اقترب من الإمام وفي فمه (تخزينة) قات عامرة ليهمس كلمة في أذن سيده الإمام ...

وهاهو السيد محمد زبارة أمير القصر ـ قصر غمدان ، أو قصر السلاح ـ ومدير سكة النقود والسجن فيه ، يطالع استدعاءً طوله ذراعان ملصوقةً اوراقه بعضها ببعض ...

وهذا هو السيد «جرجي» النمساوي الموكّل بعمل الخرطوش [2] في قصر السلاح يعيد النظر في رسوم قنابل قام برسم أشكالها وعجز من صنعها في (صنعاء) قد جئىٰ أمام فِراش الملِك الإمام ورائحة الخمر تفوح من فمه فيسأله :

* كم يلزمنا من هذه يامولاي ؟

فيجيبه الإمام : ألف ..

* ومن هذه ؟

يقول الإمام : ألفان ..

* ومن هذه لمدافع الهاون ؟

يقول الإمام : خمسمائة فقط .. ثم يكتب الطلب بيده ويدفعه الىٰ راعي الختم فيختمه ويُرمِّلُه ... !

وكل هذا الحوار ، الذي يمّس أمن الدولة والشعب .. ، ينتهي على هذه الشاكلة المحزنة دون أن يحضرها وزير دفاع أو رئيس أركان جيش أو أمير جيش أو حتىٰ رئيس المجلس العسكري الأعلىٰ إبن الإمام سيف الاسلام عبدالله .. أو أي إنسان آخر يعقل شيئاً من أمور الجيش ... ! وها هو ذا شيخ الاسلام والمسلمين يدخل مطأطئ الرأس فلا ينظر الى أحد ولا أحد ينظر اليه .. فيتبوأ مجلسه في الزاوية ويتناول كتاباً مخطوطاً يقلّب فيه .. فلا يتبرع برأيٍ أو يتلطف بكلمة واحدة تنفع المسلمين .. إلا نادراً ... !

وقد ينتصف الليل في رمضان والإمام يعمل في الديوان بلا كلل ولا ملل ولاضجر وكأنه ابن العشرين .. ومأمور البرق السلكي لايخشىٰ من مراجعة الإمام في مثل هذا الوقت طالما كانت ليالي رمضان مخصصة للعمل والنهار كله أو معظمه للنوم .. فيأتي هذا المأمور بحفنة كبيرة من اللفافات الورقية المبرومة ويطرحها بين يدي سيده رئيس الوزراء القاضي عبدالله العَمْري فيفضّها هذا ويفعل بها مايفعل بكل اللفافات الأخرىٰ التي تنهال علىٰ الديوان دون انقطاع ... !

وبعد منتصف الليل ربما توقف الإمام هنيهةً وطرح القلم جانباً وجدد «تخزينة» القات .. والجندي المكلف بالقات يناوله أحسن ماتُنبته مزارع القات في اليمن .. وربما تناول معها جرعة ماء .. يتلمظ بعدها ويقول : الحمد لله ..

بين الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل تدق الطبول علىٰ كافة أبراج السور الضخم المحيط بصنعاء .. ثم ينطلق مدفع السحور من قصر غمدان فينهض الكُتّاب واحداً بعد الآخر ويخرجون من الديوان متسللين دون استئذان .. أما الإمام وكاتبه الأول [3] رئيس الوزراء القاضي العمري فيثابران علىٰ العمل لمدة ساعة أخرى .. فالإمام حريص علىٰ إنجاز العمل بتمامه فلا يؤجل عمل اليوم الىٰ الغد .. لذلك كان إمام الأمة ورئيس وزرائه هما آخر من يتسلل من الديوان الىٰ بيوتهم ولم يبق علىٰ انبلاج الفجر إلا القليل .... !

هذا هو حال (الديوان) في شهر رمضان ... فعليك أن تتخيل حاله وعجائبه وغرائبه ومفارقاته في غير رمضان .. وعلىٰ مدار أحد عشر شهراً في كل عام ... !] إنتهت رواية الريحاني .

ترىٰ .. أي طراز من أنظمة الحكم هو هذا الذي يحكم به الإمام يحيىٰ في اليمن .. ؟

أهو حُكم إسلاميّ أصيل ١٠٠٪ ؟

أهو حكم جمهوري .. ؟

أهو حكم ديمقراطي .. ؟

---

(١) الريحاني يقصد قناة الدجالين لدىٰ الإمام ، وعلىٰ الاكثر الدجالين الأجانب ...

(٢) ليس هناك معمل للخرطوش بالمعنىٰ المفهوم .. لأن كل شيء في اليمن يرمذ لك كان يتسم بالطابع البدائي .. فكل ماكان هناك هو هذا الأجنبي الدجال «جرجي» ومعه حفنة من العمال والجند يقومون بعمل خراطيش البنادق عملاً بدائياً .. فلا يُنتجون في اليوم اكثر من (١٠٠٠) الف خرطوشة في أربعة صناديق .. وربما كانت فيها نسبة لايستهان بها من الخراطيش غير الصالحة فنياً ...

(٣) ربما كان القاضي العمري كاتباً أولاً للإمام في بداية عهد الاستقلال .. إلا أن هذا المنصب انحصر فيما بعد بآل المطّهر ... (انظر الصفحة ١٦٨ ـ ج٢ من هذا الكتاب) .

أهو حكم أوتوقراطي ؟

أهو حكم ارسطقراطي ؟

أهو حكم دكتاتوري ؟

إنه لايشبه واحداً من هؤلاء علىٰ الاطلاق .. ولذلك أراني مضطراً أن أخلع عليه هذه التسمية : «الحُكم القَبَليّ» أو «الحكم العشائري» .. والأول اكثر دقةً لأنه مشتق من طبيعة التكوين السكاني والاجتماعي في اليمن .. وهو التكوين القَبَلي ...

إن عملية التحوّل من «التكوين القبلي» في اليمن إلىٰ «التكوين الحضري المتكامل» هي عملية اجتماعية شاقة .. ربما استغرقت جهود قرنٍ من الزمان .. وليس من أهداف كتابنا هذا التوغل في هذا الموضوع .. ولكننا أشرنا إليه مجرد إشارة عابرة لعلنا نجد عذراً مقبولاً **للإمام يحيىٰ ، يبرر به التزامه بنظام الحكم القبلي طوال هذه المدة .. ولكننا أبداً لانقبل من خلفائه الاستمرار علىٰ ذلك ... !**

ومن نظام الحكم القبلي في اليمن تبرز لنا هذه الصورة البشعة جداً .. صورة (الرهائن) ... !

فما هي حكاية الرهائن في اليمن ؟

باختصار : هي أن يأخذ الإمام من كل قبيلة يخشىٰ بأسها غلاماً فتياً من أولاد شيخ أو زعيم تلك القبيلة ويحتفظ به رهينة في (صنعاء) أو (تعز) يهدد به تلك القبيلة إن هي تحركت بسوء تجاه الإمام ونظام حكمه ..

ففي بداية قيام الدولة المتوكلية (١٩١٨) ، وقد كانت البلاد في حالة اضطراب وغليان وعدم استقرار ، اضطر الإمام يحيىٰ الىٰ أخذ الرهائن من زعماء وشيوخ القبائل لكي يأمن جانبهم ويضمن الأستقرار في البلاد ..

إننا في تمهيدنا هذا عن حكاية الرهائن في اليمن لم نقصد بتاتاً إيجاد المبررات للعمل بهذا النوع من أساليب حفظ الأمن الداخلي .. بل على العكس .. فنحن في مقدمة من يرفض استمراريته بعد شيوع الأمن والأستقرار .. خاصةً في بلد كاليمن ظل يعاني ، منذ عشرات القرون ، مخاضاً عسيراً للتحول من مجتمع قبليّ متزمّت الى مجتمع حضريّ مطبوع ... !

ثم ان نظام الرهائن هذا ليس من ابتداع الإمام يحيىٰ .. فقد كان هذا النظام ، أو ما يماثله في جوهر المقصد ، معمولاً به في أوربا نفسها عندما وقعت فيها هجرات القبائل غير المتحضرة .. ذلك أن الملك كان يرتهن عنده أبناء رؤساء القبائل الذين يخشىٰ من تمردهم عليه .. فان لم يكن لهم ابناء ارتهن الملك أقرب المقربين الىٰ رئيس القبيلة .. وكان مجمع الرهائن عادةً في عاصمة البلاد أو في المدن المهمة والبعيدة عن المكان الذي يقيم فيه رئيس القبيلة . وكان يُسمح للرهائن بحرية الحركة والتنقل في المكان الذي يُختار لإقامتهم علىٰ أن لايغادروه مطلقاً .. كان هذا طبعاً في القرون الوسطىٰ وليس في القرن العشرين للميلاد ... ! وكانت هناك ثمة جذور قديمة لنظام الرهائن في اليمن يرجع تاريخها الىٰ عهود (الدويلات الأولىٰ) التي قامت في اليمن خلال القرن التاسع الميلادي .. فتاريخ هذه الفترة يحدّثنا عن السلطان علي بن الفضل الحميري من بني زياد (أول الدعاة للفاطمية في اليمن ...) كيف أنه عندما تمكن من إقامة حكمٍ موحد في اليمن استقل بالأمر وتخلّىٰ عن الدعوة الفاطمية ثم راح يحارب خصومه الذين كانوا حلفاءه بالأمس وأرغمهم علىٰ تقديم أولادهم رهائن لديه .. وبهذه الوسيلة استطاع أن يحكم البلاد لمدة عشرين عاماً .. حتىٰ أنه حاصر الإمامة الزيدية في منطقة (صَعْدَة) بشمال اليمن ... !

ومما يروى أن الإمام يحيىٰ عندما دخل صنعاء بعد خروج العثمانيين نهائياً من اليمن (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨م) وباشر بتأسيس الدولة المتوكلية جاءه بعض شيوخ القبائل ، الذين حاربوا العثمانيين عدة عقود من السنين .. جاءوه يطلبون منه المناصب العليا ويمُنّون عليه بذلك النصر الكبير الذي أوصله الىٰ كرسّي الإمامة الزيدية .. وكان في مقدمة اولئك الشيوخ القَبَليّين الشيخ (علي مطلك) شيخ قبائل همدان .. فأراد الإمام أن يسبر أغوار نفسيته فقال له تلميحاً : [من الذي أقامك شيخاً علىٰ همدان ؟] .. قال شيخ همدان : [هو الذي أقامك إماماً علىٰ اليمن ..] ، فكتمها له الإمام في سرّه ريثما يتمكن منه ومن امثاله الذين يخشاهم الإمام علىٰ مملكته الفتية ... !

لقد هيأ الإمام يحيىٰ مكاناً سيئاً في خرائب (قصر غُمدان[1]) أسماه (بيت الرهائن)حشر في داخله عدة مئات من الرهائن ثم شدد عليهم الحراسة .. وإذا لم يكن لأحد الشيوخ ولد وجب علىٰ الشيخ نفسه أن يكون رهينة لدىٰ الإمام أو يأتي ببديل له ... ! والرهينة لايغادر (بيت الرهائن) إلا الىٰ القبر أو يأتي له ببديل يرضىٰ به الإمام .. !

وعلىٰ ذكر قصر غُمدان .. فقد يجد الإنسان في خرائب هذا القصر الموحشة اكثر من شيئ يثير الدهشة والأسىٰ في وقت واحد ... ففيه مكان مخصص لضرب النقود المعدنية ـ أجزاء الريال ـ وعمال هذا المضرب خليط من المسلمين واليهود .. ! وفي خرائب هذا القصر مكان لأحد الدجالين من الأجانب الوافدين الىٰ اليمن وهو يريد أن يصنع فيه مدفعاً حربياً .. فلما أراد تجربة الرمي به إنفجر المدفع عند اطلاق أول قذيفة منه ...

وفي خرائب هذا القصر اكثر من مخزن خزنوا فيها اسلحة ومعدات حربية مختلفة لم يجر استعمالها بتاتا .. ومن هنا جاءت تسمية هذا القصر مؤخراً بقصر السلاح .. فهناك أسلحة مهداة لحكومة الإمام من قبل الحكومة الايطالية التي سعت كثيراً للتقرب من الإمام يحيىٰ طمعاً في الحصول على أية امتيازات سياسية واقتصادية ولكنها لم تنجح في مساعيها كثيراً .. وهناك اسلحة أخرى من مشتريات الحكومة اليمنية تتضمن خليطاً من أنواع البنادق والرشاشات والأعتدة الخاصة بها ...

وفي أطلال قصر غمدان مدرسة للايتام علىٰ أسوأ ماتكون عليه كتاتيب القرون الوسطىٰ .. ويحصل هؤلاء الايتام علىٰ كساء من الخام المصبوغ باللون الأصفر وعلىٰ طعام يكاد يسد الرمق .. وسيكون لنا حديث خاص عن مدرسة الايتام في أقسام لآحقة من هذا الفصل ..

وفي ركام قصر غمدان يوجد سجن يودع فيه المحجوزون والمحكومون علىٰ اختلاف انواعهم .. وقد اثقلتهم القيود الحديدية والأغلال ...

وقد وضعوا للرهائن نظاماً وسطاً بين نظام الجنود ونظام مدرسة الايتام ونظام المساجين .. وقد يشترك الرهائن أحياناً في الاستعراضات الاسبوعية (استعراض ايام الجمعة) التي تقوم بها قطعات الجيش في صنعاء ... ولكن الرهائن لايحملون أي نوع من السلاح ..

تلك هي حكاية الرهائن في عهد الإمام يحيىٰ .. وأبشع مافيها استمراريتها الى بعد النصف الأول من القرن العشرين للميلاد . . . !

وطالما كنا قد تحدثنا عن العجائب السبعة في (قصر غمدان) ..ومنها سجن المجرمين..فقد يكون من المناسب أن نتحدث قليلاً (ومن غير اختصاص ويقين) عن السجون في عهد الإمام يحيىٰ فلعل في ذلك مايتم بشاعة صورة الرهائن التي أتتهينا منها قبل قليل..

---

(١) غُمدان : بضم أوله وتسكين ما بعده (غُمْدان) . .

لمحة تاريخية عن قصر غمدان :

لقد كان هذا القصر العظيم مقراً لملوك اليمن الذين تعاقبوا علىٰ إكمال بنائه طابقاً بعد طابق حتىٰ بلغ تمامه عشرين طابقاً . ارتفاع كل منها قرابة خمسة أمتار . وكان كل وجه أو جانب من جوانبه الأربعة مبنياً بلون مختلف من الحجارة الصماء . . فمنها الأسود والاحمر والاخضر والاصفر . .

وكان في كل ركن من اركانه تمثال أسد مجوف من النحاس في داخله تدبير خاص اذا هبّت الريح ودخلت أجواف السباع سُمع لها زئير شديد كزئير أسود الغاب . .

وكان في أعلىٰ الطابق العشرين من القصر برج عظيم كله من الرخام . . وسقفه من رخامة شفافة واحدة . . يكاد الانسان أن يميز نوع الطائر الذي يطير من فوق تلك الرخامة . . . . !

وكانت المصابيح الكبيرة توضع ليلاً فوق الطابق العشرين فيراها المسافر القادم الىٰ صنعاء من مسافات بعيدة . .

وكان لهذا القصر ستائر ذات أجراس إذا حرّكتها الرياح سُمع رنين الاجراس في جميع ارجاء القصر . .

قيل بأن غمدان كان أول قصر بني في اليمن ، وقد عُثر علىٰ حجر كُتب عليه بالخط الحميري المسند : «بناه غمدان» . .

لقد ظل قصر غمدان بطاول عنان السماء فوق صنعاء الىٰ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه . .وقيل بأنه هو الذي أمر بتخريبه . . ولم يقولوا لماذا ؟ وقد رجح البعض أنه إذا صحّ هذا الخبر عن عثمان رضي الله عنه . . فقد يكون سبب ذلك أن القصر كان مركز عبادة وثنية حيث كان الناس هنا يعبدون الشمس . . وقد جاء ذكر ذلك في سورة (النمل) الآيات ٢٣ - ٢٤ من القرآن الكريم . . .

١ - سجن القصر ، أو سجن غمدان .

يُعتبر بمثابة السجن المركزي في مدينة صنعاء ، ومع هذه الميزة غير المحمودة فليست هناك أية عناية بالمساجين الذين لايرون الشمس في حجراتهم الخربة علىٰ الاطلاق . .

ومهما كانت جريمة السجين . كبيرة أو صغيرة أو تافهة فلابد من تقييده بالسلاسل والاطواق الحديدية يظل يرسف بها حتىٰ يتقرر الإفراج عنه بشكل من الأشكال . .

ومما يُضحك الثكلىٰ في الحديث عن هؤلاء المساجين هو أن قسماً منهم من ذوي الجرائم و المخالفات التافهة قد يُسمح لهم بمغادرة السجن الىٰ المدينة والتجوال فيها بأثقالهم الحديدية التي يُسمع صوتها من مسافات قصار تكفي لإلفات الانظار الىٰ أصحابها . . وهم لايأتون المدينة إلا لشراء بعض الاحتياجات من أسواقها . . حتىٰ اذا انتهوا من ذلك عادوا الىٰ السجن من تلقاء أنفسهم دونما حاجة الىٰ حرس أو رقيب . . . !

ومما يبعث علىٰ الإغراق في الضحك أيضا منظر السجناء الذين تُحدّد عقوبتهم بتقييد الارجل بالحديد ولكنهم لايذهبون الىٰ السجن . . بل يظلون يمارسون أعمالهم الاعتيادية حتىٰ ولو كانوا من تلامذة مدرسة الأيتام أو تلامذة (مكتب الحربية) أو (المدرسة الحربية المتوكلية) في صنعاء . ولقد عانيتُ الأمّرين من هذه الظاهرة المشينة حتىٰ تمكنتُ اخيراً من الغائها عن تلامذة المدرسة الحربية التي كنت مسؤولاً عنها – أي المدرسة الحربية – أثناء وجودنا في اليمن . . وسيكون لنا حديث طويل حول هذه المدرسة في الفصول القادمة .. بإذن الله

وقلما يحتوي سجن القصر سجيناً من المجرمين الخطيرين مما لم تستدعي الضرورة القصوىٰ ليكون قريباً من المسؤولين في صنعاء . .

ومما يزيد الطين بلّة في هذا الصدد هو أن الذين يملكون الصلاحية بإلقاء العباد في غيابة السجن ليسو بضعة اشخاص من المسؤولين الشرعيين . . بل هم كثيرون وفي مقدمتهم طبعاً ألإمام نفسه . .

فاذا استثنينا الإمام في هذا الصدد تغيّرت الصورة تماماً . . ذلك أن لكل سيف من سيوف الاسلام الثلاثة عشر حق إلايعاز بحبس من يشاء من المواطنين حتىٰ ولو كان هذا المواطن من الفقهاء . . . !

ثم يأتي دور العمال (أي المحافظين – او المتصرفين) . . وأبناء العمال . . فلكل منهم حق الأمر بتوقيف أو احتجاز أي شخص علىٰ ذمة التحقيق ومن دون حاجة الىٰ إصدار مذكرات توقيف أو تمديد مدة التوقيف أو إنهائها . . وغالباً مايصدر الأمر بالسجن مباشرة وبدون تحقيق . . . !

ثم يأتي دور أمراء الجيش (ألمُعَمَّمون) طبعاً . . وهم السادة والأشراف كما يقولون . . والتوقيف والحبس عند هؤلاء لايحتاج من الاجراءات القانونية الىٰ اكثر من تحريك أحد الحاجبين فوق العين . . أو التمتمة من بين الشفتين أو إلاشارة بالعصا التي يتوكأعليها هذا الأمير . . . !

وكان أمير (الجيش المظفر) ، الذي شاءت الأقدار أن أعمل في حدود منطقته العسكرية طوال الأعوام الثلاثة التي امضيناها في اليمن ، كان من أنحس وأشرس أمراء الجيش اليمني قاطبةً . . فاذا أراد هذا الأمير المعمم أن يشلّ لنا منهاج عمل يوم واحد في (المدرسة الحربية المتوكلية) في صنعاء أمر بحبس أو تقييد بضعة طلاب من المدرسة لأسباب مفتعلة يستنبطها له سلفاً جاسوس له من بين التلاميذ أنفسهم وهو الذي يفتعل الفوضىٰ والشغب بين التلاميذ لتهيئة تلك الاسباب . . .

واذا أراد (السيد علي بن ابراهيم) – وهو إسم هذا الأمير المعمم – أن يشلّ لنا منهاج عمل لاكثر من يوم . . أوعز الىٰ أمير النقلية بعدم إرسال حصان الركوب المخصص لي رسمياً . . وعندئذ يتعذر وصولي الىٰ المدرسة الحربية في الوقت المطلوب . . .

ولا أريد استباق الفصول القادمة الخاصة بأعمال البعثة العسكرية العراقية في اليمن . . فالحديث عن السيد علي بن اهيم لم ينته بعد لأنه حديث سنوات ثلاث . . ولنعُد الىٰ حديث السجون في اليمن .

٢ – سجن (الزوقي) – أو سجن النساء .

أما أهل صنعاء فلا يعرفون هذا السجن إلا بإسم (بيت الزوقي) وهو يقع داخل القسم القديم من مدينة صنعاء . . و (الزوقي) ، علىٰ مايظهر ، لقب عائلة مديرة السجن . . فصار هذا اللّقب والمُلَقّب به مَعْلماً من معالم صنعاء التي لايمكن أن يراها إنسان غريب عن تربة اليمن . . . ولولا ألْسِنة بعض الناس الطويلة لَمَا سمع غريب بهذا السجن ولاعرف بحقيقته إطلاقاً . . أما ماهية نزلاء هذا السجن . . فقد قيل بأنهن من المشتبه بسلوكهن الىٰ جانب المجرمات الأخريات . . ونحن لانستطيع – وليس من حقنا – الخوض في تفاصيل هذه المسموعات . . والله تعالىٰ وحده وعامل صنعاء (السيد حسين عبد القادر) ومدير شرطته هم الذين يعلمون بحقائق هذه الأمور ويحملون أوزارها الىٰ يوم القيامة . . . !

ولاشك في أن كل مدينة كبيرة ، وهي مراكز الألوية في اليمن ، تضم سجناً أو اكثر من نمط سجن القصر ، أو سجن غمدان ، وربما من نمط (الزوقي) أيضاً . . إلا أن هذه الأنماط من السجون كلها تُعدّ أماكن استراحة واستجمام إذا ماقورنت بالسجون السياسية والمعتقلات الخاصة وسجون أخطر المجرمين . . . !

ومما زاد في رعب وبشاعة هذه السجون السياسية والمعتقلات هو تجمعها في منطقة جبلية شديدة الوعورة تقع في شمال صنعاء علىٰ أبعاد تتراوح مابين (١٠٠ – ٣٠٠)كيلومتر . . . . !

ونعدّد فيما يلي أهم وأشهر تلك السجون لاعن مشاهدة واطلاع ، بل سماعاً من الأفواه و قراءةً متأخرة في بعض الكتب التي صدرت عن اليمن بعد زوال الإمامة من اليمن . .

٣ – سجن نافع في بلدة حَجّة .

قال الراوي[1] : [لاأستطيع أن أوفي سجن «نافع» حقه من الوصف ، ولا أن أعبّر عن كآبة وبشاعة مداخله وأبوابه وأماكنه المظلمة إلا اذا قلت : إن شراسة نظرات وملامح مديره وسجّانيه اكثر كآبة وأشد بشاعة ، . . !

لقد كان سجن نافع عبارة عن ساحة صغيرة علىٰ شمال داخلها مكان يسمّونه «العُشّة» . . وفيه يقابل من يؤذن له بمقابلة أهله وزائريه . . وفي الساحة توجد «المِدَقّة» التي يقيّدون عليها من يدخل هذا السجن أو يفكون قيوده إذا أُطلق سراحه أو مات . . أو حُكم عليه بالإعدام . . وأمام المدقة يقوم بناء يتكون من ثلاث أو أربع طبقات هو السجن الأصيل الذي لانوافذ له ، ولم أدخله ولم أر إلا باب دهليزه المظلم كأنه مغارة تسكنها الأشباح ، وعلىٰ يمين الداخل توجد بضع درجات الىٰ مكان الحرس والدرج التي توصل الىٰ مكان مدير السجن (الحاشدي) ، وعلىٰ اليسار باب آخر يهبط منه الرهائن والمساجين سبع درجات الىٰ ساحة مستطيلة تطل عليها امكنة مصمتة . . وآخرهن مظلم ، و «النوبة» التي يتبول ويتغوط فيها المعتقلون . . وكان البناء الأصلي قد امتلأ بالمساجين . . وكان مكاننا هذا السجن السفلي الذي يضم القتلة واللصوص وقطاع الطرق وما منهم أحد إلا وقد أمضىٰ في (نافع) اكثر من خمسة عشر عاماً . . وكان لكلٍ منا مسافة شبرين من الأرض ليجلس وينام عليها . . . .] إنتهىٰ .

إن هذا الوصف الذي قدمه لنا (الراوي) عن سجن (نافع) لايصّور لنا من بشاعة تلك السجون ورهبتها اكثر من ١٠ ٪ أو أقل . . . وقد مهّد الراوي في أول كلمته لبيان عجزه عن الوصف الدقيق حيث قال : [لاأستطيع أن أوفي سجن «نافع» حقه من الوصف . .] . .

ومن السجون التي سمعنا عن وجودها في اليمن مايلي :–

٤ – سجن (قاهرة حجّة) . . .

٥ – سجن (المنصورة) . .

٦ – سجن (الرادع) . .

(١) هز السيد أحمد بن محمد الشامي الصنعاني اليمني . . مؤلف كتاب «رياح التغيير في اليمن» ط ٢ / ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م) منشورات المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع – صنعاء . ركتابه هذا يقع في اكثر من (٥٠٠) خمسمائة صفحة مكثّفة يتناول فيه تاريخ مراحل حياته الشخصية منذ أن كان ولداً في الكتاتيب وحتىٰ ابتعاده عن وطنه اليمن بعد الثورات التصحيحية التي أعقبت ثورة ١٩٦٢ فراح يقيم في مدينة (برومي) بمقاطعة (كنت) في انكلترا – ١٩٧٥

بعد اتهامه بالاشتراك السياسي في ثورة ١٩٤٨ التي اغتيل فيها الإمام يحيىٰ حميد الدين سيق الىٰ سجن (نافع) الرهيب في بلدة (حجة) ثم تحوّل الى سجن (قاهرة حجة) حيث قضي في السجنين مدة خمس سنوات . . ! وحين يتحدث عن الوقائع اليومية في سجون (حجة) يبعث القشعريرة في جسم القارئ . . ولنا مع السيد الشامي حديث خاص

٧ – سجن (السودة) . .

تلك هي السجون التي تتردد أسماؤها علىٰ الألسن بكثرة . . أما بقية السجون في اليمن فقد لاتدخل تحت حصر دقيق . . ولايحيط بها علماً إلا المسؤولون في اليمن . . . !

كل دول العالم لديها سجون مختلفة ومتعددة . . ولكن أحداً منها لايمكن أن يضارع سجون اليمن في بدائيتها ووحشتها وشقائها . . . !

وطالما كنا قد تحدّثنا عن السجون في اليمن . . فقد يكون من المناسب أن نتحدث الآن في موضوع أخر يتّسم بحساسية شديدة وعلاقة وطيدة بنظام الحكم في اليمن . . وذلك الموضوع هو :

الأمن والأمان في بلاد اليمن :

لو اخترنا أية دولة عظمىٰ أو صغرىٰ من الدول الراقية المتمدنة في العالم (عدا المملكة العربية السعودية) وسألنا مسؤوليها هذا السؤال البسيط : كم كان معدل عدد جرائم القتل عندكم سنوياً خلال الأعوام (١٩٤٠ – ١٩٤٣) ؟ لقالوا : «في أحسن الأحوال لم يكن ليقل عن خمسين جريمة قتل عمداً وبسبق الإصرار والترصّد» . . .

إذا كان ذلك هو في أحسن الأحوال . . ترىٰ كيف سيكون إذن في أسوأ الأحوال . . ؟!

وها نحن اليوم في الثمانينات من القرن العشرين . . وكلنا يسمع أخبار الدنيا كلها في كل يوم . . ويشهد في العروض الإخبارية علىٰ شاشة التلفزيون جرائم قتل تقشعر لها الأبدان وسرقات تُستخدم فيها كل فنون العلم الحديث (التكنولوجيا) بما في ذلك (الكومبيوتر) . . ناهيك عن جرائم قطع الطرق ونهب القطارات المحملة بالذهب . . والجرائم الاخلاقية التي ضاقت بها الدنيا ذرعاً . . . . !

فاذا قلنا لهذه الدول الراقية المتمدنة بأن بلاد (الإمام يحيىٰ حميد الدين)[1] لم يقع فيها اكثر من جريمة قطع طريق واحدة وجريمتي قتل متعّمد طوال ثلاث سنوات من وجودنا في اليمن (١٩٤٠ –١٩٤٣) .. فهل ستصّدقنا هذه الدول الراقية المتمدنة أم تضحك منا بملْ الأشداق .. ! !

ونحن لانتقل وقائع الأمن هذه من صفحات الجرائد أو المجلات ولامن صفحات التاريخ ولامن حكايات ألف ليلة وليلة . . أو كليلة ودمنة ... **إنما نرويها عن علمٍ ومشاهدة وتصوير ...**

ففي السنة الأولىٰ من وجودنا في اليمن (١٩٤٠) إعتدىٰ عدد من رجال القبائل علىٰ البريد الحكومي مابين (الحُديدة) والعاصمة (صنعاء) ظناً منهم أنهم سيجدون في اكياس البريد شيئاً من المال . . ولكن خاب ظنهم فلم يجدوا شيئاً . . ولما كان هؤلاء قد تصدّوا للبريد الحكومي علىٰ الطريق فهم في نظر الشرع الاسلامي قطّاع طرق . . ولما كانوا قد عبثوا بأكياس البريد بقصد السطو علىٰ أموال الدولة . . فهم في نظر الشرع الاسلامي سارقون . . . .

فماذا يفعل الإمام يحيىٰ ؟

لابد من القبض علىٰ هؤلاء المجرمين . . ولكن كيف ؟ إذ ليس في تشكيلات حكومة الإمام شيئ إسمه الشرطة . . ولا الدرك . .

فكيف سيتم العثور علىٰ المجرمين والقبض عليهم ونقلهم الىٰ صنعاء ليقفوا فعلاً بين يدي هذا الإمام..؟

هذا سؤال لايستطيع الإجابة عليه أي جهاز أمنٍ في عالم اليوم . . !

ولكن الإمام يحيىٰ أستطاع الإجابة عليه بكل سهولة قبل أربعين عاماً من هذا اليوم . . ولكن بأسلوب عجيب وغريب . . !

أمَر الإمام باحضار هؤلاء الجناة ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ...

فصدر الأمر ليس من مديرية الأمن العامة ولا الشرطة العامة ولا الدرك العام..فليس في حكومة الإمام شيئ من هذه المسميات ..

إنما صدر عن (أمير الجيش المظفر) الىٰ أحد أفواج الألوية النظامية بالحركة الىٰ منطقة القبيلة التي وقع فيها حادث الاعتداء علىٰ البريد الحكومي . . .

وكل الناس يعلمون أن أية قوة عسكرية نظامية إذا تلقت أمراً بالتحرك الىٰ جهةٍ ما في مهمةٍ ما لابد وأن ذلك يعني نشوب القتال بين ساعة وأخرىٰ من وصول القوة العسكرية الىٰ ذلك المكان . .

إلا أن أفواج وسرايا الجيش المظفر لاتفعل كذلك إلا في حالة الاعتداء عليها . . .

(١) وشبيه ذلك تماماً نجده في المملكة العربية السعودية حيث يسود تطبيق الأحكام الشرعية الأسلامية تطبيقاً سليماً دقيقاً بصرف النظر عن الفرق الكبير مابين أنظمة الأمن في البلدين . . .

إذن . . فما الذي فعله ذلك الفوج الذي تلقىٰ الأوامر بالقبض علىٰ الجناة . . ؟

إن الفوج المذكور لم يفعل بادئ ذي بدء اكثر من أنه عسكر في منطقة القبيلة تعسكر إقامة غير محدودة . . لاتنتهي بتاتاً مالم يستطع شيخ تلك القبيلة من إحضار الجناة وتسليمهم الىٰ آمر القوة العسكرية التي حطّت علىٰ منطقة القبيلة كما تحطّ أرجال الجراد علىٰ حقول القمح والشعير والذرة . . فلا تجلو عنها قبل أن تُهلك ذلك الزرع ومعه الضرع ايضاً . . !

فعلىٰ القبيلة المذكورة ذات الطالع المنكود تقديم الطعام والشراب و(القات) والتنباك (تبغ النارجيلة) الىٰ جميع افراد تلك القوة العسكرية التي أحكمت الطوق حول منطقة القبيلة . . .

وعلاوة علىٰ الطعام والشراب والقات والدخان . . ينبغي علىٰ القبيلة أن تدفع مايستحقه أفراد تلك القوة من الرواتب عن كل يوم من أيام الإقامة في المنطقة . . حتىٰ يتم إحضار الجناة وتسليمهم . . وإذا تعذّر ذلك نهائياً بسبب فرار الجناة الىٰ خارج حدود اليمن . . وجب علىٰ شيخ القبيلة تقديم ضمانات قوية للحكومة أو تقديم عدد من الرهائن بدلاً عن ذلك . .

إذا كانت القبيلة قادرة علىٰ تقديم الطعام والشراب ورواتب الجنود والضباط . . فانها ستعجز كل العجز عن تقديم (القات) والتنباك اللازمين لإقامة الفوج المذكور . . ذلك لأن القات اللازم لهذا العدد الكبير من الجنود والضباط يكلف أضعاف مايكلفه الطعام والشراب . . . . !

لذلك كله فقد قامت القبيلة عن بكرة ابيها بالبحث عن الجناة – وهي تعلم أولا تعلم مخبأهم أو ملاذهم – فألقت القبض عليهم خلال بضعة أيام وسلمتهم الىٰ آمر القوة العسكرية مصفدين بالاغلال . . وتم نقلهم الىٰ صنعاء حيث جرت محاكمتهم التي تمت خلال أقل من أسبوع ولم ينكر أحد منهم التهمة الموجهة اليه . . وليس لديه من سبيل الىٰ إلانكار بعد أن تم القبض عليهم من قبل أهليهم وعشيرتهم . . .

وصدر قرار الحكم وفق الشريعة الاسلامية الغراء : قطع القدم اليسرىٰ لكلٍ منهم عن جريمة قطع الطريق . . وقطع اليد اليمنىٰ عن جريمة السرقة . . وتم تنفيذ هذه الحدود علىٰ ملأ عظيم من الناس كما تقضي به الشريعة أيضا . . وقضىٰ إثنان من الجناة نحبهما بعد تنفيذ الحدود فيهما مباشرة . . وعاش الآخران بيد واحدة ورجل واحدة . . وقد كانا يتمنيان اللحاق برفيقيهما الىٰ الجحيم . . ! وقد يستنكر فقهاء القانون المدني والقانون الجنائي في العالم المتمدن مثل هذه الاجراءات . . ولكن أحداً منهم لايستطيع أبداً تقديم البديل الصالح لهذه الاجراءات وضمان نجاحها في مجتمع قبلي متوطن لاتصل الىٰ مناطقه في ذُرىٰ الجبال الشامخة حتىٰ الطائرات السمتية الخفيفة . . . .

إن هذا الأسلوب من التعقيبات الأمنية والقضائية والتنفيذية يجري تطبيقه تطبيقاً شاملاً كلما قضت الضرورة به لتنفيذ القوانين الشرعية والعرفية في جميع انحاء المملكة اليمنية . . وخاصةً عند حدوث أية طوارىء تعرقل عمليات جَمْع الزكاة أو جمع العشور أو التجنيد الإلزامي أو حدوث نزاع بين قبيلتين أو أكثر . . الىٰ غير ذلك مما لايمكن معالجته إلا بقوة الجيش النظامي الذي تكون هذه العمليات من صميم واجباته أثناء السلم بدلاً من قوات الشرطة المسلحة . . فاذا قامت الحرب قام هذا الجيش النظامي نفسه بواجبات الحرب يسانده احتياطي كبير من الجيش الالزامي والجيش الشعبي . . ولنا حديث طويل عن تنظيمات هذه الجيوش الثلاثة عندما ننتقل الىٰ الفصول الخاصة بأعمال البعثة العسكرية العراقية في اليمن . . . .

إن هذه العمليات التي يقوم بها الجيش النظامي أثناء السلم يُطلقون عليها في اليمن إصطلاح «الخطاط» و «التنفيذ» . . إنه اصطلاح ترتعد له فرائص القبائل اليمنية . . وهو في نظر الناقدين لنظام حكم الإمام اسوأ من حكاية (الرهائن) التي تحدّثنا عنها أنفاً . .

تلك كانت جريمة واحدة فقط خلال عام واحد فقط (١٩٤٠) .

ثم اقبل العام الثاني (١٩٤١) ولا أحد يدري ما ألذي يحمله هذا العام من مفاجآت لم تخطر على بال أحد من أهل (صنعاء) . . .

فقد جاء يوم وأعقبه يوم وبعض الجيران في إحدىٰ حارات صنعاء القديمة يفتقدون أهل الدار المجاورة الذين لم يُسمع لهم صوت ولم يُرىٰ لهم شبح في الحارة منذ يومين . . وهذا شيء كثير لا يُسكَت عليه في حارة شعبية في بلد كصنعاء . .

فلما استبد القلق بأهل الحارة تقدموا وطرقوا الباب علىٰ أهلها . . ولكنهم لم يتلقّوا أي جواب . . فكرروا الطرق علىٰ الباب . . وأبواب البيوت في اليمن إنما تُفتح من الداخل بواسطة حبل مربوط أحد طرفيه بالمزلاج الخشبي وراء الباب – أي في ظهر الباب – أما الطرف الثاني فيكون مربوطاً بالطابق العلوي من الدار أو بأعلىٰ طابق إن كانت الدار ذات عدة طوابق . .

ولما استيأس الجيران من الإجابة أخبروا (عاقل) الحارة – أي المختار – وهذا بدوره أخبر الجهات المسؤولة . . فهرع عدد من المسؤولين والجنود الىٰ الحارة المذكورة ففتحوا باب المنزل الصامت عنوةً . . ودخلوا ليروا صاحب الدار وابنته الشابة مقتولين خنقاً . . وأن الجناة قد سرقوا من الرجل القتيل مبلغاً كبيراً من المال ثم لاذوا بالفرار بعيداً عن صنعاء . .

إن طبيعة وملابسات هذه الجريمة تختلف اختلافاً تاماً عن جريمة الاعتداء علىٰ البريد الحكومي التي تحدثنا عنها آنفاً . . ذلك لأن جريمة الاعتداء علىٰ البريد الحكومي كانت قد حدثت في منطقة قبليّة وبعيداً عن المدن المهمة . . أما الجريمة الثانية فقد حدثت في قلب عاصمة اليمن حيث يوجد الإمام يحيىٰ حميد الدين وحكومته المركزية . . ! فكيف ينبغي معالجة هذه الحالة المختلفة . . . ؟

فهنا لاتوجد قبيلة ولا شيخ قبيلة لكي يبعث اليها الإمام بفوج من الجراد اليمني المشهور لكي يأكل أخضر القبيلة ويابسها . . حتىٰ تقوم القبيلة بتسليم الجناة . .

بل هنا حارة من حارات العاصمة لايمكن الإشتباه بأحد من أهلها لاسباب وتقاليد اجتماعية متعارف عليها لدىٰ الجميع : . كما لم يسبق، أن حدث حادث واحد من هذا القبيل منذ أن قامت دولة الإمام يحيىٰ في صنعاء وحتىٰ ذلك اليوم . . ثم إن أهل الحارة قد قاموا بواجب التحري الابتدائي وبادروا إلىٰ إخبار المسؤولين علىٰ الفور . .

فما هي السبيل إذن لمعالجة هذه الحالة الجديدة . . ؟

كان الرجل القتيل يشارك رجلين آخرين في عمل زراعي خارج صنعاء . . فكان هذان الرجلان يترددان علىٰ منزل الرجل القتيل (القاضي اليدومي . .) يراجعانه في شؤون المزارعة . . وقد اعتاد اهل الحارة علىٰ مشاهدة هذين الرجلين وهما يترددان علىٰ بيت القاضي القتيل . . .

فلما خيمّ الصمت والسكون فجأة علىٰ بيت القاضي لمدة يوم ويومين فان ذلك لفت أنظار أهل الحارة وأثار شكوكهم فهرعوا للتحري ثم أخبروا الجهات المسؤولة . .

إن هذه الصورة العامة التي قدّمها اهل الحارة للجهات المسؤولة مكنت المسؤولين من التوسع في التحريات التي لم تستغرق اكثر من بضعة أيام حتىٰ أُلقي القبض على المتهَمْين في مكان يبعد بضع كيلومترات غربي صنعاء . . قيل في حينه أنه أُلقي القبض عليهما في إحدىٰ القرىٰ بجبل (عَصُر) الواقع الى الغرب من العاصمة صنعاء . .

وجيئ بالمتهَمْين . . فأنكرا التهمة كالمعتاد . . وأصرّا على الإنكار اكثر من عشرة أيام رغم كل الوسائل الشديدة التي مارسها معهما رجال الأمن الخاصّين بالعاصمة صنعاء . .

وسأل الإمام عن مصير المتهمين . . واستغرب من الإبطاء في أمرهما . . فلما أخبروه بعدم اعتراف المتهمين بتهمة قتل القاضي وابنته وسرقة المال . . أمر الإمام باحضارهما الىٰ ديوانه في (المقام) . . . .

كان أحد المتهمين يملك جثة عملاق . . وقوة شمشون . . كان اسمه (سعد آحسن) أو سعد حسن . . أما الثاني فقد كان وسط البنية . . قويُّها واسمه (سلمان . .) ولم أعُد اتذكر اسم ابيه . . أما الأول فقد حفظتُ إسمه طوال هذه السنين ولن أنسه قط بسبب ما رأيتُه من عجيب أمر هذا الرجل يوم نفذوا فيه عقوبة قطع اليد عن السرقة . . ثم عقوبة قطع الرأس عن جريمة القتل . . ونسأل : إذا كان كل ذلك التعذيب الذي مارسه رجال الأمن مع (سعد احسن) ورفيقه لم ينتج الى اي اعتراف . . . فكيف صدر فيهما إذن حكم الإعدام ؟

عندما أُحضر المتهمان الىٰ باب الديوان الذي يجلسُ في الإمام يحيىٰ ذُهِلَ الحرس الذين كانوا يحرسون المتهمين عندما رأوهما خائفين فزعين من الدنو من ديوان الإمام . . . !

فلما طُلِب اليهما الدخول الىٰ الديوان ، والإمام يحدّق فيهما من بعيد ، اختلفت اقدامهما في المسير فصارا يتعثران بين الأحذية المنزوعة عند عتبة باب الديوان . . ثم توقفا علىٰ مسافة خمسة أمتار عن مجلس الإمام ولم يجرؤ أحد منهما علىٰ رفع بصره نحو الإمام . . وقد

أسلفنا أن للإمام يحيىٰ هيبة ورهبة ليس في قلوب المجرمين فحسب بل وفي قلوب رجاله وأولاده كباراً وصغاراً . . .
ومرّت بضع دقائق والسكون والصمت يخيم على الديوان ومَن فيه . . والإمام يتفرس في وجْهيّ (سعد آحسن) و (سلمان . .) وكأنه يستقرىء من قسماتهما الشريرة أيهما الأقوىٰ عصباً وجناناً . . ثم فاجأ العملاق (سعد احسن) سائلاً إياه :
هل قتلتما القاضي اليدومي وابنته وسرقتما ماله ؟
سبع كلمات فقط . . . . !
أجاب عليها سعد احسن بكلمة واحدة : (نعم) .
ووجّه الإمام نفس السؤال الىٰ المتهم الثاني سلمان . . فأجاب (نعم) . . .
وانتهت المحاكمة في دقائق معدودات . . وصدر الحكم بالحدّين : قطع اليد ، ثم قطع الرأس . .
إن هذا الذي أوردناه عن موقف الإمام من هذين المجرمين ، وموقف المجرمين من الإمام لم نشهده نحن شخصياً في حينه . . إنما ظل أهل صنعاء يروون أخبار هذه الجريمة أكثر من نصف عام نظراً لبشاعتها وعدم وقوع مثلها منذ عشرات السنين . . . !
في اليوم الذي جرىٰ فيه تنفيذ الحدّ الأول (قطع اليد) بكلٍ من المتهمين لم تسمح لي ظروف عملي بالحضور لمشاهدة التنفيذ والتقاط صورة فوتوغرافية للمشهد العجيب . . . ولكن بعض الأصحاب الذين حضروا المشهد نقلوا إليّ صوراً مثيرة عن تصرفات العملاق (سعد آحسن) . . ومما قالوه :
إن الجلاّد المكلف بتنفيذ الحدّ لم يُحسن قطع يد (سعد احسن) . . فقد خافه وهابه . . فصرخ به سعد احسن صرخةً دوّت لها جنبات ساحة التنفيذ عند السفوح الغربية من جبل (نُقم) الملاصق لصنعاء شرقاً . . . فلما تم تنفيذ الحد وربطوا له الساعد المقطوع انتبذ مكاناً قريباً وجلس علىٰ الارض وكأن شيئاً لم يحدث . . وصار يسخر من صاحبه (سلمان . .) الذي جزع من التنفيذ . . !
أما عن تنفيذ الحدّ الثاني بالمجرَمْين ، وهو قطع الرأس ، فقد جرىٰ بعد مضي شهر كامل علىٰ تنفيذ الحد الأول (قطع اليد) . . فكان مشهداً فريداً ومريعاً . . .
ففي الساعة التاسعة من صباح يوم السبت (٦ / نيسان / ١٣٥٧ - ١٩ / ٤ / ١٩٤١) غصّت السفوح الغربية من جبل (نُقم) بعشرات الآلاف من المتفرجين . . وجيء بالمتهمين ، أو بالاحرىٰ المجرمين (سعد احسن) و (سلمان) الىٰ ساحة التنفيذ (أنظر الصورة رقم - ٣ - في الصفحة التالية . .
ونادىٰ المنادي باسم (سعد احسن) ليتقدم نحو الجلاد فامتنع وقال : [بل سلمان قبلي . .] . . فلما سألوه عن السبب قال بما معناه : [أريد أن اطمئن الىٰ قطع رأسه فأشفي غليلي] . . وقبل أن يسأله أحد عن سبب ذلك هجم علىٰ رفيقه سلمان يريد الفتك به بأسنانه . . ولكنه لم ينل منه غير أذنه اليسرىٰ فاقتطع نصفها تقريباً ولم يستطع كل الحرس المتواجد في الساحة أن يمنعوه عن ذلك . .
وسيق المجرم سلمان الىٰ موقف الجلاد . . وقبل أن يثبّت قدميه علىٰ الأرض سقط رأسه بين القدمين فقد عاجله الجلاد بضربة قاضية ثم هوت جثته الىٰ الارض وسط بركة من الدم . . !
وتقدم سعد آحسن الىٰ موقف الجلاد ووقف منه علىٰ بُعد خطوتين ثم خاطب الجلاد بما يعني : [إضرب وأثبز ولاتخف] . . ولكن الجلاد ارتعب من هذا التحدي . . فلم تسقط رأس سعد احسن الىٰ الارض . . فلما هوت جثته الضخمة علىٰ الأرض كان رأسه لايزال معلّقاً بين الكتفين . . لقد كان مشهداً مريعاً بالنسبة لنا . . إذ لم نشهد مثله من قبل ... فلما وقعت عليه أعيننا أدركنا سرّ هذا النوع من القصاص الرادع . . . . . وجلّ من قال في كتابه العزيز : «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» . .
ولم ينته المشهد بعدْ . . . .
ففي نفس الظهيرة من ذلك اليوم . . وعلىٰ مسافة بضع مئات من الأمتار الىٰ الجنوب من (باب اليمن) ، وهو اكبر وأشهر أبواب صنعاء ، نُصِب جذعان كبيران من جذوع الشجر علىٰ الارض وجرىٰ تجسيرهما بجذعٍ ثالث كما ترىٰ ذلك في الصورة رقم (٤) . .
ثم عُلّقت أشلاء المجرمين بالحبال وظل الناس يتفرجون عليها مدة ثلاثة أيام ، أُنزلت الاشلاء بعدها الىٰ الارض فاستلمها أهلوها شرّ استلام . . . .

الصورة رقم (٣)
إعدام سعد أحسن وسلمان في (صنعاء)
قطع الرأس بالسيف

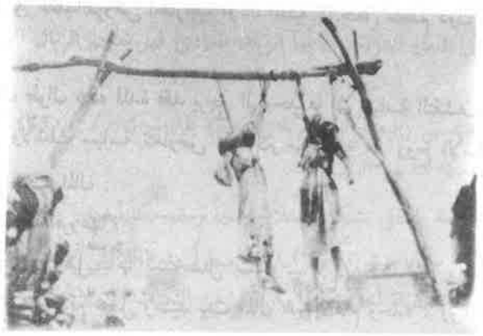

الصورة رقم (٤)
التعليق علىٰ الأعواد لمدة ثلاثة أيام

وتلك كانت الجريمة رقم (٢) التي وقعت في عام (١٩٤١) . . .

اما الجريمة الثالثة والأخيرة التي وقعت في اليمن . . فهي جريمة قتلٍ ارتكبها أحد جنود الجيش حينما أطلق النار من بندقيته العسكرية على ضابطه فأرداه قتيلاً بسبب نزاع شخصي لم يُثبت التحقيق فيه ماينفع انقاذ رأس الجندي من سيف الجلاد .. وجيئ بالجندي الى صنعاء . . وفي غضون أيام قليلة تم قطع رأس الجندي في الفناء الفسيح داخل ثكنة الجيش المظفر . . وهي الثكنة التي كنتُ أعمل في داخلها كمسؤول عن (المدرسة الحربية المتوكيلة) . . ومن اختلاف الصدف أنني في يوم تنفيذ هذا الاعدام كنت بعيداً عن هذه الثكنة في تدريب خارجي لتلامذة المدرسة الحربية ففاتتني فرصة التقاط الصورة . . .

* لم يبق لدينا من مظاهر نظام الحكم المتوكلي في اليمن أيام الإمام يحيىٰ سوىٰ «بيت المال» .. فلنتحدث عنه قليلاً قدر المستطاع :

١ – طبيعة بيت المال :

لعل إسم «بيت المال» في حكومة الإمام يحيىٰ يشكل الأثر الإسلامي الثاني الباقي على قيد الحياة بعد أثر «الحُكم بما أنزل الله» والسُّنة المطهرة . .

وطبيعة بيت المال هنا تنسجم كل الأنسجام مع طبيعة نظام الحكم الذي يحكم به الإمام يحيىٰ . . فالإمامة هي الخلافة بعينها . . وخليفة المسلمين هو المسؤول الأول والأخير عن بيت مالِ المسلمين من جميع الوجوه . . ومهما أختلفت صورة بيت المال والإمام يحيىٰ عن صورة بيت مال المسلمين والخلفاء الراشدين . . ـ وشتان بين الفريقين ـ فأن الأطار العام لهذه الصورة وخطوطها الأساسية تبقىٰ هي هي : الخليفة أو الإمام وبيت المال وحدةٌ لاتتجزأ أو يصعب أجراء تحوير جذري عليها . . فإما خليفة أو إمامٌ وبيتُ مال للمسلمين . . وإما رئيس دولة علمانية ووزارة مال وديوان وزارة . . .

وقد يبدو عجباً لدىٰ القارئ إذا قلنا بأن بيت المال علىٰ عهد الإمام يحيىٰ ـ وهو عهد طويل يبدأ مع انتخابه إماماً للبلاد في عام ١٩٠٤ – لم يظهر فيه عجز في الأموال ، أو كما يُعرف في الممالك الأخرىٰ في العالم بعجز في الميزانية . . ولا اضطر الإمام في يوم من الأيام الىٰ استجداء المال عن طريق عقد القروض الخارجية أو الداخلية كما تفعل معظم دول العالم بوجه عام ودول العالم الثالث في يومنا هذا بوجه خاص . .

أما عدمُ ظهور العجز في بيت المال طوال هذه المدة فقد يرجع الىٰ حدٍّ ما الى سياسة التقشف المتزمتة لدىٰ الإمام ، وإن شئت قلت سياسة البخل ولاحرج ، . وهي ولاشك سياسة تتعارض في أكثر من وجه مع روح الأسلام . . والله تعالىٰ أعلم بما لانعلم . . !

٢ – المصادر المالية التي تؤلف خزين بيت المال :

أولاً – واردات الزكاة الشرعية بكافة فروعها . .

ثانياً – واردات الكمارك والمكوس . . وقيل بأنها تُستحصل بنسبة $\frac{1}{2}$ ٧ ٪

ولن يستطيع إنسان أن يعلم علىٰ وجه الدقة مجمل رصيد بيت المالِ غير الإمام وحده ، وربما وزيره الأول وموضع اسراره ورفيق جهاده القاضي عبد الله حسين العَمْري . . ومع ذلك فقد تبارىٰ الكثير من الناس في الإستقراءات والتخمينات والاستنتاجات بصدد الوقوف علىٰ مقدار رصيد بيت المال . . فمن قائل بأن الرصيد يتراوح مابين (١٠) الىٰ (١٤) مليون ريال سنوياً . . لايُصْرف منها اكثر من اربعة ملايين أو خمسة . . ومن قائل بأن الرصيد العمومي لايزيد علىٰ ثمانية ملايين ريال سنوياً لايُنْفَق منها اكثر من اربعة ملايين ريال . .

ومهما كانت الحقيقة فان ثمة نقطة جوهرية تبرز لنا من بين جميع هذه التقديرات .. ألا وهي أن مجمل الإنفاق السنوي في أحسن الأحوال يساوي ٥٠ ٪ من مجمل الإيراد العام .. وإن مثل هذا الميزان التقشفي المتزمت لايمكن أن يصاب بأي نوع من أنواع العجز بتاتاً . .

ولكن هذا لايعني أبداً أن أهل اليمن في ذلك العهد كانوا سعداء في الحياة من جميع الوجوه . . !

٣ – العملة المتداولة في اليمن :

كانت العملة المتداولة في اليمن (علىٰ عهد الامام يحيىٰ) عملة معدنية تسمىٰ بالريال النمساوي المعروف بريال «ماريا تريزا ـ The Mariatheresa — dollar . (worth about 5 shillings» والذي يرجع تاريخه الىٰ عام ١٧٥١ م وكان استيراده الىٰ اليمن من ميناء (تريستا) الايطالي مع عملة سنة ١٨٧٠ ، وكان اتصال النمسا بسواحل البلاد العربية المطلة علىٰ البحر الاحمر والبحر العربي قد تم عن طريق الامبراطورية العثمانية . . وهكذا أصبح هذا الريال هو العملة الرسمية في أواخر عهد الأئمة في اليمن . . كما أن هذا الريال نفسه متداول في عدة أقطار مجاورة أو قريبة الىٰ اليمن في جنوبي حوض البحر الاحمر . . والريال المذكور مصنوع كله من الفضة . . لذلك فان قيمته الشرائية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسعر الفضة . . ويعاد ضربه في اوربا من قبل الشركات الاجنبية التي تتعامل مع الاقطار المحيطة بمضيق باب المندب . . وهذا الريال لايُصرف إلا في (عدن) ، ويتراوح سعره مابين (٢٥٠ – ٣٥٠) فرنك فرنسي طِبقاً لحجم ومجرىٰ التجارة . . وكل ألف ريال منه تزن (٢٨) كيلوغراماً . وعندما يبعث الإمام بكميات كبيرة من الريالات الىٰ عدن للقيام بمشتريات حكومية تنخفض أسعار الفضة في الأشهر الثلاثة التالية . .

أما أجزاء الريال المتداولة داخل اليمن فكلها من النحاس يجري ضربها في (صنعاء) من أربعين جزءاً كل جزء يساوي $\frac{1}{40}$ من الريال يسمونه (بقشة) . . وهناك نصف الريال وربع الريال . . وهناك ريال آخر كان الامام يحيىٰ قد ضربه لنفسه من الفضة الخالصة اسماه بالعمادي نسبة الىٰ إسمه لأن كل «يحيىٰ» في اليمن يلقب بالعماد . . وهذا الريال مشابه لريال ماريا تريزا من حيث وزنه الفضي الخالص ومساوٍ له في القيمة النقدية ويختلف عنه بأن أحد وجهيه يحمل عبارة «أمير المؤمنين المتوكل علىٰ الله رب العالمين يحيىٰ بن محمد حميد الدين نصره الله» ، ويحمل الوجه الثاني منه عبارة «عمادي ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ضرب بدار الخلافة صنعاء اليمن سنة ١٣٤٤» وكانت القيمة الشرائية لهذا الريال مرتفعة جداً نظراً لرخص الأسعار في المواد المعاشية بالأسواق اليمنية في حينه . . ولا توجد في اليمن أية عملات ورقية ، فالامام لايثق بها علىٰ الاطلاق . . إلا أن لهذه الريالات الفضية بعض السمات المضحكة نظراً لكونها تشكل أثقالاً كبيرة عند تداولها علىٰ المقياس التجاري ومقياس توزيع رواتب الموظفين ومنتسبي الجيش . . وبالتالي علىٰ صعيد الاحتفاظ بالمبالغ الكبيرة منها . . وسبق أن ذكرنا ان كل الف ريال تزن (٢٨) كيلو غرام . .

إن شكل الريال النمساوي دائري منتظم بقطر (٤سم) سنتمترات تماماً وبسمك لايقل عن (٢ملم) مليمتر . . علىٰ أحد وجهيه صورة الملكة ماريا تريزا ، وعلىٰ الوجه الثاني شعار الدولة . . أما الريال العمادي فهو بحجم الريال النمساوي ولكنه يزيد في سمكه بنصف مليمتر . .

كان مجمل الرواتب الشهرية لكافة منتسبي (البعثة العسكرية العراقية) يقارب (– / ٣٢٠٠) ثلاثة الآف ومائتي ريال . . فكان استلامها يشكل عملاً شاقاً ومضحكاً بنفس الوقت . .

وكانت تعبئتها في عدة اكياس[1] خاصة بالنقل تشكل عملاً مزعجاً ومضحكاً أيضا . .

وكان تحميلها على أكتاف الجنود[2] من الجيش المظفر يشكل منظراً مثيراً للأسىٰ والضحك ايضاً . .

وكان توزيعها على منتسبي البعثة يشكل معضلة أخرىٰ كثيراً مارافقها من النكات التي لا تخلو من الطرافة . . وسنأتي الى تفصيل ذلك عند الحديث عن اعمال البعثة في اليمن . .

وكان الاحتفاظ بالراتب يشكل معضلة شخصية لكل فردمنا . . . . !

وطالما كان الريال مضروباً من الفضة الخالصة ١٠٠ ٪ فان أحداً منا لم يسمع في أي يوم من الأيام أن هذا الريال هبط سعره كذا . . وكذا . . أو تسبب في خلق مشاكل مالية أو اقتصادية داخل اليمن . . بل على العكس فقد صادف أن ارتفع سعره في وقت ما من عام ١٩٤١ فصار الدينار العراقي في رواتبنا بإثني عشر ريالاً بعد أن كان بثلاثة عشر ريالاً من ريالات (المغفور لها ماريا تريزا) ... !

---

(١) يُسمىٰ الواحد منها (خيشة) وهي من نسيج الليف والقنب وعلىٰ درجة كبيرة من القوة . . وتتسع لألف ريال (٢٨) كيلوغرام . .

(٢) عندما ننتقل الىٰ الحديث عن أعمال البعثة في الجيش اليمني سنجد أن من جملة واجبات الجيش النظامي المتطوع تخصيص جنود للعمل في دوائر الدولة كجنود شغل . . !

ولن تقتصر النكات ، التي يوحي بها ريال (ماريا تريزا) ، علىٰ شكله ووزنه وماينجم عنهما من ذيول . . بل هناك دائرة المالية التي تقوم بتوزيع المصروفات من هذا الريال علىٰ الجهات التي تتعامل مع الحكومة . . بما في ذلك دفع الرواتب الشهرية . .
ودائرة المالية هذه لاتتعدىٰ أن تكون غرفة اعتيادية يتراكم الغبار والتراب علىٰ كافة جدرانها . . وعلىٰ كل جسم مسطح أو مجسم له وجود داخل هذه الغرفة . .

والجدران الأربعة في هذه الدائرة الحكومية الحساسة مزينّة بمختلف الأنواع والأحجام والأطوال من المسامير لتُشكّ فيها مئات والآف الوريقات أو قصاصات الورق التي هي المعاملات الحسابية الخاصة بصرف الريالات آلافاً وملايين . . . فذلك هو نظام (الأرشيف) في كل الدوائر الحكومية في اليمن . . . بما فيها الجيش . . . ! وهذه الدوائر لاتعرف شيئاً عن الأثاث المكتبية كالمحافظ والأدراج والرفوف والخزانات الحديدية أو الخشبية إلا ماكان بدائياً جداً . . . . !
وإنك إذا مانظرت الىٰ (الارشيفات المسمارية) علىٰ الجدران وجدتَ أن الأوراق العليا منها بيضاء جديدة . . والأوراق أو الوريقات التي تليها في الوسط قد اصفر لونها . . أما الطبقة التحتانية القريبة من الجدار فانها قد بدأت تتآكل وتنتثر الىٰ الارض لطول مامرّ عليها من زمن وما تراكم عليها من تراب . . فاذا ما تآكلت عن آخرها لن يخسر القوم شيئاً ذو أهمية في الحسابات . . فكل شيْ عندهم في الحياة إلىٰ زوال . . !
وإذا أجَلْتَ ببصرك ذات اليمين وذات الشمال رأيت ريالات ماريا تريزا مبعثرة هنا وهناك . . أو علىٰ هيئة اكوام . . . بأكياسها التي يتسع الواحد منها لألف ريال . . . !
وقد تجد في إحدىٰ زوايا الغرفة خزانة مليئة بالعملة الاجنبية . . وليس في هذا مايبعث علىٰ الدهشة أو الابتسام . . لأن العملة الاجنبية شيْ يتجانس مع الريالات . . . أما مايبعث علىٰ الدهشة والضحك هو أن تقع عينك في دائرة المالية علىٰ صفائح البنزين . . وقطع الغيار للسيارات الحكومية وبعض الاطارات الجديدة والمستهلكة . . . . !
وإذا كنتَ مأموراً لاستلام رواتب أو مصروفات معينة . . واقتضىٰ الأمر الىٰ فتح أحد الاكياس لاستلام بضع مئات من الريالات . . بادر أحد العساكر المخصصين لدائرة المالية واستلّ (جنبيته) أي خنجره وشقّ به ذلك الكيس الغليظ . . وجلس علىٰ الارض يعدّ المبلغ المطلوب . . .
إن ازدحام المراجعين داخل هذه الدائرة شيْ يمكنك التحدث عنه . . وخاصة في مواعيد صرف الرواتب . . أما الفوضىٰ التي تضرب أطنابها في هذه الدائرة فذلك شيْ لاتستطيع التحدث عنه إطلاقاً من دون شريط سينمائي ناطق وملوّن أيضاً . . . !

٤ — رواتب الموظفين في عهد الإمام يحيىٰ :

رغم كل ماقدّمناه آنفاً ، وما سنقدمه لاحقاً[1] . عن بساطة المعيشة وضآلة تكاليفها في اليمن وأسباب ذلك .. فان رواتب الموظفين في عهد الإمام يحيىٰ ، بمّا في ذلك منتسبي الجيش اليمني . كانت شحيحة لاتكاد تفي بالحاجة المتواضعة جداً ...
فاذا علمنا أن راتب العقيد ، وهي اعلىٰ رتبة في الجيش اليمني أيام وجودنا في اليمن ، كان لايزيد علىٰ (٦٠) ستين ريالاً في أي حال من الأحوال . . وأن هذا المبلغ كان يعادل (٥) خمسة دنانير عراقية في ذلك الحين . . لأدركنا مدىٰ العوز الذي كان يعانيه الموظف المدني أو العسكري في اليمن . . . !
ومما يزيد في كآبة الحالة المعيشية التي كان عليها اولئك الموظفون هو ابتلاء هؤلاء الموظفين ، كبقية فئات الشعب اليمني ، بآفة استعمال (القات) الذي تحدثنا عنه قليلاً في الفصل الأول من هذا الكتاب . . وسنتحدث عنه كثيراً في الاقسام التالية من هذا الفصل . . وكل مايتيسر لنا قوله عن ذلك الآن هو أن (القات) يستهلك نصف راتب الموظف علىٰ أقل تقدير . . . !
علىٰ أن الإمام يحيى كان قد عزّز هذه الرواتب النقدية القليلة . . الشحيحة . . برواتب عينية من الحبوب المختلفة التي يُصنع منها الخبز وهذا ماكان يُطلق عليه بالطعام . . ويكون توزيع الحبوب بمكيال خاص مُتفق عليه يسمىٰ (القَدَحْ) وهو يتسع لما يعادل (٣٢)

(١) أنظر نهاية المادة (١١) من القسم السابع (صنعاء) صفحة (١١٦)

كيلوغراما تقريباً من خليط الحبوب (الحنطة ، الشعير ، الذرة،العدس ، وغيرها . .) علىٰ أن الحنطة لاتُصرف علىٰ الدوام . . فاذا جاء شهر رمضان الكريم من كل عام يجري صرف الطعام من الحنطة فقط بدلاً من بقية الحبوب . .
وهكذا يضاف قدح أو قدحين أو اكثر من حبوب الطعام عيناً الىٰ الرواتب الشهرية وعندئذ فقط،يضمن الموظف لنفسه ولعياله عيش الكفاف . . مالم يكن مثقلاً بعدد كبير من العيال . . . !
وكما تختلف مقادير الرواتب تختلف مقادير الطعام المصروف . . . أما الجنود ، أو من هم في حكمهم ، فلا يصرف لهم الطعام حبوباً بل خبزاً مخبوزاً من قِبل الدولة . . وهذا الخبز علىٰ هيئة كرات اهليلجية الشكل تسمىٰ الواحدة منها «كِدْمَة» وجَمْعها «كَدَمْ» . . وهذه الكدمة إذا مرت عليها أربع وعشرون ساعة فقط استحالت الىٰ قطعة من الحجارة . . . . !

٥ — النظام المصرفي في اليمن .

كان اليمن هو البلد الأوحد في العالم الذي لاعهد له بالنظام المصرفي من أي نوع كان . . ولن تجد في طول البلاد وعرضها فرعاً واحداً من فروع المصارف العالمية . . ولاحتىٰ من المصرف الأهلي الهندي في (عدن) . . . . . ! وربما كان وكيل الإمام الرسمي المقيم في (عدن) ، ويُلقب بـ (الجبلي)[1] هو المعّول عليه في التعامل المباشر مع المصرف الأهلي الهندي الذي يتمتع بنفوذ كبير في عدن . . كما أن الوكلاء التجاريين الأجانب المقيمين في (الحديدة) لتجارة البن والجلود ربما كانوا يمثلون حلقة وصلٍ مصرفية للتعامل الخارجي . .
وفيما عدا هذا وذاك . . فان كلمة (مصرف) أو (بنك) لاوجود لها في القاموس التجاري اليمني المتوكلي علىٰ الاطلاق . . . !

ألقسم الخامس

مكانة المرأة اليمنية في المجتمع

١ . نظرة المجتمع اليمني الىٰ المرأة .

يخطئ كثيراً من يعتقد أن للمرأة اليمنية مكانة إجتماعية تختلف اختلافاً جذرياً عن مكانة المرأة في بقية الدول العربية المجاورة لها أو حتىٰ البعيدة عنها . . في الشمال الإفريقي مثلاً . . .
فلو افترضنا أننا التقينا ، بشكلٍ أو آخر ، بامرأتين إحداهما من سكان الهضبة [2] في اليمن ، والأخرىٰ من سكان أواسط حضرموت أو سلطنة عُمان ، أو حتىٰ من باقي الدول الخليجية في الفترة الزمنية (١٩٤٠ - ١٩٤٣) . . وكانت المرأتان في كامل زيّ الحجاب . . فقد يصعب جداً علىٰ غير العارفين بأهل هذه البلاد أن يميز أيّ المرأتين هي اليمانية وأيهما هي الحضرمية أو العمانية . . وذلك لشدة تشابه الأزياء فيما يرتديه كل هؤلاء النسوة من الملابس . . وعلىٰ الأخص ملابس الحجاب الخارجية التي تجعل من المرأة شبحاً مغلفاً يمشي علىٰ الارض . .
وهذا الحجاب الخارجي أو العباءة أو الإزار يسمىٰ في صنعاء بالستارة باعتبارها تستر الجسم كله من الخارج . . وقد يُسمى بأسماء أخرىٰ في أقطار أخرىٰ . .

(١) وسنأتي الىٰ التعريف بالسيد (الجبلي) في الفصل الخامس من هذا الكتاب عند الكلام عن سفر البعثة الىٰ اليمن . . وربما قبل ذلك .
(٢) نحن في حديثنا هذا عن المرأة اليمنية أو الحضرمية أو العُمانية أو الخليجية أو السعودية أو العراقية ... أنما نتحدث عن نساء المدن بالدرجة الأولىٰ ...

ولو افترضنا أننا كنا نستمع ، بشكلٍ أو آخر ، الىٰ هؤلاء النسوة وهنّ يغنّين بالتعاقب من وراء حجاب . . فقد يشقّ علىٰ المستمع الاعتيادي أن يميز أياً من تلك الاصوات هي يمنية أو سعودية أو عدنية أو حضرمية أو عمانية أو غير ذلك من أقطار الجنوب العربي . . . .

وكما تتشابه نساء هذه الأقطار في الأزياء وألحان الغناء . . فكذلك يتشابه رجال هذه الاقطار في كثير من الأزياء والألحان في الغناء . .

فاليمني يرتدي العمامة والثوب ويتمنطق عليه بنطاق يشد علىٰ الخنجر المعقوف . . وكذلك يفعل الحضرمي والعماني . . مع اختلافات بسيطة في شكل العمامة ولونها وطريقة شدها . .

وعلىٰ ضوء هذه الحقائق فاننا نؤكد بأن الحالة الاجتماعية التي تعيشها المرأة اليمنية هي نفس الحالة الاجتماعية التي تعيشها اختها في حضرموت وعُمان والإمارات الخليجية . . بغضّ النظر عن الاختلافات الثانوية أو الجانبية في بعض الأمور . .

وحتىٰ المرأة العراقية - الىٰ ما قبل ثلاثة [1] أرباع القرن - كانت هي الأخرىٰ إذا غادرت منزلها تبدو للرائي شكلاً «قوقعياً» لا يختلف عن القواقع اليمنية والحضرمية والعمانية والسعودية والخليجية إلا في نوعية الحجاب الخارجي من حيث زيّة ولونه ونقوشه . . أما النتيجة فهي واحدة لدىٰ الجميع «التقوقع» داخل الحجاب الىٰ حد التعرض لكتم الأنفاس أو الاختناق . . . !

إنني شخصياً ، وقد نيّفت اليوم علىٰ السابعة والستين ، لا أزال أتذكر «الصورة القوقعية» التي كانت تكون عليها إحدىٰ عماتي أو خالاتي ، رحمهن الله تعالى بواسع رحمته ، حينما كن يغادرن باب المنزل الىٰ مكان غير بعيد ولوقت قصير . . وليتني كنت استطيع الآن وضع صورتهن القوقعية علىٰ هذه الصفحة من الكتاب فيكون مشهداً عجباً في نظر شباب اليوم من البنين والبنات . . ولكن هيهات أن استطيع رسم كل قطعة من ملابس الحجاب ابتداءً من «الخِيليّة» أو «البوشيّة» أي البرقع ونزولاً الىٰ الحذاء الجلدي الأصفر الخفيف ذو الرقبة القصيرة الواسعة والغليظة المسمىٰ بـ (البوتين) والشبيه جداً جداً بالحذاء الذي يحتذي به (بابا نوئيل) في أعياد الميلاد ورأس السنة عند إخواننا المسيحيين . . بل هو أغرب من حذاء بابا نوئيل بكثير . . . !

والإسم «خيليّة» مشتق من التخلل - أي تخلل شيئ عبر شيئ آخر . . كما لو انك كنت تنظر من وراء (غربال) فترىٰ من خلال ثقوبه المرئيات الكائنة خلفه . . . فكذلك كانت «خيلية» جداتنا وعماتنا وخالاتنا وجيراننا جميعاً . . يضعن أمام وجوههن قطعة مربعة الشكل بقياس (٢٥ × ٣٠ سم) تقريباً من حجاب منسوج من الشعر الأسود ذو مسامٍ خشن يسمح بالرؤية المحدودة . . وكانت هذه الخيلية تُثبّت أمام الوجه بواسطة شريطين يلتقيان من الجانبين الىٰ الخلف فتعقدهما السيدة وراء رأسها . . ثم تلفّ حول جسمها إزاراً من القماش النيلي السميك لفاً محكماً لاينال منه الإعصار شيئاً . . . !

وما قلتُه عن عماتي وخالاتي (الموصليات) ينطبق من حيث المبدأ على نساء بقية المدن العراقية والسورية والمصرية وشمال افريقيا وحتىٰ تركيا وإيران مع اختلافات ثانوية من حيث التصميم ونوع القماش ... ولا يشذ عن ذلك إلا النساء المسيحيات .. والاختلاف معلوم ..

وكما تشابهت أزياء النساء وأصواتهن . فقد تتشابه النسوة ايضاً بالعزلة البيتية . . والعزلة البيتية لن تكون عيباً في المرأة العربية إذا كان الهدف من عدم العزلة هو «إنفلات المرأة» في المجتمع انفلاتاً عشوائياً علىٰ حساب سمعتها وكرامتها وسمعة زوجها وكرامته . . . !

والمرأة اليمنية لا يعوزها «الانفلات» لكي يقال بأنها خرجت من عزلتها في المجتمع . . ولكن بالتأكيد يعوزها التعليم والتثقيف علىٰ أن يكون ذلك من اختيارنا العربي الحصيف وليس تعليماً مستورداً من الخارج دون تمحيص ولا تهذيب . . .

إن التعليم الذي لا يستطيع أن يصوغ من فتياتنا العربيات ربات بيوت وأمهات مثقفات ناجحات في خلق الأسرة السعيدة بيتاً وزوجاً وأولاداً فلا يستحق هذا النوع من التعليم أي اعتبار . .

فالأسرة السعيدة هي نواة المجتمع السعيد . . والمجتمع السعيد هو الذي ظل يبحث عنه فلاسفة العالم منذ عشرات القرون ولا يزالون . . . . !

---

(١) ونريد الربع الأول من القرن العشرين وما قبله ...

والمرأة اليمنية ليست هي وحدها التي تحتاج الىٰ التعليم الصحيح . . بل حتىٰ الرجل اليمني نفسه في أمسّ الحاجة الىٰ التعليم العصري الصحيح . . فالقراءة والكتابة وحدهما لا تجعلان من الانسان رجلاً متعلماً أو مثقفاً . . بل لمجرد إخراجه من دائرة «الأمية» التي لاتقرأ الحروف ولا تكتب الكلمات . . وعلىٰ ضوء هذه الحقائق فقد ظلت المرأة اليمنية تراوح في مكانها من دائرة التعليم . . وظل الرجل اليمني هو الآخر يراوح الىٰ جانبها في نفس الدائرة بقدر مايتعلق الأمر في مفهوم العلم والتعليم المعاصر الصحيح . . ومن هنا اصبح الرجل اليمني والمرأة اليمنية علىٰ صعيد واحد من الثقافة العصرية . . وكل منهما يناسب الآخر في المكانة الاجتماعية . . وليس للرجل اليمني المسلم علىٰ المرأة اليمنية المسلمة من الفضل إلا درجة : «. . . . وللرجال عليهن درجة . . .» ٢٢٨ - البقرة ، وهي درجة في الفضيلة ، في الخَلْق ، في المنزلة ، في طاعة الأمر والإنفاق ... الخ .

قال تعالى : «الرجال قوّامون علىٰ النساء بما فضّلَ الله بعضهم علىٰ بعض وبما أنفقوا من أموالهم . . .» ٣٤ - النساء . . .

هذه هي نظرة الاسلام الىٰ الرجل والمرأة . . وكل من عكَس المفهوم الصادق لهذه الآيات الكريمة فقد خرج عن الإسلام . . .

فالرجل يعمل ويُنفق علىٰ زوجه وعياله . . والمرأة تعمل علىٰ إسعاد هذا الرجل وعياله . . والرجل يأمر بالمعروف والمرأة تطيعه بالمعروف . . فلا يبغي أحدهما علىٰ الآخر . . فاذا اختل هذا الميزان بين الرجل والمرأة انتقضت آصرة الأسرة وانفك الرباط . .

وإننا لنرىٰ اليوم في جميع المجتمعات العربية والاسلامية اختلالاً كبيراً في هذا الميزان . . وانتقاضاً في الآصرة وتفكّكاً في الرباط . . فاما أن يكون الرجل هو الظالم والمرأة مظلومة . . وإما أن يكون العكس في بعض الأحايين . . ولكن الغالب الأعم هو الأول . .

والوثائق الرسمية التي تؤيد هذا التحليل نجدها في صفحات الآف المجلدات من سجلات المحاكم الشرعية التي تنظر في مشاكل المرأة والرجل من كل جنس ولون . . وأن مايحدث في اليمن ربما كان اليوم (١٩٤٠ - ١٩٤٣) أقل بكثير مما يحدث في العراق وسوريا ولبنان والاردن ومصر الخ . . لسبب واحد بسيط هو هذا التعليم الناقص المستوردة كل خاماته الأولية من الخارج دون غربلة ولا تمحيص . . . ؟

ولعمري إن المرأة اليمنية رغم حرمانها من التعليم المعاصر ، إلا أن لها رصيداً كبيراً من الأخلاقيات الاسلامية التي اوشكت اليوم علىٰ الاختفاء من بيوتات كثيرة في معظم الاقطار العربية . . فمن ذلك علىٰ سبيل المثال : الطاعة المبصرة ، وليس العمياء ، للزوج حتىٰ ولو كان ظالماً . .

الاحترام الخالص والكلمة الرقيقة ولين الجانب ، والحياء الشديد ..

إن امتزاج المحبة الزوجية بالطاعة المبصرة لدىٰ المرأة اليمنية يحملانها علىٰ أن تخاطب زوجها بكلمة «سيدي» . . وليس في هذا مايوحي بالتسلّط من قِبل الزوج أو الخضوع والعبودية من جانب المرأة . . وقد أخطأ كثيراً من زعم غير ذلك . . .

ونحن نعلم أن الرجل الانكليزي يتميز كثيراً عن غيره من الأوربيين بالتعاظم والاستكبار وخشونة الطبع . . ومع ذلك فانه حينما يكتب رسالة اعتيادية الىٰ أي انسان فقد يبدؤها بعبارة : «سيدي العزيز – Dear Sir» .

وكلمة (سيدي) تجري مجرىٰ اللعاب علىٰ ألسنة الخاصة والعامة من إخواننا المصريين . . وهي لاتحمل في طياتها غير معنىٰ المحبة والتقدير . . .

٢ – عادات الزواج في اليمن (خاصة في صنعاء) .

أولاً . **تعاريف**

١ً . ألحَرِيْو - يعني العريس ، وجَمْعه (حَراوة) . .

٢ً . ألحَرِيَوة - يعني العروسة ، وجمعها (حريوات) . .

٣ً . ألشّارِعَة - بما يعني وصيفة العروس ، وهي إمرأة تُستدعىٰ لتقوم علىٰ خدمة العروس بأجرٍ معلوم لمدة شهر أو اكثر هي بمثابة شهر العسل . . وتقوم الشارعة بمؤانسة الحريوة ومرافقتها الىٰ الحمام وتزيينها وتطييبها . . وربما تقوم ايضا بتمريضها عند اللزوم . .

٤ً . ألحفلة - هي الاحتفال بليلة الزفاف . .

٥ً . النَّشاد - رجل ينشد القصائد الشعرية بالمناسبة . .

٦ً . عاقل الحارة - مختار المحلة . .

٧ً . فقيه الحارة - من هيئة إختيارية الحارة . .

ثانياً . **الخِطبة والعَقْد أو المَهْر .**

تقوم النسوة عادةً بالتحري عن الفتاة الملائمة ومشاهدتها . . ومن ثم تقديم مواصفاتها الجمالية والاجتماعية الىٰ الشاب أو الرجل الراغب بالزواج . . وعند حصول التوافق بين طالب الزواج ووليّ أمر الفتاة يجري التفاهم بين الطرفين حول تحديد مهر الفتاة . . والمهور اليمنية في فترة(١٩٤٠ - ١٩٤٣ وما قبلها) مهور إسلامية حقاً لا تُرهق غنياً ولا فقيراً . . كلٌ يُنفق عن سَعَتِه . . ويتعين يوم لعقد [١] المهر في دار وليّ أمر الفتاة . . وعادةً يقيم كلٌ من أهل (الحريوة) و (الحريو) حفلة في بيته يحضرها أهلوهما وأقرباؤهما وأصدقاؤهما وجيرانهما ، يجتمعون بعد الظهر لتخزين [٢] (القات) ويستمعون الىٰ الأناشيد الدينية ويتبادلون النكات والنوادر وأخبار الساعة ، وبعد صلاة العصر يذهب (الحريو) مع شخصين من ضيوفه لزيارة (الحريوة) ويُقضّي معهم بقية النهار مع ضيوفهم . . ، ويتناول هو وضيفاه وجبة العشاء مع أهل (الحريوة) . . وكثيراً ما تُجرىٰ مراسيم عقد الزواج بحضور الوليّ والشهود في هذا الوقت . . وليست هناك تسجيلات من قِبل مأذون شرعي ولا وثائق رسمية أو رسومات مالية معيّنة . . بل يتقدم وليّ أمر الفتاة فيصافح (الحريو) ويقول له : «زوّجتكَ وأنكحتك ابنتي فلانة علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وبمهر قدره كذا . . أو بمهر مثلها ، أو بالمهر المتفق عليه» ، فيُجيب (الحريو) : «قبلتُ» . . ويحمدون الله ويشكرونه ويقرأون الفاتحة ويؤمّن الشهود الحاضرون . .وينثرون «النثار» من زبيب ولوز وسُكّرات بلدية أو ما شابه ذلك . . فيتناهبه الحاضرون ، وبعد ذلك يعود (الحريو) الىٰ بيته مع ضيوفه . . ويبدأ كل طرف من الطرفين بإعداد مايلزم لتحقيق بقية مراحل الزواج . .

ثالثاً . **حفلة الزفاف .**

يقيم (الحريو) حفلة سمر في منزله يجتمع فيها الأهل والعشيرة والجيران والأصدقاء ، وتبدأ الحفلة من بعد صلاة المغرب التي يصلّيها الجميع في الجامع [٣] . فاذا خرجوا من الصلاة تشكّل موكب الزفّة حيث نجد (الحريو) يحمل سيفاً مذهّباً علىٰ كتفيه بصورة أفقية ويرتدي حُلّةً جميلة ربما هي مستعارة مع السيف من جهةٍ ما مع العباءة [٤] ويكون وجه (الحريو) مكشوفاً إذا كان هذا هو زواجه الأول . . أما إذا كان يتزوج للمرة الثانية فانه يُخفي عينه اليمنىٰ بطرفٍ من العباءة [٥] . . واذا كان الزواج هو الثالث أو الرابع فعليه أن يُخفي كلتا عينيه . . وعند ئذ لابد من أن يقوده أحد في طريق الزفّة . . ولكن معظم (الحراوة) من هذا النوع لن يُعْدَموا الحيلة والوسيلة للتغلب علىٰ هذه المحنة . . . إذ لابد له من رؤية الطريق بأي شكل من الأشكال . . ويستضيءُ موكب الزفّة بالفوانيس والمصابيح الغازية - أي اللّوكسات . . يحملها الناس مع مايحملونه من المجامر والمباخر فتمتزج روائح الشموع بروائح البخور (بخور النَّد) والعود والعنبر . . والكل يحيط بالحريو وإلىٰ جانبه النشّاد ينشد بصوته الجهوري مقاطع «الزفّة الصنعانية» المشهورة ويردد معه الجميع بعض تلك المقاطع حتىٰ يوصلونه الىٰ «الديوان» [٦] في داره حيث يُمضون السهرة بتخزين القات وقرقرة المداعات [٧] وإلاستماع إلىٰ النشّاد الذي يجلس عن يمين الحريو . . ويقوم والد (الحريو) وإخوته بتوزيع شدات القات علىٰ المدعوين . . حتىٰ إذا اقترب الوقت من منتصف الليل نهض والد (الحريو) وعدد من الأقارب والأصحاب آخذين معهم حاراً أو بغلة ويذهبون الىٰ بيت (الحريوة) من حيث سيقومون بزفّ (الحريوة) الىٰ بيت (الحريو) . . فاذا وصلوا الىٰ دار الحريوة استقبلهم والدها وأخواتها بالترحيب والتكريم . . ويقوم والد الحريو ووالد الحريوة بلثم كلٍ منهما يد الآخر بطريقة معينة عدة مرات . . وعادةً يبدأ الأصغر سناً منهما بلثم يد الاكبر منه ثم يفعل الاكبر مثلما فعله الأصغر . . ثم يتعانقان بطريقة معينة

---

(١) هكذا يكون الانتقال من مرحلة (الخِطبة) الىٰ مرحلة (العقد) مباشرة . . فلا توجد مرحلة (النيشان) عند أهل اليمن . . .

(٢) تخزين القات : يعني تناول وريقات القات وتخزينها داخل الفم الىٰ جانب أحد الشدقين إما الأيمن أو الأيسر حسبما يعتاده الشخص منهم ثم المباشرة بمضغها وامتصاص عصارتها وابتلاعها . . . (راجع مبحث شجرة القات ص ٤٤ - الفصل الاول : لمحات جغرافية عن اليمن . وانظر القسم الثامن من هذا الفصل ص ١٦٢ .

(٣) ويكون (الحريو) قد ذهب عصر اليوم مع بعض أصحابه الىٰ إحدىٰ الحمّامات الأهلية التي سبق له استخلاؤها . . أي أنه استأجرها سلفاً بصورة خصوصية . .

(٤) و (٥) العباءة أو الشال أو حتىٰ (اللّحْفَة) أي الشَمْلة التي يشتمل بها الحريو إذا تعذرت عليه العباءة والشال .

(٦) الديوان في البيت اليمني هو كغرفة الاستقبال أو (الصالون) عندنا في العراق . . وربما كان الديوان في البيت اليمني اكثر انعزالاً واستقلالاً عن الدار . . لأنه هو المكان المعدّ لمثل هذه المناسبات .

(٧) المداعات جَمْع مداعة وهي النارجيلة التي يجري تدخين التنباك بها . . وعما قريب سيكون لنا حديث طويل عن المداعة وقرقرتها عندما سنتحدث عن (مجالس القات) في اليمن . .

أيضا . وفي هذه الأثناء تنزل (الحريوة) من غرفتها برفقة (الشارعة) ويتقدم من يساعدها علىٰ ركوب الدابة . . حتىٰ إذا استقرت علىٰ ظهرها تقدم والد (الحريو) فأمسك بمقود الحيوان . . وصار والد (الحريوة) عن يمين الدابة والشارعة عن يساره وبقية الأقارب من حول الموكب . . والكل يمشي علىٰ قدميه . . فاذا وصل الموكب الىٰ بيت (الحريو) رحّب به جميع من في الدار واستقبلوه بالزغاريد . . وعند عتبة الدار يكسرون بيضة أو اكثر تفاؤلاً بانجاب الأطفال . . ثم يتقدم والد (الحريوة) والشارعة وبعض الاقارب لمساعدة (الحريوة) علىٰ الترجل من فوق ظهر الدابة ويسيرون بها الىٰ داخل بيت (الحريو) ويُدخلونها غرفة الزوجية . . وكل ذلك يجري بإشراف وتوجيهات الشارعة . . .

وبعد استراحة مناسبة يقوم (الحريو) للسلام والترحيب بالحريوة . . وعندما يدخل عليها يجدها جالسةً في أشد الحجاب والشارعة إلىٰ جانبها . . فيقترب منها ويكشف الستار عن التمثال الصامت . . ويضع قدميه علىٰ قدمها ويده علىٰ جبينها وهي مغمضة العينين . . ويتلو شيئاً من الأدعية المأثورة بصوت خافت فتفتح (الحريوة) عينيها فتنظر إليه بحياء وخفر يمنعانها عن الكلام أو الابتسام . . ولا يطول هذا اللقاء كثيراً . . لأنه لمجرد السلام والترحيب بالحريوة . . فينصرف الحريو عائداً الىٰ أصحابه الذين لايزالون يمضغون القات ويقرقرون بالمداعات ويتبارون بالنكات الصحاح عن الليالي الملاح . . . ! وقد لا تنتهي سهرة هؤلاء (الثقلاء علىٰ الحريو) قبل الهزيع الأخير من الليل . . وعندئذ يقومون بزفّ (الحريو) رسمياً الىٰ (حريوته) ومعهم أهل (الحريوة) وسط الزغاريد والهتافات والدعوات المباركات بالحياة السعيدة والمستقبل الزاهر . . وفي هذه الزفّة النهائية تقع المداعبات الخفيفة والتحرشات العنيفة بالحريو من قبل أصحابه وخلانه . . فهذا يقرصه . . وهذا ينخسه . . وهذا يلاطفه . . فلا يستطيع (الحريو) دفاعاً عن نفسه مالم يكن قد اتخذ له حرساً من أصحابه قبل فوات الأوان . . ! حتىٰ إذا أوصلوه غرفة الزوجية تركوه وشأنه ثم انصرفوا الىٰ بيوتهم فرحين . . .

وفي اليوم الثالث يستقبل الزوجان أصدقاءهما من النساء والرجال في وقت واحد . . وتكون (الحريوة) في أجمل هيئتها وتعلو وجنتيها اليوم غمّازتان صغيرتان بدلاً من الغمازة الواحدة التي كانت علىٰ خدها ليلة الزفاف [١] . .

لقد رأينا أن زفاف (الحريو) الىٰ (حريوته) قد تم في غرفة من غرف منزل والده . . .

ترىٰ . . أين هو بيت الزوجية الجديد ؟

إن لهذا البيت الجديد حكاية تُذكّرنا بالأسرة الكبيرة قديماً عندنا في العراق . .

فقبل أقل من قرنٍ من الزمان . . كان البيت الواحد يضم في مرافقه السكنية اكثر من عائلة واحدة ذات نسب واحد كالأشقاء مع زوجاتهم وأولادهم . . أو الأب مع صهره وباقي بنيه وبناته . . أوما شاكل ذلك . . وكانت غالبية الدور من طابق واحد ذات أفنية مكشوفة الىٰ السماء حتىٰ ولو كان الدار يتألف من طابقين . . ولا يحتوي الدار ، في أحسن الأحوال ، علىٰ اكثر من أربعة غرف للنوم . . ومع ذلك فقد كان الدار يضم في مرافقه هذه اكثر من عائلة . . .

ويختلف هذا الأمر في اليمن بناءً علىٰ اختلاف العوامل التي تتحكم في طراز العمران اليمني بوجه عام وطرازه في المدن بوجه خاص . .

فالمدينة اليمنية صغيرة المساحة بسبب كلفة إحاطتها بسور وأبراج قوية للدفاع عنها ليس تجاه عدو خارجي . . بل تجاه القبائل اليمنية نفسها في حالة اضطراب الأمن العام في البلاد . . وهو ليس بالأمر النادر حدوثه في اليمن . . فالقبائل دائماً تتربّص بالمدن وتنتهز فرصة اضطراب الأمن في البلاد . . فاذا سنحت لها الفرصة هاجمت المدن وعملت فيها نهباً وسلباً وقتلاً وتدميرا . . . فالمساحة الصغيرة من الأرض حملت الناس الىٰ التوسّع العمودي في الدور . . حتىٰ صار عدد الطوابق في دور المدينة يتراوح ما بين طابقين الىٰ تسعة طوابق . . كل طابق مستقل ومكتف بذاته تقريباً . . ومن هنا اصبح البيت اليمني قادراً علىٰ استيعاب عدة عوائل ذات نسب واحد . . وهي العوائل التي تتكون عادةً بعملية الإنشطار الذاتي فلا تسمح بتشتت وحدة العائلة أو الاسرة . . ! لقد كان قصر (غُمْدان) يتألف من عشرين طابقاً ، كما أسلفنا . من قَبل أن يسمع العالم المعاصر بناطحات السحاب الامريكية . . . !

---

(١) نستميح كل (حَراوة) و (حَريوات) اليمن عذراً عن أي خطأ أو سهوٍ وقع عفواً أو جهلاً في حديثي هذا عن تقاليد الزواج في اليمن . . فسبحان الذي أحاط بكل شيءٍ عِلماً . . . !

٣ . أزياء النساء في اليمن .

لقد تحدثنا في القسم الثالث من هذا الفصل الثالث عن مختلف أزياء الرجال في اليمن . . وبمناسبة الحديث الأخير عن المرأة اليمنية نرىٰ من المناسب أن نتطرق بايجاز الى ازياء النساء في اليمن . . .

نظراً للعزلة المطلقة عن العالم الخارجي التي عاشتها اليمن منذ عهد الاستقلال بعد الحرب العالمية الأولىٰ (١٩١٤ - ١٩١٨) فقد احتفظ اليمنيون جميعاً ، رجالهم ونساؤهم ، بالزي اليمني القديم . . ورغم تواجد الأتراك في اليمن علىٰ فترات طويلة من الزمن فانهم لم يتركوا أية بصمات مهمة علىٰ الأزياء اليمنية . . **الخاصة بالرجال** أو النساء . . أللهم فيما عدا بعض الملامح القليلة التي لانزال نشاهدها لدىٰ الضباط والموظفين اليمنيين وبعض الأتراك ممن آثر البقاء في اليمن ولم يرحل مع الراحلين . . وهذه الملامح تنحصر فقط في ارتداء غطاء الرأس التركي (القلباغ) المصنوع من جلد الماعز الأسود ، ثم السترة والسروال اللذين لم يعُد يُشترط في طرازهما وقماشها وألوانهما واحجامها أية شروط أو مواصفات عسكرية أو مدنية . . فكل ما يقع في اليد هو مقبول في هذا البلد حتىٰ ولو كانت السترة والسروال من مخلفات مأموري التشريفات الذين يقفون عندَ مداخل دور السينما والفنادق والنوادي الليلية في الأقطار الأجنبية . . . !

أما أزياء النساء في اليمن فلن نرىٰ فيها بصمة واحدة من البصمات التركية إطلاقاً . . إذ أن كل قطعة منها هي يمنية ١٠٠ ٪ ابتداءً من الملابس الداخلية وحتىٰ البرقع والستارة الخارجية . . وقد يكون الاختلاف في الزيّ النسوي بسبب اختلاف الطقس والبيئة بين الاقاليم الجغرافية في اليمن . . فنساء المناطق الجبلية يرتدين الفساتين الحريرية الطويلة ويعصبون الرأس بعصابة خاصة يحلّونها بكوفية كبيرة من الحرير المطرّز أو غيره يسمّونها (الطَرْحَة) - وهي (الإيشارب) المعروف عندنا [1] . .

فاذا أرادت المرأة أن تخرج من بيتها لأي شأن . . وجب عليها الاستتار بإزار فضفاض كبير تلفّ به جسمها لفا محكماً حتىٰ يبدو مظهرها الخارجي كشرنقة دودة القزّ . . . ! وتحجب وجهها ببرقع عجيب الطراز من نسيج ذو مسام خفيف ينسدل علىٰ الوجه من قمة الرأس الىٰ الصدر . . ويكون هذا الحجاب عادةً منقوشاً بألوان مختلفة علىٰ هيئة دوائر تشبه عيون البقر كلٌ منها بحجم الريال اليمني أو اكبر منه [2] ويلبس النسوة أحذية جلدية من صناعة محلية رديئة وقبيحة الشكل جداً . . وأقبح مافيها أنها ثقيلة الوزن . . لذلك يعمد بعض النسوة من العوامّ الىٰ خلع الحذاء ووضعه فوق الرأس علىٰ طول الطريق . . أو نصف الطريق . . . !

فاذا اكتمل هذا النوع من الستر والحجاب تعذّر حتىٰ علىٰ الزوج أن يميز زوجته من بين امرأتين تسيران أمامه علىٰ مسافة أقدام . . . !

أما النساء في المناطق المنخفضة والأغوار ، مثل تهامة اليمن ، فانهن يرتدين مايشبه الوزرة أو الفوطة بدلاً من الفساتين الطويلة التي ترتديها نساء المناطق الجبلية . . ذلك لأن مناخ تهامة شديد الحرارة كثير الرطوبة . . وبسبب ذلك فان النساء هنا يضعن علىٰ رؤوسهن ما يشبه القبعة لاتقاء حرارة الشمس . . هذا في المدن . . أما في أرياف تهامة فقد تكون النساء بلا أزياء علىٰ الاطلاق نظراً لما تفرضه عليهن قسوة المناخ . .

ولنساء اليهود في (صنعاء) زيّ متميز عن زي نساء المسلمين . . تماماً كتميّز ازياء رجالهن عن أزياء رجال المسلمين . . أضف الىٰ ذلك أن النساء اليهوديات سافرات . . وترتدي الواحدة منهن في بيتها ماتشاء . . فاذا خرجت من البيت كان رأسها معصوباً بعصابة خاصة وغالباً ماتكون سوداء اللون ومن فوقها كوفية كبيرة سوداء . . وينسدل علىٰ قوامها سروال من القماش الداكن يُشدّ الىٰ مفصل القدمين فوق الكعبين بشريط أحمر . . وليس في سفور يهوديات اليمن تبرّج ولا تبذّل لأنهن لايستترن بستارة ولا يتبرقّعن بحجاب . . وقد يندر مشاهدتهن خارج حيّهن الخاص المسمىٰ «قاع اليهود» - أي حي اليهود - الواقع الىٰ أقصىٰ الغرب من صنعاء . . مالم يكنّ ذاهبات أو آيبات من عمل يومي . . لأن البعض منهن يخدمن في البيوتات الصّنعانية الكبيرة . . .

---

(١) نحن لانَدّعي بأننا قد أحطنا علماً بكل شيء عن ازياء النساء في اليمن .. وكل اليمن .. فنحن رغم مكوثنا في اليمن ثلاثة اعوام .. فاننا لم نستطع حتىٰ زيارة آثار (مأرب) لأسباب عديدة ليس هنا موضع تفصيلها ... !

(٢) وهذا الحجاب أو البرقع يُسمىٰ في صنعاء (المُقمُق) .. وأهل صنعاء يلفظون القاف (ق) كَافاً (مُعجَمة) .

٤ . الحياة العائلية في اليمن

إن العائلة الواحدة في اليمن تتألف عادةً من الزوجين والأولاد ، وفي حالات غير اعتيادية قد يكون في البيت الواحد عدة زوجات وعدة أطفال لزوج واحد . .

ليس غريباً أن يكون الاطفال أو الأولاد في الحالة الاعتيادية متآلفون ومتحابون . . ولكن الغريب هو أن يكونوا كذلك في الحالة غير الاعتيادية . . أي حينما يكون في البيت الواحد اكثر من زوجة واحدة ولكلٍ منهن أطفال وأولاد . . . ! وهذا مما يحدث عادةً في العائلات اليمنية - أي التآلف والوفاق . .

إذ المعروف أن المجتمع الذي يسود فيه نظام الزوجة الواحدة . . إذا حدث وأن تواجد في البيت الواحد منه عدة أولاد من أُمّين أو اكثر فالغالب أن ذلك قد يثير الكثير من المشاكل العائلية . . أما المجتمع الذي يعترف بتعدد الزوجات فقد ينعم فيه الأخوة الذين هم من أب واحد وأمهات مختلفات بحب والديهم معاً . . فإن حدثت أية متاعب فسببها أن الأمهات علىٰ غير وفاق . . فقد تحرض الواحدة منهن أولادها ضد أولاد الأخرىٰ . . فتحدث المتاعب . . لذلك كان حبّ الأولاد لأبيهم يطغىٰ علىٰ حبهم لأمهاتهم . . وكثيرة هي الحالات التي نجد فيها الأب في اليمن يستأثر برعاية أولاده دون أمهم أو أمهاتهم . . وقد يسهر أحدهم علىٰ تمريض ولده ليالٍ عديدة رغم وجود أم الولد في البيت . . ومثل هذا المجتمع لا يضيع فيه أولاد الزوجة التي مات عنها زوجها وتزوجت من رجل آخر . . والعائلة اليمنية تحتفل ببلوغ أيٍّ من اولادها سنّ الرابعة أو الخامسة عشرة . . حيث ينزع الولد عن رأسه طاقية الأطفال ويعتمّ بعمامة صغيرة مناسبة . . وعندئذ يكون قد بلغ سن الزواج . . والحافز الاكبر في ذلك هو تأمين الحصانة السلوكية للشاب والشابة معاً . .

ومهور الزواج في اليمن وتكاليفه ليست باهظة جداً كما هي في بقية البلاد العربية والاسلامية .. ولكنها مع ذلك قد تبدو مرهقة نظراً لحالة الفقر السائدة في اليمن وانخفاض مستوىٰ المعيشة بوجه عام ... !

فالزوج يقدم المهر المعجل للزوجة فيكون ملكاً لها تتصرف فيه كما تشاء ضمن حدود العُرف والتقاليد ، كما يتعهد بتقديم مهر مؤجل معلوم إذا هو أقدم علىٰ تطليق الزوجة . . وهو مسؤول أيضا عن تكاليف العرس . . وتتراوح مبالغ المهور كالآتي (ونحن نتكلم عن فترة تواجدنا في اليمن ١٩٤٠ - ١٩٤٣) : -

في العائلات الفقيرة - ٢٠ - ٣٠ ريالاً عندما تكون المرأة في العشرين من **عمرها ولم تتزوج إلا مرة واحدة** . . ويكون المهر المؤجل (٢٠) ريالاً عند الطلاق .

٥٠ ريالاً المهر المقدم للفتاة البكر في الرابعة عشرة من عمرها ، ومؤجلها (٥٠) ريالاً عند الطلاق .

في العائلات المتوسطة - ٥٠ - ١٠٠ ريال المهر المقدم ومثله المؤجل .

في العائلات الغنية - ٢٠٠ - ٣٠٠ ريال المهر المقدم ، و (٣٠٠ - ٨٠٠) ريال المؤجل . .

والواقع أن هذه التقديرات التي ذكرناها ليست إلا علىٰ سبيل المثال لا الحصر . . فقد تكون هناك عوامل مؤثرة تجعل هذه التقديرات عرضة للزيادة أو النقصان .. وكان الإمام يحيىٰ ، يتدخل أحياناً في جعل المهور عند حدّها الأدنىٰ لكي يتيح الفرص لزواج اكبر نسبة من الشباب ...

ونحن نقول في هذا الصدد : لولا وباء (القات) . . لما عجز عن المهور المعقولة حتىٰ الفقراء . . والقات في نظرنا هو عدو الشعب اليمني رقم واحد . . فمتىٰ ماتم القضاء علىٰ هذا العدو اللعين تغير كل شيء في المجتمع اليمني إلىٰ الأحسن فالأحسن . .

سبق وان قلنا بأن أهل اليمن في مجتمعهم الحالي لايجتمع لهم رهط إلا في الجوامع والمساجد أو في الأفراح والمآتم . . ولذلك كانت مناسبات الزواج ذات أهمية عظيمة . . ولا نرىٰ حاجة لتكرار الكلام في صدد عادات الزواج وتقاليده . .

ولقد سمعنا بأن أولاد العوائل الغنية في اليمن يتزوجون كالعادة في سن الرابعة أو الخامسة عشرة . . ولكنهم يتزوجون من نساء ثيبات يكبرنهم سناً . . وهذا النوع من الزواج هو مجرد إحصان لهؤلاء الشبان من الوقوع في الخطيئة . . ولذلك ينتهي مثل هذا الزواج غالباً بالطلاق . . ومثل هذا الزواج المرتجل لاتُقام له الاحتفالات ولا تُنصب له الموائد . . ولكن (القات) لابد منه . . . !

وتتزوج الفتيات في سن أصغر من سن الفتيان . . وربما كانت سن العاشرة أو الحادية أو الثانية عشرة سناً مقبولة لزواج الفتيات . .

وهذا عُرف شائع في معظم اقاليم الجنوب العربي

القسم السادس
العمران في اليمن

١ – المجال العمراني .

يكاد المجال العمراني في بلاد اليمن يقتصر علىٰ تشييد الدور السكنية والدوائر الحكومية المتواضعة . . ولاشيئ غير ذلك . . إذ ليست هناك سدود ولاأنفاق ولاجسور ولامرافق سياحية أو ماشابه ذلك . . وحتىٰ ثكنات الجيش الرئيسية في البلاد ماهي إلا من عمارة الأتراك . . تركوها ورحلوا عنها منذ زمن بعيد . . . !

والعمران علىٰ مقياسه الكبير لايمكن تحقيقه بغير المال الوفير . . وهذا مالايتوفر في اليمن بالوقت الحاضر علىٰ أقل تقدير . . ولذلك ظل المجال العمراني في اليمن يراوح في مكانه الذي كان عليه منذ قرون . . ومالم يتبدل الحال غير الحال والرجال غير الرجال فسيظل اليمن كياناً أثرياً كخرائب سد مأرب تنعق علىٰ أطلاله البوم والغربان . . .

٢ – الطراز العمراني القديم

في تاريخ اليمن العمراني يمكن رسم خط فاصل بين الطراز العمراني قبل الاسلام وطرازه بعد الاسلام . . .

أ – الطراز العمراني قبل الاسلام .

لقد اشتهرت الحضارات القديمة في الجنوب العربي بفن المعمار الشامل لمختلف المجالات العمرانية . . أي أن الفنون المعمارية لم تقتصر علىٰ مجال العمران السكني فحسب بل تعدته الىٰ إنشاء السدود علىٰ اختلاف انواعها لتنظيم أعمال الريّ التي تعتمد عليها الزراعة . . والزراعة قوام الحياة في اليمن . . وهناك مجال معماري آخر يختص بتشييد الأسوار والأبراج والقلاع لتنظيم شؤون الدفاع عن أمن البلاد داخلياً وخارجياً . . ثم يأتي مجال العمران السكني الخاص ببناء دور السكن علىٰ اكثر من طراز . . فهناك طراز يختص بالمدن والأرياف الكائنة في الاراضي المنخفضة – أي تهامة اليمن – ، وطراز يختص بالمدن والأرياف الكائنة في الجبال والهضبة . .

وقد أشار مؤرخو الإغريق والرومان في كتاباتهم القديمة عن «العربية السعيدة» الىٰ الفنون المعمارية التي تميزت بها الحضارات القديمة في الجنوب العربي . . كما امتدح المؤرخون اليمنيون ضخامة القلاع والحصون اليمنية القديمة امتداحاً جعلهم ينسبون تلك الأعمال العظيمة الىٰ الجنّ . . !

إن المؤرخ اليمني المشهور (أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني) – القرن العاشر الميلادي – يخصص جزءاً من كتابه «الإكليل» لوصف القلاع والحصون والقصور والسدود والصهاريج والمعابد والاسوار والابراج الحميرية التي لم يبق منها الآن غير القليل جداً من آثارها المندرسة . . تُعرف مواقعها اليوم في (براقش) وكانت تُدعىٰ قديماً (يأثل) ، وفي (البيضاء) و (سودا) و (معين) وكانت تُدعىٰ قديماً (قرناو) في وادي الجوف شمال شرقي اليمن ، وفي (غَيْمان) التي تبعد ثلاثين كيلومتراً الىٰ الجنوب الشرقي من (صنعاء) ، وفي (ناعت) شمال شرقي مدينة (عَمْران) ، و (صرواح) في خولان . .

وليس من أهداف كتابنا هذا التفصيل في الفن المعماري اليمني القديم الذي يمكن إجماله في أثرين عظيمين هما : سد مأرب وقصر غُمدان في الجوار الشرقي من صنعاء . . فمن قرأ عنهما تفصيلاً فكأنه أحاط عِلماً بالفن المعماري القديم في اليمن . . ومما تجدر الاشارة اليه أن سد مأرب لم يكن هو السد الوحيد الذي شُيّد في ذلك الزمن القديم ، فقد ذكر الهمداني في كتابه الثاني (صفة جزيرة العرب) أنه كان هناك (٨٠) ثمانون سداً في إمارة (يَحْصُب) فقط ، في منطقة مدينة (يريم) حالياً ، وسدود كبيرة أخرىٰ مثل سد (شاهق) في خولان ، وسد (ادرعا) بالقرب من مدينة (رداع) حالياً ، وسد (الخانق) بالقرب من مدينة (ضَعْدة) حالياً في شمال اليمن ، وسد (ريعان) في همدان غربي صنعاء . . والخ . .

أما سكان الجنوب العربي القدماء فقد طوروا أساليب جمع مياه الأمطار بانشاء الصهاريج العظيمة . . وكان للصهاريج الكبيرة عدة مستويات مائية «Levels» تبين إرتفاع مناسيب الماء في داخل الصهريج حسب معدلات هطول الأمطار الموسمية . . وكانت هذه المستويات متصلة ببعضها بواسطة سلالم حجرية لكي يمكن الوصول الىٰ الماء في أي مستوىً كان . . وكانت تلك الصهاريج مكسية بمادة (القَضَاض) الشبيهة بالإسمنت وهي عبارة عن مادة (النورة) الجيرية الممزوجة مع دقائق الحصىٰ . . وأن

كثيراً من تلك الصهاريج ظل قائماً حتىٰ العهد الاسلامي . . ومنها صهاريج (عدن) المشهورة التي لاتزال ظاهرة للعيان . . وقد حاول الانكليز الاستفادة منها خلال الفترة الاولىٰ من استعمارهم لعدن . . فأعادوا ترميمها وتحويرها . . ولكنهم استغنوا عنها تدريجياً بعد شيوع استخدام الآبار الارتوازية . .

ومن الطرازات العمرانية في الجنوب العربي قبل الاسلام طراز إقامة الأبراج الحجرية المدورة المستقلة والتي تسمىٰ بـ (نوبا – Nouba) . . وبامكان المسافر بين (صنعاء) و (صعدة) في شمال اليمن أن يرىٰ بقايا العديد من هذه الابراج التي كانت تستعمل كمخازن للحبوب والمواد الغذائية الاخرىٰ . . يحرسها شخص واحد يقيم في أعلىٰ طابق منها . . كما كانت تستعمل ايضاً كملاجئ في وقت الحروب . . وفي معظم الحالات كانت هذه الابراج تشيد علىٰ طوار الحدود التي تفصل مابين مناطق القبائل . . أو في نقاط معينة ذات أهمية عسكرية . . وربما كانت الابراج المشيدة علىٰ طرفي وادي (ضهر) خير مثال علىٰ ذلك . .

ويكون مدخل البرج عادة صغيراً واطئاً . . ويُستعمل الطابق الارضي من البرج بمثابة اصطبل للحيوانات وكمخازن . . وليس في جدرانه المدورة أية نوافذ . . أما الطوابق العليا فيقيم فيها الرجال المسلحون . . أما النساء والاطفال فيقيمون في الطابق الأعلىٰ . . ولقد ظلت الجدران الخارجية من هذه الابراج قائمة حتىٰ يومنا هذا لتبرهن علىٰ صلابة بنيانها التي هي حصيلة فن معماري خاص باقامة المنشآت الدفاعية . . ومن ملامح هذا الفن المعماري أنه كلما كان البرج مرتفعاً من عدة طوابق كلما كانت حجارة بناء الطوابق المتعاقبة أصغر فأصغر . . وهكذا يتناقص نصف القطر الاعلىٰ للبرج تدريجياً فيعطي البرج شكله المخروطي . . وتكون حجارة البناء مستقرة بعضها فوق بعض حتىٰ ولو من دون استعمال أية مادة بنائية فيما بينها . . !

ب – الطراز العمراني بعد الاسلام .

مع دخول الاسلام الىٰ اليمن ، كانت الحاجة تدعو الىٰ اسلوب جديد في البناء ، لأن ظهور الجوامع والمساجد استلزم أن تكون مواقعها في وسط المدينة أو القرية ولقد شُيدت كل المساجد الاولىٰ في اليمن علىٰ نمط الجامع الكبير – أي المسجد الحرام في مكة المكرمة . . وأن الجامع الكبير في صنعاء ، وجامع (الجَنَدْ) بالقرب من مدينة (تعز) ، وجامع الأشعري في (زبيد) والجامع الكبير في (شبام – كوكبان) كلها تعود الىٰ المباني الاسلامية الاولىٰ في اليمن . . وإن مخططات هذه الجوامع الاربعة مطابقة لطريقة البناء الكوفي المتميز بفناء واسع مكشوف يتوسط الجامع ، وتحيط به من جهة أو جهتين أو ثلاث أروقة مسقفة تسقيفاً مستوياً – أي من دون قباب – ومآذن كل هذه الجوامع إنما أضيفت اليها في عهود متأخرة . . ويكون الرواق القِبْلي اكبر الأروقة . .

إن الجدران الخارجية لكلٍ من الجامع الكبير في صنعاء و (شبام) مبنية بأحجار جبلية سوداء (كرانايت – Granite) منحوتة بعناية خاصة ، وكل صفٍ من هذه الاحجار يتأخر قليلاً الىٰ الخلف عن الصف الذي تحته للحصول علىٰ استقرارية فائقة . . ولاشك أن هذا الفن مستورث من عهد الدولة السبأية . . ولقد استُعمل في بناء هذه الجوامع بعض الاعمدة والاحجار المنحوتة والمنقوشة التي نقلوها من مواقع الآثار القديمة بقصد تزيين وتجميل تلك الجوامع . .

ومع مرّ العصور الاسلامية تطور طراز عمارة المساجد ليس في اليمن وحده . . بل وفي غيره من البلاد التي خضعت لنفس الظروف والاحداث . .

فإن جامع (البكيرية) الواقع في الجهة الشرقية من صنعاء القديمة بالقرب من قصر السلاح (قصر غمدان) والذي شُيد في القرن السادس عشر ميلادي ، يعود طراز بنائه الىٰ عهد قريبٍ يغلب عليه الطابع التركي العثماني بعد أن دخل الاتراك الىٰ اليمن . . فالجامع المشيد في العهد العثماني يحتوي علىٰ مصلّىً كبير مربع الشكل وقبة واحدة أو اكثر تغطي السقف . . وللجامع مرافق صحية لتأمين حاجات المصلين . . وفي اليمن عشرات الجوامع والمساجد التي شُيدت خلال العهد العثماني في اليمن[1] . . وثمة طراز بنائي آخر في اليمن يعود للعهد الاسلامي هو (السَّمْسَرَة) أو الخان الذي يأوي اليه المسافرون والتجار مع حيواناتهم وبضائعهم لتمضية **الليل أو للاستراحة** بضعة أيام وبيع بعض مايحملونه من بضائع . . وبناية السمسرة عبارة عن فناء واسع تحيط به

(١) (أنظر المادة – ١٠ – من القسم السابع من هذا الفصل)

بعض المرافق ذات طابقين ، الطابق الارضي بمثابة اصطبل للحيوانات ومخازن للبضائع ، والطابق العلوي للمسافرين . . وللسمسرة باب كبيرة واحدة يجري إغلاقها ليلاً . . ولايُسمح بفتحها إلا في الصباح . . وهناك عدة سمسرات في (صنعاء) لاتزال موجودة قيد الاستعمال . .

ومثلما اختلف وتطور فن المعمار اليمني من عهود ماقبل الاسلام الىٰ مابعد الاسلام .. فكذلك اختلف وتطور فن المعمار اليمني الحديث وفي مختلف المجالات العمرانية .. ولكن هذا الاختلاف والتطور انحصر في مجال العمران السكني فقط .. إذ لاجديد على الاطلاق في بقية المجالات العمرانية ..

٣ – **العمران السكني الحديث .**

هنالك طرازات مختلفة من المنازل السكنية في اليمن . . وسبب اختلافها يعود إما لعوامل مناخية جغرافية وإما الىٰ أساليب تقليدية في البناء . .

في تهامة اليمن يسكن الناس في اكواخ دائرية أو مربعة من الأغصان والقشّ وهي تشبه الىٰ حد كبير اكواخ القرىٰ الافريقية . . ولاشك أن ذلك يرجع الىٰ العلاقات الاجتماعية والتجارية بين سكان المنطقتين اللتين يفصل بينهما البحر الأحمر . . (أنظر الصورة رقم – ٥ –) . .

ألصورة رقم (٥)
أكواخ الزرانيق في تهامة اليمن

ويتم بناء الكوخ وفق أسلوب لايخلو من التجربة والمعرفة والمهارة ايضاً . . فأول مايقام من الكوخ جدرانه وسقفه من أغصان يابسة أو معوجّة يجري ربطها بحبال قوية . . وتغطىٰ الجدران بأوراق القصب أو بطبقات من الطين من الداخل ومن الخارج . أما التسقيف فيجري دائماً بحُزم القصب المزومة بقوة . . ثم يجري تبليط الأرضية ومدخل الكوخ بالطين المدموك . . وبعد الانتهاء من تشييد أكواخ القرية الواحدة يجري تسويرها بسياج من الطين أو القصب لحماية القرية من الحيوانات المداهمة ليلاً . .

ولكل عائلة عدة اكواخ . . إذ يخصص أحدها في مكان مستقل بصفة المطبخ وفي داخله مواقد من الطين . . وبعض الأواني الفخارية ، كما تخصص اكواخ للسكن وبداخلها أسرّة منام مصنوعة من الأغصان الغليضة المشدودة بحبال من الليف . .

إن هذه الأكواخ تؤمن سكناً ملائماً بالنسبة للحالة المناخية في تهامة وبالنسبة لامكانيات البشر الذين يعيشون في هذه المنطقة الحارة . وكلما تقدمنا شرقاً من تهامة باتجاه المرتفعات الغربية ثم الىٰ هضبة اليمن كلما تغير طراز أبنية السكن وهندسة البناء تبعاً لتغير الحالة

المناخية . . حيث تنعدم الأكواخ التهامية فتحل محلها البيوت المشيدة بالحجارة علىٰ طرازات مختلفة ايضا . . تختلف بين القرية الصغيرة والقرية الكبيرة ، والمدينة الصغيرة والمدينة الكبيرة . . هذا بالإضافة الىٰ اختلاف الطراز بين إقليم واقليم . .

أولاً – **في المدن المهمة .**

إن الطابع المميز للدور السكنية في المدن الكبيرة هو تعدد الطوابق ، وقد ذكرنا قبل قليل في حديثنا عن عادات الزواج في اليمن كيف أن طراز الطوابق هذا قد ساعد علىٰ إسكان اكثر من عائلة واحدة في البيت الواحد . . وكيف أنه حلّ مشكلة الضائقة السكنية في بلد صغير المساحة تحيطه الاسوار والابراج إحاطة السوار بالمعصم . .

ولماكانت المواد البنائية المستعملة أو المتيسرة في اليمن ليست علىٰ قدر كبير من القوة والمتانة فيما عدا الأحجار الصخرية المتنوعة . . وهذه لايمكن استعمالها في بناء عدة طوابق نظراً لثقلها . . لذلك كانت القاعدة العامة في بناء دور السكن ذات الطوابق المتعددة هي أن الطابق الأرضي فقط (ويُسمىٰ بالطَّرْحَة) يكون بناؤه بالاحجار الصخرية المنحوتة بأحجام قياسية ربما كانت بأبعاد (٣٠ × ٢٠ × ١٥ سم) ستتمتراً . . أما المادة المستعملة لتماسك هذه الاحجار فهي الطين بصورة عامة . . وربما استُعملت مادة الجص في بعض البيوت الخاصة بالموسرين من أهل البلاد

إن الطابق الارضي لايُستعمل للسكن العائلي . . إنما يُستعمل بمثابة (القبو) حيث يكون في جانب منه مكان لربط حصان أو حمار أو بغل أو بقرة أو أي عدد من الماعز المُدِرّة للحليب ، وهناك جانب آخر لتكديس مواد الوقود من حطبٍ أو بعرٍ أو (جَلّة) كما كان يسميها أهل الموصل قديماً . . أما أهل صنعاء فيسمونها (الكِبَا) . . وهناك زاوية أخرىٰ لوضع حاجيات بيتية مختلفة حسب ظروف العائلة . . وهناك (الحَوِي) حيث يعيش الدجاج الخاص بأهل البيت . .

والطابق الارضي عادةً ليست فيه نوافذ . . وفي أحسن الأحوال يجعلون له كوّات صغيرة عالية عن سطح الارض وقريبة من السقف ليتسلل منها بعض الضوء من الخارج . . ومع ذلك يتعذر علىٰ الداخل من الباب أن يتبين موضع بداية السلّم الحجري الذي يصعد الىٰ الطابق الأول مالم يترك باب الدار مفتوحاً لفترة وجيزة ريثما يصل الىٰ الاعلىٰ ثم يسحب الحبل (المَجْر) المتصل بمزلاج الباب فينسد الباب علىٰ نفسه . .

وإذا كان صاحب الدار ميسور الحال وأن لديه بستاناً صغيرة علىٰ نفس قطعة الارض قام ببناء غرفة استقبال خلويّة علىٰ جانب من البستان وتشرف عليها . . وتكون واجهة هذه الغرفة مكشوفة ليس فيها باب ولانوافذ ثم يجعل أمامها حوضاً لنافورة تعمل بتدبير خاص ويأتيها الماء اللازم من البئر الكبيرة في الجوار . . ثم يقوم صاحب الدار بتجهيز هذه الغرفة بالمفارش اليمنية المناسبة . . ولايفصل بينها وبين البستان أو الحديقة غير حاجز من الجبس الأبيض المُخَرّم بتخريمات بديعة[1] جداً . . ويكون ارتفاع هذا الحاجز عادة حوالي (١٠٠ – ١٢٠ سم) . . وهو في الواقع من دواعي تجميل واجهة هذه الغرفة الخلّوية التي يسميها أهل اليمن بـ «المفرج» وهو إسم علىٰ مسمىٰ حيث يتفرج الجالس في داخله علىٰ ماهو أمامه في خارجه . . ويُعتبر المفرج من ضرورات بيوت الدرجة الأولىٰ والثانية من أهل اليمن . .

ويقابل (المفرج) من حيث الأهمية غرفة كبيرة في أعلىٰ طابق من الدار يسمونها (المنظرة) من حيث ينظر الجالس فيها الىٰ السهول الخضراء المحيطة بتلك المدينة . . وفي هذه (المنظرة) ينعقد مجلس (القات) الذي سنتحدث عنه بعد حين إن شاء الله . .

أما الطوابق الاخرىٰ من الدار (الاول ، الثاني ، الثالث الخ . .) فيكون بناؤها بالآجر الأحمر نظراً لخفة وزنه بالنسبة للاحجار الصخرية . . ومادة التماسك في البناء هي الطين أيضا . . !

ولأجل إضفاء ميزة جمالية علىٰ المنظر الخارجي للدار فقد لجأ المعمار اليمني الىٰ تخريج إفريز بارز من الآجر الأحمر مابين طابق وآخر يجري طلاؤه بعد إنجاز البناء بمحلول مادة (البورق) الناصعة البياض ، وهي (الجبس) . . ويضاف الىٰ جمال الافريز جمال النوافذ الكثيرة التي هي الاخرىٰ ذات افاريز مستقلة يجري صبغها بمحلول البورق الأبيض . . وتكون النوافذ بوجه عام علىٰ نوعين رئيسيين في كل طابق :–

(١) أنظر الصورة رقم (٦) . .

النوع الأول – نوافذ سفلية ترتفع عن أرضية الطابق بحوالي (٣٠ سم) سنتمتر ، وتكون مستطيلة الشكل بأبعاد تتراوح بين (١٢٠ – ١٥٠ سم) طولاً و (٧٠ – ٨٠ سم) ارتفاعاً ليس فيها زجاج ولكن لها أبواب مفصلية من الخشب ينفتح نصفها الىٰ اليمين ونصفها الآخر الىٰ اليسار نحو داخل الغرفة . .

النوع الثاني – عقود جبسية علىٰ شكل أنصاف الدوائر تقريباً يتراوح طول قاعدة الواحد منها حوالي (١٥٠ – ٢٠٠ سم) وارتفاعه حوالي (٨٠ – ٩٠ سم) يجري صبّها من مادة البورق (الجبس) في قوالب خاصة ، ويتكفّل القالب بإحداث تخريمات زخرفية داخل العقد ، ثم يجري سدّ التخريمات بقطع الزجاج الملون (احمر ، اخضر ، اصفر ، أزرق ، الخ) . . وبعد جفاف العقد وتصلبّه يُنصب في موضعه من البناء بحيث أن كل نافذة سفلية يعلوها عقد من هذه العقود الجبسية . . كما هو ظاهر في الصورة رقم (٧) . .

الصورة رقم (٦)

ألسباج المخرّم للمفرّج اليمني
الملازم الأول سيف الدين سغيد وطفلته (سعاد سيف الدين) .
في (صنعاء) .

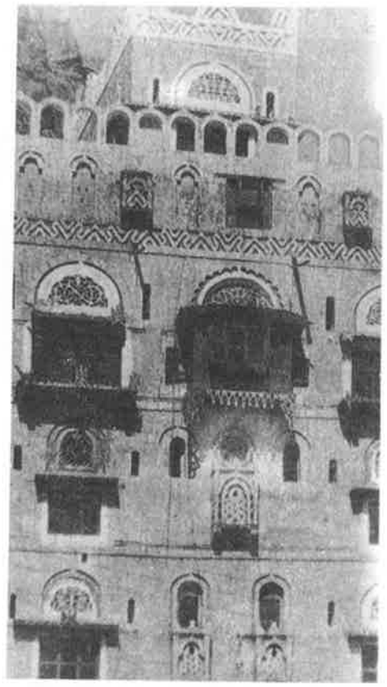

الصورة رقم (٧)
واجهة بيت في (صنعاء) ذو ستة طوابق .

ويفصل مابين النوافذ السفلية والعقود الجبسية من الداخل رفوف من الجبس يضع عليها أهل الدار المباخر والمجامر أو بعض الكتب ، خاصة القرآن الكريم و أية كتب دينية أخرىٰ . .

وللعقود الجبسية ذات التخاريم الزخرفية المختومة بالزجاج الملون دور كبير في خلق جوّ شاعري داخل الغرفة حينما تضربها أشعة الشمس من الخارج فتنعكس علىٰ فضاء الغرفة حُزَماً كثيرة من الأضواء الملونة كألوان قوس قزح تنطبع مرتسماتها علىٰ الجدران الداخلية المطلية كلها بمحلول البورق (الجبس) . . فتحيل هذه الجدران وسقفها الىٰ مجموعات متداخلة من أقواس قزح . . وقد لايُدرك جمال هذه الصورة التي أصوّرها هنا بالكلمات إلامن صلّىٰ اكثر من صلاة في جامع (أم الطبول) في بغداد حيث نجد عقوداً جبسية علىٰ هيئة مستطيلات قائمة علىٰ الضلع القصير . . وهي مزخرفة بقطع الزجاج الملون . . وهذا الطابع الغريب عن بغداد نقله اليها الفنان والمعمار المغربي الذي أبدع في زخارف ونقوش وكتابات جامع أم الطبول . .

ويجري تسقيف كل طابق من الطوابق كمايلي :–

بدلاً من الحديد الصلب (الشيلمان) والخرسانة المسلحة ، يجري تجسير الجدران الطولية بجذوع منحوتة من أشجار (الطُنُب) أي الصنوبر . . وهي أخشاب تَبُتّ درجة قوتها ومقاومتها علىٰ مرّ السنين ، ويكون التجسير تماماً علىٰ نمط التجسير بحديد (الشيلمان) عندنا في العراق . . ثم يؤتىٰ بأغصان غليظة من (الطنب) أو ما يعادله فتُطرح عرضانياً في فجوات جذوع التجسير . . ثم تُملأ بقية الفراغات الصغيرة بنوع خاص من الحطب ، ربماكان من الأثل أو الطرفة . . ثم يفرشون فوق ذلك طبقة من التراب أو الطين الخشن الجاف علىٰ السقف ، وفوق هذه الطبقة يجري رصف البلاطات الحجرية كما نصنع نحن بالكاشي في العراق . . وعندما يكتمل هيكل البناء ، وقبل تبليط أرضيات الطوابق تجري عملية إكساء سقوف وجدران البيت بالجبس الابيض بحيث يغطي الجبس ماهو ظاهر من الجسور الخشبية في السقوف دون إختفائها كلّياً . . ويُقصد بهذه التغطية بالجبس إزالة أو إخفاء

الإعوجاجات الموجودة في جذوع التسقيف . . ومن أهم مميزات الجبس أو البورق اليمني أنه شديد التماسك والالتصاق . . فهو لايلوث الملابس إذا ماتكأ الشخص علىٰ الجدار . . كما أنه لايتشقق عند دق المسامير فيه . .

أما سطح الطابق الأعلىٰ من الدار فيجري فرشه بعد التراب أو الطين الخشن بطبقة اخرىٰ من التراب الناعم الذي يساعد علىٰ انزلاق مياه الأمطار الغزيرة بسرعة مدهشة حتىٰ تقذف بها الميازيب الىٰ الخارج . . وكانت هذه الظاهرة المدهشة تستلفت نظري دائماً كلما تذكرت مانعانيه نحن في اسطح دورنا القديمة في موسم الأمطار . . !

وكل طابق في الدار لابد وان تكون فيه دورة للمياه خاصة به ، وربما اشترك في المطبخ الواحد طابقان حسب القدرة المالية لصاحب الدار ، وهذا المطبخ فيه تنور واحد علىٰ الأقل لعمل الخبز اليومي ، وبعد الانتهاء من الخبز يستفيد أهل الدار من النار المتبقية في التنور فيضعون عليها اكثر من نوع واحد من الطعام . . هذا علاوة علىٰ المواقد الحجرية داخل المطبخ . .

ودورة المياه في البيت اليمني (الكلاسيكي) هي من أقبح ماتقع عليه عين الإنسان السوتي من ذلك البناء الشامخ الجميل . . وهو الدار . . أو البيت . . وتفصيل ذلك في الآتي :

ليس في اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) أي مشروع لإسالة الماء . . لذلك يكون استعمال عبارة «دورة المياه» استعمالاً خاطئاً لأنه لا توجد أنابيب مياه ولا دورة ولاهم يحزنون . . ! لذلك استبدلنا (دورة المياه) بعبارة (بيت الماء) . . ذلك لأن موضع صفائح الماء المد عمل للشرب والنظافة والاستحمام والغسيل هو غالباً نفس الموضع الذي فيه خندق التغوط والتبول – أي المرحاض . . وهناك خندق للتشطيف (البيديه) . . ! إن خندق التغوط والتبول في كل طابق من المنزل يتصل من مؤخرته بمجرىٰ عمودي عام مخفي داخل الجدار ينزل من الطابق الأعلىٰ الىٰ تجويف في اسفل الطابق الارضي حيث يتجمع غائط كل الطوابق فيه ، وربما كانت أبعاد هذا التجويف من حيث اتساعه تقارب (٤ × ٦) قدم . . أما المياه المستعملة للتشطيف والغسيل والاستحمام والوضوء فانها تخرج من منفذ مستقل الىٰ ساقية عمودية مكشوفة ملتصقة بالجدار الخلفي أو الجانبي للدار تسمىٰ (ساحل) . . وهي كمجرىٰ الغائط تنزل من الطابق الأعلىٰ الىٰ بلّوع في اسفل الطابق الارضي والىٰ جوار التجويف الخاص بتَجمّع الغائط . . يكون إكساء (الساحل) بمادة (القضاض) أي النورة التي تحدثنا عنها آنفاً (أنظر الصورتين رقم – ٨ و ٩)

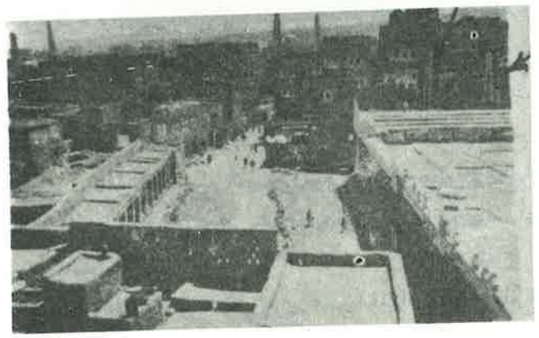

الصورة رقم (٨)

إراءة مجرى المياه القذرة (الساحل) في البيت اليمني

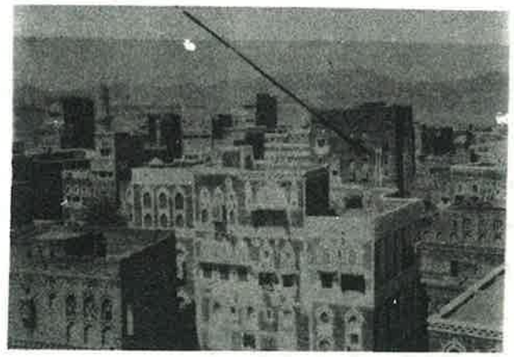

الصورة رقم (٩)

إراءة مجرىٰ المياه القذرة (الساحل) في البيت اليمني .

ومن أبشع مناظر دورة المياه أو بيت الماء اليمني هو أن التجويف أو الكهف الذي يتجمع فيه الغائط مكشوف نحو الطريق العام . . . !

وكانت فئة من اليهود في اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) هي التي تقوم بتنظيف كهوف الغائط في البيوت وتنقل محتوياتها علىٰ ظهور الحمير الىٰ اماكن خارج أسوار صنعاء حيث تقوم بتجفيفها . . ثم نقلها ثانية الىٰ داخل المدينة لتبيعها علىٰ أصحاب الحمامات الأهلية كوقود لتسخين المياه . . وبذلك تكسب المال من الناس مرتين !

ومن المفارقات المضحكة أن أهل صنعاء يصطلحون علىٰ تسمية غائط المراحيض بكلمة «الزخارف» ! وربما قصدوا بذلك التخفيف من حدّة المذلة التي لابد وأن يشعر بها اليهود بسبب قيامهم بهذا العمل القذر . . .

وقبل أن نختم كلامنا عن طراز العمران السكني في المدن ، وخاصه في صنعاء ، وددنا ان نشير الىٰ ظاهرة عجيبة وغريبة تُلفت نظر كل إنسان غريب يزور صنعاء ويقف عند عتبة الدار الفخمة الشامخة ثم يقارن بين حجم الباب الرئيسية وبين حجم هذه الدار المتطاولة بطوابقها الأربعة او السبعة[1] أو العشرة الىٰ عنان ألسماء . . !

في كل الدور ، القديمة منها خاصة ، تتميز الأبواب الرئيسية بقلة الارتفاع أو بالأحرىٰ صِغر حجم الباب . . بحيث أن الداخلَ أو الخارج منها يضطر الىٰ الإنحناء بالمقدار الذي يسمح له باجتياز فجوة الباب . . وقد اختلفت الروايات في أسباب ذلك . . فمن قائل أن سبب ذلك ندرة الخشب . . ولكن هذا القول مردود من أساسه لأن الخشب متوفر جداً في اليمن رغم عدم وجود الغابات فيها . . ! ومن قائل أن السبب يرجع الىٰ أن في أهل اليمن كبرياء وأنفة . . وأن أحد الأئمة السابقين أراد أن يُذهب عن بني قومه هذه الأنفة والكبرياء لأنها صفة لايقبلها الإسلام . . فأصدر أمراً يحدد فيه مقدار ارتفاع الباب وبذلك اجبرهم علىٰ الانحناء كلما خرجوا أو دخلوا الىٰ بيوتهم . . !

ونحن نستبعد هذه الرواية ايضاً لأنها غير منطقية والإختلاف فيها ظاهر كل الظهور . . لذلك فنحن نرجح أن السبب في تصغير فجوة الباب الرئيسية للبيت اليمني هو سبب يتعلق بالأمن . . والأمن وحده . . ذلك لأن تاريخ اليمن الوسيط والحديث مليئ بأخبار انفلات حبل الأمن والاضطراب في البلاد . . وفي هذه الحالة تعودت القبائل اليمنية مهاجمة المدن المهمة ونهبها وسلبها وقتل العديد من اهلها . . فاذا انتهت من ذلك عادت الىٰ مواطنها . . وقد أشرنا الىٰ هذا آنفاً . .

فكلما كان باب الدار صغيراً كلما كان من السهل ترصينه ضد أية محاولة همجية لاقتحام الدار . . ولعل أصحابنا في اليمن

(١) في (حارة الأبهر) – أي حيّ الأبهر – في صنعاء القديمة يقوم داران من أعلىٰ الدور في صنعاء . . وربما في اليمن كله هما : دار الحاج احمدي احمد السنيدار وهي تتألف من تسع طوابق . . ! ودار عبدالله حسن السنيدار وهي من ثمانية طوابق . . !

يؤيدون هذا التأويل .. وقيل في الأمثال :

أهل مكة أدرىٰ بشعابها . .

بقي علينا أن نشير الىٰ حقيقة عامة هي أن صمود العمران السكني في اليمن واستقراره علىٰ الارض لايعود الىٰ متانة البناء أو المواد البنائية المستعملة فيه .. **إنما يعود الى ثقل الكتلة البنائية وصلابة التربة المشيد عليها هذا البناء..**

إن تاريخ الزلازل في اليمن تاريخ قديم يرجع الىٰ عهد التكوين الجيولوجي لهذه البلاد كما أوضحنا ذلك مفصلاً في مطلع الفصل الأول من كتابنا هذا (لمحات جغرافية عن اليمن) . . وكانت هذه الزلازل دائماً تنشر الخراب والدمار في أنحاء مختلفة من اليمن . . وخاصة في قرىٰ الأرياف حيث تكون المساكن علىٰ أدنىٰ درجات الضعف والمقاومة . .

ثانياً – **منازل القرىٰ .**

إذا كان ذلك هو الحال في منازل المدن المهمة . . فلا غرو أن تكون الحالة في القرىٰ اكثر رداءة وأشد خطورة . . وعلىٰ سبيل المثال ننقل إليك ، عزيزي القارئ ، ماحدث مؤخراً من خراب ودمار وتشريد في منطقة (ذمار) وهي من المناطق المهمة جداً في اليمن :

قالت بعثة مجلة «العربي» الكويتية[1] التي طارت الىٰ (صنعاء) لتغطية أنباء تلك الكوارث مايلي موجزة[2] :ـ

[بعدما أدار الزمن ظهره لها . . وفقدت (ذمار) مكانتها باعتبارها «كرسي الزيدية» والحصن المتقدم لفقه المذهب الزيدي الذي كان يحكم اليمن ، قُدّر للمنطقة أن تدخل عالم الشهرة مجدداً ، وأن يقفز اسمها الىٰ الصفحات الاولىٰ من الصحف والىٰ صدارة النشرات الإخبارية في عواصم العالم . لكن (ذمار) دخلت التاريخ هذه المرة من الباب الخطأ . . باب الزلازل . . .

كانت البداية في الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ، الثالث عشر من ديسمبر الماضي ١٩٨٢ ، بينما كان الشيخ محمد المؤذن يقيم صلاة الظهر في مسجد مدينة (ضوران) المتربعة فوق قمة جبل ضوران . وما أن قال الرجل «حَيّ علىٰ الفلاح» حتىٰ

(١) العدد (٢٩٢) مارس ١٩٨٣

(٢) مع قليل من التصرف لغرض الإيجاز والتنسيق . .

انهار فوقه السقف ولم ينطق . ثم تداعت جدران المسجد فوق جموع المصلين الذين بلغ عددهم (١٨٠) شخصاً . . وخلال ثوانٍ معدودة ، تحولت ضوران إلىٰ مقبرة عظيمة وقد كانت منذ ثلاثة قرون عاصمة الدولة القاسمية للزيود .

ومنذ ذلك الحين توالت الهزات الارضية في لواء (ذمار) بدرجات متفاوتة . . فدمرت ٦٥٪ من بيوت ذمار . . وفيما بين التاريخين ١٣ و ٣٠ ديسمبر كان قد بلغ عدد الهزات الارضية في تلك المنطقة (١٧٧) هزة ، فيما بلغ عدد القتلىٰ (١٦٠٠) شخص ، ومثلهم من الجرحىٰ . . أما الذين ظلوا بلا مأوىٰ فقد بلغ عددهم (٣٠٠ ر ٠٠٠) ثلاثمائة الف نسمة . .

وهناك مناطق أخرىٰ عديدة في اليمن من ذوات السوابق في الزلازل . . مثل (صعدة) التي ضربتها الزلازل في يناير عام ١٩٤١ ، وهو زمن قريب نسبياً ، وكثيرون من شهوده لايزالون أحياء[1] . . .

وسبق لمدينة ضوران أن تعرضت لضربات الزلازل اكثر من مرة . . ففي عام ١٠٨٥ هـ شهدت هذه المدينة حوالي ثلاثين زلزلة . . وتكرر مثلها في العام التالي حتىٰ امتدت آثارها الىٰ صنعاء . .] . .

وتحت عنوان : «لماذا يركبون الجبل ؟» قالت المجلة :ـ

[. . إخترقت بنا السيارة سهولاً وهضاباً وجبالاً ، ونحن متوجهين من صنعاء الىٰ ذمار ، وهبطنا وصعدنا ، ودُرنا حول العديد من القمم مارّين بمختلف أشكال وتناقضات الطبيعة والجغرافيا وهي التضاريس التي كان علىٰ الانسان اليمني أن يخوض ضدها معركة بقائه واستمراره ، وكانت قمم الجبال العالية وسفوحها تشهد بانتصار هذا الانسان في تلك المعركة . . كانت القرىٰ اليمنية تطل من فوق القمم الشامخة معلنةً هذا الانتصار . . .

ولكن لماذا يسكن اليمنيون فوق القمم ؟

أجابني علىٰ هذا السؤال عدد من أساتذة جامعة صنعاء والباحثين . . وذكروا لي الاسباب التالية :ـ

١ . **سبب أمني يفرض نفسه بسبب صراعات القبائل فيما بينها . .**

٢ . سبب اقتصادي نابع من الحرص علىٰ عدم التفريط في الرقعة الزراعية الضيقة وطبيعتها ، الأمر الذي دفع اليمنيين الىٰ ترك السهول والوديان للزراعة ، والتعلق بذرىٰ الجبال للسكنىٰ .

٣ . سبب عمراني يتمثل في عدم وجود طرق صالحة للمواصلات الآلية وعدم وجود مراكز للخدمات الادارية للحكومات السابقة . . الأمر الذي دفع المزارعين اليمنيين الىٰ السكنىٰ حيثما اتفق شريطة القرب من مزارعهم ومصدر مائهم.

٤ . وهناك أسباب اجتماعية وتاريخية ناشئة عن التركيبة القبلية في اليمن حيث كان مشايخ القبائل يحرصون علىٰ استقلالية تجّمعاتهم السكنية ، وعلىٰ أن لاتكون هذه التجمعات تابعة جغرافياً وإدارياً لمشايخ آخرين . . وقد اعتاد مشايخ القبائل أحياناً أن يفرضوا تقسيمات إدارية لبعض المناطق . . الأمر الذي زاد في التشتت السكاني في اليمن . .

وكان من جراء هذا كله أن أصبح اليمن بملايينه السبعة[2] ـ علىٰ أحسن الفروض ـ يضم (٥٢) إثنين وخمسين تجّمع سكني مابين «محلة» وقرية ومدينة . . بينما لايزيد عدد القرىٰ في بلد كمصر ـ مثلاً ـ علىٰ (٤٠٠٠) قرية بينما يبلغ عدد سكانها (٤٥) مليون نسمة . .] إنتهىٰ «ريبو رتاج» مجلة «العربي» حول زلازل (ذمار) في اليمن .

(١) وأنا (مؤلف هذا الكتاب) واحد من الأحياء الذين شهدوا آثار زلزال (صعدة) في (صنعاء) . . ! (راجع المادة – ٥ – من الفصل الأول «لمحات جغرافية عن اليمن» . . .) . كان عام ١٩٤١ هو العام الثاني من وجودنا في اليمن . . وفي أول هزة من الهزات التي زلزلت منطقة (صعدة) كنتُ موجوداً في الدار بسبب عطلة عيد الأضحىٰ المبارك . وكان الحادث قد وقع يوم السبت – ١٣ / ذي الحجة / ١٣٦٠ رابع أيام عيد الاضحىٰ الموافق ؟ / يناير / ١٩٤١ . كنت اسكن داراً استأجرتها من القاضي عبدالكريم المطهّر الذي يعمل في ديوان الإمام يحي ومن المقربين . . كان بدل الايجار الشهري خمس ريالات فقط . . أقل من نصف دينار عراقي في حينه . . ! وكانت الدار قديمة البنيان . . تتألف من طابقين . أرضي وعلوي . فلما اهتزت الارض بصعدة ووصل التأثير الخفيف الىٰ صنعاء شعرتُ بأن أرضية الطابق العلوي ترتج تحت قدميّ . . ولكن الهزة ، أو أثرها في صنعاء ، لم يدم اكثر من بضع ثوانٍ أو لحظات خشيتُ خلالها أن ينهار بنا ذلك البيت . . ولكن الله تعالىٰ دفع ماكان أعظم . . ومن المؤكد أنه لو كان مركز تلك الهزة في صنعاء لانهار كل منزل شبيه بمنزل القاضي المطهر في بئر شمس . . بل وفي صنعاء كلها . . !

(٢) هذا في عام ١٩٨٢ – ١٩٨٣ .

القسم السابع
صنعاء
١٩٤٠ – ١٩٤٢

١ – من أين جاء إسم صنعاء ؟

قالوا في ذلك اكثر من قول . . .

فمن قائل أن هذه المدينة قديماً كان إسمها «أزال الخليقة» «سِفر التكوين – ١٠ / ٢٧ (UZAL OF GENE SIS X. 27)» فلما عبر الأحباش الىٰ اليمن في القرن السادس الميلادي ووقع نظرهم علىٰ صنعاء لأول مرة وقد بدت لهم مدينة حصينة منيعة قالوا : ماهذه الصنعة ؟ وهم يعنون بذلك درجة حصانتها ومنعتها . . فأسموها (صنعاء) ، وأهل اليمن عادةً لايلفظون الهمزة الذيلية في معظم الكلمات ومنها صنعاء فيقولون : (صنعآ) . . . قال شاعرهم :

لابد من صنعآ وإن طال السفر× وإن تَحنّىٰ كل عودٍ ودَبَر

ومن قائل أنها سُميت بإسم بانيها الأول (صناء بن ازال بن عبير بن عابر بن شالح..) فكانوا يسمونها أحياناً بـ(أزال) وأحياناً بـ (صنعا) . . وقد جعل ملوك التبابعة أو الحميريون مقر إقامتهم في (مأرب) ثم في (ظفار) ثم في (صنعاء) علىٰ التعاقب . .

وفي «معجم البلدان» يقول ياقوت الحموي (ت – ٦٢٦ هـ) بأن صنعاء منسوبة الىٰ جودة الصنعة في ذاتها . . كقولنا إمرأة حسناء ، وفتاة شهلاء . . . الخ . .

ومهما اختلفت الروايات في أصل تسمية (صنعاء) فان ذلك لن يغير شيئاً من حقيقة كونها مَعْلَماً شهيراً من معالم البلدان علىٰ مرّ العصور والدهور الغابرة . .

أما اليوم . . وقد تخلّفت (صنعاء) عن الركب بأجيال كثيرة . . فانها لم تُعد جديرة بالنعوت والالقاب التي كان يخلعها عليها المعجبون القدامىٰ من المؤرخين والكتّاب والسوّاح . . ذلك لأن (صنعاء اليوم) لم يبق من مميزات جمالها الحقيقي الذي كانت تزهو به وتختال علىٰ العالمين سوىٰ منظرها الخارجي من بعيد . . سواء نظرت اليها من قمم الجبال المحيطة بها . . أوكنت تحوّم في سمائها باحدىٰ الطائرات . .

أما إذا دخلتها . . وتجولت فيها فانك حتماً سيخيب ظنك بها وتتمنىٰ لو انك لم تنزل اليها من السماء . . . !

٢ – موقعها المحلي .

تقع مدينة صنعاء في سهل فسيح بين عدة جبال أهمها : جبل (نُقُم) شرقاً وجبل (عَصُر) غرباً . . إلا أن المدينة هي أقرب الىٰ جبل (نقم) وألصق به من جبل (عصر) . . وتظل الجهتان الشمالية والجنوبية من سهل صنعاء منفتحتان لاتسدهما الجبال إلا على مسافة بضعة أميال . .

وتبعد صنعاء عن (عدن) نحو (٨٥٠) كيلومتراً علىٰ طريق (عدن – تعز – الحديدة – عبال – مدينة العبيد – مَعْبر – صنعاء) . . وتكون المسافة أقصر من ذلك نسبياً علىٰ طريق (عدن – تعز – الحديدة – باجل – مناخة – صنعاء) . . وكِلا الطريقين لايصلحان للسفر بالسيارات الاعتيادية نظراً لشدة الوعورة وكثرة العقبات الصخرية . .

٣ – موقعها المناخي .

تقع صنعاء في المرتفعات عند الخط (٢٢َ – ١٥ْ) من خطوط العرض شمالاً و (٣٢َ – ٤٤ْ) من خطوط الطول شرقاً . .

إن قرب صنعاء من خط الاستواء نسبياً (١٥ْ) درجة وارتفاعها عن مستوىٰ سطح البحر بنحو (٢٨٥٠) متراً وكونها في الهضبة وبين الجبال الشامخة . . كل ذلك مما جعل المناخ فيها معتدلاً . . حتىٰ تساوت فيها درجات الحرارة نسبياً علىٰ مدار فصول السنة . . وقلما شعر الانسان في صنعاء بظواهر تبدلات الطقس أو تغير المناخ بين الفصول الأربعة . . وقد تكون ليالي فصل الشتاء باردة قارصة تسبب انجماد المياه علىٰ أسطح المنازل . . فيسميه أهل صنعاء بـ (الجَمَدْ) . . ويفرح به الاولاد ويغنّون له اغنيات قصيرة من نظمهم وتلحينهم . . ولكن هذا البرد سرعان مايزول بمجرد طلوع الشمس وارتفاعها قليلاً فوق الأفق . . وإذا ماسقط شيءٌ من الثلوج علىٰ بعض الأقاليم الجبلية فيُعتبر ذلك شذوذاً عن القاعدة المناخية في اليمن . . !

ومن معطيات المناخ المعتدل في صنعاء أن أهلها والمقيمين فيها لايعرفون الحاجة الىٰ أية وسائل تدفئة أو تبريد بما في ذلك المروحة اليدوية الحصيرية المعروفة عندما في العراق منذ أمد بعيد بإسم (المروحة) أو (المهفّة) . . كما لايعرفون تنوع الملابس الفصلية (شتوية ، ربيعية ، صيفية ، خريفية) . . ولايعرفون تنوع فراش المنام صيفاً وشتاءً . . فباستطاعة الانسان هنا الاكتفاء ببدلة واحدة خريفية طوال أشهر السنة . .

ومع ذلك كله فان الإمام يحيىٰ وأهل بيته والسادة الكبار يحلو لهم التصييف والاستجمام في الضواحي[1] المشهورة بأطراف صنعاء وقد أعدّوا لهم فيها الدور والقصور اللازمة لذلك . . ومن أشهر تلك الضواحي ضاحية (الروضة) الكائنة علىٰ مسافة (٨ – ١٠) كيلومتراً شمالي صنعاء . . وهذه الضاحية ليست بقرية اعتيادية . . بل شبه مدينة . . فيها جامع الروضة لايقل جمالاً وفخامة عن أجمل جوامع صنعاء . . وهذه الضاحية تزداد اتساعاً عمرانياً بسبب تردد الإمام وحكومته عليها في موسم الصيف . . ويقوم قصر الإمام فوق إحدىٰ الروابي الخضراء تحيط به البساتين النضرة والحقول الخضراء التي يُزرع فيها القات الىٰ جانب الأعناب . . ويحتوي القصر علىٰ أبهاء فسيحة وشرفات عديدة . . ، وهو مؤلف من عدة طوابق يبلغ عدد درجات السلالم الحجرية فيها مايزيد علىٰ المائة درجة . . حتىٰ إذا بلغ الانسان أعلىٰ الطوابق رأىٰ من حوله عجباً عجاباً من المناظر الرائعة . . ومما تجدر الاشارة اليه أن معظم البنائين الذين أسهموا في تشييد هذا القصر ، وغيره من القصور ، هم من يهود اليمن . . . !

وكانت هناك ضاحية «الوادي» التي كان يقصدها في العهود الماضية أئمة اليمن للتصييف أو الاصطياف . . وهي تقع علىٰ مسافة اثني عشر كيلومتراً الىٰ الغرب والشمال الغربي من صنعاء . . وقصر الأئمة في هذه الضاحية مشيد فوق صخرة عظيمة هائلة كأنها جبل مستقل بذاته صعب المرتقىٰ وأمنع من عقاب الجو . . وهو بذلك يُشرف إشرافاً شاملاً كاملاً علىٰ كل مايحيط به من سهول خضراء وبساتين عامرة بأجود انواع الفواكه وفي مقدمتها الأعناب . .

وتقول إحدىٰ الروايات في اليمن أن عدداً من المنشقين علىٰ أحد الأئمة السابقين استطاعوا تسلّق أسوار ذلك الحصن الصخري المنيع وقتلوا الإمام غيلةً . . ومنذ ذلك الحادث صُرف النظر عن هذه الضاحية فاعتراها الإهمال والخراب حتىٰ انه لم يبق من ذلك القصر الحصين حالياً سوىٰ جدرانه الخارجية العظيمة ، وكان من نتيجة ذلك الحادث أن انتقل مصيف أئمة اليمن الىٰ ضاحية أخرىٰ هي (حَدّة) الواقعة الىٰ الجنوب الغربي من صنعاء علىٰ مسافة ثماني كيلومترات تقريباً . . وهذه الضاحية غنية بمياهها وبساتينها المشهورة ايضا بالأعناب المختلفة . . ومن أعناب (حدّة) يصنع يهود صنعاء نبيذهم وخمورهم التي قال عنها أحد الإيطاليين الذين زاروا اليمن : «وهؤلاء اليهود التعساء يُفسدون خمورهم بتقطيرها بماء الورد . .»

وتعقيباً علىٰ رواية المنشقين علىٰ أحد أئمة اليمن وقتله وخراب قصر الوادي نقول بأن هذا القصر كان قائماً عامراً في عهد الإمام يحيى . .

التتمة على ص ١١٩

(١) أ نظر الخريطة رقم (٤) ص ١١٨ .

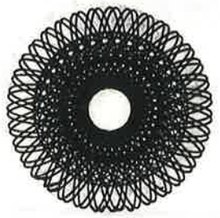

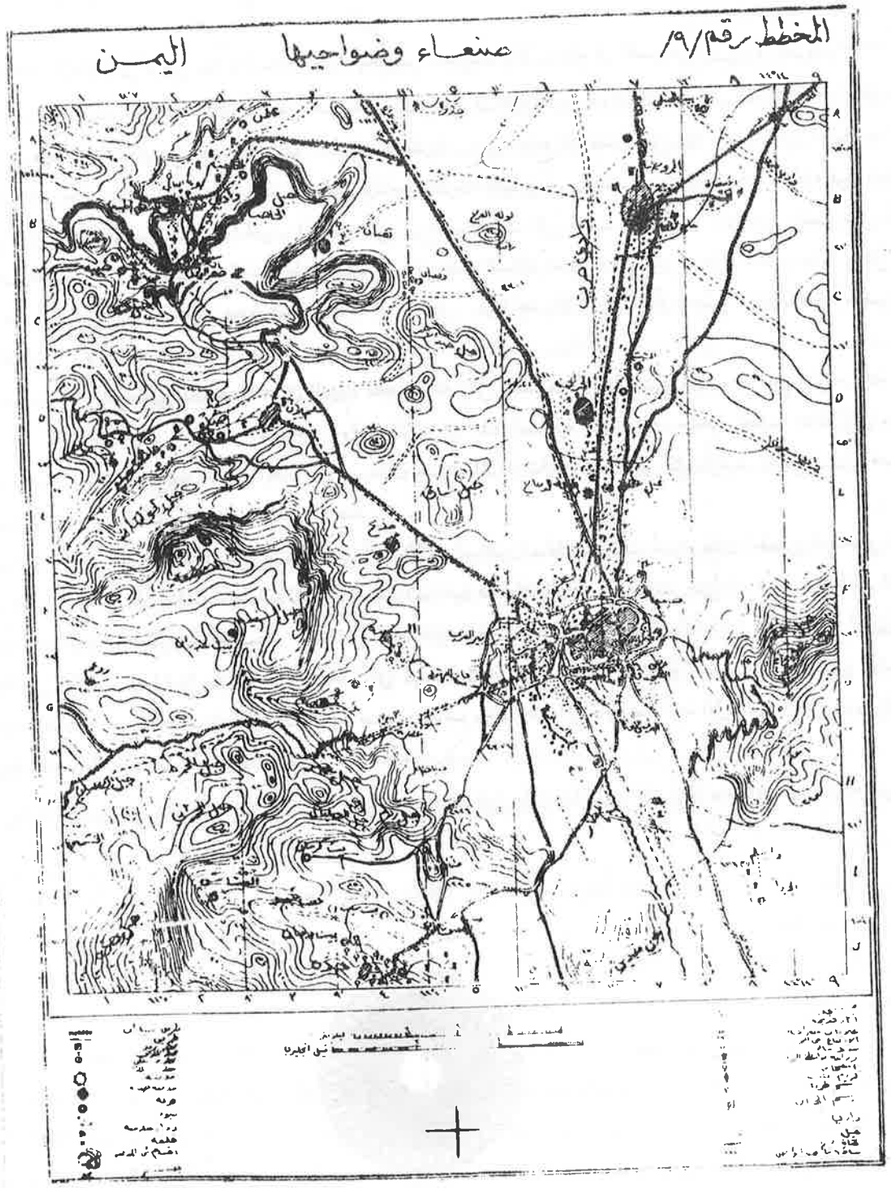

مقتبسة من كتاب «قانون صنعاء» في القرن الثاني عشر الهجري ، للقاضي حسين بن احمد السياغي اليمني – الطبعة الثانية – ١٤٠٢ هـ مطبعة دار العلم – صنعاء

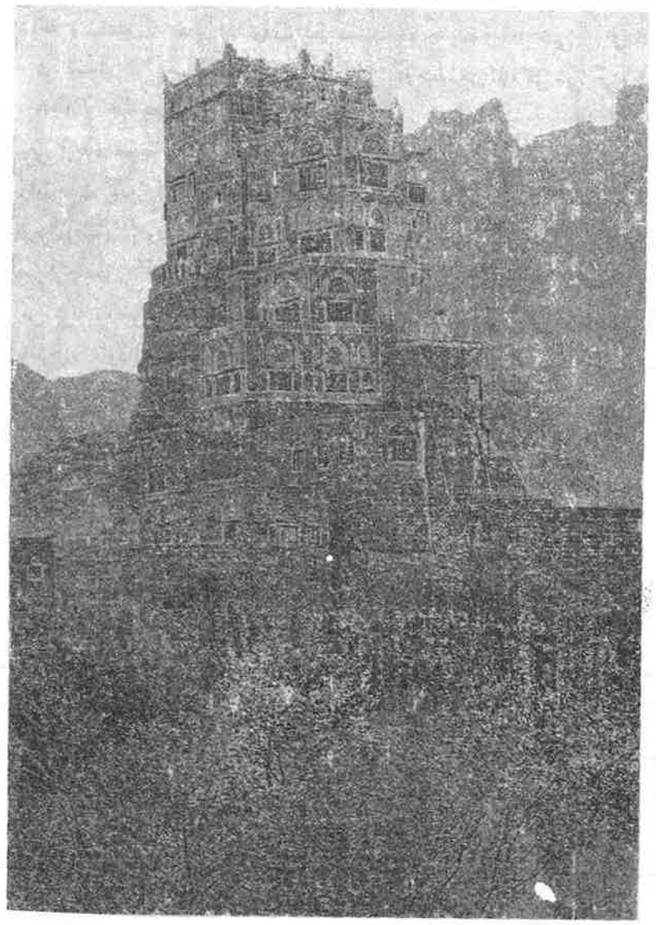

الصورة رقم (١٠)

قصر الأئمة في وادي (ظهر) ، ويسمىٰ أيضاً بقصر الحجر

وكان حقاً من عجائب المعالم في اليمن .. وننشر اعلاه صورة القصر المذكور .. وقد تكون لنا عودة أخرىٰ للكلام عن الضواحي المهمة من حول صنعاء .. (انظر المادة – ١٣ – من القسم السابع من هذا الفصل – صنعاء –)

سبق أن تحدثنا في الفصل الاول (لمحات جغرافية عن اليمن) وقلنا بأن اليمن تجتاحه الرياح الموسمية . . فعندما تهب عليه صيفاً وتحمل سُحباً ثقالاً من المحيط الهندي والبحر العربي فان الأجواء العالية تتكفل بتحويل تلك السُحب المثقلة الىٰ أمطار غزيرة تنزل ، فيما تنزل ، علىٰ سهل صنعاء . . ومن خصائص الأجواء في هضبة اليمن أن هذه الأمطار الغزيرة تهطل اعتيادياً في ساعات مابعد الظهر . . ولفترة اكثر من ساعة أو ساعتين . . حتىٰ إذا توقف المطر دبّت حياة جديدة في كل شيئ . . في الانسان . . في الحيوان . . في المزارع . . في الحقول . . في البساتين . . وصدق الله العظيم حين قال : «وجعلنا من الماء كل شيئٍ حيّ» !

قال أمين الريحاني في ص ١٠٨ / ج١ يصف جوّ صنعاء :-

[. . . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . . فيها الهواء أعذب من الماء . . والماء أصفىٰ من السماء . . والسماء أجمل من حُلم الشعراء . . وفيها البَرْد ، وقد علت تسعة الآف قدم عن البحر ، يتحول لقربها من خط الاستواء دفأً . وهي قائمة في قاع(١) (سنحان) ، تزينها من جهةٍ (الروضة)(٢) وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرىٰ (الحوطة(٣)) وفيها السواقي والطواحين . . ثم تحيط بها الجبال دون أن تُقْصِر أرجاءها . . أقربها اليها (عُصُر(٤)) وهو يظلل المروج في الأصيل ، و (نُقُم(٥)) الذي تجري منه المياه الىٰ المدينة ، وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج – تلغراف المرايا(٦) – الذي يوصل أوامر الإمام من قِنّةٍ الىٰ اخرىٰ . . وهذا (عِشار(٧)) وفيه الرخام والمرمر . . وذاك (آنس(٨)) في الجنوب و (شعوان(٩)) دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق . . وهناك (رضراض(١٠)) وفيه معدن الفضة . . وهنالك (شبام(١١)) شمالاً بغرب وفيه الحجارة الكريمة الجزع والعقيق . .] . .

وهكذا نرىٰ أن الريحاني قد جاوز وصف الجوّ في صنعاء إلىٰ الضواحي والجبال المحيطة بصنعاء قريباً وبعيداً . . وحسناً فعل الريحاني إذ وفّر علينا كلاماً كثيراً عن صنعاء . . !

٤ .– **الشكل العام لمدينة صنعاء** . (أنظر المخطط رقم - ٢ - ص ١٢١) .

تتألف مدينة صنعاء بوجه عام من ثلاث مجموعات رئيسية كما في المخطط رقم (٢) . . .

أولاً – المجموعة الكبرىٰ – هي المدينة القديمة التي تجثم مباشرة عند السفح الغربي لجبل (نُقُم) . . وهي بطبيعة الحال اكبر المجموعات الثلاث . . ويُقدر عدد سكانها بنحو (٤٠ - ٥٠) ألف نسمة حالياً . . ويحيط بهذه المجموعة سور ضخم من الطين لايقل عرضه عن أربعة اقدام وارتفاعه عن خمسة عشر قدماً . . ويدعم هذا السور عدد كبير من الأبراج المبنية بالحجارة والآجر . . ويرجع تاريخ بناء هذا السور الىٰ القرن العاشر الميلادي ، وقام الأيوبيون في القرن الثاني عشر بتمديد السور غرباً حتىٰ بستان السلطان . . كما قام الأتراك العثمانيون بتسوير المجموعة الوسطىٰ من مدينة صنعاء التي سنتكلم عنها بعد قليل . .

---

(١) قاع : يعني السهل ، وسبق أن اوضحنا ذلك في الفصل الاول (لمحات جغرافية عن اليمن) .
(٢) الروضة : ضاحية شمالي صنعاء وقد تحدثنا عنها آنفاً . .
(٣) الحوطة : ضاحية أخرىٰ من ضواحي صنعاء . .
(٤) عُصُر : (إلا أن أهل صنعاء يلفظونها عَصْرْ بفتح العين . كما أن هذا الجبل ليس أقرب الجبال الىٰ صنعاء . . فالأقرب اليها هو جبل (نُقُم) الذي يلاصق صنعاء من شرقها .
(٥) نُقُم : والذي يلفظه أهل صنعاء (نُقُمْ) . .
(٦) تلغراف المرايا : ويُسمىٰ في لغة الجيش العراقي (الراقم الشمسي) وهو أحد وسائل المخابرة البصرية القديمة يتكون من مرآة عاكسة لضوء الشمس يجري تحريكها ذبذبياً بواسطة مفتاح نابضي علىٰ طريقة مفتاح مُرسلة الاشارات البرقية بالبرق السلكي وفق حروف (مورس) . . .
(٧) عِشار : أحد الجبال في منطقة صنعاء وليس قريباً منها .
(٨) آنس : جبل شهير من جبال اليمن يقع الىٰ الجنوب من صنعاء ، هو أقرب الىٰ (ذمار) منه الىٰ صنعاء . .
(٩) شعوان : جبل الىٰ الشرق من آنس .
(١٠) رضراض : جبل قيل بأنه يكتنز معدن الفضة . . وماأكثر المعادن في جبال اليمن . .
(١١) شبام : جبل في شمال غربي صنعاء ارتفاعه حوالي (٩٨٤٠) قدماً عن مستوىٰ سطح البحر .
ملحوظة : كافة الهوامش هي لنا . .

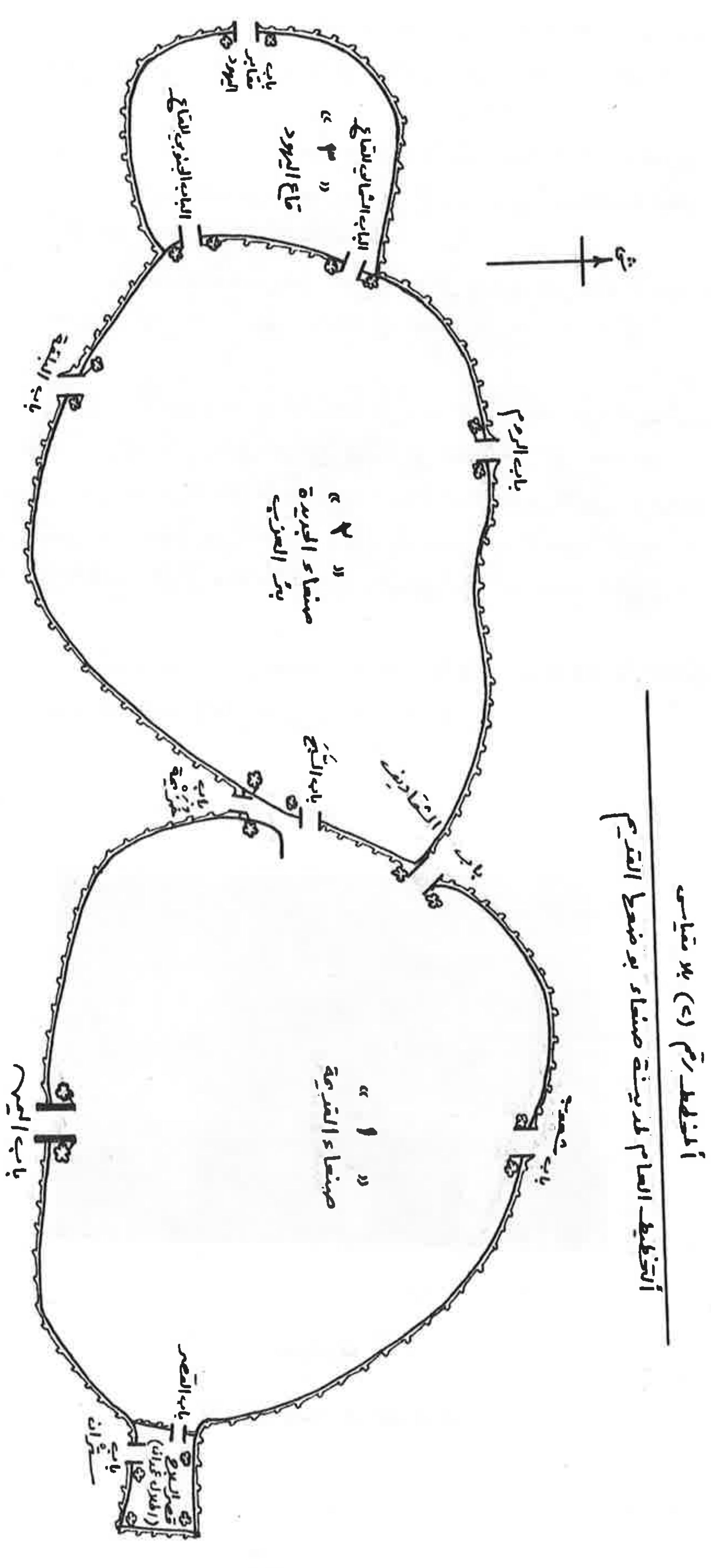

ويتخلل سور المجموعة الكبرىٰ (صنعاء القديمة) خمسة أبواب ضخمة تنغلق علىٰ أهل صنعاء مع غروب الشمس أو لغاية وقت العشاء فلا تنفتح لأحد قبل مطلع الشمس من اليوم التالي إلا في حالات إضطرارية جداً . . يوافق عليها عامل صنعاء - أي محافظها . .

وتقوم جماعة من الحرس عند كل باب . . وفيهم صاحب (النفير) أي البوق المكلف باعطاء الاشارات الصوتية حسب التوقيتات المقررة لغلق الباب أو فتحه . . وجماعة الحرس هذه مزودة أيضاً بعدد من الطبول يضربون عليها مجتمعةً ليُعلنوا لأهل المدينة بأن وقت النوم قد حان . . تماماً كما يفعل الجيش في الثكنات العسكرية . . . !

ولكل باب من الأبواب في السور إسم خاص يُعرف به من قبل الجميع . . ولكل باب أو بعض هذه الأبواب حكاية أو اسطورة يتناقلها الناس بعضهم عن بعض ولا تصحّ منها أسطورة واحدة في حقيقة التاريخ . . !

أ . **باب اليمن :**

كان يسمىٰ قديماً بـ(بوابة عدن) . . ثم غيروا إسمه بعد الاستقلال الىٰ باب اليمن . . وهو أهم و أشهر أبواب صنعاء القديمة قاطبةً . . ويقع في جنوبها . . وإليه تنتهي طرق القوافل القادمة الىٰ صنعاء من كل انحاء اليمن . .

وباب اليمن هذا يستند الىٰ برجين عظيمين كان قد أشادهما إخوة السلطان صلاح الدين الايوبي . . شيدوه بأحجار ملونة : وردية وخضراء وغبراء لتُضفي جمالاً ومهابةً علىٰ الباب . . ويقال بأن بعض هذه الأحجار كان قد أُخذ من أطلال سد مأرب . . كما أُخذ منها لعمارة الجامع الكبير في صنعاء القديمة . . والأرجح أن ما أُخِذ للجامع الكبير في صنعاء كان من بقايا قصر (غُمْدان) . .

ولهذا الباب مصراعان جميلان حُفرت عليهما نقوش جميلة . . تستلفت الأنظار . . وربما كان الأتراك العثمانيون قد أحدثوا بعض التحويرات علىٰ عمارة هذا الباب (انظر الصورتين - ١١ و ١٢ -) .

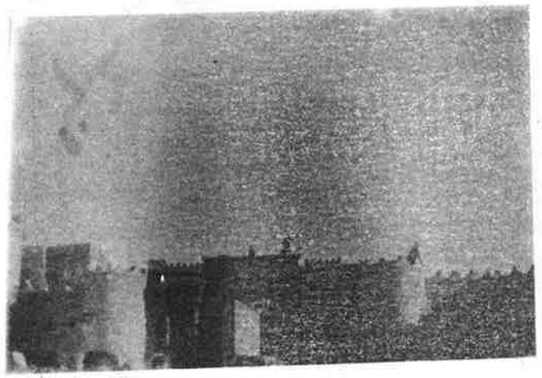

الصورة رقم (١١)

باب اليمن بصنعاء في عهد الجمال

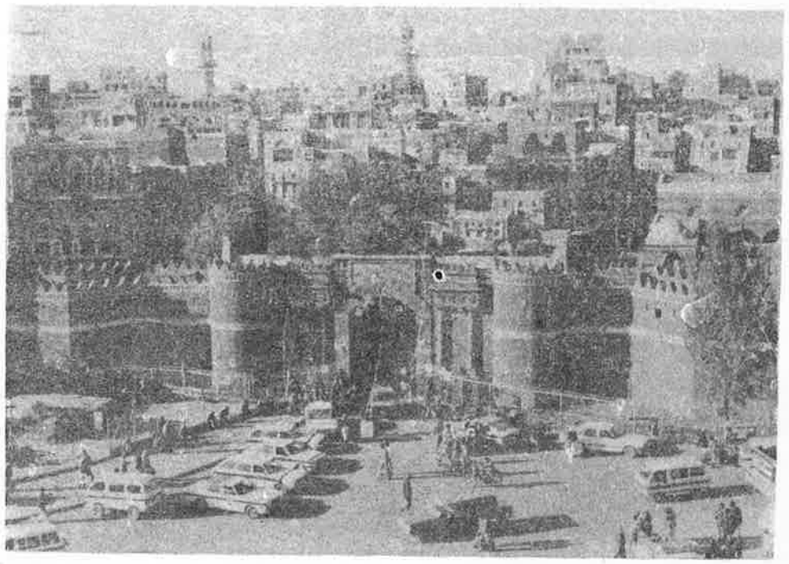

الصورة رقم (١٢)

باب اليمن بصنعاء في عهد السيارات

وقد جرت العادة بأن تُعرَض على جوانب هذا الباب الأيدي المقطوعة من أذرع السارقين بعد ثبوت الجريمة عليهم . . كما أن الساحة المكشوفة الىٰ الجنوب من هذا الباب تُنصب فيها جذوع الشجر الكبيرة علىٰ هيئة أعواد المشانق ليس لشنق المجرمين بالحبال . . بل لتعليق اشلائهم بعد قطع الرءوس بالسيف وقطع الأيدي بالسكين وعرضها علىٰ الجمهور بضعة أيام . . ! (راجع الصورة رقم -٤) . .

ب . باب ستران - أو الباب الخارجي لقصر السلاح . . شرق المدينة القديمة . .

ج . باب شعوب - شمال المدينة القديمة . .

د . باب الشقاديف - شمالاً بغرب .

هـ . باب خُزيمة - جنوباً بغرب

والمدينة القديمة علىٰ شكلٍ اهليلجي تقريباً . . ولا يوجد في داخلها حدائق ولا بساتين . . فيما عدا بعض الأماكن القليلة المحصورة بين عدد من الدور كان الناس قد حفروا فيها للحصول علىٰ الطين و التراب اللازمين لبناء الدور فصارت علىٰ شكل حفرات كبيرة زرعوا فيها شيئاً من التين الشوكي الذي يسميه اهل صنعاء (البَلَسْ) . . ومثل هذه الحُفر المزروعة بشكل بدائي يسمونها (مكْشَامَة) . . وعلىٰ هذه المكشامة تطل نوافذ الدور المحيطة بها . .

وفي النهاية الغربية من المدينة القديمة يوجد مجرىٰ سيل لمياه الأمطار يخترق سور المدينة من فتحة جنوبية وأخرىٰ شمالية في كل فتحة ثلاثة منافذ علىٰ شكل قناطر مقوسة ينفذ منها ماء السيل من خلال قضبان حديدية غليظة لمنع مرور أي إنسان أو حيوان من داخل المدينة أو من خارجها . . إن هذا المجرىٰ يسميه أهل صنعاء (السّايْلَه) . . يعني مسيل مياه الامطار . . فاذاأمطرت السماء بغزارة تحول هذا المجرىٰ الىٰ ما يشبه النهر الصغير ولكنه ذو تيار جارف . . ثم يظل يابساً في غير موسم الأمطار . . . ومع ذلك فقد شيدوا فوقه قنطرة حجرية ضخمة داخل المدينة يعبر عليها الناس من جانب الىٰ آخر . . (أنظر الصورة رقم - ١٣ -) . .

الصورة رقم (١٣)
منافذ (السَّايْلَة) في سور (صنعاء) . .

وفي النهاية الغربية من المدينة القديمة ايضاً نرىٰ القصور التي شيدها الإمام يحيىٰ لتكون سكناً له ولأهل بيته . . فهناك قصر اسمه (دار الشكر) وآخر إسمه (دار السعادة) وكان دار الشكر قد شيد في عام ١٩٣٨ وهو بمثابة البلاط . . ويُسمى (المقام) وفيه الديوان الإمامي الذي يعمل فيه الإمام ورجال حكومته . . . وعلىٰ جانبي المدخل الرئيسي عمودان من بقايا خرائب سبأ . . ويُعتبر دار الشكر هذا نموذجاً رائعاً لفن المعمار اليمني . . فهو يتألف من خمسة طوابق وله مشربّية رائعة في الطابق الثالث . . ويستعمل الطابق الارضي بمثابة مخازن . .

والىٰ جانب هذه المجموعة من القصور شيّد الإمام يحيىٰ مسجداً مهماً يسمىٰ بـ(قبة الامام يحيىٰ) اكمل عمارتها سنة (١٣٤٦ هـ) وهي عمارة متقنة ومفروشة بالفراش الفاخر . . ثم أنارها بالكهرباء . . ومما يجدر ذكره أن هناك قبة أخرىٰ في نفس المنطقة إسمها (قبة المتوكل) كان قد شيدها المتوكل علىٰ الله القاسم بن الحسين بن المهدي عام (١١٣٩) ، فلما توفي دفنوه الىٰ جوارها مع عدد آخر من المتوكلين . . وتلك ظاهرة متوكلية شائعة تربط بين تعمير المساجد وتعمير المقابر الخاصة بالمتوكلين . . . !

وهناك (دار الحمد) و(دار البشائر) وهي ايضاً من القصور التي شُيدت في عهد الإمام يحيىٰ في منطقة (بئر العزب) التي سنتحدث عنها الآن . .

ثانياً – **المجموعة الوسطىٰ** - وهي التي تُسمىٰ بـ(بئر العَزَب) وإن شئتَ قُل صنعاء الجديدة . . ذلك أن هذه المنطقة كانت فيما مضىٰ منطقة حقول ومزارع ليس فيها دار واحدة بالمعنىٰ المفهوم . . فمن قائل أن الأيوبيين كانوا أول من فكر في توسيع رقعة صنعاء القديمة باتجاه هذه المنطقة الغربية . . إلا أن المرجح في هذا الصدد أن الاتراك العثمانيين هم الذين فكروا في ذلك وبادروا الىٰ تنفيذه بعد أن ضاقوا ذرعاً بصنعاء القديمة . . وإن آثارهم التي تركوها وراءهم بعد الرحيل النهائي من اليمن هي أعظم دليل علىٰ كونهم أول من فكر ودّبر ونفذّ مشروع صنعاء الجديدة . . فليس هناك من بناء وعمران مهم في منطقة (بئر العزب) إلا وعليه بصمة عثمانية مميزة . . وكان من ابرز الملامح التركية العثمانية في انشاء هذه المنطقة السكنية الجديدة هو جَعْلُهم لكل دار تقريباً

حديقة كبيرة أو بستاناً . . كما وسّعوا في عرض الطرقات وتركوا اكثر من ساحة عامة خالية بين المجّمعات السكنية . . ومن أشهر تلك الساحات ساحة (شرارة) التي تتوسط بئر العزب . .

ولما أوشكت هذه المنطقة أن تكون معمورة ومسكونة أُحيطت بسور وأبراج علىٰ نمط سور وأبراج صنعاء القديمة . . وجعلوا فيها باباً في جنوبها الشرقي يصل مابينها وبين صنعاء القديمة أسموه (باب السَّبَحْ) . . كما جعلوا لها باباً في الشمال الغربي أسموه (باب الروم) وباباً في الجنوب الغربي أسموه (باب البلقة) . .

ومن الغريب أن منطقة (بئر العزب) - أو صنعاء الجديدة - هي الأخرىٰ أخذت شكلاً اهليلجياً مثل صنعاء القديمة . . (انظر الخريطة رقم - ٥ - ص١٢٦ والخريطة رقم -٦- ص١٢٧) . .

والواقع أن منطقة (بئر العزب) تتألف من أربعة أحياء هي :

أ . بئر العزب .
ب . بئر شمس .
جـ . بئر خيران .
د . بئر بهمة .

في القسم الشرقي من بئر العزب تقع دائرة البريد والبرق . . أما في القسم المركزي من حول ساحة شرارة نجد (المدرسة العلمية المتوكلية) وهي أعلىٰ معهد تعليمي في اليمن كله . . يقتصر التدريس فيها علىٰ العلوم القرآنية والشريعة الاسلامية والفقة الاسلامي وغير ذلك والغرض منها تخريج فقهاء وقضاة وقيل بأن مدة الدراسة فيها إثنا عشر عاماً . . وسبق أن تحدثنا عن هذه المدرسة آنفاً . .

ومن حول ساحة شرارة أيضاً تقوم المساكن الفخمة ذات الطوابق الخمسة والستة العائدة الىٰ كلٍ من عامل صنعاء - اي محافظ صنعاء (السيد حسين عبد القادر) وأمير الجيش المظفر (السيد علي بن ابراهيم) ووزير الخارجية (القاضي محمد راغب بك رفيق) . . وغيرهم . .

ويضم بئر العزب عدد أمن المباني والدور الحكومية التي تُخَصَص عادةً للأجانب الغاملين في اليمن . . ولقد خصصت حكومة اليمن المبنىَ المعروف بـ(دار الصناعة) في بئر العزب لتقيم فيه البعثة العسكرية العراقية عند وصولها الىٰ صنعاء . . وهذا المبنىٰ هو أحد عشرات المباني التي تركها العثمانيون وراءهم بعد الرحيل من اليمن . . وطابع وطراز بنائه تركي عثماني أصيل . .

وثمة مكان حكومي آخر نجده في غربي بئر العزب هو الصيدلية الحكومية الوحيدة في صنعاء وهي في مظهرها العام وترتيباتها الداخلية قد تشبه كل شيئ إلا الصيدلية . . . !

ثالثاً – **المجموعة الصغرىٰ** – وهي تقع غربي المجموعة الوسطىٰ ويُطلق عليها إسم (قاع اليهود)(١) أي حيّ اليهود ، أو السهل الذي يقيم فيه اليهود ، وهذه المجموعة هي الاخرىٰ محاطة بسور علىٰ نمط السور الذي يحيط بالمجموعة الوسطىٰ وفيه ثلاثة أبواب ، إثنان منهما يتصلان بمنطقة (بئر العزب) وهما الباب الشمالي للقاع والباب الجنوبي . . أما الباب الثالث فيقع غرباً وهو الباب الذي يخرج منه اليهود الىٰ مقابرهم الكائنة غربي القاع . ولكل باب جماعة حرس خاصة لا تسمح بدخول أو خروج أحد الىٰ القاع بعد غروب الشمس إطلاقاً . . إلا بأمرٍ خاص من عامل صنعاء وعند الضرورة القصوىٰ . .

و (قاع اليهود) شبه مكتفٍ بنفسه . . أي أن فيه الأسواق والكُنُس (جمع كنيس) والحمام الاهلي وغير ذلك . . ولكن هذا لا يمنع من لجوء اليهود الىٰ مرافق (بئر العزب) وصنعاء القديمة . . كما أن أهل صنعاء وبئر العزب لايستغنون كلّيةً عن أسواق قاع اليهود ومهارات أصحاب المهن فيها . .

إن تاريخ نشوء (قاع اليهود) في صنعاء يتزامن مع تاريخ تطور صنعاء القديمة . . بينما يرجع تاريخ نشوء المجموعة الوسطىٰ (بئر العزب) الىٰ الفترات الزمنية التي تواجد فيها العثمانيون في اليمن قبل حصول اليمن علىٰ الاستقلال . . ثم تكامل (بئر العزب) بعد

(١) القاع : في لغة اهل اليمن هو السهل المنبسط من الأرض . . فيقولون قاع برم وقاع الحقل ويقصدون به السهل الذي تقع فيه البلدة وتحيط به الجبال علىٰ مسافات متباعدة . .

الأبواب
١ ـ باب اليمن
٢ ـ باب تراث
٣ ـ باب خزعة
٤ ـ باب الدريهمي
٥ ـ باب البلقة
٦ ـ باب القاع
٧ ـ باب السكة
٨ ـ باب البلبنة
٩ ـ باب السهارى
١٠ ـ باب الشقادف
١١ ـ باب شعوب
١٢ ـ باب عيلة
١٣ ـ باب الروم

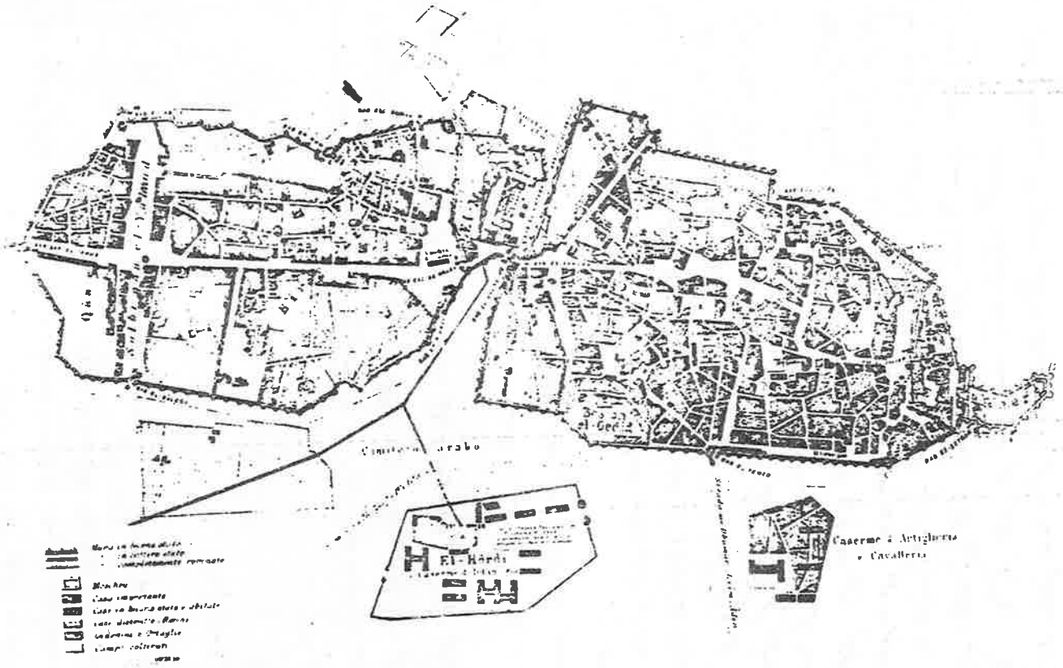

الخريطة رقم (٥)
خريطة لصنعاء منذ / ١٠٤ / سنوات
مع ذكر بعض الأبواب فيها
• مقتبسة من كتاب «قانون صنعاء» في القرن الثاني عشر الهجري ، للقاضي حسين بن احمد السياغي اليمني ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٢ هـ مطبعة دار العلم ـ صنعاء .

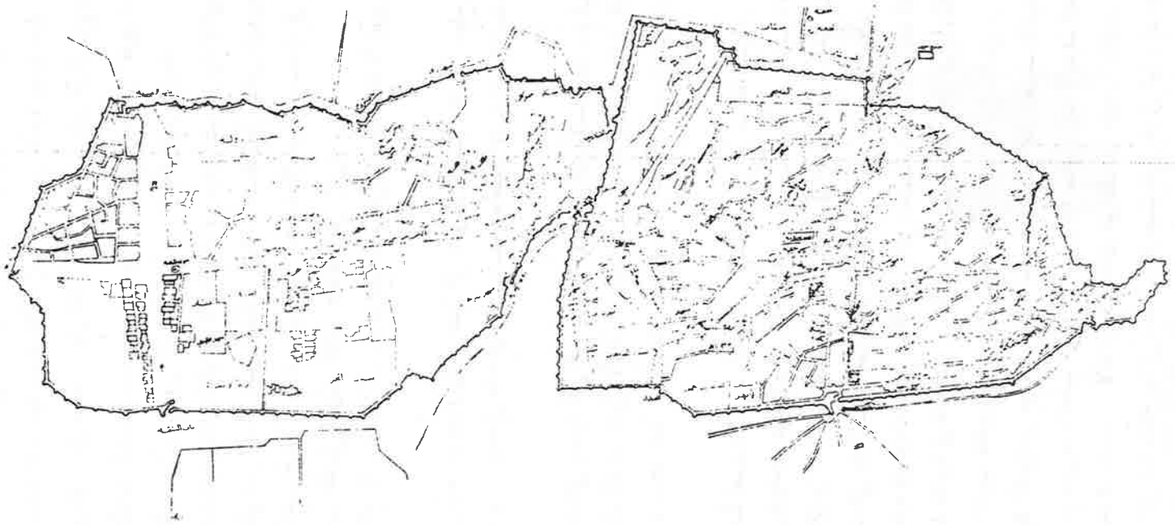

الخريطة رقم (٦)
وُضعت هذه الخريطة لمدينة صَنعاء وَرُفعَت إلىٰ الوالي العُثماني مُصطفىٰ عاصمُ باشا ، سنة ١٢٩٠ .هـ . وقد تم نقلها طبق الأصل بوزارة الأشغَال العامّة في الجُمهورية العَربية اليمنيّة في ١٥ / ٥ / ١٩٦٨
• ملحوظة : وهذه الخريطة أيضاً يعود تاريخ رسمها الىٰ ما يزيد علىٰ القرن الواحد .
وقد اقتبسناها من كتاب «قانون صنعاء» في القرن الثاني عشر الهجري ، للقاضي حسين بن أحمد السياغي اليمني ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٢ هـ مطبعة دار العلم ـ صنعاء .

الاستقلال .. والذي يمكن استنتاجه من ذلك هو أن (قاع اليهود) كان بعيداً عن صنعاء القديمة بمسافة لاتقل عن الكيلو متر الواحد ..

و(قاع اليهود) ليس بظاهرة مستقلة تخص صنعاء وحدها .. بل هذا هو حال اليهود حيثما تواجدوا في اليمن .. فحيثما تواجدوا تقوقعوا في (قاع) إسمه (قاع اليهود) .. وهذه الظاهرة الاجتماعية ليست ظاهرة يمنية .. بل هي ظاهرة يهودية حيثما تواجدوا علىٰ سطح الكرة الارضية:في (لندن) .. وفي (نيويورك) .. وفي فرنسا .. وفي المانيا .. وفي روسيا .. وفي كل أصقاع العالم. . . !

إن القاسم المشترك الأعظم ما بين المجموعات الثلاث للعاصمة صنعاء هو عدم وجود متر مربع واحد من الطرق المعبدة أو المبلطة أو المستقيمة .. ولذلك لاتوجد أرصفة عامة .. ولا إنارة من أي نوع كان .. ولو بالفوانيس الزيتية ..!

ومدن اليمن ، بما فيها العاصمة صنعاء ، هي المدن الوحيدة في العالم التي لاعهد لها بترقيم أبواب المساكن والدكاكين والمتاجر ولا حتىٰ المباني الحكومية . . ويعجب الإنسان كيف تقوم الدولة بتقديم خدماتها الإدارية للسكان من مختلف الوجوه . . أما ترقيم الطرقات والأزقة والدلالة إليها فيُعتبر من كماليات الحياة . . وربما سَخِر رجال حكومة الإمام ممن يتحدث في ذلك . . . !

٥ – **مصادر المياه في صنعاء . (راجع المادة ـ ١٠ ـ من الفصل الأول ـ لمحات جغرافية عن اليمن) .**

ليست هناك ظاهرة طبيعية تثير دهشة الزائر أو السائح لأول وهلة اكثر من أن تقع عيناه علىٰ عاصمة مملكة لا يجري فيها نهر . . ! تلك هي (صنعاء) عروس اليمن . . !

ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أودع في باطن هضبة اليمن مياهاً جوفية غزيرة قد تصل الىٰ عمق ثلاثين متراً تنبثق الىٰ سطح الارض عن طريق آبار عميقة لا ينضب ماؤها طوال العام تلو العام . . وبفضل هذه المياه ظلت صنعاء عاصمة العربية السعيدة منذ ألفي عام . . ولاتزال . .

وقد تجود الامطار الغزيرة ايضا بتشكيل بعض الجداول التي يسميها أهل اليمن بـ(الغيلان) جَمع (غَيْل) فيستفيدون منها في سقي المزارع والبساتين ، وقد ذكرنا في حديثنا عن (صنعاء القديمة) بأن فيها (غيل الآلاف) . . وهناك جدول آخر يسمونه (الغيل الاسود) الذي يمر بمسجدين من مساجد صنعاء هما مسجد المتوكل ومسجد حجر . . وينساب هذا الغيل من جنوب صنعاء الىٰ شمالها وكأنه يفصل صنعاء القديمة عن صنعاء الجديدة (بئر العزب) . .

ومياه الغيول عادةً تكون ملوثة لأنها مكشوفة ومعرضة لعبث الانسان والحيوان . . ولذلك فهي غير صالحة للشرب . . وكل أهل صنعاء لا يشربون إلا من مياه الآبار . . فهناك بئر كبيرة واحدة علىٰ الأقل في كل حارة من الحارات تقريباً . . أما سُراة الناس فلكلٍ منهم بئره الخاصة في البستان العائد لداره . . وأن اكثر من ٧٥٪ من الدور في صنعاء القديمة لها أبارها الخاصة داخل البيوت . . في الطابق الارضي . . وقد احتاطوا بذلك لمجابهة الظروف التي يضطرب فيها حبل الأمن في البلاد . . وقد ذكّرني هذا بالآبار العميقة التي يمتلكها أهل (الموصل) ـ بلدي الحبيب ـ كلٌ في عُقر داره قبل قيام مشاريع إسالة الماء داخل المدن العراقية . . وقد كان لنا في دارنا بئر ماء لها فتحتان ، الفتحة الأصلية في السرداب والفتحة الثانوية في فناء الدار . . كانت درجة عذوبة مائها ٩٠٪ تقريباً ولكننا لانشرب منها بل نستعمل ماءها للتنظيفات والغسيل ، أما ماء الشرب فكان يتكفّل به (السقّاء) الذي يجلب الماء من سواحل نهر دجلة داخل أوعية جلدية مختلفة الحجم فيفرغها في الحبوب الخزفية الكبيرة من دون تصفية ولا تعقيم فكنا نضع تحت الحبوب الكبيرة حُبّاً خزفيا صغيراً يتلقىٰ الماء المترشح من الحبّ الكبير الذي فوقه . . ومن هذا الحبّ الصغير كنا نشرب ماءً صافياً ولكنه لا يعرف التعقيم . . وقد عِشْنا طفولتنا وشبابنا علىٰ تلك المياه . . ولم نتذمر يوماً مما نشرب . . لأننا لم نكن نملك غير ذلك في حينه . . وكانت البئر تتكفل بتبريد ذلك الماء نهاراً بعد أن نملأ الجِرار ونشدها الىٰ حبل البئر وندفع بها الىٰ منتصف البئر حيث التيار الهوائي البارد الصاعد من فوهة السرداب الىٰ أعلىٰ . . ! أما التبريد الليلي لماء الشرب فكان يتم بواسطة القُلل الخزفية التي نملأها من ماء الجِرار ثم نصعد بها الىٰ سطح الدار ونضعها علىٰ جدران السطح مباشرةً . . . ! لقد كانت حياةً مُبَسّطة لا تعقيد فيها ولا إشكال . . ولكنها بالتاكيد كانت في حاجة الىٰ بعض التحسين والتطوير دون الوقوع في براثن كماليات العصر . . . !

ومياه الآبار في صنعاء علىٰ درجة بالغة من الصفاء والعذوبة وصلاحية الشرب من دون تعقيم شريطة أن لا يعبث بها انسان بعد استقائها من البئر . .

أما عملية الإستقاء نفسها ، فقد تحدثنا عنها في المادة (١٠ ـ) من الفصل الاول تحت عنوان فرعي : (الأمطار في اليمن) . . وكان ذلك يخص الاستقاء من الآبار الكبيرة . . أما الاستقاء من الآبار الصغيرة في البيوت فتتم كالعادة بالحبل والدلو الصغير من الجلد . . . ونظراً لكمية المياه الكبيرة التي ترفعها الجمال من البئر الكبيرة وتصبها في حوض التوزيع فان تلك المياه تتدفق من حوض التوزيع بقوة وسرعة . . وهذا مما ساعد سُراة القوم علىٰ نصب النافورات أمام (المفارج) التي يجلسون فيها لتخزين القات وهم يواجهون تلك النافورات ومن ورائها اشجار الفاكهة التي تملأ البستان . . . !

وتوجد الآبار الكبيرة أيضاً بجوار المساجد والجوامع المهمة . . ولا يُحْجَب مياه هذه الآبار عن الناس الذين يسكنون بالقرب منها . . وقد كان أحد تلك المساجد وبئره الكبيرة مجاوراً للدار التي كنت اسكنها في حي (بئر شمس) من منطقة بئر العزب . . وكان خادمنا يجلب لنا ماء الشرب من هذه البئر ذات الماء الصافي العذب دون أي مقابل . .

ولعل أطرف ما في اجهزة الاستقاء من الآبار الكبيرة في اليمن هو عدم انقطاع صوت صرير البكرات الخشبية المنصوبة فوق فوهة البئر . . ثم عدم انقطاع صوت (السَّاني) عن الحداء لجِمَاله بلغةٍ ولهجةٍ ولحنٍ شجيّ ورخيم . . و(الساني) هو الذي يسوس الجِمال المخصصة للاستقاء من الآبار الكبيرة . .وسألتُ ذاتَ مرة شخصاً عما يحدو به (الساني) فقال : انه يقول فيما يقول :[يا ربّ . . أمطرنا . . فعبدك وجَمل عبدك في تعب شديد] . . أو ماهو في نحو ذلك . . وتمضي الأيام . . وتنقضي الشهور وتمر السنون . . وتنزل الأمطار . . ولكن الجَمل و الجَمّال لم يتغير لهما حال . . !

إن كل من زار اليمن ، ولو لفترة قصيرة ، أو أقام فيه الىٰ أجلٍ مسمىً . . وعلىٰ الأخص في صنعاء فان أذنيه لن تنسيا أبداً ذلك النغم الموسيقي الحزين الذي يزدوج فيه صرير البكرات الخشبية وحِداء (الساني) ليل نهار . .

لقد كان سماع هذا اللحن المزدوج ليلاً اكثر تأثيراً في النفوس منه في النهار . . وليالي صنعاء أشد سكوناً و أعمق صمتاً واكثر وحشةً من ليالي الربع الخالي المجاور لليمن . . !

ومن مصادر مياه الشرب في صنعاء (قُبَب الماء) . . وإن شئتَ قلت (ماء السبيل) الذي لا تزال بعض مظاهره شائعة عندنا في العراق ولو بأشكال مختلفة . . إلا أن الغاية واحدة . .

قُبّة الماء : بناء من الحجر والقَضاض (النورة) علىٰ شكل قبة في داخلها حوض يأتيه الماء من بئر كبيرة مجاورة أراد صاحبها عمل الخير فشيد هذه القبة وجعل لها عدداً من المصارف نحو الخارج يغترف منها الناس حاجتهم من الماء فيملأون منه أوعيتهم الخاصة كما هو ظاهر في (الصورة رقم – ١٤ –) . .

ألصورة رقم (١٤)
نموذج من القباب التي يأخذ منها عامة الناس حاجتهم من الماء .

تلك هي مشاريع إسالة الماء في مدن اليمن . . وكل شيء فيها يعتمد علىٰ رحمة السماء . . فاذا انحبست الأمطار في أي عام . . شحّت المياه في شبكة الآبار فينعكس تأثير ذلك علىٰ الكائنات الثلاث : الإنسان والحيوان والنبات . . ! ونكرر ثانيةً فنقول : بأن المياه التي كنا نشربها من آبار صنعاء طوال الأعوام الثلاثة (١٩٤٠ ـ ١٩٤٣) كانت أعذب من مياه الفراتين دجلة والفرات وبَردىٰ والنيل . . وأصفىٰ من دموع العين . . ! فتلك المياه لا تحتاج الىٰ عمليات تصفية . . ولا تعقيم . . ولكنها بالتاكيد تحتاج الىٰ تسريح الجِمَال والجَمّال وإلغاء القِرَب الجلدية والبكرات الخشبية والحبال . . ثم نصب المضخات وإقامة الخزانات ومّد شبكات الأنابيب الىٰ البيوت وإنقاذ المواطنين من نقل المياه علىٰ اكتافهم بصفائح البنزين الخالية . . . !

٦ – **الكهرباء في صنعاء .**

إنْ قيل لك بأن الكهرباء لها وجود في اليمن ... فذلك قول صحيح ..

وإن قيل لك بأن الكهرباء لاوجود لها في اليمن .. فذلك أيضاً صحيح .. !

فالكهرباء ، بشكلها البدائي ، توجد في قصور الإمام ووليّ العهد و (سيفان) أو ثلاثة من سيوف الاسلام . . !

والكهرباء ، بشكلها البدائي ، موجودة ايضا في دار الضيافة بصنعاء .. وربما في المستشفىٰ البتيم ايضاً ..

تلك هي الدائرة الضيقة التي تتواجد فيها الكهرباء في اليمن ..

أما اليمن بأسره . . فلا يعرف الكهرباء إطلاقاً . .

حينما كانت الاقطار العربية في شمال الجزيرة تفكر وتخطط لايصال الكهرباء الىٰ كل بيت في كل مدينة وقرية مهمة . . كان المصباح النفطي (اللّمبة) والفانوس النفطي الاعتيادي والمصباح النفطي الذي يعمل بالهواء المضغوط (أللوكس) هي البدائل الحديثة التي وصلت الىٰ العاصمة صنعاء والمدن المهمة في اليمن . . ! وقبل ذلك . . فاليمن لا يعرف غير المسارج الزيتية والشموع . . .

ومن الطريف أنه عندما وصل مصباح (اللّوكس) الىٰ (صنعاء) لأول مرة قال عنه أهل اليمن : هذه هي الكهرباء بعينها تماماً . . !

ولا أحد يدري ما الذي قاله أهل صنعاءعند ما رأوا الكهرباء البدائية لأول مرة وهي تكشف أستار الظلمات عن قصور الإمام وبعض سيوف الاسلام الذين لم يخجلوا من الظلمات التي تلفّ خمسة ملايين نسمة من مواطنيهم منذ عشرات القرون . . !

وحتىٰ هذه الكهرباء البدائية التي دخلت قصور الإمام وسيوف الإسلام في غفلة من التاريخ .. لم تغير شيئاً من كآبة الظلمات في ليالي صنعاء ..

فاذا نفخت الابواق النحاسية وقرعت الطبول عند كل باب في أسوار صنعاء بعد صلاة العشاء كان ذلك إيذاناً بحلول ساعة النوم . . فتتوقف المولدات الكهربائية البدائية عن العمل وينقطع التيار الكهربائي عن قصور الإمام وسيوف الاسلام ودار الضيافة . . وعندئذ يتساوىٰ السادة والعبيد علىٰ صعيد الظلمات . . !

فلما وصلت البعثة العسكرية العراقية الىٰ صنعاء أقامت في مبنىٰ (دار الصناعة) أو (دار الضيافة) الذي يصل اليه (البصيص الكهربائي) من بركات الإمام التي لم ننعم بها اكثر من ساعة أو ساعتين في كل يوم مابين مغيب الشمس وصلاة العشاء . . !

٧ – **وسائط النقل في العاصمة صنعاء .**

كانت اليمن في الأربعينات من هذا القرن أول وآخر دولة في العالمين لايوجد فيها اكثر من ثلاث سيارات صغيرة وأربع سيارات (بوكس) ذات الأبدان الخشبية وست أو عشر سيارات للحمل (لوريات) حمولة ($1\frac{1}{2}$ – ٣) طن . . وكل هذه السيارات هي ملك الدولة وتعمل في خدمتها . . !

فلما وصلت بعثتنا العسكرية الىٰ (عدن) ، وكان المقرر تسفيرها الىٰ صنعاء بالسيارات ، قيل بأن الإمام يحيىٰ ، أمر وكيله المقيم في (عدن) – الشيخ علي محمد الجبلي – أن يجّهز البعثة بسيارات جديدة للسفر يشتريها من عدن . . فلما وصلت بنا هذه السيارات الجديدة الىٰ صنعاء ، كان نصف عمرها الفني قد انتهىٰ في تلك السفرة الشاقة بسبب وعورة الطريق في الجبال . . عِلماً بأن المسافة التي قطعتها لاتزيد علىٰ ألف كيلومتر . . !

وبوصول تلك السيارات الىٰ صنعاء إزداد رصيد الدولة في العدد الخيالي من السيارات من (١٣) سيارة عتيقة . . الىٰ (٢٠) سياره عتيقة ايضاً . . . !

لم يكن في اليمن كله ، علىٰ عهد البعثة ، غير عربتين تجرّهما الجياد . . !

العربة الأولىٰ – هي العربة الملكية الخاصة بالإمام . . وهي عربة ذات أربعة دواليب ،ومكشوفة . . لا يوجد من نظائرها في الطراز والشيخوخة إلا القليل . . . يجرّها جوادان مطهمان من جياد (الجوف) المشهورة . . ويقودها سائق عجوز ليس في هيئته ولا في قيافته/ما يوحي بالاعتبار . كسائق عربة ملكية . سوىٰ (الجنبية) أي الخنجر المعقوف الذي ينطوي عليه حزامه من الأمام . . .

! كانت هذه العربة الملكية غالبا ما تُشاهد في طرقات (بئر العزب) وهي تنوء بحملها الثقيل من بعض سيوف الاسلام وأولادهم

الصغار وبصحبتهم (فقيه) أو أكثر من الفقهاء ذوي العلاقة بالعائلة المالكة . . . (أنظر الصورتين – ١٥ و ١٦) . .

إلا أن هذه العربة الملكية نفسها تعجز عن التجولّ في (صنعاء القديمة) لأن أعرض الدروب فيها لا يتسع لمرور هذه العربة المتواضعة . . وبسبب هذه الدروب الضيقة فان اهل صنعاء القديمة لن يجابهوا أية مشاكل مرورية تتعلق بوسائل النقل الحديثة حتىٰ ولو امتلأت براري صنعاء بسيارات القرن العشرين . . ! ولأجل مرور العربة الملكية من تلك الدروب الضيقة . لابد من هدم العديد من البيوت بعد تعويض أصحابها إذا وافقوا علىٰ ذلك . . وقد جرت محاولة من هذا القبيل ولكنها فشلت عندما رفض رجل عجوز أن يبيع منزله لصالح العربة الملكية . . ولم يستطع أحد أن يرغمه علىٰ ذلك . . وهذا يعني أن العربة الملكية ستظل عاجزة عن نقل الإمام يحيىٰ الىٰ باب الجامع الكبير ، في قلب صنعاء القديمة ، حتىٰ يموت هذا الرجل العجوز العنيد . . . !

وقلما استخدم الإمام عربته الملكية هذه في التجوال داخل منطقة (بئر العزب) التي تتيسر فيها بعض الدروب العريضة نسبياً وإن كانت غير مبلطة . . إلا أن الإمام يركب هذه العربة عادة عند ذهابه الىٰ صلاة الجمعة في الجامع الكبير . . . ولكن العربة لا تستطيع الوصول بنفسها الىٰ الجامع الكبير . . . فيضطر الأمام أن يقطع بقية المسافة علىٰ قدميه . . فاذا خرج من الجامع لا يركب العربة في طريق العودة . . بل يمشي راجلاً ويعود من طريق أخرىٰ غير التي ذهب منها الىٰ الجامع . .

العربة الثانية – (عربة الحكيمة)

والحكيمة هي الطبيبة النسائية الأجنبية التي تعمل عادةً مع آية جالية طبية أجنبية : انكليزية أو إيطالية أو فرنسية أو غير ذلك . .

وعربة (الحكيمة) عربة صغيرة متواضعة ومكشوفة يجّرها جواد واحد متواضع مثلها – أي لا يُشترط أن يكون من جياد (الجوف) العربية الأصيلة . . .

والعربة من ذوات الدولابين ليس فيها ما يُلفت النظر سوىٰ منظر (الحكيمة) وهي تقود العربة بنفسها أحياناً حينما تتلقّى طلباً مستعجلاً من أحد المسؤولين الكبار لفحص (مريضة ارستقراطية متوكلية . .) في القصر المنيف . . فتضطر الحكيمة الىٰ تلبية الطلب في وقت قد يكون فيه سائق العربة الرسمي غائباً عن بيت الحكيمة لأي سبب . . أو أن المسكين يغط في نوم عميق قبل أو بعد منتصف الليل . . . !

العربة الملكية المتوكلية في (صنعاء) .

الصورة رقم (١٥)
الحمولة الخفيفة . . !
١ – السيف اسماعيل . .
٢ – رجل من الحاشية . .
٣ – سائق العربة .
٤ – اظنه مبنىٰ دار الصنايع في منطقة بئر العزب
٥ و ٦ – من أولاد سيف الاسلام القاسم . .
٧ – من أولاد السيف علي . .
٨ – من الرعّية الهالكة . .

الصورة رقم (١٦)
العربة (الحفيدة)

تلك كانت وسائل النقل الخاصة بالحكومة . . مما لا يحسدها عليه إنسان . . .

ولكن ماذا يركب بقية الناس في صنعاء ؟

نظراً لصغر مساحة العاصمة بمجموعاتها الثلاث . . فليست هناك مشكلة مواصلات . . لذلك فأن ٩٠٪ من سكان العاصمة (عروس اليمن) يركبون أقدامهم علىٰ الدوام . .

ولا يركب البغل أو البغلة غير نفر قليل من ذوي المناصب الحكومية المهمة مثل رئيس الوزراء (القاضي عبدالله حسين العَمْري) وعامل صنعاء (السيد حسين عبد القادر) وولده الكبير ، وأمير الجيش المظفر (السيد علي بن ابراهيم) و أمير الجيش الدفاعي (الشريف عبدالله الضمين) وأمير الطوبجية - أي المدفعية . . وآخرون غيركثير . . . وحتىٰ هؤلاءفانهم يفضلون الذهاب الىٰ مراكز أعمالهم والإياب منها راجلين والبغل والسائق يمشيان علىٰ مسافة بضع خطوات الىٰ الخلف . .

ولا يركب الحصان من رجال دولة الإمام في الأيام الاعتيادية غير سيوف الاسلام ووزير الخارجية (القاضي محمد راغب بك رفيق) . . وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الرجل في سياق الكلام عن تشكيلات حكومة الإمام يحيىٰ حميد الدين . .

والسادة (من الزيود) يركبون البغال عند الحاجة في داخل المدينة أو خارجها . . ولكن البغال التي يركبونها بغال شخصية وليست حكومية . .

والبغلة الحكومية يُطلق عليها في اليمن مصطلح «بغلة بيت المال» فاذا جرىٰ تخصيصها لأي إنسانٍ مهم . . لغرض حكومي معيّن . . خُصّص لها جندي من المتطوّعة ببندقيته وعتاده ليكون مسؤولاً مباشراً عن «بغلة بيت المال» منذ استلامها وحتىٰ انتهاء المهمة وعودة البغلة الىٰ الاصطبل . . . !

إن بلداً كهذا الذي قصصنا عليك خبره في وسائل النقل العامة . . في داخل المدينة أو خارجها . . لا يمكن أن يشكو من اكبر معضلتين تجابهان العالم المتحضر في كل مكان : معضلة المرور ومعضلة تلوث البيئة . . . فاليمن المتوكلي لا يعرف . . ولا يريد أن يعرف شيئا عن هذه المعضلات التي أقضّت مضاجع العالم المتمدن بحوادثها ومآسيها التي جلّت عن الوصف . . .

٨ - **الصحة العامة في صنعاء .**

أولاً - **الصحة الوقائية .**

لا وجود للصحة الوقائية في اليمن علىٰ الاطلاق . . !

فانك لو سألت وزير الصحة المتوكلي سيف الاسلام القاسم عن أسباب ذلك . . لقال لك . . وبكل بساطة : [نحن مسلمون نؤمن بقضاء الله وقدره . . فان كان قد كُتب علينا وباء الكوليرا ، مثلاً ، فقد كُتب مثله علىٰ الذين من قبلنا . . ولا رآدّ لقضاء الله وقدره . .] . .

فان سألته : أليست الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية - مثلاً - من قضاء الله وقدره ؟

قال : [نعم] . .

فإن سألته : أنترك هذا المريض يموت جزافاً لأن إصابته كانت بقضاء الله وقدره ؟ سكت السيد الوزير . . ولم يَحُر جواباً أبدا . . !

وهذا السيف الوزير يعلم جيداً ، وقبل غيره من الناس ، أن بلاده (العربية غير السعيدة) إذا انحبس عنها المطر عاماً واحداً قلّت غلّة الارض . . وارتفعت الاسعار . . واذا استمر انحباس المطر كعقاب سماوي للكسالىٰ «المتواكلين - وليس المتوكلين علىٰ الله» حلّ القحط في اليمن ثم تكون المجاعة ثم تكون الأوبئة وفي مقدمتها الهيضة (الكوليرا) و الطاعون والجدري والتايفوئيد . . ! فعند انعدام الأمصال الوقائية ضد هذه الأوبئة الفتاكة فان مئات الآلاف من اهل اليمن سيموتون في دورهم ودروبهم وأزقتهم وحاراتهم فلا يجد الأموات من يواريهم التراب . . . !

والصحة الوقائية تستلزم وجود المحاجر الصحية ومستشفيات العزل وكوادر العمل الوقائي والمعدات والتجهيزات والسيارات اللازمة لتنفيذ البرامج الوقائية حسب الأصول . .

إن كل هذه المستلزمات الجوهرية لا يعلم عنها وزير الصحة المتوكلي أي شيئ . . رغم كونه رجلاً مسلماً يفهم قول الرسول الكريم ، صلىٰ الله عليه وسلم ، (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته . .)

ومن الصحة الوقائية ايضاً إعداد وتنفيذ برامج التوعية الصحية بكل الوسائل الممكنة والمتيسرة . . ولكن مثل هذه البرامج لا قيمة لها في بلد لا توجد فيه مدرسة واحدة تقوم بتدريس علوم الصحة ابتداءً من المرحلة الابتدائية فالمتوسطة فالثانوية . . وما بعدها . .

كان بعض ذوي العقول الضيقة من المسؤولين في حكومة الإمام يحيىٰ يتباهون بأن اليمن ليس فيها أمي واحد لا يعرف القراءة والكتابة بفضل الكتاتيب التي يديرها الفقهاء . . مع العلم أن هذا الإدعاء لا يشمل رجال القبائل اليمنية الذين يشكلون اكثر من ٨٠٪ من مجموع سكان اليمن البالغ عددهم في حينه خمسة ملايين نسمة في أحسن الفروض . . . !

ومن المعلوم بالضرورة أن تعليم القراءة والكتابة لمجرد تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدينية وحدها لا يكفي لجعل الانسان رجلاً أهلاً للحياة العلمية من دون استكمال بقية العلوم الطبيعية والانسانية والرياضية الحديثة . . .

وأهل العقول الضيقة هؤلاء لا يريدون أن يفهموا أن الوقاية خير من العلاج . . وأن هذه الوقاية تستلزم المعرفة العلمية قبل كل شيئ . .

ومن المظاهر اليمنية التي تتنافىٰ والصحة الوقائية في البلد :-

أ . الكهوف الأرضية المكشوفة التي يتجمع فيها الغائط المتساقط من بيوت الخلاء في طوابق المنازل . . علىٰ الشكل الذي عرضناه آنفاً . .

فلولا جفاف الهواء في الهضبة ووجود الشمس في معظم الاوقات وحماس اليهود في جمع هذه القاذورات (الزخارف) . . لاستطاع الذباب أن ينشر اكثر من مرض واحد في داخل صنعاء نفسها . .

٢ . استعمال مياه (المواجل - جمع ماجل[1]) من قِبل الانسان والحيوان وركود الماء فيها لمدد طويلة من دون جريان ولا تبديل . . مما يسبب تلّوث مياهها حتماً ويجعلها غير صالحة لشرب الانسان . .

٣ . إنعدام المجازر النظامية في كل اليمن . . والذبح في مكان واحد في العراء وعدم جمع النفايات وطمرها في مكان بعيد عن المدينة . . الأمر الذي يتسبب عنه تكاثر الذباب وانتشار الروائح الكريهة وبالتالي تلوث اللحوم المباعة للناس . . (أنظر الصورتين - ١٧ و ١٨) . .

---

(١) راجع المادة (١٠ -) من الفصل الأول (الأمطار في اليمن) . .

الصورة رقم (١٧)
مجازر الماشية في (صنعاء) . . !

ألصورة رقم (١٨)
مجازر الماشية في (صنعاء) . . !

٤ . إلىٰ جانب كل حارة تقريباً من حارات المدينة هناك مكان صغير مسوّر بجدار من طين أو حجر .. أو أنه حفرة متكونة من استخراج التراب لبناء المنازل .. يرمي فيها أصحاب الدور كافة أزبالهم ونفاياتهم المنزلية .. وقد تمتلئ تلك الأماكن وتفيض قاذوراتها فلا يصل اليها من يرفعها إلا بعد اشهر عديدة يحضر لرفعها اليهود وأصحاب المزارع بعد أن تكون تلك الأزبال قد استحالت الىٰ مواد عضوية متحللة متفسخة ... فتشكل أعظم المفاقس النموذجية للذباب ... !

ثانياً – **المستشفيات** .

سبق وأن ذكرنا عرضاً بأن في العاصمة صنعاء مستشفىً واحداً .. يسمىٰ (المستشفىٰ) وكفىٰ ... وأما أنا فقد أسميته بـ «البرزخ» .. ! ذلك لأنه يمثل المكان النموذجي لانتقال المريض من الدنيا إلىٰ الآخرة .... !

وفي بعض الأحايين كنت أسميه اليتيم .. ليس لكونه المستشفىٰ الوحيد في حينه .. بل لكونه يتيماً حقاً في كل شيئ :

يتيماً في مبناه غير الصالح للمستشفىٰ ..

يتيماً في الكادر الطبي الذي يعمل فيه ..

يتيماً في تجهيزاته ومعداته علىٰ اختلاف انواعها ..

يتيماً في صيدليته الهزيلة ..

يتيماً في خدماته الادارية ...

يتيماً في كل شيئ .. إلا من وزير الصحة ... الذي لايريد أن يفهم أن الوقاية خير من العلاج .. وأن قيراطاً من الوقاية خير من قنطار علاج ... !

ويقع هذا المستشفىٰ في منطقة (بئر العزب) بالقرب من (باب البَلَقَة) ، وعند باب المستشفىٰ كالعادة جماعة حرس فيهم المُبوّق (الذي ينفخ بالبوق النحاسي) ، وأن هذا البوق عادةً يكون معلقاً علىٰ الجدار .. وكلاهما – أي المبوق والبوق – في حالة إنذار مستمر من الدرجة (أ) .. ! ذلك لأن من واجبات هذا المبوق هو أن ينفخ في بوقه نفخة التحية عند وصول مدير المستشفىٰ .. رغم أن هذا المدير لايفهم شيئاً من أمور المستشفىٰ لأنه رجل فقيه معمم .. ولكنه طالما عيّنوه مديراً للمستشفىٰ استحق التحية بنفخة من البوق .. !

وأنت إذا خاطبت هذا المبوّق بقولك : يابوقي علّق البوق علىٰ الجدار . فسوف لن يفهم من قولك حرفاً واحداً .. ذلك لأن كافة المسميّات العسكرية في الجيش اليمني لاتزال باللغة التركية العثمانية . . فالبوق هو (البوري) أو (البورزان) . . والبوقي هو (البورجي) أو (البورزانجي) . .

ومن المشاهد اليومية المضحكة التي يقدّمها لنا هذا (البورزانجي) عفوياً ومن غير قَصْدٍ أو افتعال هو مشهده في أداء التحية وحماسته لها .. فقد يصادف ، وما اكثر مايصادف ، أن يكون هذا المبوّق غافلاً أو مستمتعاً بإغفاءةٍ عذبة في غرفة الحرس .... ويصل الىٰ المستشفىٰ أحد الأطباء العرب أو مدير المستشفىٰ الفقيهُ فلا ينفخ لهم أحد نفخة التحية .. وعندئذ يهرع أحد الحراس يفتش عن المبوق ويخبره بوصول أحد الذوات ممن ذكرنا .. ويكون هذا الذات قد دخل المستشفىٰ منذ لحظات .. فلا يرىٰ المبوق بأساً من التقاط بوقه من علىٰ الجدار ثم يهرول داخلاً الىٰ المستشفىٰ يبحث عن الذات الكريمة التي فاتها السلام بالبوق .. وحينما وجده قائماً أو قاعداً نفخ له في (الصُّور) نفخةً أشد من المعتاد إعراباً له عن أسفه من الغفلة . . ثم ينقلب راجعاً الىٰ غرفة الحرس مرتاح الضمير . . . !

وعلىٰ الرغم من الخدمات الجوهرية التي كانت تقدمّها العيادات الخاصة في الجاليات الطبية الاجنبية لآلاف الناس من المرضىٰ .. إلا أن ذلك لم ينفع كثيراً .. لأن القليل جداً من هؤلاء المرضىٰ من يقدر علىٰ شراء الدواء رغم بيعه لهم بأسعار تكاد تكون رمزية ... !

كانت هناك جاليتان طبيتان أجنبيتان في صنعاء : جالية انكليزية وجالية روسية ..

الجالية الانكليزية : كانت تتألف من طبيبين وطبيبة يرأسها أحد الطبيبين هو الدكتور (بتري – Dr . Petrie) ، وكان إرسال هذه الجالية علىٰ سبيل إدامة العلاقات الحسنة مع حكومة اليمن إثر توقيع (معاهدة صنعاء) في ١١ / شباط / ١٩٣٤ بين الحكومتين

اليمنية والانكليزية لمدة (٤٠) أربعين عاماً تنتهي في عام ١٩٧٤ ، وكانت هذه الجالية جزءاً من الارسالية الطبية الانكليزية العاملة في منطقة (الشيخ عثمان) في محمية عدن ، وكانت تلك الارسالية الطبية تعرف بالإسم التالي :-

«The church of scotl and keith — Falconer Medical Mission [1]» وكانت بعثة الدكتور بتري قد وصلت الىٰ صنعاء عام ١٩٣٧ / ١٩٣٨ وظلت تعمل هناك حتىٰ عام ١٩٤٣ ، والحق يقال أن هذه البعثة قامت بواجبها الطبي خير قيام .. وخلال وجود بعثتنا العسكرية في صنعاء طوال ثلاثة اعوام لم نسمع من أحد يتهم هذه الجالية الطبية بالقيام بأي نشاط غير مرغوب به في اليمن بالذات .. أو هكذا كانت تبدو للناس في الظاهر .. والله تعالىٰ وحده أعلم بالسرائر ...!

الجالية الروسية : إن لم تخنّي الذاكرة ، فان هذه الجالية كانت تتألف من ثلاثة أطباء أقدمهم طبيب جراح هو الدكتور (روسي) – هكذا كان يسميه أهل صنعاء – ولكن هذا الجراح الروسي كان مَثَلُه كمثل نجار عصري ليس لديه عدّة نجارة عصرية .. أي أن الرجل لم تكن تحت تصرفه غرفة عمليات جراحية بالمعنىٰ الطبي المعروف ..

وكان هناك طبيب سوري إسمه (الدكتور أحمد سامي السّمّان) يعمل بعقدٍ مع الحكومة اليمنية لمدة سبع سنوات ، وقد كان الرجل يبذل جهده في أداء واجبه .. ولكنه ، ككل العاملين الاجانب ، كان يطرق علىٰ حديد بارد .. أو أنه يحرث في عرض البحر .... !

ولنا عن (الدكتور أحمد سامي السمان) ، رحمه الله ، حديث خاص عندما نتناول موضوع عودة البعثة العسكرية العراقية الىٰ بغداد .. وربما قبل ذلك ..

والحديث عن المستشفيات في صنعاء أو اليمن حديث اختصاص لايوفّيه حقه إلا طبيب طوّحت به الأقدار للذهاب الىٰ اليمن والعمل فيه . . ونظراً لعدم وجود (المستشفيات - بصيغه الجمع) في اليمن علىٰ عهد الإمام يحيىٰ فمن العبث وإضاعة الوقت آن أقحم نفسي في التحدث بهذا الموضوع الذي لا أعلم عنه الكثير بحكم عدم اختصاصي فيه . . وهذا طبعا عن فترة وجودنا في اليمن (١٩٤٠ - ١٩٤٣) . . أما بعد هذا التاريخ فقد حدث بعض التغيير النسبي ولكن علىٰ طريقتهم الخاصة . . أي طريقة الإمام يحيىٰ لغاية عام ١٩٤٨ وطريقة خَلَفِه الإمام أحمد بن يحيىٰ لغاية عام ١٩٦٢ وهو العام الذي قامت فيه أول ثورة انقلابية ناجحة في اليمن كتبت نهاية عهد الأئمة في اليمن . .

ومنذ بداية الخمسينات وحتىٰ الآن صدرت عن اليمن عشرات الكتب العربية والانكليزية والايطالية والفرنسية والألمانية والروسية كلٌ منها تناول جانباً معيناً حسب اختصاصه .. فمنهم من كتب في السياسة ومنهم من كتب في الاقتصاد ومنهم من كتب في الذكريات وبضمنها الكلام عن الصحة والمستشفيات .. ولم يتصدّ وآحد من هؤلاء للكتابة عن (البعثة العسكرية العراقية في اليمن) لعدم الاختصاص ...

أن خير من كتب عن الصحة والمستشفيات في اليمن إبان عهد الإمامين (يحيىٰ حميد الدين) وولده (أحمد) هي الطبيبة الفرنسية الماركسية المستشرقة الدكتورة «كلودي فايان» في كتابها «طبيبة فرنسية في اليمن» الصادر في مطلع الخمسينات والذي قام بتعريبه السيد محسن العيني ونشر التعريب عام ١٩٦٠ بعنوان «كنت طبيبة في اليمن» (منشورات دار الطليعة – بيروت) ، والسيد محسن العيني كان أول وزير خارجية لليمن بعد نجاح ثورة ١٩٦٢ مباشرة ..

وكنت قد قرأت هذا الكتاب في حينه .. فلما انتهيت منه أقررتُ بصحة ٧٥٪ علىٰ الأقل مما جاء فيه بصدد سوء الحالة الصحية العامة والخاصة في اليمن ومدىٰ تقصير المسؤولين في ذلك ..

وليس أحدٌ كصاحب الاختصاص في مهنته من يصف واقع الحال في مجال عمله .. ولذلك آثرتُ أن أنقل فيما يلي شرائح معينة من كتاب الدكتورة «كلودى فايان» الذي يتحدث في موضوعه عن الفترة الزمنية التي أعقبت عودة البعثة العسكرية العراقية الىٰ بغداد عام ١٩٤٣ .. فالدكتورة تتحدث عن فترة ١٩٥١ – ١٩٥٢ ، أي بعد عودتنا من اليمن بتسع سنوات .. كان المفروض أن تكون الحالة الصحية في اليمن قد تحسنت ولو بمقدار ١٥٪ مما كانت عليه سابقاً ... !

لا أحد ينكر أن الإمام (أحمد بن يحيىٰ حميد الدين) كان قد فسح بعض المجال لتنفيذ بعض المشروعات الإنمائية في اليمن خلال

(٢) ص (٢٠) من كتاب «عدن واليمن» باللغة الانكليزية – راجع هامشنا (٢) ص ٢٣ من كتابنا هذا ..

مدة حكمه القصيرة (١٩٤٨ – ١٩٦٢) .. ولكنها كانت مشروعات ضيقة وبطيئة للغاية .. ! فمن تلك المشاريع مثلاً فَتحْ مستشفىٰ في مدينة (تعز) التي اصبحت هي عاصمة اليمن السياسية بعد اغتيال الامامَ يحيىٰ حميد الدين عام ١٩٤٨ . . . وجاء عدد غير قليل من الاطباء الاجانب الىٰ (تعز) و (صنعاء) ليعملوا علىٰ رفع المستوىٰ الصحي في اليمن .. وشيدوا مستشفىً واحداً في (تعز) ومن بعده مستشفىٰ آخراً في (الحديدة) ... وبذلوا المستحيل لتحقيق ماجاءوا من أجله .. وصبروا علىٰ ذلك ، مثلما صبرنا نحن من قبلهم ، (صبر أيوب) .. ولكنهم أخيراً حزموا أمتعتهم وغادروا اليمن غير آسفين ... !

قالت الدكتورة «كلودى فايان» تصف الحالة المزرية في مستشفىٰ (تعز) القديم :-

[..... وذات يوم ، رافقتُ الدكتور (ريبوليه) الىٰ المستشفىٰ ، أما الدكتور (مروشي) فقد رفض الذهاب إليه ، وأقام في بيته عيادة صغيرة تعلمتُ فيها اشياء كثيرة ، وعندما سألته عن السبب في هذا ، أجابني ببساطة : «سترين» . والمستشفىٰ يضم عدة بنايات يتألف كل منها من طابق أرضي وحيد ، تحيط به ساحة .. ويُعْنىٰ الدكتور بنحو ثلاثين سريراً . وعندما وصلنا الىٰ المستشفىٰ أخرج من حقيبته علبة فيها بقايا فطوره ، وانحنىٰ علىٰ الموقد يُسَخّنها بنفسه لمريض صغير .. إنه يسهر علىٰ كل شيءٍ بنفسه .... ، واكثر المواقف تواضعاً هنا لا تشين من يقوم بها إذا كانت في سبيل الخير والبرّ ، وقد أطعم الطفل .. وقرأتُ في وجوه الحاضرين العاطفة المعترفة بالجميل .. وكان الدكتور ريبوليه يقدم لمرضاه العلاجات الضرورية من عنده إذ لم يكن في صيدلية المستشفىٰ غير رفّين يُزوّدان بالأدوية كل خمسة عشر يوماً .. أما قاعة الجراحة فقد كانت خالية من كل شيءٍ .. وعندما أردت رؤية حجرات العلاج رفض الدكتور أن يسير معي فمررت عليها لوحدي يتبعني علىٰ غير رغبة مني أحد الممرضين .. وقد مررت بها واحداً واحداً ، فوجدت نفس المنظر المذهل المفزع .. رائحة كريهة ، والأسرّة عبارة عن قوائم شُدّت عليها الحبال .. وليس عليها أغطية .. أجسام هزيلة شبه عارية .. شعروا بوجودي فتململوا قليلاً .. وحاولوا الوقوف .. مدّوا ايديهم نحوي ، وارتفعت أصواتهم تتوسل وتتضرع بحرقة وألم .. لقد كنت شيئاً جديداً عندهم ... لقد كنت شعاعاً من الأمل رأوه قبل موتٍ لا مفر منه .. كثيرون منهم مشرفون علىٰ الموت .. نظر إليّ الممرض وقال : تيفوس ! ولكن كل هؤلاء المرضىٰ ليس لهم أدوية .. ! عشر حجرات للرجال علىٰ هذه الحال .. لقد كنت أشعر أني تحت كابوس لعين .. ولم يدلني أحد علىٰ جناح النساء .. ولكني وجدته ... حجرات منخفضة لا نوافذ لها .. زرائب بكل معنىٰ الكلمة .. تمددت فيها النساء جنباً الىٰ جنب علىٰ أرض قذرة .. ومع الكثير منهن أطفالهن .. قد يخُيلّ للانسان أنه يستطيع أن يتصور فظاعةً كهذه .. ولكن مشاهدة هؤلاء النسوة في هذه الزرائب اكثر سوءاً من كل مايخطر علىٰ البال .. ! لقد قرأتُ كما قرأ الناس أوصاف معسكرات الإبادة والإفناء .. ولكنني هنا رأيت بأم عيني إمرأةً تحتضر وهي راقدة فوق برازها .. ! رأيتها تنهض وتستند علىٰ كوعها وتناولني طفلها المبلل وهي في النفس الأخير تتضرع وتتوسل .. !

إلتفت الدكتور ريبوليه إليّ وقال : «والآن .. ها أنت قد رأيت كل شيءٍ ..» .. إنه قبيح أن يعمل الانسان كل يوم في مثل هذه الظروف .. ولكن ماذا يعمل بدون أدوية .. ؟ والإمام لايقدم ريالاً واحداً للمستشفىٰ القديم ، ولكنه أمر ببناء مستشفىٰ آخر ، وقد ذهبت إليه مع الدكتور ريبوليه الذي وضع خرائطه بنفسه ، وقد فرغوا من الأسس ، وتكدست اكياسُ ومهمات البناء الحديثة هنا وهناك وكلها فرنسية ، وقد اعتمد لها الإمام خمسين الف جنيه .. ! ترىٰ .. هل سيتم إنشاء هذا المستشفىٰ وفق خرائط ريبوليه ويأوي اليه المرضىٰ ثم يغادرونه بصحة وسلام؟ لست ادري .. !] ص ٦١ – ٦٤

وهذه «شريحة» أخرىٰ من كتاب «كلودى فايان» تصّور لنا الحالة الصحية في (صنعاء) بعد تسع سنوات من عودتنا الىٰ العراق .. ونحن نحاول إيجازها قدر المستطاع :-

[... ومستشفىٰ صنعاء بناية شيدوها حديثاً في بستان مجاور لباب (البلقة) وعلىٰ عتبة باب المستشفىٰ وقف إثنان من العساكر ينفخ أحدهما في البوق اذا وصل المدير أو الطبيب العربي الذي يعالج الجنود .. وكان يمكنني أن أحظىٰ بنفس المعاملة لو أنني دفعت قليلاً من البقشيش .. هكذا قيل لي ذات يوم .. ولكنني فضلت أن أسير علىٰ منوال زميلي الطبيب الايطالي الذي لم يهتم بهذه الفخفخات ...

وكانت مفاجأة سعيدة أن أجد مستشفىٰ صنعاء أحسن كثيراً من مستشفىٰ تعز ، فقد كان واسعاً .. حسن البناء .. يدخله الضياء

ومرتباً ايضاً .. بل وكان نظيفاً – هذا إذا لم نعط هذه الألفاظ معناها عند الغربيين ... !

كان المرضىٰ الحقيقيون لاينتظرون فيه علاجاً .. فالذين هم في حاجة لاجراء عمليات جراحية كان عليهم أن ينتظروا حتىٰ يأتي جراح .. ولكن دون جدوىٰ .. !

ولم يكن للاستشارات الطبية الخارجية اهمية تذكر ، إذ ان قليلين جداً من أوساط الشعب هم الذين يقدرون علىٰ شراء الدواء .. والحياة اليومية في الظروف الاعتيادية لاتترك متاعب كثيرة ، ولكن إذا ظهر المرض أو الوباء فقد حلّت الكارثة .. فالناس فقراء وليس معهم نقود كافية لشراء الأدوية .. والبعثة الطبية السوفيتية التي كانت توزع العلاجات مجاناً قد تركت اليمن منذ زمن طويل .. وصيدلية الحكومة خالية من كل العلاجات .. وكل مايستطيع المرضىٰ عمله هو أن ينتقلوا من أمير الىٰ أمير يستجدون الصدقة التي يشترون بها العلاج ..

وكانت مهمتي العناية بالنساء ... وكثيراً ما كان الأمراء يستدعون زميلي الطبيب .. فيترك لي أمر عيادة الرجال .. ! وما أن يقترب المريض مني حتىٰ يبتدره الممرضون حُرّاس الاخلاق بهذا السؤال : «هل ترتدي سروالاً ؟» فاذا كان المسكين لايرتدي السروال فعليه أن ينزع عمامته ويلفها إزاراً حول خصره قبل أن يرفع ثوبه ... !

وكنت أقوم مقام الطبيب العسكري عندما يمرض الطبيب اليمني[1] الخاص بالجنود أو يتغيب ، وكان الفحص احياناً للاستدلال والاستنتاج .. فقد يتعب جندي من الخدمة العسكرية .. ولابد وأن يقدّم بديلاً عنه[2] ، وكان عليّ أن أقرر ما إذا كان الجندي البديل يساوي الجندي القديم أم لا – أي يعادله في الصحة وسلامة البدن – ، وقد يكون الفحص لغرض الإعفاء من الخدمة العسكرية .. فالجنود الفقراء الذين لايملكون مالاً لدفع البدل يصابون فجأة بالجنون .. فكان يُطلب مني أن افحص قواهم العقلية .. وكان السلوك الذي يلجأون إليه في أغلب الحالات للتدليل علىٰ جنونهم واختلال عقولهم .. هو التجرد من الملابس .. هكذا .. يتجرد الجندي من ملابسه تماماً .. وأمام إمرأة .. إنه بكل تأكيد مجنون .. ويفهم الممرضون اللعبة فيهجمون علىٰ المسكين ويخرجون به .. فلا أجد بداً من أن أسجل : إنه غير لائق للخدمة العسكرية .. !

ولم يجد زميلي الايطالي متسعاً من الوقت لاستعمال المختبر ولا اجهزة الأشعة التي ظلت غرفتها مغلقة منذ رحيل الاطباء الفرنسيين ...

لقد بقيت عاطلة عن العمل عدة أيام لأن نائب الإمام علىٰ صنعاء سيف الاسلام الحسن[3] كان مسافراً .. ولذلك يجب ان تتوقف أعمال الدولة .. فلا أحد يستطيع أن يقرر شيئاً في غيابه ... !] ص ١٢٣ – ١٢٩ .

وقبل أن نودّع أحاديث الدكتورة (فايان) .. وددنا أن ننقل عنها ماكتبته في الصفحة (٣٥) من كتابها وهي علىٰ وشك أن تغادر (عدن) الىٰ (تعز)[4] بسيارة جيب ضاقت بركابها وحمولتها كعلبة السارديين :

[... وكنت ساهرةً طول الطريق علىٰ علبة صغيرة ثمينة المحتوىٰ .. كان ينبغي أن تبقىٰ في الظل .. **ففيها مصل (بوكو مولتن) الحقيقي هديةً شخصيةً من جوزيف ستالين الىٰ ملك اليمن الإمام أحمد** عن طريق السفارة الروسية بالقاهرة .. وكانت النتيجة أن المتقدمين في السن من اغنياء اليمن صاروا يطلبون مني نفس المصل المصنوع في روسيا السوفيتية .. وكانوا يبحثون عنه رغم ارتفاع ثمنه الذي وصل الىٰ (٣٠) جنيهاً لكل (١٥) زجاجة ... ! إن (البوكو مولتن) الحقيقي يعمل علىٰ زيادة النشاط الجنسي لدىٰ المسنين من الرجال .. !] ..

*في الوقت الذي ينعدم فيه الدواء في الصيدليات الحكومية في كل من العاصمة صنعاء والحديدة وتعز ويتصارع الآف المرضىٰ الفقراء مع الموت البطيء تصل (هدية جوزيف ستالين الثمينة) إلىٰ الإمام أحمد حميد الدين ليجدد بها شبابه ... ! وليته انتفع بذلك بقدر ما سَخِر منه رئيس (الكرملن) حتىٰ جعله اضحوكة للعالمين ... !

(١) لاشك وأن الطبية الفرنسية تقصد الطبيب العربي الذي يعمل لدىٰ الحكومة اليمنية بعقد خاص .. إذ لم يكن في حينه اي طبيب يمني علىٰ سطح الارض ... ! اللهم إلا أن يكون دجالاً ومشعوذاً أصيلا ... !

(٢) الجندي المتطوع في الجيش اليمني لايمكنه ترك الجيش مدىٰ الحياة ما لم يات ببديل عنه ويساويه في صحة البدن وقابلية الخدمة العسكرية ...

(٣) كان غياب الحسن عن اليمن ، وليس عن صنعاء فقط ، امرٌ دبّره الإمام أحمد لإبعاد هذا السيف عن طريقه ... فقد كان يخشاه لأسباب سياسية كثيرة ليس هذا الكتاب مَعْنِيّ بها ..

(٤) في طريقها الى صنعاء.

ولقد ظلت أصغر وأجمل زوجاته حبيسة قصره في صنعاء مترهّبةً متبتّلة حتىٰ قاربت سنّ اليأس .. ![1]

أفبعد هذا الظلم مايسمىٰ ظلماً في شِرْعَة الإسلام . . ؟!

وجاء في خاتمة كتاب الدكتورة (فايان) قولها : –

[... لقد آمنتُ في اليمن في وقت من الأوقات باحتمال وجود الله ، وقد أحببت بلداً إقطاعياً يعيش في القرون الوسطىٰ ، وأنا ملحدة وماركسية دائماً وبكل تأكيد . .. الخ] ص ٢٦٠ – ٢٦١

والدكتورة (فايان) حينما ذهبت بمفردها لتعمل في اليمن كانت في العقد الرابع من عمرها .. متزوجة .. ولها أربعة أولاد .. وهي فوق شهاداتها الطبية الأصلية تحمل شهادات من عدة معاهد ثقافية فرنسية منها : دبلوم في (أصول السلالات البشرية ومميزاتها) عام ١٩٥٠ ، ودبلوم في (طب المناطق الاستوائية) .. ، ودراسات في علم النفس واللغة العربية .. وحتىٰ التدريب علىٰ ركوب الخيل .. وفي هذا تقول : [وقد كنت أعلم أنني سأستعمل الحصان في تنقلاتي باليمن ..] ... !

لا أعتقد أن شخصاً يجهل كل شيء عن اليمن في منتصف القرن العشرين ثم يقرأ كتاب الدكتورة (فايان) ولايتهمها بالكذب أو التلفيق أو المبالغة ... ولكنني شخصياً أُطمْئِن كل قارئ لكتاب (فايان) بأن ٧٥٪ مما جاء في الكتاب صحيحاً ١٠٠٪ إن لم يكن اكثر من الصحيح[2] ...

تلك كانت حال (الصحة الوقائية) في العاصمة صنعاء .. وهذه هي حال المستشفيات في أهم ثلاث مدن باليمن .. فما بالك بالأحوال الصحية في بقية المدن والقرىٰ المعلقة في ذُرىٰ الجبال بين الارض والسماء من بلاد اليمن ... ؟ !

إن بلداً هذه هي أحواله الصحية العامة لابد وأن تكون لديه وسائله البدائية في تشخيص الأمراض ومعالجتها وفق أنماط القرون الوسطىٰ .. وهذا ما يُعرف هنا وهناك بالطب البلدي ، فالطبيب هنا لايحتاج الىٰ اكثر من ممارسات سابقة فَشِل لامحالة في معظمها .. وعيادته إما في بيته وإما في دكان حقير داخل السوق .. فيها مختلف الأدوية الطبيعية من الأعشاب والبذورات وغيرها .. فهو من هذه الوجهة يشبه العطارين ، رحمهم الله ، في العراق وغير العراق .. أما من الوجهة الثانية فهو يمثل الحلاقين القدامىٰ من حيث بعض المعالجات الجراحية السطحية .. ولكن هذا الطبيب البلدي في اليمن شأنه شأن أطباء البدو في الصحارىٰ .. الذين إذا استعصىٰ عليهم أي مرض لجأوا الىٰ آخر الدواء .. وهو (الكيّ) .. !

وفي دكان الطبيب البلدي في اليمن مجموعة من القضبان الحديدية المتنوعة الطراز والىٰ جانبها كورة النار ، أو الكير والنار ، وبعد أن يستمع الىٰ شكوىٰ المريض وآهاته يختار له القضيب الحديدي الملائم فيدسّه في النار المتأججة .. ثم يقوم أهل المريض ، أو أهل الإحسان ، بامساك المريض مسكة شديدة ريثما تتم عملية الكيّ في لحظات .. !

قالت الأعراب : لكل داء دواء .. وآخر الدواء الكيّ بالنار .

٩ – ألحمّامات الأهلية في صنعاء .

لاشك في أن الحمامات الاهلية تُعد مظهراً من مظاهر الصحة العامة في المجتمعات الشرقية بوجه عام ، والمجتمعات العربية بوجه خاص .. ومنها المجتمع اليمني في المدن المهمة ..

يوجد في صنعاء حالياً (١٩٤٠ – ١٩٤٣) نحواً من (١٥) خمسة عشرة حمّاماً أهلياً عاماً لنحوٍ من خمسين ألفاً من السكان . نذكر أسماءها فيما يلي :-

أولاً – في صنعاء القديمة ، شرقي السايلة .

١ . حمام ياسر .

٢ . حمام سبأ .

٣ . حمام سوق البقر .

٤ . حمام الميدان .

(١) أنظر مذكّرة (بقية يوم الجمعة ١٩٤٠/٣/٢٢ تعز – ص ٢١٧) .

(٢) إذا كان كتاب الدكتورة (فايان) لايمكن اعتباره كتاباً وثائقياً .. إلا أنه بكل تأكيد كتاب ممتع وزاخر بدقائق المعلومات التي نؤيد صحتها كل التأييد .

٥. حمام الطواشي .
٦. حمام الحُمَيْدي .
٧. حمام الأبهر .
٨. حمام الجَلا .
٩. حمام شُكر .
١٠. حمام طلحة .

ثانياً – في غربي السايلة .

١. حمام السلطان .
٢. حمام المتوكل .
٣. حمام البونية .
٤. حمام علي بن الإمام يحيىٰ .

ثالثاً – في قاع اليهود .

١. حمام الفيش .

إن جميع الحمامات في صنعاء تعمل لمدة ثلاثة أيام في الاسبوع للرجال وثلاثة أيام للنساء .. وهذه الحمامات الأهلية في اليمن لها أوجه شبه واختلاف عامة عند مقارنتها بالحمامات الأهلية الموجودة في المدن المهمة من العراق .. فهي تتشابه علىٰ سبيل المثال في النقاط التالية :–

١. من حيث تسخين المياه فيها بالمخلفات الحيوانية .. (وهذا طبعاً لم يعد يستعمل في العراق منذ أن حلّ محله النفط الأسود) ..
٢. من حيث احتوائها علىٰ مكان كبير ذو دكّات حجرية لنزع وارتداء الملابس ..
٣. من حيث احتواء مكان الاستحمام علىٰ عدة احواض تصل اليها المياه الساخنة من خزان التسخين المعزول عن مكان الاستحمام ..
٤. من حيث زهادة أجور الاستحمام ..

أما أوجه الاختلاف فهي الآتي :–

١. حمامات صنعاء تستخدم المخلفات البشرية المجففة من قِبل اليهود بالاضافة الىٰ المخلفات الحيوانية .. ! (راجع – أولاً – من المادة – ٣ – من القسم السادس – من هذا الفصل) ..
٢. حمامات صنعاء لاتقدم لزبائنها أُزر الاستحمام ولا المناشف .. إذ أن كل شخص يجلب إزاره ومناشفه من بيته ..
٣. حمامات صنعاء لاتضاهي الحمامات العراقية في طراز البناء من كل الوجوه .. رغم أن فكرة هذه الحمامات الأهلية أصلاً هي فكرة تركية – عثمانية ، والحمام التركي أشهر من نار علىٰ عَلَم .. إلا أن هذا لايعني أن البلاد العربية لم تعرف الحمامات العامة قبل الاتراك ... !
٤. معظم الوافدين للاستحمام في الحمامات الأهلية اليمنية لايتوخون مجرد الاستحمام للنظافة الصحية .. بل يتوخون شحن اجسامهم باكبر درجة من الحرارة .. لأن ذلك يساعدهم علىٰ تسريع مفعول (القات) في أجسامهم .. فهم بعد الخروج من الحمام يتدثرون باكثر مالديهم من ملابس ومناشف الحمام فيعودون الىٰ منازلهم ووجوههم محمرة والعرق يتصبب من أبدانهم .. فيتناولون طعام الغداء الذي يجب أن يتضمن مرق اللحم الحار المشبع بالتوابل الحادة لكي تساعدهم علىٰ الاحتفاظ بحرارة أجسامهم تمهيداً لحضور مجالس (القات) التي سنتحدث عنها قريباً إن شاء الله .

في خلال الأشهر الأولىٰ من وصولنا الىٰ صنعاء كان الحمام الخاص في المبنىٰ الحكومي الذي أقمنا فيه عبارة عن غرفة صغيرة (٢ × ٣) متر تقريباً لانافذة فيها علىٰ الاطلاق .. وليس في داخلها أي شيئ يدل علىٰ أنها حمام أو مكان معقول للاستحمام ... ! فمن أراد منا أن يستحم فيها لضرورة ماسّة كان عليه أن يملأ صفيحة بنزين خالية بالماء ويضعها فوق الطباخ النفطي (البريمس) وينتظر ثلاثة أرباع الساعة حتىٰ يسخن الماء .. ثم يستحضر صفيحة أخرىٰ من الماء البارد .. ويأخذ معه حاجيات الاستحمام

ويعلّقها بالمسامير البارزة علىٰ الجدران .. ثم ينزع ملابسه داخل الحمام .. ثم يتوكل علىٰ الله فهو حسبه ..

لذلك عندما قررنا في أحد أيام الاسبوع أن نذهب الىٰ إحدىٰ الحمامات الأهلية العامة في صنعاء ضحك منا رئيس البعثة ، رحمه الله ، واحتفظ لنفسه بحق الرفض عن الذهاب معنا .. ولم نَلُمْه علىٰ ذلك أبداً .. فلقد كان ، رحمهُ الله ، أعقل منا جميعاً وأبعد نظراً في تقدير الأمور ...

وكان بعض الاصحاب الذين تعرّفنا عليهم من أهل صنعاء قد أشاروا علينا بالذهاب مجتمعاً بعد استخلاء الحمام الذي نريد الذهاب إليه – أي استئجاره علىٰ حسابنا لمدة ساعة او اكثر ولن يكلّفنا ذلك كثيراً لأن أجور الاستحمام رخيصة .. كما أشاروا علينا باستصحاب كل مانحتاجه من ادوات الاستحمام ولوازمه ..

وسألناهم عن إسم الحمام الملائم لنا فقالوا : حمام السلطان أو المتوكل .. وأغرتنا كلمة (السلطان) هذه .. فقلنا نذهب الىٰ حمام السلطان ... !

كان منظرنا ونحن نحمل حقائبنا الصغيرة في الطريق يوحي بأننا نقصد سفراً خارج صنعاء .. فسرعان ما انتشر خبر هذا السفر في كل صنعاء عشيّة ذلك اليوم نفسه .. ولم يغير أهل صنعاء رأيهم هذا إلا في الصباح الباكر من اليوم التالي حينما رأونا بأم أعينهم علىٰ ظهور جيادنا بالبزة العسكرية .. (البزة الرائعة أيام زمان ...) نجتاز باب (السَّبَح) في طريقنا الىٰ ثكنات الجيش البعيدة خارج أسوار العاصمة .. !

وكان أحد الأصحاب قد تواضع لأن يكون دليلنا الىٰ موقع الحمام .. فحضر الينا في الوقت المناسب فخرجنا من (دار البعثة العسكرية العراقية) نريد حمام السلطان ..

وبعد أن سِرْنا في عدد من الدروب وصلنا الىٰ باب الحمام التي لم نجد عليها أية لآفته تحمل إسم الحمام ... ولكننا وجدنا اكثر من شخص مسؤول عن الحمام في انتظارنا للاستقبال والترحيب ... ولِمَ لا ؟

أليس راتب الملازم الثاني سيف الدين سعيد ، أصغر ضباط البعثة سناً ورتبةً ، يزيد علىٰ راتب العقيد في الجيش اليمني بثلاثة أضعاف ... ؟

كان راتبي الذي اتقاضاه من الحكومة اليمنية يساوي (١٨٠) ريالاً .. بينما كان راتب العقيد اليمني من الدرجة الأولىٰ (٦٠) ستون ريالاً .. ورتبة العقيد كانت أعلىٰ رتبة ضباطية في الجيش اليمني .. !

ودخلنا الحمام ... وكانت كل الملامح فيه تدل علىٰ الاهتمام الخاص بتهيئته لنا شخصياً ... فلما وقع نظري علىٰ المكان المخصص لنزع الملابس .. تذكرت الحمامات العامة في بلدي الحبيب (الموصل – الحدباء) .. أيام الطفولة .. والصّبا .. والشباب .. ولكنني في حمام صنعاء أفتقدتُ النظافة العامة والخدمات اللازمة للزبون منذ دخوله الحمام وحتىٰ خروجه منه ...

أما ماء الاستحمام فقد كان نظيفاً في مظهره .. ولانعلم شيئاً عن مخبره .. وكان ساخناً جداً بحيث يُرخي أقوىٰ العضلات وأشد الاعصاب .. فهو من هذه الناحية يضارع المياه الساخنة في الحمامات التركية تماماً .. وليس الفضل في هذا يعود الىٰ الاتراك .. إنما يعود (للقات) كما أسلفنا .. ! فالقات وحرارة الجسم توأمان لايفترقان .. !

وبقدر ما كان الماء الساخن في هذا الحمام يغرينا بزيارة ثانية وثالثة الىٰ هذا الحمام .. فبنفس المقدار كان انعدام النظافة وتفاهة الخدمات قد نفّرتنا من أية تجربة أخرىٰ .. !

وحينما دفعنا الأجور السخيّة لصاحب الحمام ظل فمه فاغراً من الدهشة وهو يُشيعنا الىٰ الباب ويدعو الله سبحانه وتعالىٰ أن يحفظ الإمام الذي أحسن هذه المرة إختيار (الأجانب) الوافدين من الخارج لخدمة اليمن العزيز .. !

نعم .. ففي الأشهر الأولىٰ من وصولنا الىٰ صنعاء .. كنا لانزال (أجانب) في نظر إخواننا اهل اليمن الذين عاشوا دهراً طويلاً من العزلة القاتلة عن العالم الخارجي بوجه عام وعن العالم العربي والاسلامي بوجه خاص .. وكانت هذه العزلة التاريخية في بداية أمرها لها مايبررها حقاً .. أما بعد الاستقلال والاستقرار والثبات لم يُعد هناك مايبرر استمرار العزلة التي تركت اليمن متخلفاً عن بقية الاقطار العربية بجيلين ليس من السهل تلافيهما في يوم أو بعض يوم .. !

١٠ – المساجد والجوامع في صنعاء . (الجامع الكبير) .

إن في صنعاء نحو مائة مسجد وجامع صالح لإقامة الصلاة عدا الخربة منها والمندرسة ... وأهل اليمن لايسمون الجامع جامعاً إلا اذا كان صالحاً لإقامة صلاة الجمعة فيه .. وإلا فهو مسجد .. وهذا شيءٌ صحيح علىٰ ما اعتقد ...

وأشهر جوامع صنعاء كلها هو الجامع الكبير الكائن في قلب صنعاء القديمة .. ويرجع تاريخ عمارته الىٰ السنة السادسة للهجرة (٦٢٩ م) .. أي في صدر الاسلام .. وقد قام بعمارته (وَبْر بن يوحانس الانصاري) صاحب رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم . وقيل إن الذي عمره هو (فَروة بن مُسَيْك المرادي) .. وقيل هو (أبان بن سعيد) ، وقيل (المهاجر بن أمية أخو أم سلمة) رضي الله عنها .. وكل هؤلاء ممن ولّي صنعاء من الصحابة رضي الله عنهم .. وكان وصول أولهم الىٰ صنعاء وعليها عامل الفرس (باذان) الذي بادر الىٰ الدخول في الاسلام .

وهناك من يرجح أن الجامع الكبير في صنعاء لم يتم بناؤه في وقت واحد ... ولذلك فمن المحتمل أن يكون كل هؤلاء الصحابة الكرام قد تعاقبوا علىٰ إنجاز عمارته ..

وقد جرت توسعة هذا الجامع وتحسينه في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي في أواخر القرن الأول للهجرة . . . وجُدّدت عمارته في العهد العباسي سنة (١٣٦ هـ) ..

ثم جُددت العمارة في زمن الدولة اليعفرية بعد أن تعرّض الجامع لسيل عظيم سنة (٢٦٥ هـ) .. كما تعرّض الجامع للتخريب في زمن قرامطة اليمن .. فقامت بترميمه الملكة (أروىٰ) أيام الدولة الصُلَيْحية في اليمن وزادت عليه الجناح الشرقي سنة (٥٢٥ هـ) .

وقام بعمارة المنارة الغربية (الأمير وردسار بن بنامي الكردي) سنة (٦٠٣ هـ) ..

وأخيراً قام الإمام يحيىٰ حميد الدين بعمارة مكتبة للجامع الكبير سنة (١٣٥٥ هـ) لحفظ الكتب التراثية النفيسة .. ورتّب لها أميناً للمكتبة ومعاوناً له ...

والجامع الكبير في صنعاء يغلب عليه الطابع الاسلامي الصحيح .. أي أنه خالٍ من النقوش والريازة والزخرفة ومظاهر الأبهة المعهودة في معظم الجوامع الأسلامية الحديثة ..

للجامع فناء واسع مرصوف بالحجارة الجبلية السوداء .. تحيط به الأروقة ذات الأعمدة القوية المرتفعة فيها القليل من الزخرفة المتواضعة .. (أنظر الصورة رقم – ١٩ –) .

ألصورة رقم (١٩)
الجامع الكبير في (صنعاء)
أول جامع في الاسلام علىٰ أرض اليمن .

(إن هذه الصورة ليست للجامع الكبير في صنعاء بل هي لجامع البكيرية ، وقد وقع الخطأ عند عملية تبويب الصاوير) .

وأرض المصَلّىٰ مفروشة بالبُسط المصنوعة محلياً من الصوف الأبيض والأسود ..

تبلغ مساحة الجامع (١٢٧ × ١٠٤) ذراعاً حديدياً (الذراع الحديدي = ٢/٣ ٦٦ سم) .

وفي الجامع (١٨٣) عموداً ، ستون منها في جبهة الجامع وثلاثون في الجناح الغربي وأربع وخمسون في الجناح الشرقي وتسع وثلاثون في المؤخرة ..

وللجامع (١٣) ثلاثة عشر باباً – ثلاثة منها في اتجاه القبلة ، منها الباب الاوسط المسمىٰ بباب القبلة ومنه يدخل الإمام يوم الجمعة .. **فلما اغتيل الرجل ، عام ١٩٤٨ سدّوا هذا الباب ... والبابان الآخران المعطّلان جعلوهما خزانتين للمصاحف .. وفي** الجهة الشرقية خمسة أبواب ، وفي الجهة الجنوبية باب واحد هو الباب العدني ، وفي الجهة الغربية ثلاثة أبواب .. والباب الثالث عشر هو الباب المؤدي الىٰ المرافق الصحية ..

إن الباب الأوسط في الجهة القبلية ، والخاص بالإمام ، والكائن عن يمين المحراب هو من الأبواب الأثرية الحميرية .. قيل إنه من أبواب قصر (غُمدان) وفيه صفائح فولاذية متقنة الصنعة ومن ضمنها لوحان مكتوبان بالخط المسند الحميري ..

علىٰ أن أحدث الجوامع والمساجد عمارةً في صنعاء هو ماكان بناؤه منذ مائتي عام تقريباً .. أي في العهد التركي العثماني .. أما الجوامع والمساجد القديمة فيرجع تاريخ بنائها الىٰ القرن الحادي عشر الميلادي .. وهي من عمارة يمنية خالصة .. وتتميز منائرها بكونها سميكة اسطوانية الشكل ترتكز عادةً علىٰ قاعدة مزدوجة الأولىٰ مثمّنة الشكل والثانية مربعة الشكل .. وهي مزخرفة من أعلاها الىٰ اسفلها بالآجرزخرفة تشبه الزخارف البارزة لواجهات المنازل اليمنية تقريباً .. ومصبوغة ايضاً بالجبس الابيض الناصع .. علىٰ أن هذه الزخارف ليست بنقوش .. إنما هي كتابات تتضمن بعض الآيات القرآنية .

إن الجوامع والمساجد في اليمن (حالياً) ليست مجرد اماكن للعبادة فقط .. بل هي أيضاً بمثابة المدارس لتعليم الناشئة الكتابة والقراءة في حدود التعليم الديني فقط .. ومنه ، أو في مقدمته ، تحفيظ القرآن الكريم .. ويُسمىٰ المكان حينئذ بـ (المِعْلامَة) وجمعُها (معلامات) أو (معالم) .. وهي ماكان يُسمىٰ عندنا في العراق قبل ربع قرن من الزمان – في العشرينات وما قبلها – بـ (المُلاّ) .. قيل إن الأتراك العثمانيين كانوا قد شيدوا عدداً من المدارس الرسمية علىٰ الطراز العثماني .. ولكن جميع هذه المدارس أُلغيت بعد رحيل العثمانيين عن اليمن وقيام الدولة المتوكلية .. !

وكان بعض (المعلامات) يشغل بيوتاً أهلية ، فضلاً عن الجوامع والمساجد ، وكان الاستاذ المدرس في هذه (المعلامات) يدُعىٰ ويخُاطَب بكلمة (سيدّنا) .. وكان أسلوب التعليم هو «التلفيظ» والتلقين والتجويد لحروف الهجاء وضبط السُّوَر القِصار .. كان «سيدّنا» يجلس علىٰ دكة مرتفعة مفروشة ، ويجلس التلاميذ علىٰ الارض ، وبهذه المناسبة أتذكّر أن كل (المُلاّتين – أي المُلالي) عندنا في العراق كانوا يشاركون تلامذتهم بالجلوس علىٰ الحصير البالي .. المتهرّئ .. وبأيديهم العصا الرفيعة الطويلة .. وبذلك يكون (مَلاّؤونا) ، رحمهم الله ، اكثر شعبيةً وتواضعاً من (سيدّنا) اليمني الذي كان يتربع علىٰ دكة مفروشة ... !

وقد يتبرع أهل التلاميذ الموسرين في اليمن فيفرشون أرضية (المعلامة) بالحصير أو البُسط البالية .. وقد تُكسىٰ أرضية بعضها بنوع من ألواح الخشب المسمىٰ بـ (الصُّرف) ..

أما المعلامات التي تقع في الحارات – أي الأحياء أو المحلات – الفقيرة فان تلامذتها يجلسون علىٰ التراب أو البلاط العاري .. وقد تعودوه في بيوتهم أصلاً ..

ولم يكن (سيدّنا) يومها يتقاضىٰ أي مرتّب من الحكومة .. بل كان يتلقىٰ من أهل التلاميذ مايُسمونه بـ «حقّ الخميس» وهو مبلغ زهيد جداً يدفعه كل تلميذ إلىٰ (سيدنا) يوم الخميس من كل اسبوع .. وهذا المبلغ غير محدّد .. كلٌ حسب طاقة أهله ... وقد يقوم بعض أولياء التلاميذ الذين تساعدهم حالتهم المالية فيبعثون الى (سيدنا) شيئاً من المعجّنات أو الزبيب والموز بصفة هدية .. وفي حالات خاصة ونادرة قد يتسلم (سيدنا) شيئاً من (القات) يبعث (الكَيْف) الىٰ قلب (سيدنا) المحترم ويُنسيه هموم (المعلامة) وعجيجها .. ! وأرجو أن لايغضب عليّ (سيدنا) وأنا أغمز قناته حول (حق الخميس) وهدية اللوز والزبيب وشيءٍ من (القات) .. وأُطَمْئِن سيادته بأن ماكان يتقاضاه منا (المُلاّ) في العراق يزيد كثيراً علىٰ ماكان يتقاضاه (سيدنا) في اليمن ... ! والسبب في ذلك (سبب جغرافي) بحت ... ! ذلك أن العراق فيه نهران عظيمان هما دجلة والفرات .. وكان العديد من الجوامع والمساجد مشيد عند حافة النهر .. وقد

تفتّقت قرائح (المُلالي) في هذه الجوامع عن وسيلة ارتزاق جديدة ، ولا اقول وسيلة ابتزاز .. هي ابتكار أو اختراع «الطمغة» – أي الدمغة – وهي عبارة عن ختمٍ دائري الشكل أو مستطيله يدمغون به ساق التلميذ بحبر بنفسجي غامق يكون عرضةً للتفتيش اليومي من قِبل (المُلاّ) أو مساعده إن كان له مساعد .. فإن تبين زوال شيءٍ من أثر الدمغة فان ذلك يعني أن التلميذ قد ذهب للسباحة في النهر وهو أمر لايقبله (الملاّ) حرصاً علىٰ حياة التلاميذ .. وكان لابد من إيقاع عقوبة (الفلقة) علىٰ ذلك التلميذ وعلىٰ مشهد من كافة الحاضرين ... !

أما وجه (الإرتزاق) أو الابتزاز هنا .. هو «حقّ الطمغة» الذي يفرضه (الملاّ) علىٰ كل التلاميذ لتغطية نفقات (الطمغة) و (الحبر) والجهد المبذول لطمغ – أي لدمغ – سيقان التلاميذ ... !

وما اكثر (وسائل الإرتزاق) لدىٰ هؤلاء (المُلالي) في تلك الأيام الخوالي .. وكل الحق معهم والله .. لأن افتتاح المدارس الحكومية قطع من أرزاقهم شيئاً كثيراً فلم يبق لديهم مايفعلوه سوىٰ تعليم الصبيان خلال العطلة الصيفية للتلاميذ .. وقد كنتُ أنا وإخوتي من اولئك التلاميذ ... ! رحم الله اولئك (الملالي) بواسع رحمته .. فقد كانوا أول اساتذتنا ولهم الفخر ... !

وكان في اليمن (معلامات) يتعلم فيها البنين والبنات مع التفريق بين الجنسين في أمكنة الدرس .. وكانت هناك (معلامات) كبيرة تنقسم الىٰ عدة صفوف أو مستويات تعليمية متعاقبة حتىٰ يبلغ التلميذ درجة تؤهله للالتحاق بالمدرسة العلمية التي تأسست في عهد الإمام يحيىٰ حميد الدين . والتي تُعتبر أعلىٰ معهد تعليمي في كل اليمن وواجبه تخريج الفقهاء ورجال الدين . ويقع هذا المعهد أو المدرسة في وسط منطقة (بئر العزب) ...

وفي عهد الإمام يحيىٰ أيضاً فُتحت أول مدرسة ابتدائية في بئر العزب أسموها (مدرسة الاصلاح) وحشروا فيها معظم التلاميذ الذين كانوا يدرسون في (المعلامات) .. وبعد مدة من الزمن فتحوا مدرسة ابتدائية أخرىٰ في حارة (الزُّمَر) .. وربما كان ذلك في عام ١٩٣٣ وأسموها (مدرسة الارشاد) .. ومنذ ذلك الحين اصبح للمعلمين مرتّبات شهرية بسيطة تدفعها الحكومة واستقدموا لها بعض المعلمين من إخواننا السوريين ... ومنذ ذلك الحين أيضاً تكونت للتعليم إدارة يرأسها مدير متخرج في المدارس العثمانية أيام كان اليمن تحت الحكم العثماني .. ثم تطورت الادارة – أي إدارة التعليم – الىٰ وزارة يرأسها سيف الاسلام عبد الله بن الإمام يحيىٰ .. كما أسلفنا في حينه .. ومنذ ذلك الحين وضعوا مناهج للتعليم .. وأضافوا الىٰ الدروس الدينية مادة الحساب والهندسة والجغرافية والتأريخ .. كما استوردت الحكومة الكتب الدراسية اللازمة من مصر وسوريا والعراق ولبنان ..

ومنذ العهد العثماني كانت قد تأسست مدرسة للأيتام .. وبعد رحيل العثمانيين عن اليمن احتفظ الإمام يحيىٰ بتلك المدرسة وظل ينفق عليها .. وكانت بنايتها تتألف من طابقين .. الطابق الأرضي لصفوف الدرس ويتراوح عددها بين الستة والسبعة صفوف .. أما الطابق العلوي فكان للإدارة وإسكان التلاميذ ..

وكانت لهذه المدرسة مرافق إدارية كالمطبخ ومسكن الخدم ، كما كان فيها مرافق صحية قديمة .. وكان لتلامذة هذه المدرسة تخصيصات مقنّنة من الاعاشة والسكن والتعليم والملابس الخاصة ذات اللون الأصفر بقياس بدلتين في السنة .. ونظام المدرسة نظام داخلي .. ولكنه كان يُسمح لبعض التلاميذ أن يناموا خارج المدرسة إذا كانت أمهاتهم لم يزلن علىٰ قيد الحياة .. ولا يُسمح لبقية التلاميذ بالخروج من المدرسة إلا بعد الدوام من أيام الخميس علىٰ أن يعودوا اليها صباح يوم السبت ..

كان مخصّص كل تلميذ يومياً – عدا الطعام المطبوخ من لحم وخضرة – أربع قطع من الصمون العسكري المسمي بـ «الكِدم» جمع «كدمة» وقد سبق الحديث عنها في موضوع رواتب الموظفين ...

كانت مدرسة الأيتام هذه يومئذ تُعد من أرقىٰ المؤسسات التعليمية في اليمن بعد (المدرسة العلمية) .. وكان المتفوقون من خريجيها يُرشحون لبعض الوظائف الادارية ، أو الإلتحاق بمكتب الحربية – أي المدرسة الحربية .. أو يوفدون في بعثات دراسية الىٰ خارج اليمن .. وكان من خريجي مدرسة الأيتام والارشاد والاصلاح عدد ممن ارسلتهم الحكومة اليمنية ، في عهد الامام يحيىٰ ، للدراسة في العراق .. وعلىٰ الأخص في المدرسة العسكرية . . اذكر منهم : محيي الدين العنسي ، واحمد حسين المرْوَني ، وعبد الله السلاّل ، وزيد علي عنّان ، وحمود الجايفي ، واحمد الحَوْرش ، وحسن العَمْري ، ومحمد عبد الخالق حجر ، وأحمد الآنسي ، وأحمد اسحاق ، ومحمد صالح العُلُفي ، ومحمد عامر . . وغيرهم . . واكثر هؤلاء التحق بالمدرسة العسكرية العراقية . . وكان خمسة منهم ممن زاملوني في

المدرسة العسكرية الملكية العراقية (الدورة الثالثة عشرة – ١٩٣٦م) وهم : محمد عبد الخالق حجر ، وأحمد الآنسي ، وأحمد إسحاق ، ومحمد صالح العلفي ، ومحمد عامر . وكانت إدارة المدرسة العسكرية العراقية قد أعدت لهم منهاجاً خاصاً يساعد علىٰ رفع مستواهم العلمي لكي يلحقوا بالطلاب العراقيين ذوي المستويات العالية . . (خرّيجي الصفوف الخامسة الإعدادية) . . . ومعذرةً للقارئ الكريم عن ابتعادنا الاضطراري عن أصل الموضوع «الجوامع والمساجد في صنعاء» فالجامع والمسجد والكتاتيب (المعلامات) هي التي أخرجتنا عن أصل الموضوع .. فنعود اليه الآن ونقول :

في محيط كاليمن عام (١٩٤٠ – ١٩٤٣) يجتمع فيه التعصّب الديني المقبول الىٰ جانب التعصب الانعزالي الممقوت يصبح أي غريب عن أهل هذه البلاد في أشد الحرج من حيث التعامل مع هذا المحيط ... !

وعلىٰ الرغم من أننا (البعثة العسكرية العراقية) لم نكن غرباء تماماً عن أهل اليمن .. إلا أننا بالتأكيد لم نكن علىٰ بيّنة من ردود الفعل التي يتركها سلوكنا وتصرّفنا في نفوس أهل اليمن الذين ذهبنا إليهم ولا نعلم عن طبائعهم الحالية شيئاً ..

وكان من أهم الاسباب المؤثرة علىٰ طبيعة هذا السلوك والتصرف هو أن أحداً من (البعثة) رئيساً وأعضاءً لم يكن متديّناً عملياً بالمعنىٰ الصحيح .. وكان هذا بحد ذاته أخطر ثغرة وأضعفها في كيان هيئة البعثة التي جاءت لتقيم وتعمل وتسلك وتتصرف لمدة ثلاث سنوات في مثل هذا المحيط : المغلّف .. المتقوقع ... !

وباختصار أقول بأننا طوال مدة إقامتنا في اليمن لم يُصَلِّ أحدنا في داره ركعة واحدة لله تعالىٰ .... ! لقد كنا والله في ضلال مبين .. ومع ذلك فقد كنا نواظب علىٰ صلاة الجمعة والعيدين مواظبة المنافقين .. ! ولكننا أبداً لم نفعل مثل ذلك عند تأدية مهمتنا العسكرية في اليمن طوال ثلاثة أعوام .. لقد بذلنا المُهَج في سبيل ذلك ...

وقد اعتدنا (نحن ضباط البعثة الخمسة) أن نذهب لصلاة الجمعة في جامع قريب إسمه (جامع حنظل) ، وهو من الجوامع المشهورة في صنعاء ، وكنا دائماً نذهب مجتمعين برفقة رئيس البعثة (العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد) ، رحمه الله ، كما اعتدنا أن نجلس مجتمعين في آخر الصفوف خلافاً للسُّنّة المطهرة .. ولم نكن نعرف هذه السنّة يومها .. ! وأغلب ظني أن رئيس البعثة كان يتعمد الصلاة في آخر الصفوف لأن معظمنا (ضباط البعثة) كان علىٰ المذهب السنيّ .. وأن طريقة صلاتنا تختلف بعض الشيء عن طريقة المذهب الزيدي والجعفري .. ولم نكن يومها نعلم أن الإمام يحيىٰ ، كان يكره التعصب المذهبي ويعاقب عليه[1] .. حتىٰ عَلِمنا ذلك بعد فوات الأوان ... !

والواقع أننا لم نشعر في أي يوم من الأيام ، التي كنا نذهب فيها لصلاة الجمعة في جامع حنظل ، أن هناك من كان يراقبنا ولو بدافع الفضول .. ولم نشعر بأننا كنا نصلي في مسجد غريب ... !

لم تكن جوامع ومساجد صنعاء علىٰ قدر كافٍ من النظافة العامة .. وعلىٰ الأخص فيما يتعلق بالمرافق الصحية .. فانها علىٰ أسوأ مايكون .. كما لم يكن الكثير من المصلين في نظافة كاملة .. وخاصةً الفئات الفقيرة من المجتمع .. وهم كثرة الشعب ... ! وكأن هذا الشعب المسلم لم يسمع بقول رسوله الكريم : «النظافة من الإيمان» . . و «الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية» . .

علىٰ الرغم من أن جامع (حنظل) كان جامعاً مشهوراً في صنعاء إلا أن مفارشه الارضية العتيقة المتّسخة كانت مرتعا لاقبح حشرة مؤذية في اليمن هي حشرة (الكُتُنْ) التي لاتقل شدة لَسْعتها عن لسعة البرغوث والبعوض ... ! أما الذباب .. فحدّث عنه ولاحرج ...

وكان من أشد ما يلفت نظري شخصياً في جامع (حنظل) هو أن معظم القادمين للصلاة فيه إذا دخلوا المصَلّىٰ نزعوا سراويلهم الداخلية ورموها عند قواعد أعمدة المصلّىٰ .. فتتكدس علىٰ شكل اكوام .. تقزز النفس .... !

ولقد اختلفت الروايات في أسباب ذلك : فمن قائل أن القوم يفعلون ذلك لتطمئن نفوسهم بتمام الطهارة عملاً بالقاعدة الفقهية التي تقول : «إدفع مايريبك بما لا يريبك» ...

ومن قائل بأن الإدمان علىٰ استعمال (القات) يسبب شللاً نسبياً في عضلات الجهاز البولي مما يؤدي بدوره الىٰ سلس البول الذي يلوث

(١) راجع المادة (٦) من الفصل الثاني (لمحات تاريخية عن اليمن) ..

السروال الداخلي علىٰ الدوام ... !

وكلا السببين ، كما يظهر ، لايبرران هذه الطريقة لملافاة المحذور . لانها طريقة مقززة للنفس وفيها تحدٍّ ظاهر **لطهارة المسجد وقدسيته** . . . !

بقي علينا أن نعرف أسماء أهم وأشهر بقية الجوامع والمساجد في صنعاء .. وبقدر ما تختزنه ذاكرتنا المُتعَبة في هذا الزمان : –

١ . مُصَلّىٰ العيدين : يقع شمالي صنعاء وخارج السور مباشرة .. أسّسه الصحابي الجليل (فَرْوة بن مُسَيْك المرادي) ، وقيل (وَبْر بن يوحانس الأنصاري) ، وقيل (أبان بن سعيد) حينما بعثهم رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، عُمّالاً له علىٰ اليمن .. وهم أنفسهم الذين نُسِبَ الىٰ أحدهم بناء الجامع الكبير في صنعاء .. وقد حظي مصلىٰ العيدين هذا بعناية الكثيرين من العمال والولاة والامراء . وآخرهم الإمام يحيىٰ حميد الدين الذي وسّع مساحة المصلىٰ بمقدار نصف الأصل .

٢ . جامع الأبهر : وُيعرف قديماً بجامع بنت الأمير وهو من الجوامع العامرة في صنعاء القديمة ..

٣ . جامع الزُّمر : ويقال له جامع أزدمر ، وهو من الجوامع العامرة في الجهة الشمالية من صنعاء القديمة بالقرب من باب شعوب .. بناه الوزير أزدمر باشا في النصف الثاني من القرن العاشر .

٤ . جامع البكيرية : ويُعرف أيضاً بقبة البكيرية ، يقع شرقي صنعاء القديمة بالقرب من مدرسة الأيتام ، يرجع تاريخه الىٰ سنة (١٠٠٥ هـ) . وُسّمي بالبكيرية نسبة الىٰ (بكير بك) مولىٰ الوزير حسن الكردي ، أو حسن باشا الكردي .. وممن اهتم برعاية هذا الجامع السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد خان .. إذ جهزه بالمفارش الفاخرة وجعل فيه منبراً من الرخام ..

٥ . جامع حنظل : وهو أحسن جوامع (بئر العزب) وفيه تقام صلاة الجمعة . بناه بنو حنظل من بني الحارث ومنهم من سكن صنعاء .... وكان للإمام يحيىٰ . فضل توسعته من الجهة القبلية وتجديد مفارشه ..

٦ . جامع داود : في وسط صنعاء القديمة بالقرب من سوق البقر ..

٧ . جامع الرضوان : بالقرب من باب اليمن .. وهو من الجوامع القديمة ..

٨ . مسجد الصياد : يقع في منطقة (بئر العزب) وبالقرب من (بئر شمس) ، [وهذا المسجد كنتُ أسكن الىٰ جواره يوم كنا في اليمن ...] .

٩ . جامع الشهيدين : يقع في الشمال الغربي من سوق صنعاء القديمة . . وقد اشتق اسمه هذا من ولَدَيْ عُبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم وهما (عبدالرحمن) و (قثم) اللذين قتلهما بُسْر بن أبي أرطأة العامري في حوالي سنة أربعين للهجرة عندما أرسله معاوية بن أبي سفيان الىٰ اليمن للتنكيل بشيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كرّم الله وجهه ، وكان والد الشهيدين عاملاً للإمام علّي في اليمن بصنعاء . فلما قدم بُسْر هرب عُبيدالله من صنعاء ولحق بالإمام علّي ، كرّم الله وجهه ، وترك ولديه الطفلين عند أخوالها . . . فأخذهما بُسْر عنوةً وذبحهما مع عدد من أخوالها ودُفن الطفلان في هذا المحل ثم جرت عمارة الجامع الىٰ جوارهما فسُمي بجامع الشهيدين . .

١٠ . جامع صلاح الدين : يقع في شرقي صنعاء القديمة بالقرب من الميدان ، قام بعمارته الإمام صلاح الدين محمد بن الإمام المهدي علي بن محمد بن علي بن منصور .. أما منارته فقد شيدها الوزير سنان باشا في اوائل القرن الحادي عشر ...

١١ . **جامع الضَبّي** : يقع خارج صنعاء شمالاً بالقرب من باب شعوب ، قام بعمارته الحاج محمد بن احمد الضبّي في العصر الجاهم . . .

١٢ . **قبة طلحة** : جامع عامر قديم . . كان صغير المساحة فزاد فيه وشيد منارته الوزير محمد باشا سنة (١٠٢٩ هـ) وفرشه بالمفارش النفيسة . . وهو من أحسن جوامع صنعاء عمارةً . . فيه المصاحف المذهبّة . . ويمتاز بجودة مرافقه الصحية وكثرة الماء فيه . .

١٣ . **جامع طاووس** : يقع بالقرب من طلحة (قبة طلحة) ، يُنسب الىٰ الإمام أبي عبدالرحمن طاووس بن كيسان اليماني من سادات التابعين المتوفىٰ في مكة المكرمة سنة (١٠٦ هـ) . .

١٤ . **جامع الطواشي** : يقع في أعالي صنعاء القديمة ضمن منطقة سوق عقيل وجامع الزُمر وباب شعوب . . قام بعمارته رسول من سلطان الهند يُعرف بالطواشي وكان قد جاء بهدية عظيمة للوزير محمد باشا سنة (١٢٠٨ هـ) . .

١٥ . **جامع عدل** : جامع عامر يقع في بئر العزب جهة (البونية) الىٰ باب (البلقة) وهو قديم البناء .

١٦ . **قبة المهدي** : وهي قبة الإمام المهدي عباس ، وتُعتبر من الجوامع الممتازة ، تقع غربي السايلة . . عمّرها الإمام المهدي لدين الله العباس بن المنصور حسين . . . . والجامع يمتاز بمفارشه الثمينة ، وفيه جملة من المصاحف المذهّبة وبعض المخطوطات . .

١٧ . **جامع الفليحي** : يقع عند حارة الفليحي في شمال صنعاء القديمة . . قام بعمارته الحاج أحمد بن عبدالله الفليحي . . وهو من أشهر جوامع التعليم لكثرة «منازله» المعّدة للمهاجرين من طلبة العلم . . .

١٨ . **جامع قارش** : يقع في بئر العزب شرقي جامع حنظل . . و (قارش) إسم عائلة من أهل صنعاء . .

١٩ . **قبة المتوكل** : وهي قبة المتوكل قاسم بن الحسين . . تقع عند باب السبحة ، قام بعمارتها الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين بن المهدي سنة (١١٣٩ هـ) . .

٢٠ . **جامع القاضي** : يقع في بئر العزب غربي جامع حنظل . . شيده القاضي علي بن حسن الأكوع في اواخر القرن الثاني عشر . .

٢١ . **جامع القصر** : يقع داخل قصر السلاح – خرائب وأطلال قصر غُمدان . .

٢٢ . **جامع القضاة** : يقع في بئر العزب شمال الطريق الصاعدة من باب السبحة الىٰ باب الروم . .

٢٣ . **جامع المستشفىٰ** : يقع في بئر العزب غربي باب البلقة جنوب قاع اليهود ، قام بعمارته الإمام يحيىٰ حميد الدين سنة (١٣٥٨ هـ) عندما شيد مستشفىٰ صنعاء .

٢٤ . **جامع موسىٰ** : يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من صنعاء القديمة . . ولايبعد كثيراً عن باب اليمن . . قام بعمارتة موسىٰ بن المكين في حوالي القرن الثامن للهجرة . . وقد أصلحه وشيد منارته الإمام المنصور بالله الحسين بن المتوكل قاسم بن الحسين بن الإمام المهدي احمد بن الحسن بن الإمام القاسم سنة (١١٦٠ هـ) . .

٢٥ . **جامع الهادي** : الهادي محمد بن المتوكل . . يقع في بئر العزب غرباً بالقرب من باب الروم . . قام بعمارته الإمام الهادي محمد بن المتوكل احمد بن المنصور سنة (١٢٤٨ هـ) . .

٢٦ . **جامع الهادي يحيىٰ** : يقع في قصر السلاح ، قام بعمارته الإمام الهادي يحيىٰ بن الحسين بن القاسم الرَسّي في القرن الثالث الهجري .. وقام الإمام يحيىٰ حميد الدين بتوسيعه وتجديد بنائه ..

٢٧ . **قبة الإمام يحيىٰ** : تقع عند باب السبحة – أو السباح – قام بعمارتها الإمام يحيىٰ بن محمد حميد الدين واكملها سنة (١٣٤٦ هـ) . . وهي ذات عمارة متقنة نفيسة الفراش . . وفيها خزانة كتب تحتوي علىٰ جملة من المصاحف المخطوطة المذهبة الثمينة . . ومخطوطات تراثية أخرىٰ . كما قام بانارتها بالكهرباء . . وأدخل لها الماء من (الغيل الاسود) ، ورتّب لها سادناً وإماماً ووقف لها أموالاً كثيرة . .[1]

١١ – أسواق صنعاء .

إذا أردت الإطلاع علىٰ الصورة الحقيقية للعاصمة (صنعاء) فعليك أن تدخلها من اكبر وأشهر أبوابها وهو (باب اليمن) الذي سيضعك مباشرةً في قلب هذه العاصمة . . .

وإنك حالما تجتاز عتبة هذا الباب التاريخي[2] ستشعر بأن كل شيئ تقع عليه عيناك في هذه المدينة القديمة قد صُنع لإدهاشك وإذهالك . . ولسوف تظل تحلم بأنك تعيش بين أساطير السندباد البحري وعجائب البساط السحري . . . !

وأول مايقع عليه نظرك من المرئيات هو الناس . . والناس هنا أخلاط من الأزياء والألوان والأشكال . . لاتدري أياً منهم هو النموذج الصحيح للشخصية اليمنية . .وقد سبق أن تحدثنا عن الأزياء المتنوعة لدىٰ أهل اليمن . . ولكنك حين ترىٰ تلك الازياء والأشكال رأي العين وهي تتحرك أمامك جيئةً وذهاباً . . صعوداً ونزولاً في الدروب الضيقة من صنعاء القديمة . . عندئذ فقط يمكنك أن تدرك أية صورةٍ (بانورامية) أنت تنظر اليها . . !

---

(١) معظم الشروح التي ذكرناها ازاء الجوامع أعلاه مقتبسة : بتصّرف وايجاز : من كتاب «مساجد صنعاء» لجامعها الحاج محمد بن أحمد الحجري اليمني – الطبعة الثانية – بيروت – دار احياء التراث العربي (١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م) . . والكتاب يضم (١٤٦) جامعاً ومسجداً في (صنعاء) ونحن لم نذكر منها إلا ماجاء أعلاه لأنه الأهم والاشهر . .

(٢) راجع المادة (٤ –) من القسم السابع من هذا الفصل (صنعاء) . .

فقد يُخيل إليك أن هذا الجمهور قد خرج لتوّه من بين صفحات التاريخ القديم . . ! تاريخ ملوك الطوائف . . أو تاريخ المماليك البحرية . . أو ماكان قبل ذلك أو ماصار اليه بعد ذلك . . !

وقد تكون عيناك تنطران الىٰ أحد الأمراء وهو يمر ممتطياً صهوة جواد عربي أصيل . . وقد أمسك العسكري المرافق له بطرف من ركاب الأمير وهو يعدو علىٰ قدميه الحافيتين ليواكب خطوات الجواد الواسعة . . . وفجأةً تقع عيناك علىٰ نسوة مبرقعات وريفيّاتٍ سافرات يرتدين مايمكن تسميته بنصف فروة من الجلود لاتكاد تستر صدورهن السمراء العارية . . وكذلك يفعل رجالهن ذوي الشعور الكثة النافرة من تحت عمائمهم الزرقاء الداكنة المتّسخة . . !

وقبل أن تتبين الملامح الخارجية للنسوة المبرقعات يمر من أمامك أناس بعمائمهم البيضاء من كل حجم وطراز يرافقهم عدد من العساكر يمشون من ورائهم وهم يحملون النارجيلات المزخرفة اللامعة . . فاذا سألت عن هؤلاء الناس والىٰ اين هم ذاهبون قيل لك بأنهم من موظفي الدولة من الفقهاء أو القضاة . . وهم في طريقهم الىٰ اماكن وظائفهم . . ومن ذلك تستنتج أن النارجيلة هي جزء لايتجزأ من موظف الدولة . . تلازمه ملازمة الظل لصاحبه . . !

ويمر بك رجال من القبائل ذوي بأس شديد بوجوه سمراء خضراء متجهمة . . يشدّون بأنطقتهم الجلدية العريضة علىٰ الخناجر في أغمدتها المعقوفة . . ورجال القبائل هؤلاء إنما جاءوا من أريافهم البعيدة لبيع ماتحمله جالهم من بضاعة في أسواق صنعاء . . وشراء مايحتاجونه من سلعٍ مهمة لاتتيسر إلا في هذه الأسواق . .

والأسواق في صنعاء القديمة عبارة عن مدن صغيرة داخل المدينة الكبيرة . . والدروب فيها ضيقة جداً . . فاذا تجمّع من حول الزائر الغريب جمهرة من الصبيان وجمهرة من الرجال الفضوليين تعذّر علىٰ الزائر الغريب أن يمشي خطوة واحدة . . أو يصل الىٰ أي مكان . . وأفضل الوسائل لحل هذه المعضلة هو ركوب الحصان إذا تيسر . .

وتنتشر الدكاكين علىٰ طرفي الدروب الضيقة التي تخترق الأسواق . . وهناك دكاكين صغيرة لايجد فيها صاحبها مكاناً يكفي لجلوسه هو نفسه . . ومع ذلك فلن يُعْدَم صاحب الدكان شبراً أو شبرين بين مفردات بضاعته ليضع عليها نارجيلته التي لايمكن أن يستغني عنها ابداً . . وقلما تجد في الاسواق حوانيت كبيرة نظراً لضيق فسحة الأرض في صنعاء القديمة . . .

نحن وإن كنا قد بدأنا الحديث عن أسواق صنعاء بصيغة الجمع . . إلا أن الواقع التاريخي يعتبر كافة الاسواق في صنعاء القديمة سوقاً واحدةً ويسميها (سوق صنعاء) باعتبارها من أسواق العرب المشهورة منذ زمن الجاهلية . . وربما منذ تاريخ اليمن القديم . . وقد كانت سوق صنعاء سوقاً موسميةً من أسواق العرب . . ومازالت علىٰ ذلك الطابع الموغل في القِدم . .

وكان لهذه السوق مكانة وحرمة تقليديتين لأن أهلها حرّموا الاقتتال فيها مهما بلغت درجة الخصومة والعداء بين شخصين أو فريقين . . وهذا مما كان يساعد القبائل علىٰ إنجاز صفقاتهم التجارية مهما كانت حالة الإحتراب والاقتتال بينهم في مناطق سكناهم . . ! وفي نظرنا . . أن سوق صنعاء هذه يمكن اعتبارها بمثابة سوق مركزية عامة تضم عدة أسواق ثانوية متخصصة في كافة أنواع المبيعات . .

ولم يتبدل نظام السوق القديم في صنعاء خلال الألف عام الماضية إلا القليل . . ففي هذا السوق توجد (٤٠) أربعون حرفة يدوية وتجارية . . ويختار أصحاب كل حرفة رجلاً يسمىٰ شيخ تلك الحرفة . . مثال ذلك : شيخ الحدادين ، شيخ النجارين ، شيخ الصاغة . . الخ . ويقوم هذا الشيخ بالاشراف علىٰ تنفيذ التعليمات والنظامات التي اتفق عليها كافة اصحاب الدكاكين المختصين بتلك الحرفة . . ولما كان الكثير من البضائع يبقىٰ مطروحاً علىٰ الارض خارج الدكاكين ليلاً ونهاراً وأن كافة ابواب السوق تنغلق من بعد صلاة العشاء وحتىٰ صباح اليوم التالي . . فان هناك شيخ آخر يسمىٰ (شيخ الليل) يكون مسؤولاً عن سلامة بضائع التجار . . يعاونه في ذلك عدد من الحراس الليليين الذين يجلسون في نقاط مراقبة خاصة تكون غالباً علىٰ أسطح الدكاكين . . ويكون هؤلاء الحراس علىٰ اتصال دائم فيما بينهم عن طريق تبادل الرؤية والنداء بأصوات خاصة . .

إن جميع البضائع المستوردة الىٰ السوق يجري تسجيلها وإخضاعها للنظام الكمركي ويتم ذلك في محل خاص يسمىٰ (سَمْسَرة الميزان) وهو مكان – تحدثنا عنه آنفاً – يأوي اليه أصحاب الحيوانات التي نقلت تلك البضائع المستوردة من الداخل أو الخارج . واكبر السمسرات المشهورة في صنعاء كانت سمسرة محمد حسن . .

ومن الصناعات اليدوية التي تلفت النظر في سوق صنعاء هي صناعة (الجنبيات) أي الخناجر ذات الأغمدة المعقوفة . . وهي صناعة رائدة ورائجة جداً لأنها تتعلق بتقليد اجتماعي خاص . . إن كل (جنبية) تمر في أربعة مراحل انتاجية تستلزم العمل الجادّ الدؤوب . . وكل مرحلة من تلك المراحل يقوم بها صناع مختصون تختلف أعمالهم باختلاف تلك المراحل الاربعة . . فالمرحلة الاولىٰ هي صنع النصل الفولاذي . . والمرحلة الثانية هي صقل النصل . . والمرحلة الثالثة هي صنع القبضة ، والقبضة هي أثمن أقسام الجنبية ، والمرحلة الرابعة هي صنع النطاق . . والنطاق إما أن يكون بسيطاً من الجلد عليه بعض النقوش البسيطة . . أو يكون مزخرفاً ومزكرشاً بخيوط الذهب والفضة . . وتتراوح أسعار الجنبيات مابين (٢٠ – ١٠٠) ريال [خلال الأعوام ١٩٤٠ – ١٩٤٣] . . وربما زادت علىٰ ذلك تبعاً لنوعية القبضة والمادة المصنوعة منها ونقوشها وزخارفها . .

والصناعة اليدوية الثانية في الأهمية والمفات النظر هي صياغة الذهب والفضة . . وربما اختص اليهود بصياغة الفضة دون الذهب فإن لهم حوانيتهم الخاصة بذلك في حيّهم (قاع اليهود) . . والىٰ جوار سوق الجنبيات يقوم سوق (المداعات) أي النارجيلات . . وهناك مداعات تُصنع محلياً في هذه السوق . . وهناك مداعات يستوردونها من الهند . . خاصةً الزجاجية منها . . .

وفي الجهة الغربية من السوق يوجد الحدادون والنجارون . . ويشتغل الحدادون علىٰ شكل جماعات صغيرة يروّحون عن أنفسهم بترديد بعض الأغنيات الشعبية الخاصة . .

وأما سوق الفخاريات والخزفيات فاننا نجد فيها أنواع الجِرار والقُلَل والجِفان الخاصة بالمطبخ اليمني . . وخير انواع الفخاريات والخزفيات ماكان مصنوعاً في بلدة (حَيْس) الواقعة مابين (تعز) و (زبيد) .

وفي الجهة الشمالية من السوق تقوم صناعة صبغ الأحجبة النسائية المسماة بـ (أللِّثْمَة) أو (المُعْمُق) أي البرقع وهو حجاب من القماش الخفيف ذو مسامّ دقيق منقوش عليه بالأصباغ الثابتة دوائر بيضاء وحمراء بحجم الريال التمساوي ماريا تريزا . .

وسوق الحبوب يتوسط جميع الاسواق تقريباً وتباع فيه أنواع الغلال المنتجة محلياً . . وقلما استوردت اليمن حبوباً من الخارج وذلك في سنوات الجدب عند انحباس الأمطار . . وفي نفس السوق تباع البقول المختلفة . .

ولعل من الأسواق المهمة سوق التوابل التي لايمكن أن يخطئها الانسان نظراً لانتشار روائحها الزكية مثل الكمون والفلافل والهايل (الهيل) والقرنفل والكزبرة وحبة السودة وحبة الحلوة والزعتر (الصعتر) والدار صيني والزنجبيل . . والخ . .

ويعتبر سوق النحاس في صنعاء من الاسواق التحفية ، تماماً كسوق الصفافير عندنا في العراق . . حيث تباع انواع الادوات والأواني النحاسية الحمراء والصفراء المزخرفة بابدع النقوش واكثرها دقة . . وبالقرب من هذه السوق تباع العمائم المزكرشة يدوياً وكذلك الأنطقة النسيجية . . وحتىٰ عِصيّ التوكؤ الىٰ جانب الكتب الدينية . .

ومهما حاولنا الإيجاز والإعجاز فلن نستطيع الإحاطة الشاملة بكل أسواق صنعاء ومحتوياتها . . وليس بوسعنا إلا أن ندرج فيايلي مفردات أسماء تلك الأسواق . . وعلىٰ قدرما تُسعفنا ذاكراتنا المكدودة . . ومن الله التوفيق :–

١ . سوق البَزّ – أي سوق الأقمشة والخامات . .

٢ . سوق الحرير – أو سوق الفَتْلَة . .

٣ . سوق الكوافي – أي الكوفيات التي تغطي بها النساء رؤوسهنّ . .

٤ . سوق المِعْطارة – أي العطارين . .

٥ . سوق الشمع . .

٦ . الحَلَقة – أي سوق (الخردوات) . . وتباع فيه الأواني الصينية (البورسلين) أي الفرفوري . . كما تباع المسابح والسلاسل والاساور الزجاجية . . وغالب باعتها ليست لهم دكاكين . . بل يجلسون علىٰ كراسي فوقها مضلات وأمامهم مايشبه المناضد الخشبية يعرضون عليها بضاعتهم . .

٧ . سوق السمن والسليط – والسليط هو الزيت النباتي . . غالبه من السمسم . .

٨ . سوق القاز – أي النفط الأبيض .

٩ . سوق القشر – أي قشر البن الذي يستعمله اهل اليمن بدلاً من الشاي . .

١٠ً . سوق التنباق – اي التنباك .

١١ً . سوق التتن الأسود – أي التبغ الأسود ويُعرف بـ (التتن الحميري) . .

١٢ً . سوق السَّلَب – وهو الليف الذي تُصنع منه الحبال وغيرها . .

١٣ً . سوق الحَبّ – الحنطة ، الشعير ، الذرة[1] . .

١٤ً . سوق الملح – حيث يباع الملح . . وقيل (المِلَحْ) حيث تباع الاشياء المليحة (الأنتيكات) . .

١٥ً . سوق الزبيب واللوز والجوز والبندق وما الىٰ ذلك . .

١٦ً . سوق الحِنّاء – وفيه يُباع ايضا (القَرَض) وهي مادة (النورة) البديلة للاسمنت ، وقد تحدثنا عنها مراراً . .

١٧ً . سوق القات – والقات علىٰ ثلاث درجات : المليح – أي الممتاز الخالي من الشوائب . . المتوسط – . . الاعتيادي . .

(المُقَاوْتَة) – جمع (مِقْوت) – أي بائع القات . .

(البراكس) – جمع (بركَس) – مجموعة من ربطات القات تُلفّ علىٰ شكل بيضوي وسط أغصان طريّة من شجرة تسمىٰ (العثرب) لحفظ طراوة القات ، وتُلفّ بعد ذلك بورق شجر الموز . .

(المتمرقح) – أي الشخص الذي يتعاطىٰ القات . .

١٨ً . سوق اللُّقمة – أي الخبز .

١٩ً . سوق العنب . . وما إليه من فواكه . .

٢٠ً . سوق الغنم . . (المُصْلِحْ) في سوق الغنم والبقر وما إلىٰ ذلك هو الدلال أو الوسيط بين البائع والمشتري . . والأجرة التي يتقاضاها عن ذلك تسمىٰ (الصُلْحة) . .

٢١ً . سوق البقر والبهائم .

٢٢ً . سوق الجِمال . .

٢٣ً . سوق الخيل والبغال والحمير . .

٢٤ً . سوق العلف .

٢٥ً . سوق الحطب . . وأخشاب البناء .

٢٦ً . سوق القصيب – أي القصب .

٢٧ً . سوق اللّساسين – الذين يبيعون طبيخ (البُرْمَة) المؤلفة من العدس واللوبيا اليابسة ، وهو طعام شبيه بالعصيدة أو نحوها . . ويعرفها أهل الموصل جيداً . .

٢٨ً . سوق المَصَاوِن – جمع مِصْون ، هو النقاب الذي تستر به النساء الريفيات رؤوسهنّ . .

٢٩ً . سوق الصبّاغين والقصّارين . .

٣٠ً . سوق المخايطة – أي سوق الخياطين . .

٣١ً . سوق الأَوْطِفَة – حيث تُصنع أجلّة الدواب ، جمع (جْلاَل) . .

٣٢ً . سوق البشامِق – جمع (بَشْمَق) أي الحذاء البلدي . .

٣٣ً . سوق المِنقالة – أي الاسكافية ، تصليح الأحذية . .

٣٤ً . سوق المِجْدادة – أي الحدادين .

٣٥ً . سوق الجَنابي – جمع (جنبية) ، أي الخنجر ذو الغمد المعقوف .

٣٦ً . سوق الفضة . . الذهب . .

٣٧ً . سوق المنجارة – أي النجارين . .

(١) وتباع الحبوب كيلاً بمكيال قياسي يسمىٰ (المُدَحْ) وهو يساوي ملئ صفيحتين من صفائح النفط أو البنزين الخالية . ولتشجيع الفلاحين علىٰ جلب حبوبهم الى (صنعاء فقد جعلوا القدح الريفي يساوي (١ $\frac{3}{4}$) أو (١ $\frac{1}{2}$) أو (١ $\frac{1}{4}$) من القدح الصنعاني . . وذلك حسب جودة الحبوب بالنسبة لمناطق مختلفة .

٣٨ً . سوق المجرين – صانعوا (المجاري) جمع (مجرىٰ) وهو خشب البنادق . .

٣٩ً . سوق النحاس – حيث تُصنع كافة انواع النحاسيات بما فيها المباصق الخاصة بمجالس القات . .

٤٠ً . سوق السباكين – الذين يصنعون العقود الزجاجية الملونة التي تُنصب فوق نوافذ المنازل .

٤١ً . سوق المبساطة – حيث تباع الملابس المستعملة ونحوها .

مفردات إصطلاحية في لغة الأسواق باليمن :

أهل المِهَرْ – أهل المهارات . . أرباب المهن . . أرباب الحِرف .

الكسّارين – هم الذين يبيعون بالتجزئة . . بالمفرد . .

الحِوَك – جمع حائك . . .

الجَلاّب – المُستورِد ، أو الذي يجلب البضاعة الىٰ السوق . .

المغاود – هو الذي يشتري البضاعة من الجلاّب .

التَّصْدور – أي التصدير . . تصدير البضاعة . . وتصدير الكتب والرسائل . .

المُفَالْقَة – جمع (مُفلِق) أي كسّار الخشب للوقود . [والفعل من ذلك : تفلوق – أي تفليق] . .

تَسْعور البضاعة – أي تسعيرها . .

التطبيقة – تركيب الأنعلة الحديدية للدواب . .

الدَجْلة – الذي يمسك ساق الحصان أو الفرس عند تركيب النعل . .

العَمّار – أي المعمار . . البنّاء . ألأوسطي الكبير . الأوسطي التابع –أي الخِلْفة . .

المُوقّصْ – الذي يُسوّي الاحجار للعمّار . .

الملاّج – الذي يملج الجدران بالطين المتخمر . .

الخُلَبْ – الطين . .

الاسقالة – اي السِقالة . .

المجصّص – الذي يشتغل بالجصّ أو (المصيص) أي الجبس . وإسم الجمع من المجصّص – المُجاَصِّصَة .

البَدْع – البدء – يقلبون الهمزة عيناً . .

المُقَضِّض – الذي يشتغل بالقضَاض . . ، وإسم الجمع منه المُقاضِضَة .

الشاقي – العامل البسيط في أي عمل ، وخاصة في أعمال البناء ، وأهل اليمن يلفظون القاف (ق) كافاً . . فيقولون : الشاكي .

وتباع مادة القضاض – أي النورة ، كيلاً بالقدح وهو وحدة الكيل القياسية التي تساوي ملئ صفيحتين من صفائح النفط او البنزين الخالية .

وبمناسبة الحديث عن اسواق صنعاء ، أو بالاحرىٰ سوق صنعاء ، وددنا أن نذكر شيئاً عن أسعار المواد المعاشية خلال ثلاث فترات زمنية مختلفة . . وذلك لاعطاء صورة عامة واضحة عن مدىٰ استقرار المستوىٰ المعيشي في اليمن بالنسبة لاختلاف الأوضاع في تلك الفترات الزمنية . .

الفترة الأولىٰ – بعد الحرب العالمية الاولىٰ (١٩١٤ – ١٩١٨) حينما وصل السيد أمين الريحاني الىٰ اليمن في عام ١٩٢٢ فقد كتب الرجل في الصفحة ١١٢ من الجزء الاول يقول :–

[. . لم تتأثر اليمن لاأثناء الحرب ولابعدها من غلاء حاجات المعيشة . . لأن أرضهم تُطعمهم وأنوالهم تكسيهم . . فلا يحتاجون الىٰ غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . . وإليك بعض الأسعار :

لحم الضأن – ثمن الرطل (٤) أربعة غروش .

لحم البقر – ثمن الرطل (١٠) عشرة غروش .

السمن الحيواني – ثمن الرطل (٣٥) خمسة وثلاثون غرشاً .

القمح – ثمن القدح (٦٠)ستون غرشاً – (القدح = (٤٠) أقة،والأقة في اليمن = $1\frac{3}{4}$ كيلو . والريال النمساوي = (٢٠) غرشاً يمنياً ويساوي (١٠) غروش مصريه) .

البطاطس – ثمن القدح (٢٠) عشرون غرشاً .

والإيجار الشهري لدار السكن يتراوح من (٢) الىٰ (٦) ريالات نمساوية حسب جودة الدار] .

الفترة الثانية – خلال الحرب العالمية الثانية عندما كانت البعثة العسكرية العراقية في اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) . . أقول عنها : بأنه رغم مرور (١٨) ثمانية عشر عاماً علىٰ رحلة السيد أمين الريحاني الىٰ اليمن . . فقد ظلت تلك الاسعار ، التي ذكرها الريحاني ، علىٰ مستوياتها إن لم تكن قد انخفضت نسبياً في بعض الأشياء . . فقد كنتُ شخصياً أسكن داراً لابأس بها في حي بئر شمس من منطقة (بئر العز) بايجار شهري قدرة (٥) خمس ريالات نمساوية . . وهو مايساوي في حينه ($\frac{1}{2}$) نصف دينار عراقي . . !

وكنا نشتري طبقاً عامراً من الموز أو العنب اليمني الرائع بما لايزيد علىٰ الريالين . . والطبق من الموز أو العنب يحتوي علىٰ مالايقل وزنه عن (٧) الىٰ (١٠) كيلوغرام . . أي أن سعر الكيلو الواحد كان يتراوح مابين (٢٠) الىٰ (٢٥) فلساً لأجود انواع العنب والموز في أول الموسم . . ثم تنخفض الاسعار الىٰ أقل من ذلك كلما تقدم الموسم . .

الفترة الثالثة – منذ عام ١٩٤٨ فما بعد . . . والأسعار في سُعار شديد لايكاد يصدقه العقل . . ! فأخبارها تصل إلينا من خلال عدة قنوات . . منها الزيارات والمراسلات المتبادلة مع الأصهار وقُدامىٰ الاصحاب والزملاء . . ومنها مايصل الينا علىٰ أجنحة الأثير . . ومنها ماتراه العين علىٰ شاشة التلفاز . . !

فبعد أن كان بدل الإيجار الشهري لدار السكن الجيدة لايزيد علىٰ (٦) ريالات نمساوية – أي حوالي (٦٠٠ / –) ستمائة فلس أو أقل أصبح اليوم بضع مئات من الريالات الورقية . . !

وبعد أن كانت صفيحة السمن الحيواني الممتاز (الدهن الحُرّ) تباع بما لايزيد علىٰ (١٠) عشر ريالات نمساوية . . أصبح سعرها اليوم بعشرات الريالات الورقية وليست من (السمن الحُرّ) ولله تعالىٰ في خلقه شؤون . . . !

١٢ – اليهود في صنعاء .

أولاً . الوجود التاريخي ليهود اليمن

كان وصول اليهود الىٰ اليمن قد تم علىٰ يد الملك الحميري (تبان أسعد أبوكرب) في القرن الخامس الميلادي . . فقد قام هذا الملك بغزو مدينة (يثرب) في الحجاز لأسباب معروفة في التاريخ . . فجاءه إثنان من أحبار يهود فَروَّجا له الديانة اليهودية فاستحبّها . . واصطحب معه الحبرين اليهوديين الىٰ اليمن . . وهناك دعا قومه لاعتناق اليهودية فأجابوه علىٰ ذلك . . وبلغت اليهودية ذروة سلطانها في اليمن عندما حكم الملك الحميري (ذو نوّاس) في أوائل القرن السادس الميلادي . . وأرغم النصارىٰ علىٰ الدخول في اليهودية . . وقد أشار القرآن الكريم الىٰ ذلك في سورة البروج :

* «. . . . قُتِلَ أصحابُ الأخدود * ألنارِ ذاتِ الوَقُود * إذْ هُمْ عليها قُعود * وهُم علَىٰ مَا يفعلونَ بالمؤمنينَ شُهود . . . .» .

ثانياً – اليهود والمجتمع اليمني .

في اليمن – حالياً ١٩٤٠ – ١٩٤٣ – مايقرب من ~~أحد عشر~~ ألفاً من اليهود (١) . . منهم نحو خمسة الآف نسمة تسكن (قاع اليهود) في صنعاء . .

واليهود في صنعاء ، من حيث كونهم يهوداً ، هم جزء لايتجزأ من العنصر اليهودي ليس في اليمن فحسب . . بل وفي العالم بأسره . . إلا أن وجودهم بين أمم وشعوب وأقطار مختلفة هو الذي جعلهم يختلفون في الكثير من المميزات الاجتماعية التي يفرضها عليهم المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه . .

فاليهودي الذي كان يعيش في المجتمع الموصلي (الموصل) في العراق قبل نصف قرن من الزمان (٢) . . لم يكن ليأنف من الاشتغال بمهنة الإسكافية (تصليح وترميم الاحذية المستعملة) . . وهذا مالم يكن يقبله يهود أوربا أو أمريكا أو حتىٰ روسيا في نفس التاريخ . .

(٢) وهذا التقدير الزمني بالنسبة الىٰ الأعوام (١٩٤٠ – ١٩٤٣) .

القصاصة : الهامش (١) للصفحة ١٥٢ ، ويبدّل رقم الهامش (١) المطبوع الى (٢)

(١) في الصفحة (٧٨) من كتابه الموسوم " مذكراتي " المطبوع في القاهرة ١٤٠٣هـ يذكر السيد زيد علي عنان الصنعاني قوله عن مجمل تعداد اليهود في اليمن قبل رحيلهم منها بعد عام ١٩٤٨: (... وبلغ عددهم الى أن غادروا اليمن خمسون ألفا فقط)٠ ولكن هذا الرقم غير موثق بالدليل القاطع٠٠ اذ لم تكن هناك في حينه أيّة احصائيات رسمية لسكان عموم اليمن أصلا٠٠ بما في ذلك احصاء عدد الذكور من يهود اليمن الذين كانوا يدفعون الجزية الشرعية لحكومة الامام يحي ٠٠ !

واليهودي الذي كان يعيش في المجتمع السوري قبل نصف قرن من الزمان لم يكن ليرضىٰ بالاشتغال في مهنة كناسة الشوارع . . ولكن اليهودي في اليمن ، بوجه عام ، وفي العاصمة صنعاء بوجه خاص لم يكن يأنف من الاشتغال حتىٰ بمهنة تنظيف المراحيض . . وتجفيف محتوياتها ثم بيعها كوقود لأصحاب الحمامات الأهلية العامة كما سبق الكلام عنه آنفاً . . ! علىٰ أن لهذه الظاهرة وجه آخر يستوقف النظر . . وبعد التأمل قليلاً نجد انفسنا أمام هذا السؤال : إذا أضرب يهود صنعاء عن تنظيف مراحيض المسلمين . . والمسلمون يأنفون كل الأنفة عن القيام بمثل هذا العمل الوضيع . . فكيف السبيل الىٰ حل هذه المعضلة المستعصية . . ؟

قيل بأن الجزارين في اليمن هم أدنىٰ فئات المجتمع منزلةً ماعدا اليهود . . وقد ذكر البعض أن جزءاً من السور المحيط بصنعاء سقط من مكانه في أحد الأيام ، وبناءً علىٰ تقليد قديم . . صدرت الأوامر من عامل صنعاء بأن يقوم الجزارون باصلاح السور . . فما كان من الجزارين الا أن رفعوا أسعار اللحوم مما أدىٰ الىٰ حبس المحرضين منهم . . فأضرب كل الجزارين عن بيع اللحوم . . وبعد أسبوع إضطر عامل صنعاء الىٰ الإفراج عن المحبوسين . . وقامت الحكومة باصلاح السور . . ولكن أسعار اللحوم لم تنخفض . . . !

نستنتج من هذه الرواية ، الصحيحة أو الموضوعة ، أن الجزارين الذين رفضوا القيام باصلاح السور . . لابد وأنهم سيرفضون بكل شدة القيام بتنظيف المراحيض . . . !

وهناك رواية اخرىٰ تقول بأن حماراً هزيلاً نفق ذات يوم تحت حمله الثقيل في أحد الدروب الضيقة في صنعاء القديمة . . فاضطر صاحبه الىٰ تركه . . وقام هو بدور الحمار فرفع الحمل الثقيل علىٰ منكبيه ومضىٰ في حال سبيله وهو يلعن حماره الذي نفق في ساعة العسرة . . !

ولم يتقدم أحد من المواطنين لازاحة الحمار الميت عن طريق الناس . . وفي اليوم التالي جيَّف الحمار الفاطس وانتشرت رائحته القاتلة في الهواء . . فضاق الناس ذرعاً بالحمار فشكوه الىٰ عامل صنعاء . . وكلهم علىٰ ثقة بأن العامل لن يُخيّب لهم رجاءً يتعلق بصحة سكان العاصمة . . ولكن العامل خيّب ظنهم ، والحجّة معه . . حين قال لهم : لاأمل في إزاحة الحمار عن طريق المسلمين هذا اليوم . . فلما سألوه عن السبب قال وهو يُمَسِّد في لحيته : أنسيتم يامعشر المسلمين أن اليوم هو يوم سبت . . ؟ ! فما كان من معشر المسلمين إلا أن صبّوا جامّ غضبهم وسخطهم علىٰ يهود صنعاء جميعاً دون تفريق ولاتمييز بين تجار اليهود وبين منظفي المراحيض منهم . . !

ترىٰ . . ماالذي فعله عامل صنعاء وأهل صنعاء في حل هذه المعضلات بعد رحيل اليهود عن اليمن الىٰ أرض الميعاد المزعومة بعد عام ١٩٤٨ ؟ ! لا أدري . . .

علىٰ أن هذا كله لايعني أن اليهود في اليمن لم يكونوا يعملون في غير هذه المهن الوضيعة . . كلا . . بل فيهم من يعمل في التجارة وفيهم من يعمل في الصناعة وآخرون في الزراعة وغيرهم في البناء . . ومنهم من يعمل في غسل ملابس الأجانب وكيّها حسب الأصول . .

وكما يعمل الرجال من يهود اليمن في شتىٰ الأعمال . . كذلك تعمل نساؤهم في كثير من الأعمال بما فيها الخدمة في بيوت الموسرين وبيوت الأجانب العاملين في اليمن إن كانت لهم عوائل . .

أما في ميدان التجارة . . فبامكاننا القول : أن حفنة صغيرة من التجار اليهود في اليمن كانت تسيطر علىٰ دفة التجارة في اليمن بالتعاون الوثيق مع التجار الكبار من يهود (عدن) . . .

وأما في الصناعة . . ففي كل باب من أبوابها مفتاح يهودي الىٰ جانب المفتاح المسلم . . فصاغة الفضة والذهب من اليهود يقفون وقفة الند للند مع الصاغة المسلمين . . ولكن المسلمين يزيدون علىٰ اليهود في احتكارهم صنعة النقش والحفر علىٰ النحاس . . ويزيدون أيضا في احتكار صنعة (الجنابي – جمع جنبية) وهي الخناجر اليمنية ذات الأغمدة المعقوفة . . واليهود بطبيعة منزلتهم الإجتماعية الوضيعة في اليمن لايحق لهم أن يقتنوا أو يحملوا أي نوع من الاسلحة . . فيكون من الطبيعي عدم اشتغالهم بصنع الخناجر . .

ويقابل هذه الاحتكارات الصناعية المسلمة . . احتكار اليهود لصناعة الخمور . .

ومن الصناعات والأعمال التي يعمل بها الفريقان . . النجارة والحدادة والبناء وصنع الأحذية وصنع الحلويات وصنع الفُرش المنزلية علىٰ اختلاف أنواعها كالمطارح والوسائد واللّحُف والملاءات والستائر وما الىٰ ذلك . .

ولقد تعلّم يهود صنعاء – ولم يتعلم غيرهم . . – صنعة غسل الملابس الأجنبية وكيّها بشكل حسن مع ضبط المواعيد في إعادتها الىٰ أصحابها بكل دقة . .

وإن أنسىٰ لاأنسىٰ اليهودي (شمعون بن اسحاق) الذي كان يغسل لنا ملابسنا المدنية والعسكرية خلال الستة اشهر الاولىٰ من وصولنا الىٰ اليمن . . فان هذا اليهودي بالاضافة الىٰ جودة عمله – أو عمل أهل بيته – في الغسيل والكيّ فقد كان صادقاً في مواعيده لم يُخلف معنا موعداً واحداً علىٰ الاطلاق . . وكم كان هذا السلوك الحسن من قبل (شمعون) يؤلمنا حينما يكذب علينا أحد المستخدمين في دار الضيافة (دار الصناعة) الذي أقمنا فيه عند وصولنا الىٰ صنعاء . . فيقول هذا المستخدم ، علىٰ سبيل المثال ، بأنه قد اشترىٰ لنا أربعة ارطال من لحم الضأن بينما في الواقع لم يشتر اكثر من ثلاثة أرطال . . . وهكذا . . ! ،

ثالثاً . **اليهود والدولة في اليمن .**

ويهود اليمن لاسبيل لهم بتاتاً الىٰ وظائف الدولة ومناصبها . . كما أنهم لايقومون بأية خدمة في الجيش . . فهم معفوون منها لقاء مايدفعونه من جزية بسيطة للدولة . . تماماً كماكان يفعل اسلافهم في كل العهود الاسلامية . . ويقوم عمال الدولة (أي المحافظون أو المتصرفون) بتعداد الذكور من اليهود وتقدير ثروة كل منهم ثم فرض الجزية عليهم بالنسب التالية :–

(٣) ثلاث ريالات في السنة علىٰ الاغنياء . .

(٢) ريالان في السنة علىٰ متوسطي الحال . .

(١ $\frac{1}{2}$) ريال ونصف الريال في السنة علىٰ الفقير . .

ويتمتع اليهود – لقاء ذلك – بحماية الدولة لهم . . فلا يُعتَدىٰ عليهم بدون جريرة . . ولتأمين المزيد من الحماية لهم . . فقد أرتأىٰ الإمام يحيىٰ أن يستقل اليهود في حيّ خاص [1] بهم يمارسون فيه حريتهم الكاملة مالم يُسيئوا استعمالها ويُلحقوا الضرر بسمعة الدولة أو ببعضهم البعض أو بالمسلمين . . لذلك فقد خصص لهم مساحة كبيرة من الارض تبعد عن الأسوار الغربية لصنعاء القديمة بحوالي (١ – ١ $\frac{1}{2}$) كيلومتر . . ثم أحاط هذا الحي بسور وأبراج علىٰ غرار سور صنعاء وأبراجه وجعل له بابان شرقيان للخروج منهما باتجاه صنعاء القديمة . . وباب ثالث في الجهة الغربية للخروج منه الىٰ مقابرهم الخاصة . . ولكنه شدد الحراسة علىٰ هذه الأبواب . . ومنذ ذلك الحين وهذا الحيّ اليهودي يُسمىٰ بـ (قاع اليهود) . . وهو حيّ – كما أسلفنا في مطلع حديثنا عن صنعاء – مكتفٍ بذاته من جميع الوجوه . . .

وعلىٰ الرغم من ذلك . . فقد نجد عدداً غير قليل من اليهود لهم حوانيتهم وتجارتهم في اسواق المسلمين أو مناطق المسلمين . .

وربما كان (الصُبيري) هو أشهر تاجر يهودي في صنعاء له متجر كبير وشهير في قلب منطقة (بئر العزب) . . في ساحة (شرارة) . . وهذا المتجر لم يكن يبعد اكثر من مائة متر فقط عن دار وزير الخارجية (القاضي محمد راغب بك رفيق) ، و (١٥٠) متراً عن دار أمير الجيش المظفر (السيد علي بن ابراهيم) . . و (٨٠) متراً عن باب (المدرسة العلمية المتوكلية) التي تحدثنا عنها آنفاً مرتين . . .

وكان متجر الصبيري هذا متخصصاً في بيع أجود أصناف الأقمشة الأجنبية وعلىٰ اختلاف انواعها . . وليس هذا فقط . . بل إن (الصبيري) كان لايتردد عن تقديم أية خدمة لأي أجنبي أو شخصية يمنية معروفة يتوقف علىٰ تلك الخدمة حصول ذلك الشخص علىٰ حاجته المالية أو التجارية من (عدن) . . !ولذلك كان متجر (الصبيري) ليس مجرد مكان يلتقي فيه الأجنبي . . بالأجنبي . . بل كان شبه (منتدىٰ) أو (مجلس) يحضره هؤلاء الاجانب ، ونحن منهم ، لقضية بعض الوقت عصراً . . أو صباحاً من أيام الجمعة . .

(١) لم أستطع الوقوف علىٰ خبر اليهود في صنعاء ولافي اليمن إبان الحكم العثماني الطويل في اليمن من حيث أحوالهم الاجتماعية . . وأين كانوا يسكنون قبل عزلهم أو انعزالهم في (قاع اليهود) . . ولكن الذي أعرفه ان نشوء (قاع اليهود) يتزامن تاريخه مع تاريخ تطور صنعاء القديمة . .

وكان هذا الصبيري قد حصل في الثلاثينات علىٰ موافقة الإمام يحيىٰ لاستيراد نماذج من الأسلحة الخفيفة من المانيا وايطاليا لتسليح الجيش اليمني بها . . ولكن الإمام خيّب أحلام الصبيري في آخر الشوط . . وظلت نماذج بعض تلك الاسلحة تدق في كبد الصبيري حتىٰ آن الأوان لرحيله الىٰ ارض الميعاد المزعومة في عام ١٩٤٨ / ١٩٤٩ . . . !

ولقد تيسر لي في حينه أن اشتري من (الصبيري) قطعتين من تلك النماذج . . إحداهما حربة بندقية والأخرىٰ حربة ضباطية قصيرة ذات غمد مطلي بالكروم وقبضة مزخرفة جميلة . . ولم يطلب الصبيري ثمناً لها اكثر من دينار عراقي واحد كان يساوي يومها (١٢) ريالاً نمساوياً . . ! ولا زلت احتفظ بالقطعتين المذكورتين حتىٰ يومنا هذا . .

ومن مظاهر حماية الدولة لليهود في اليمن أنه إذا اعتدىٰ أحد المسلمين علىٰ أي يهودي . . صاح اليهودي علىٰ ملأ من الناس وبأعلىٰ صوته : [أنا في ذمة الإمام] إذا كان قد قرر الشكوىٰ لدىٰ الإمام ، أما إذا كان قد عزم علىٰ أن يلوذ في حماية العامل – أي المحافظ – فيصيح : [أنا في ذمة سيدي – فلان –] ويُسمّي إسم العامل . . وعندئذ يذهب اليهودي الىٰ حيث قرر أن يرفع شكواه لمقاضاة غريمة . . وعلىٰ هذا الغريم أن يرافقه حتماً من غير حاجة الىٰ شرطة ولاعساكر . . فاذا حضر الخصمان جرت المحاكمة في الحال وصدر الحكم في الحال من غير حاجة الىٰ الشكليات ،والروتين ومضيعة الوقت وضياع الحقوق. . ! ولن يستطيع المشتكىٰ عليه أن يتخلف أو يتأخر عن حضور المحاكمة . . لأنه إن فعل ذلك جرّد العامل مفرزة من العساكر العاملين تحت أمرته . . فيذهب هؤلاء الىٰ دار المشتكىٰ عليه فيعسكرون قبالة داره يوماً أو يومين أو أكثر يكون المشتكىٰ عليه ملزماً باطعامهم وإسقائهم وصرف يومياتهم وتقديم (القات) والتنباك لهم حتىٰ يقرر العامل رفع هذا الكابوس اللعين عن ديار المشتكىٰ عليه والأمر باحضاره للمحاكمة . . هذا فضلاً عن احتمال تشديد العقوبة عليه بسبب التخلف أو التأخر . . !

رابعاً – **الطابع الخاص بمساكن اليهود وأماكن عبادتهم .**

إن بيوت اليهود في (قاعهم) المنعزل تتّسم بالبساطة . . وعدم تعدد الطوابق فيها إذ لايُسمح لأي منهم بأكثر من طابقين : طابق أرضي مشيد بالحجارة . . وطابق علوي غالباً مايكون بناؤه باللّبن (الآجر غير المفخور) . . والقاعدة الاجتماعية التي حددت الطابق والطابقين لمساكن اليهود هي نفسها التي حددت عدم الجواز لليهودي اليمني أن يركب الجياد ويجوز له مادون ذلك . . لكي لايطاول سادة البلاد في أي شيء . . وكان هذا جزاءً وفاقاً لليهود الذين زعموا أنهم شعب الله المختار ويريدون إذلال بقية الشعوب . . . !

يجوز لليهود أن يستعملوا العقود الجبسية المزخرفة بقطع الزجاج الملونه . . والواقع أن أفخم العقود الجبسية في قصور الإمام يحيىٰ واولاده وسادة رجال دولته هي من صنع اليهود . . !

وفي قاع اليهود نجد الدور اكثر التصاقاً ببعضها البعض مما هي عليه في دور صنعاء القديمة . . حتىٰ ليُخيّل للناظر أنها متداخلة فيما بينها . . والسبب في ذلك طبعاً ضِيق مساحة الأرض المحصورة بالسور والأبراج منذ عشرات السنين . .

ومعابد اليهود (الكُنُس – جمع كنيس) هي الاخرىٰ في غاية البساطة . . بل هي لاتكاد تُرىٰ بالعين عند المرور بها . . وكثيراً مايرىٰ الانسان وهو يتجول في دروب قاع اليهود جماعات صغيرة من الناس تخرج من باب صغيرة لأحد المباني غير البارزة وفيهم رجال نحاف القوام شاحبو الوجوه مع نسوة يسترن رؤوسهن بمناديل كبيرة سوداء ذات حواشي مطرزة بخيوط الفضة . . وأطفال عُلّقت في اعناقهم وعلىٰ ملابسهم أنواع من التمائم لتحرسهم من شرور الجن والشياطين . . ! إن هذه الجماعات البشرية العجيبة الخارجة من بين الجدران المتلاحمة بعضها ببعض ليسو من اللاجئين . . بل هم يهود القاع وقد كانوا قبل لحظات يتعبّدون داخل الكنيس . . !

وكنيس اليهود في هذا القاع يتألف من فناء صغير مكشوف طُليت جدرانه الداخلية بالبورق الأبيض . . وهذا الفناء المكشوف تحيط به بعض الغرف الصغيرة . . وفي الطرف البعيد منه باب خاص ينفتح علىٰ غرفة كبيرة نسبياً هي المعبد . . وقد فُرشت أرضيتها بالحصير والبُسط المحلية الرخيصة . . ولاتجد في داخل هذا المعبد أية أمتعة أو أثاث أخرىٰ تستلفت النظر ماعدا خزانة صغيرة من الخشب يحفظون في داخلها عدداً من الكتب والصحف اليهودية المقدسة . . .

وتقوم (كُنُس) اليهود بمهمة المدارس لتعليم القراءة والكتابة للناشئة الذكور فقط باللغة العبرية . . وهذا الطراز من التعليم يشبه الىٰ حدّ ما كتاتيب الجوامع والمساجد عند المسلمين . . مع فارق جوهري هو أن (كُنُس) اليهود لاتستقبل الفتيات لغرض التعليم . . بينما تقوم كتاتيب الجوامع والمساجد عند المسلمين بتعليم الفتيات أيضا الىٰ مرحلة محدودة . . .

خامساً – **اليهود والخمور والمجتمع اليمني .**

ليهود اليمن كامل الحرية في صنع الخمور بأيديهم واستعمالها فيما بينهم داخل أسوار (قاعهم) . . فلا يشاركهم فيها من الناحية الرسمية غير المسيحيين من الأجانب العاملين داخل اليمن بعقود رسمية مع الحكومة . . فاذا ما أراد أحد هؤلاء الاجانب الحصول علىٰ شيئ من خمور (قاع اليهود) وجب عليه استحصال موافقة رسمية من العامل – أي المحافظ – موجّهةً الىٰ (عاقل) – أي مختار – قاع اليهود . . وهذا بدوره يوجه الطلب الىٰ من يبيع الخمر ليقوم بتجهيز صاحب الطلب بناءً علىٰ تلك الموافقة الرسمية . . والمسلمون اليمنيون يُطلقون لقب (سالم) علىٰ كل يهودي تقع عليه أنظارهم . . وهذا اللقب بلفظه العربي لايتضمن غير المديح . . فهو مشتق من السلامة . . وليس ليهود اليمن أن يعترضوا علىٰ اللقب (سالم) . . فإن أغاظهم ذلك رددْنا عليهم لقب (كويم – Goyem) الذي أطلقوه هم منذ (٣٥) قرناً علىٰ كل سكان العالم ماعدا اليهود أنفسهم . . تماماً كما فعل الرومان من بعدهم حينما قسموا سكان العالم الىٰ قسمين : رومانا وبرابرة . . !

وأهل اليمن عندما لقبوا اليهودي بـ (سالم) لم يقصدوا بذلك سوىٰ تحديد درجة معينة من التمييز بين المسلم وبين اليهودي في حالة النداء علىٰ أحدهما . . أما اليهود فقد كانوا يعنون بكلمة (كَويم) الوثنيين والكفرة والبهائم والأنجاس . . أما هم . . فشعب الله المختار . . وأنهم أبناء الله وأحباؤه : * «وقالتِ اليهودُ والنصارىٰ نحنُ ابناءُ اللّهِ وأحبّاؤُه ، قُلْ فَلِمَ يُعذّبكُم بذنوبكم ، بَلْ أنتُم بَشرُ مِمَّنْ خَلَقَ ...» ١٨ – المائدة .

واليهود في بلاد المغرب لايزالون يُسمون غيرهم هناك (جويم) ومفرده (Goy) أي الأممي أو الأمّي – (Gentile) أو الأميّين كما ورد في القرآن الكريم :

* «. . ذلكَ بأنّهم قالوا ليس علينا في الأُمِيّينَ سبيل . . .» ٧٥ – آل عمران .

والآن . . .

إذا ماتورط (سالم) وباع خمراً لأحدٍ من المسيحيين الأجانب بدون رخصة من العامل . . وانكشف أمر البيع . . كان الويل لسالم علىٰ ماافترفت يداه . .

أما إذا تورط (سالم) وباع خمراً لأحد المسلمين . . ووُجِد هذا المسلم في حالة سكر بيّن . . وأُلقي القبض عليه . . كان الويل والثبور لسالم علىٰ ماجنت يداه . . ! وفي مثل هذه الحالة يجري الآتي :–

* التحقيق مع السكران لمعرفة اليهودي الذي باعه الخمر . . ولابد من الوصول الىٰ معرفة ذلك . .
* إحضار اليهودي والتحقيق معه . . ولابد من الوصول الىٰ الاعتراف . .
* صدور الأحكام علىٰ الطرفين . .
* تلطيخ وجه شارب الخمر بالنفط الاسود (القطران) ، وإركابه علىٰ ظهر حمار ركوباً معكوساً . . أي ان يكون وجهه الىٰ ذيل الحمار . . والطبل معلق علىٰ ظهره ، ثم يجري التطويف به في الدروب والأسواق حيث يقذفه الاطفال والصبيان بالحجارة والقاذورات . . ويتكرر هذا التشهير أو (التعزير) لمدة ثلاثة أيام . . وكل هذا يُسمىٰ بـ «الحُومَار» . . ثم ينفّذ فيه حَدُّ شارب الخمر . . أما (سالم) . . الذي تجرأ وتحدىٰ سلطة الدولة . . فعقابه أن يُهدَم داره من الأساس . . ! لذلك أصبح اليهود في غاية الخوف والحذر . . ولكن (سالم) لن يُعدم الحيلة ولا الوسيلة في هذا الصدد . . فقد احتال علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ منذ الآف السنين وهو يجادل ويراوغ مع نبيّه موسىٰ عليه السلام في ذبح البقرة . . « . . فذبحوها وماكادوا يفعلون» . . . !

وأغلب ظني أن هذا العقاب الصارم بحق (سالم) إن ثبت عليه بيع الخمر للمسلمين إنما جاء في صالح اليهود دون المسلمين . . ذلك أن المسلم لم يُعدَّ يحصل علىٰ الخمر من (سالم) مالم يدفع له أضعاف ثمنه الأصلي بحجة تغطية تكاليف الأخطار والمحاذير وإزاحة العراقيل عن الطريق الذي ستسلكه (قارورة الخمر) – كما يسميها يهود صنعاء – ابتداءً من باب القاع ، الذي يحرسه

جنود لايكاد راتب أحدهم يكفي لشراء مايحتاجه من (القات) و (التنباك) لمدة اسبوع . ، وانتهاءً بالمكان السرّي الذي جرىٰ الاتفاق علىٰ تسليم (البضاعة) فيه . . !

سادساً – **تعدد الزوجات عند يهود اليمن .**

في مدوّنات التوراة مايشير الىٰ جواز زواج اليهودي بأكثر من إمرأة يهودية واحدة : (سفر التكوين – Genesis – ١٦ و ٣٠ : ١ – ١٣) ، ولكننا لاندري علىٰ وجه الدقة إن كان هذا قد جاء نصاً في ألواح موسىٰ عليه السلام أم أنه من مُحرّفات التوراة الأصلية . . وخاصة التوراة البابلية . . ذلك لأن شريعة حمورابي هي الأخرىٰ تجيز تعدد الزوجات في حالة عقم الزوجة الأولىٰ وعدم قدرتها علىٰ انجاب الأطفال . . ومن المعلوم أن اليهود قضوا دهراً طويلاً في السبي البابلي بالعراق . .

إلا أن تعدد الزوجات عند يهود اليمن أصبح ظاهرة تثير العجب . . فقد يتزوج الرجل منهم باكثر من أربع زوجات ولايرىٰ بأساً في ذلك . . وقد تسمع عن أحدهم أنه تزوج التاسعة وهي في سن إحدىٰ بناته من الزوجة الاولىٰ أو الثانية أو الثالثة . . ! ويزعم لك بعضهم أن في أستطاعته أن يتزوج مايشاء من النساء شريطة أن لايبلغ عددهن اكثر من (٩٩) امرأة . . ذلك لأن حق الزواج من مائة إمرأة مقصور علىٰ ملك اسرائيل المزعوم فقط . . ! .

والعجيب في هؤلاء هو قدرتهم علىٰ الاحتفاظ بهذا العدد من الحريم والاولاد والبنات في بيت واحد لاتزعزع شملهم كوارث الدنيا كلها . . رغم مافي اليمن من كوارث تكفي لإهلاك أجيال من البشر . . !

والعجب الثاني والثالث والرابع في أمر هؤلاء اليهود أنهم يتزوجون في سنّ صغيرة لايعقلها السامع فمن قائل أنهم يتزوجون في السابعة أو الثامنة أو التاسعة . . أما العاشرة فالأمر منها مفروغ . . ! أنظر الصورة رقم – ٢٠) . .

الصورة رقم (٢٠)
عروس من (قاع اليهود) في صنعاء .

سابعا – **السبت وأعياد اليهود في صنعاء .**

إذا جاء يوم الجمعة من كل اسبوع هرع اليهود للاستعداد ليوم السبت . . وأول هذه الاستعدادات هو تنظيف الدور والمعابد (الكُنُس) والثياب والأجسام وكل شئ . . ولقد دُهشتُ ذات مرة وأنا أقصد صائغاً في قاع اليهود حينما وقع نظري علىٰ امرأة يهودية مع فتاتين لها يقمن جميعاً ليس بغسل وشطف مدخل المنزل فقط . . بل كن يغسلن عتبة الباب بالماء والصابون . . بينما كانت إحدىٰ الفتاتين تبذل جهداً في تنظيف ساقية المياه القذرة مابين عتبة الدار والبلوع الخارجي . . . !

وعندما زالت دهشتي من هذه المفاجأة صرتُ أقارن بين هذه النظافة وبين نظافة أهل صنعاء القديمة والجديدة وهم ينظفون أرضيات مرافق المنزل ليس بالماء والصابون . . وليس حتىٰ بالماء وحده . . إنما بروث الحيوانات الطري . . . ! فهم يفرشون هذا الروث فوق الأرضيات بزعم أنه يمتص التراب العالق بأحجار تلك الارضيات . . وبعد فترة ربع أو نصف ساعة يقومون بعملية الكنس ويجمعون الروث ويحتفظون به كوقود للتنور . . . وتظل رائحة الروث الكريهة عالقة في هواء المنزل ساعات عديدة مالم تُفتح النوافذ والابواب كلها . . وليس شئ يزعج اهل اليمن بقدر إجبارهم علىٰ فتح النوافذ لتبديل الهواء ودخول أشعة الشمس والضياء . . . !

إن هذا الذي تحدّثتُ به حول أسلوب تنظيف المنزل اليمني بواسطة روث الحيوانات يرجع تاريخه الىٰ فترة وجودنا في اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) . . ، وبعد تسع سنوات من ذلك التاريخ تحدثَتْ به الطبيبة الفرنسية (كلو دي فايان)[1] في الصفحة (١٣٠) من كتابها حيث قالت :– [. . . . . وتشرق الشمس فتصل الفتاة « هاجر» لترتيب منزلي . . فتنثر الروث علىٰ السلالم والممرات بدلاً من نشارة الخشب ، حتىٰ لايثور الغبار . . وترتفع رائحة قوية ، ولكنها ليست كريهة علىٰ أي حال . . وتنحني هاجر تكنس بحزمة من الأغصان . . .]

ونحن لسنا بحاجة الىٰ الاستشهاد بأقوال الدكتورة (فايان) . . ولكننا أردنا أن نؤكد أن ماكان يحدث في الأربعينات . . ظل هو هو في الخمسينات . . ولم يتغير الىٰ الأحسن .

واليهود في أيام سبتهم يلزمون دورهم ومعابدهم المطفأة الأنوار . . فلا يظهر لهم أثر في دروب صنعاء القديمة ولا الحديثة . . وليس في استطاعة كل إنسان أن يميز بين منازل اليهود ومعابدهم لأنها جميعاً ذات طراز متشابه . . وهم يرتدون أفخر مالديهم من الملابس ويشربون خمراً قوية من صنعهم الخاص . . وقد تجتمع العائلة أو الأسرة كلها في أيام الاعياد في غرفة واحدة ويتحلّقون حول أكوام من اللوز والزبيب والحلويات . . ثم يأخذون في إنشاد الأغاني والتراتيل اليهودية القديمة .

ثامناً – **خيبة يهود اليمن بأرض الميعاد المزعومة .**

لن نغالي اذا قلنا بأن يهود اليمن قد انفردوا عن بقية يهود العالم في الاحتفاظ بهيئة وشخصية اليهود الذين تاهوا في شرقي صحراء سيناء مدة أربعين عاماً منذ مايقرب من ثلاثة آلاف عام . . . ولذلك كانوا من اكثر يهود العالم فشلاً حينما هاجروا الىٰ الارض المحتلة في فلسطين . . ووجدوا أنفسهم فجأةً ووجهاً لوجه مع صهاينة أوربا وأميركا والاتحاد السوفيتي . . . ! وكذلك كان مصير بقية اليهود الشرقيين الذين نزحوا الىٰ الارض المحتلة في فلسطين من كافة الأقطار الشرقية . . إلا أن خيبة يهود اليمن كانت أشد وأعظم من خيبة الباقين . . علماً بأن يهود اليمن كانوا اكثر يهود العالم حماساً وإخلاصاً في هجرتهم الىٰ أرض الميعاد المزعومة . .

لقد كنتُ وزميل البعثة ، الملازم الأول عبد القادر محمد الناظمي ، علىٰ وفاق وانسجام في كثير من المكوّنات الشخصية . . وخاصة ماكان يتعلق منها بالحماس والتشدد في تنفيذ الواجبات العسكرية الملقاة علىٰ عاتقنا هناك في اليمن . . يضاف الىٰ ذلك تقاربنا في السن والرتبة وموقع العمل في ثكنة الجيش المظفر . . بينما كان يعمل أحد اعضاء البعثة من الضباط في ثكنة المدفعية والأخر في ثكنة الجيش الدفاعي . . لذلك كانت لقاءاتنا (أنا) و (الناظمي) شبه مستمرة . وعلىٰ الأخص في الساعات المتأخرة

(١) راجع (ثانيا من المادة – ٨ – من القسم السابع في هذا الفصل) .

من النهار . .

وفي ذات يوم من أيام النصف الثاني لعام ١٩٤٠ كنا قد خرجنا سويةً بعد العصر للنزهة خارج أسوار صنعاء الجديدة (بئر العزب) من جهة باب الروم حيث يوجد عدد من المزارع والآبار وحيث تكثر أشجار الأثل والطرفة ذات الارتفاع المتوسط . . وعندما كنا في طريق عودتنا الىٰ البيت إستمعنا الىٰ صوت جماعي متناسق يصل الىٰ اذاننا من مسافة بعيدة عنا الىٰ الخلف . . وكان الصوت يدل علىٰ أن مصدره يقترب منا تدريجياً . . فساقنا الفضول وحب المعرفة الىٰ الإبطاء في سيرنا . . وبعد بضع دقائق رأينا أشباحاً سوداء تتراءىٰ لنا رؤوسها وأطرافها من بين الاشجار وهي تقترب منا . . فتوقفنا حيث وصلت بنا اقدامنا . . فلما أصبحت تلك الاشباح علىٰ مسافة خمسين متراً منا تبين أنها جماعة من يهود صنعاء وهي عائدة من مكان ما الىٰ (قاع اليهود) . . ولما كان عددهم لايقل عن عشرين أو ثلاثين (سالماً . . .) ، وأنهم راجعون الىٰ منازلهم قبيل غروب الشمس بنصف ساعة استنتجنا بأنهم ربما كانوا من المزارعين وهم عائدون من مزارعهم . . وسبق أن قلنا آنفاً بأن يهود اليمن يعملون في الزراعة أيضاً بل ويعملون في كل شئ يضع في أيديهم المال . . .

وعندما مرت بنا هذه الجماعة من يهود صنعاء تبين لنا أنها كانت تنشد نشيداً باللغة العبرية طبعاً لم نفهم منه سوىٰ كلمتين فقط هما : «أوروشالآيم» أي اورشليم القدس ، و «شالوم» التي لم نفهم معناها بالعربية في ذلك الزمان ولكننا كنا نعرف أن اليهود يتسمّون بـ (شالوم) . . ولم تتوقف جوقة المنشدين اليهودية عن الانشاد . . وتركناها تسبقنا الىٰ الأمام ثم افترق بنا الطريق بعد مسافة مائتي متر . . فلم نعد نراها ولا نسمعها . . .

وبعد يومين أو ثلاث جاءني (شمعون) اليهودي الىٰ دار الضيافة ، أو دار البعثة ، ليأخذ بعض ملابسي المتسخة للغسيل . . فسألتُه إن كان يعرف نشيداً يتضمن تينك الكلمتين : (اوروشالايم) و (شالوم) . . فابتسم وقال بحذر واقتضاب ولم يكذب : [نعم ياسيدي . هو نشيد أرض الميعاد] . . فسألته : ومامعنىٰ (شالوم) ؟ قال: [يعني السلام . . أو السلام عليكم] . . . وأراد شمعون أن ينصرف ومعه ملابس الغسيل . . ولكنه توقف متردداً عند الباب . . فسألته عما به فابتسم ثانيةً وقال : [ياسيدي . . لولا أنك عزيز عليّ . . لمَا أجبتك علىٰ السؤال . . فارجو أن تكتم عني] . . فوعدتُه . . ثم انصرف . . . وكان يهود اليمن جميعاً علىٰ علمٍ اكيد من الأمر الإمامي القاضي بأن كل يهودي يمني يريد الهجرة من اليمن تُصادَر ممتلكاته لحساب بيت المال . . ومع ذلك فقد هاجر من يهود اليمن الىٰ الارض المحتلة في فلسطين ما لايقل عن ٩٠٪ من مجمل تعدادهم . . فلما وصلوا الىٰ فلسطين عضوا علىٰ أصابعهم من الندم حينما تبخّرت أحلامهم بأرض الميعاد المزعومة التي ظلوا يحلمون بها منذ ثلاثة آلاف عام . . . !

لقد تحولت (أرض الميعاد المزعومة) الىٰ (وطن عنصري بغيض) يحكم فيه يهودُ (الأشكيناز) يهودَ المشرق (السفارديم) ويحتقرونهم ويعتبرونهم يهوداً من الدرجة الثانية . . . ! وربما احتقروا يهود اليمن اكثر من غيرهم لأنهم اكثر تخلّفاً من يهود الأقطار العربية الأخرىٰ . . ومن السخف أن نجد يهود اليمن يُطلقون علىٰ أنفسهم إسم (التيمونيم) . . ولانعلم يقيناً إن كان أو لم يكن لهذه التسمية علاقة بالأطواق الحديدية التي يضعها اليهودي اليمني في عنقه ويتدلىٰ منها حجاب (تميمة) محفوظ في كيس صغير من الجلد . . . . ؟

بقي أن نعلم أن يهود (الاشكيناز) هم يهود بلاد الخزر (قافقاسيا) الذين انتشروا فيما بعد في بلاد الروسيا وأوربا . . وليست لهم أية علاقة باليهود الشرقيين ولا ببني اسرائيل من الناحية العرقية . . ويهود (الاشكيناز) هم الذين ابتكروا اليهودية العنصرية قبل أن يولد (ثيودور هرتزل) و (حييم وايزمان) و(ابن غوريون) ومن لفّ لفّهم

١٣ – **ضواحي صنعاء . (راجع الخريطة رقم – ٤ – ص ١١٨)**

في مطلع القسم السابع من هذا الفصل ، وفي سياق الكلام عن الموقع المناخي لمدينة صنعاء ، كنا **قد تطرّقنا** بعض الشئ الىٰ ضواحي صنعاء . . وها نحن نعرض المزيد من المعلومات عن تلك الضواحي لاستكمال صورتها . .

يحيط بصنعاء علىٰ مسافات مختلفة عدد من الضواحي الجميلة معظمها ذات موقع جبلي عامر بجداول المياه الصافية العذبة وأشجار الفاكهة على اختلاف انواعها مما يهيئ فعلاً أماكن مناسبة للنزهة والراحة والاستجمام .. نذكر منها الآتي ولو فيه القليل من التكرار : –

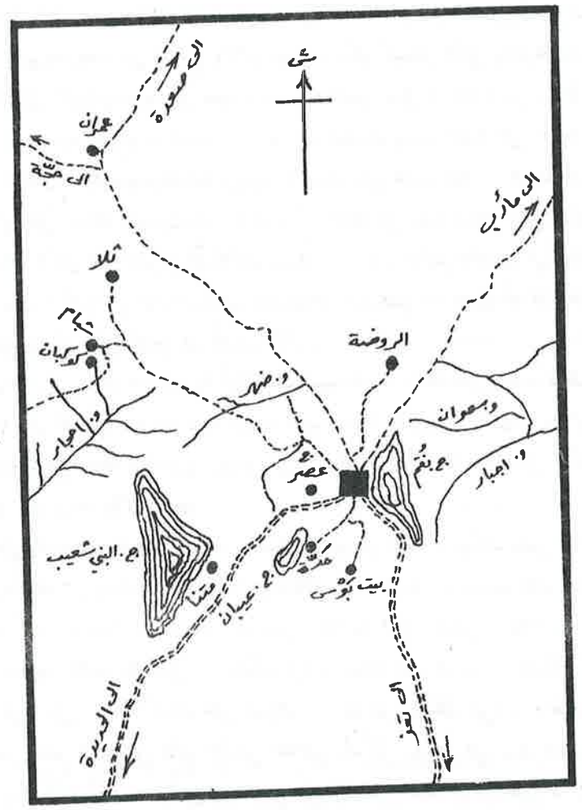

الخريطة رقم (٧)

خريطة مصغرة لضواحي صنعاء بلا مقياس

أ . الروضة :

تقع هذه الضاحية علىٰ مسافة (٨ – ١٠) كيلو متر الىٰ الشمال من صنعاء . وهي الضاحية التي تستروح فيها العائلة المالكة . . وعلىٰ الخصوص في موسم نضوج الأعناب في أواخر أشهر الصيف . وتشتهر أعناب الروضة بحلاوة مذاقها المتميزة حيث يجري ارواء حقول الكروم بمياه الآبار الكائنة وسط الحقول .

ويتوسط الروضة جامع كبير كان قد شيده الإمام أحمد بن القاسم سنة (١٦٧٦ – ١٦٨١ م) ، وهذا الإمام هو حفيد أبو الأئمة الزيود الشهير بالقاسم الكبير الذي أحبط الاحتلال العثماني الأول في عام (١٥٣٨ م) . ويشتمل هذا الجامع علىٰ فناء مربع واسع تحيط به أربعة أروقة قائمة علىٰ الأعمدة . وتزدان مئذنة الجامع العالية وجدرانه الخارجية بالآيات القرآنية . والىٰ جوار الجامع مباشرة يقوم قصر الروضة الذي شيده الإمام يحيىٰ . وهو ككل القصور الملكية في صنعاء يمثل صورة جميلة لفن المعمار اليمني . وتنتشر في الروضة البيوت المبنية بالطين والآجر في عدة طوابق وإلىٰ جوارها بساتين الكروم . ويحيط بها جميعاً سور من الطين .

٢ . حَدَّة .

تقع هذه الضاحية الجبلية علىٰ مسافة (٨) ثماني كيلو مترات إلىٰ الجنوب الغربي من صنعاء . وفي الطريق الىٰ هذه الضاحية

يمكن للمرء أن يشاهد عدة قرىٰ مبعثرة فوق جبل حدّة . وهي محاطة بالبساتين الجميلة . ومن هذه القرىٰ : (سناع) ، (بيت الزبتان) ، (بيت بوْس) . وفي كلٍ من هذه القرىٰ عدة جداول من الماء الصافي العذب يمكن تحويل مجراها الىٰ جميع المنطقة المحيطة بها لإرواء بساتين الجوز واللوز والمشمش والخوخ والرمان . . .

ويوجد في حدّة طاحونتان قديمتان عاطلتان عن العمل منذ العهد العثماني . إذ كانتا تعملان بقوة الماء الذي تأتي به تلك الجداول . وبسبب هذه المياه وهذه البساتين أصبحت (حَدّة) مكاناً مناسباً يرتاده الناس للنزهة والاستجمام في أوقات الفراغ . وهناك ظاهرة نباتية عجيبة في أشجار اللوز هنا حيث تتفتح أزهارها في أوائل شهر كانون الثاني . . ! .

٣ بيت بوْس .

تقع هذه الضاحية علىٰ مسافة عشر كيلو مترات تقريباً الىٰ الجنوب من صنعاء . وإلىٰ الجنوب الشرقي من (حَدّة) . وهي مشيدة فوق صخرة عظيمة شبه عمودية . ولها باب واحدة تؤدي الىٰ داخل القرية . إن هذه الضاحية كبقية الضواحي الجبلية الأخرىٰ يرجع تاريخها الىٰ ماقبل الاسلام . فهناك نقوش سبأية كثيرة علىٰ الصخرة العظيمة التي تتربع فوقها بيوت القرية . وبالقرب من مدخلها ، ولايخطئ هذه النقوش من يمعن النظر فيها جيداً .

وتحتوي القرية علىٰ بيوت مشيدة بالحجر . وتقع آبار المياه التي يشرب منها أهل القرية خارج القرية . ولذلك فهم يحملون الماء علىٰ ظهور الحمير . أو حتىٰ علىٰ الاكتاف . ولهذا السبب صار الكثير من المزارعين يهجرون مساكنهم في القرية ويقيمون عند أسفل الجبل ليكونوا قريبين من مزارعهم .

٤ . وادي ظهر .

يقع هذا الوادي علىٰ مسافة (١٢) إثنىٰ عشر كيلو متراً إلىٰ الشمال الغربي من صنعاء . وقبل الانحدار في الوادي يمكن مشاهدة أروع المناظر الطبيعية والصناعية من الحافة اليسرىٰ للوادي . ويمتاز هذا الوادي بكثرة مزارع الأعناب والرمان والحمضيات والمشمش والخوخ والتفاح والكمثرىٰ والسفرجل وغير ذلك . وهكذا يبدو هذا الوادي كقطعة من الجنان .

وعندما نصل الىٰ بطن الوادي عند قرية (قابل) يقودنا الطريق الايسر الىٰ القسم العلوي . وبعد كيلو متر تقريباً ينتهي الطريق المساعد علىٰ سير السيارات ذات السرعات الأربعة . وعندها نترجل لنسير علىٰ نيسم ينساب الىٰ جانبه جدول ماء حتىٰ نصل الىٰ قرية (بيت نعام) ، وبعد مسيرة عشرين دقيقة أخرىٰ نكون قد وصلنا الىٰ البداية الحقيقية لهذا الوادي . أما اذا اتجهنا نحو اليمين من قرية (قابل) فان الطريق يحاذي مجرىٰ ماء يابس (سايْلَة) تغمره مياه الأمطار عند هطولها . وهذا الطريق يوصلنا الىٰ (دار الحجر) أو (قصر الحجر) الذي شيده الإمام يحيىٰ علىٰ أنقاض قصر قديم خلال الثلاثينات .. والغرض من تشييد هذا القصر للراحة والاستجمام . (راجع الصورة رقم – ١٠ –) .

ومن عجائب القصر المذكور وجود بئر في وسط الصخرة الهائلة التي يقوم عليها القصر . وهذه البئر عميقة جداً بحيث تنفذ الىٰ أسفل الصخرة ثم الىٰ بطن الأرض بعمق كبير . ويعُتقد أن هذه البئر من آثار ماقبل الاسلام .

وهناك دار للضيوف خارج القصر . كما يوجد مسلك ضيق يؤدي من الجهة اليسرىٰ للوادي الىٰ قرية مجاورة تسمىٰ (القرية) وإلىٰ جوار هذه القرية توجد صخور ضخمة منقوش عليها رسوم حيوانات وصيادين . وإلىٰ جانبها مذبح للقرابين ذو درجات بارزة عن الصخرة ربما يرجع تاريخها إلىٰ عصور ماقبل التاريخ . كما يوجد علىٰ جانبي الوادي العديد من الأبراج المدورة وبقايا القلاع القديمة التي لابد وأنها سبقت ظهور الاسلام بأمد بعيد . [1] .

(١) في الواقع أننا (ضباط البعثة العسكرية العراقية في اليمن) لم نشهد من ضواحي صنعاء سوىٰ (الروضة) و (حدّة) .. ذهبنا الىٰ الروضة للسلام علىٰ الإمام يحيىٰ . ومعايدته .. وذهبنا الىٰ حدّة بدعوة خاصة من قبل ضباط المدفعية .. لذلك فان المعلومات الإضافية التي أوردناها اعلاه عن ضواحي صنعاء قمنا بترجمتها عن الانكليزية كما وردت في الدليل السياحي اليمني الصادر باللغة الانكليزية عام ١٩٨٣ – راجع هامشنا (١) ص ٥٧ من كتابنا هذا .

ألقسم الثامن

ألقات والمجتمع اليمني

١ – ماهو القات ؟

راجع عن «شجرة القات» في المادة (١٣ –) من الفصل الأول (لمحات جغرافية عن اليمن) . . . ولانزيد علىٰ ذلك شيئاً سوىٰ إلفات النظر الىٰ أن أهل اليمن يلفظون حرف القاف (ق) كافاً معجّمة فيقولون : (الگات) وليس القات . .

٢ – البديل الأسوأ . .

عندما وضعت الحرب العالمية الأولىٰ أوزارها (١٩١٤ – ١٩١٨) واضطر الأتراك العثمانيون الىٰ الرحيل نهائياً عن اليمن الىٰ غير رجعة إنحسر عن اليمن بوجه عام وعن العاصمة (صنعاء) بوجه خاص آخر مظهر من مظاهر اللّهو البريئ .. والعبث الجريئ في اليمن .. فما يحُكىٰ عن زمن الأتراك في صنعاء أنه كان يوجد في المنطقة الداخلية من (باب اليمن) شارع أسموه بـ (شارع البحر الرجراج) لأن المنازل التي كانت تقوم من حوله كان يسُمع منها في زمن الأتراك غناء خليعاً وماجناً . ويُشاهد في داخلها رقص وضيع . . وكان رواد هذا الشارع من مختلف فئات الناس وبينهم رجال من القبائل . . والكل يتردد الىٰ هذا المكان ليشرب ويلعب ويلهو ويطرب ويرتكب الموبقات . . ! ولاشك أن العديد من المجالس الخاصة بكبار الموظفين ورجال الجيش الأتراك كانت لاتخلو من معاقرة الخمرة وسماع الطرب وما إلىٰ ذلك . . حتىٰ قيل بأن البعض منهم كان يجاهر ويشرب الخمر علناً في حارات (بئر العزب) التي اختصت بسكنىٰ هؤلاء الموظفين الكبار ورجال الجيش . . وكان ذلك يشكل اكبر تحدٍّ لعصبية السادة من الزيود . . . فلما رحل الأتراك عن اليمن ودخل الإمام يحيىٰ صنعاء . . لم يختف شارع البحر الرجراج فقط من الوجود . . بل واختفت أيضاً آخر مقهىٰ في اليمن كله . . . !

ومنذ ذلك اليوم إنكمش المجتمع اليمني وتقوقع علىٰ نفسه . . لايجتمع فيه الناس أو الأصحاب مع بعضهم البعض إلا أثناء الصلوات في الجوامع والمساجد . . أو في مناسبات الأفراح والمآتم . . !

وكان لابد من بديل مقبول يعوض عما كان سائداً في عهد الأتراك من غير المقبول . . فيكون هذا البديل المقبول بمثابة صمام الأمان للمجتمع اليمني كيلا يشبّ عن الطوق . . فينفجر . . .

ولكن عهد الإمام يحيىٰ لم يُوفّق الى اختيار البديل الصحيح للمجتمع اليمني عندما اختار له (مجالس القات) . . التي لو أحصينا مضارها الاجتماعية والاقتصادية والصحية . . لترحّمنا علىٰ مجالس الأتراك . . ! ففي عهد الاتراك كانت المجالس الخاصة مقصورة علىٰ الرجال فقط . . أما مجالس النساء فلم يكن فيها ما يُشين أو مالا يقبله الاسلام . . بينما أصبحت (مجالس القات) فيما بعد تشمل الرجال والنساء على حد سواء . . . مع فوارق معدودة بين المجلسين الرجالي والنسائي . . .

٣ – أين ينعقد مجلس القات ؟

يمكن أن ينعقد مجلس القات داخل (المفرج) في غير موسم الشتاء . . ولكن هذا المكان لايتيسر إلا في بيوت الاغنياء حيث توجد بستان كبيرة للبيت وفي جانب منها حوض تنتصب فيه نافورة وتكون غرفة (المفرج) مواجهة للنافورة . . وقد بحثنا في هذا من قبل . . ولكن المكان المفضل لانعقاد مجلس القات هو (المنظرة – أو المنظر) وهي أفضل مرافق البيت سعةً وترتيباً وإشرافاً من الأعالي علىٰ السهول الخضراء أو الجبال الزرقاء المحيطة بالعاصمة صنعاء . . (أو غير صنعاء . . . . . .) . . إذ لايوجد بيت من البيوت في المدن أو القرىٰ إلا وفيه مكان لمجلس القات علىٰ النحو المذكور . . لأن مجلس القات أصبح الملاذ الوحيد لاجتماع الأصحاب للتسلية والحديث والاستماع إلىٰ أخبار المجتمع في مختلف الشؤون . . و (المنظرة) لفظ مشتق من النظر مثل الناظور . . . .

٤ – أثاث المنظرة – أو مجلس القات .

١ . سلسلة متصلة من المطارح تحيط بالأضلاع الثلاثة أو الأربعة من الغرفة . . وقد تكون هذه المطارح مغطاة بالسجاجيد أو البُسط حسب إمكانية صاحب الدار . .

٢ . عدد من الوسائد الغليظة يسمونها (المتاكي) موزعة علىٰ المطارح بمعدل وسادتين أو ثلاث علىٰ كل مطرح لأجل الإتكاء عليها بالمرافق لأن (جلسة القات) قد تستغرق ساعات . . ومن لفظة (المتاكي) سُميت مجالس القات اشتقاقاً بـ «المتاكي» والبعض

يلفظها «المداكي» . . .

٣ . صينية كبيرة من النحاس الأصفر المنقوش بالحفر والطَّرق اليدوي تتوسط أرضية (المنظرة) ليوضع أو يُنصب في داخلها عدد من النارجيلات اليمنية أو الهندية، يمتد من كل منها خرطوم غليظ مغلف بقماش ملون ومزركش ينتهي بمبسم اعتيادي أو فاخر حسب إمكانية صاحب النارجيلة . ذلك لأن كل شخص من المجتمعين يجلب نارجيلته الشخصية معه بالاضافة إلىٰ نارجيلات صاحب المجلس .. ولكن مجالس الأغنياء تحتوي علىٰ نارجيلات كثيرة فلا يضطر المجتمعون فيها الىٰ استحضار نارجيلاتهم معهم ...

وفي موسم الشتاء لابد من تعليق ستائر كتيمة علىٰ النوافذ الخشبية في (المنظرة) لتمنع تسرب أية نسمة هواء باردة من الخارج الىٰ الداخل . . إذ لاشيئ يزعج المجتمعين في مجلس القات كالهواء البارد حتىٰ ولوكانت درجة حرارة النسمة (٢٠) درجة مئوية . . ! . . فالهواء البارد – علىٰ حدّ زعم أهل اليمن – يُفسد عليهم مفعول القات . . ولذلك تراهم يلجأون الىٰ كل الوسائل الممكنة لرفع درجة الحرارة في أبدانهم . . وقد أشرنا الىٰ ذلك في حديثنا عن الحمامات الأهلية العامة في صنعاء . . . وهكذا تفقد (المنظرة) شتاءً أهم مزاياها العمرانية التي حرصوا عليها عند تشييد الدار من عدة طوابق وجعلوا (المنظرة) في أعلاها لكي تشرف علىٰ المناظر الجميلة عبر أسوار المدينة ..!

وموسم الشتاء في هضبة اليمن لايمكن أن يُسمىٰ شتاءً عند مقارنته بالشتاء القارّي في العراق .. أما في اليمن فهو في نظرهم شتاء قارص، وتُكذّبهم ملابسهم القطنية البيضاء التي يرتدونها طوال السنة علىٰ مدار الفصول الأربعة..! ولكن (للقات) أحكام أخرىٰ لاتخضع لنواميس الجغرافية العامة ولا لنواميس ماوراء الطبيعة ...

٥ – كيف ومتىٰ ينعقد مجلس القات ؟

إذا انتهىٰ القوم من صلاة الظهر توقفت معظم الأعمال تقريباً وبدأوا يستعدون لحضور مجالس القات ، وَمن كان مورد رزقه لايسمح له بارتياد مجالس القات جعل مجلس قاته في مكان عمله الذي يرتزق منه ، فليس غريباً أن تجد في كل الاسواق حوانيت صغيرة أشبه بمداخل الكهوف الجبلية . . وقد حُشِرت فيها البضاعة حشراً عجيباً حتىٰ لم يبق من فسحة الحانوت لمجلس صاحبه اكثر من قدمين مربعين . . أما نارجيلته فلا بأس من وضعها فوق أية مادة من مواد البضاعة المعروضة للبيع . . ذلك لأن خرطوم النارجيلة الطويل جداً يتكفل للنارجيلة وصاحبها بأوسع مناورة خرطومية ..!

وليس غريباً أيضا أن ترىٰ موظفاً حكومياً ، ممن تستلزم طبيعة وظيفته الدوام بعد الظهر ، وقد جلس علىٰ كرسيه الخشبي المتداعي وراء مكتب خشبي اكثر تداعياً ونارجيلته الى جانبه . . وأحد شدقيه منتفخ بكرة ممضوغة من وريقات القات . . ومع ذلك فهو يرىٰ أن اعمال الدولة بخير . . وأن أمورها تسير علىٰ مايرام ...!

والاستعدادات لمجلس القات يقوم بها الطرفان المتعاقدان :

الطرف الاول : صاحب المجلس – وهو مسؤول عن إعداد مجلسه من جميع الوجوه لاستقبال أصحابه . . ومن ذلك مثلاً : إعداد القَلَلَ الخزفية المملوءة بماء الشرب . . والواحدة من هذه القلل يسميها أهل اليمن (الكُعْدَة) وهي بلغة أهل الموصل (الشربة) وبلفظ أهل الموصل (الشَّعْبي) ، وبلغة أهل بغداد (التُنكَة) . والكعدة اليمنية تصنع من طين أحمر ذو مسام دقيقة وكثيرة تساعد علىٰ عملية الترشيح والتبريد . . فلا يحتاج الانسان في صنعاء الىٰ الثلج ولا الثلاجة . . . !

وماء (الكعدة) يحتاجه ماضغو (القات) لتخفيف العصارة الخضراء الناجمة عن مضغ القات واختلاطه باللعاب . . وهذا التخفيف بالماء يساعد علىٰ تسريع سريان مفعول القات في الجسم . هذا فضلاً عما يسببه مضغ القات لمدة طويلة من جفاف شديد في الانسجة المخاطية داخل الفم فيحتاج صاحبه لترطيبه بالماء ...

ومن واجبات صاحب المجلس أيضا إعداد ما يمكنه من النارجيلات الاضافية احتياطاً لتلبية الطلبات الطارئة .. إلا أن العادة قد جرت بأن يستصحب كل شخص نارجيلته الخاصة من داره ..

ولابد لصاحب المجلس ايضا من احضار مايتيسر عنده من (المباصق) النحاسية المزخرفة بالنقوش المحفورة علىٰ المعدن . . وهذه المباصق يبصق بها الحاضرون في المجلس بين الحين والآخر كلما انتهىٰ مفعول (التخزينة الواحدة من القات) بعد مضغ طويل .

و (التخزينة) النموذجية لدىٰ مدمن القات هي التي تجعل الشدق من الخارج يبدو علىٰ شكل نصف حجم كرة (التنس) – أي كرة المضرب . . !

أما الطرف الثاني – فهم المدعوون لمجلس القات ، وكل مدعوٍ يحمل معه من داره مايلي :–

أ . النارجيلة واسمها اليمني (المداعَة)[1]

ب . التنباك – أي تبغ النارجيلة .

جـ . ربطات القات . .

د . المبصقة (أحيانا) . . .

وكل هذه الحمولة ، غير المباركة ، يضعها صاحبها في (لُحْفَتِه) – هي اللّحْفَة – أو الشَّمْلَة التي يشتمل بها أهل المدن في اليمن . . وقد تحدثنا عنها في مبحث أزياء الملابس في اليمن . . . .

أما الطريقة التقليدية في حمل هذه الحمولة الخبيثة بعد وضعها في (اللحفة) فهي إلقاؤها علىٰ الظهر .. ومسك أطرافها المجموعة باليدين أمام الصدر ...!

وعليك أن تتخيّل صورة هؤلاء الذاهبين الىٰ مجلس القات وهم يتقاطرون تباعاً في تلك الدروب الضيقة من صنعاء القديمة يحملون (أوزارهم وأوزار عيالهم) في تلك (الشملات) التي كان الأجدر بصاحبها أو أصحابها أن يحملوا فيها الخبز واللحم والتمر لعيالهم ...!

ويصلُ السادة (المُخزّنون) تباعاً الىٰ المجلس . . ويعمد كل منهم الىٰ (لُحْفَته) يطرحها عن ظهره في المكان الذي اختاره لجلوسه . .

ثم يُخرج (المداعة) – أي النارجيلة – أولاً مع كيس التنباك ويناولها الىٰ واحد من أتباع صاحب المجلس ليقوم (بتعمير) المداعة .. ثم يقوم (المخزّن) بفك إحدىٰ ربطات القات التي جاء بها .. ويبدأ بأختيار أو انتقاء أفضل (العساليج – جمع عسلوج) من الربطة فيقتطف منه وريقات القات ويدفعها تدريجياً الىٰ داخل فمه ليختزنها في أحد الشدقين أما الأيمن وإما الأيسر (ولكل امرئٍ من دهره ماتعوّدا ..) .. ولكن الخزن في الشدق الايسر هو الاغلب .

ولاريب في أنك ، عزيزي القارئ ، ستسأل عن رجلٍ في السبعين أو الثمانين . . وقد تساقطت جميع أسنانه ، وليس في اليمن طبيب أسنان ولا مركّب أسنان ، كيف يقوم بمضغ القات علىٰ هذا النمط وهو لن يترك القات إلا حينما تلتف الساق بالساق وإلىٰ ربه يكون المساق ..؟

إن هذا العجوز الأدرد لديه هاون صغير يضعه بين يديه . . يدق فيه وريقات القات بعناية كبيرة . . ثم يدفع بها الىٰ داخل فمه ليقوم ببقية مراحل (التخزين) ....

والعجيب أن معظم أهل اليمن لاتتساقط أسنانهم حتىٰ بعد الستين أو السبعين . . مالم يتعرض أحدهم لطارئ يفقد معه بعض أسنانه . . وتبرز هذه الظاهرة بوضوح عجيب بين رجال القبائل ونسائهم . . كما هي الحالة بين عرب الصحراء والبوادي . .

ونعود الىٰ مجلس القات :

فبين الحين والآخر يمدّ أحدهم يده الىٰ (الكعدة) فيأخذ منها جرعة صغيرة من الماء يرطبّ بها فمه اليابس من الداخل . . ويخفف بها عصارة (التخزينة) . . فاذا استحالت التخزينة الىٰ نفاية تماماً قذف بها الىٰ المبصقة النحاسية ثم قام (بتعمير تخزينة جديدة) . .

وهكذا ..

وتتنوع الأحاديث التي تدور في مجالس القات بتنوع روادها من حيث منازلهم الاجتماعية والثقافية . . فمجالس العامة تكون أحاديثها ايضاً عامة . . وقد يكون في بعضها استماع الىٰ الغناء الشعبي وعزفٌ علىٰ العود . . ولكن في منتهىٰ التستر والحذر .. !

---

(١) المداعة : كذلك تسمىٰ في مختلف انحاء اليمن الجنوبي بما فيها (عدن) . . لها خرطوم غليظ ربما كان قطره بقياس (٣/٤) ثلاثة أرباع البوصة . . مغلفٌ بقماش ملون منقوش أو مزركش يبلغ طوله نحواً من (١ 1/2 ٢ – ٣) متر وهي المسافة التي تفصل ما بين موضع النارجيلة أو المداعة داخل الصينية النحاسية في وسط الغرفة وبين مجلس الشخص الذي يستعملها .. وقال شاعرهم في (المداعة) : –

مداعتي أنيستي × جليستي في وحدتي
تقول في قَرْقَرِها × بالله خذني باللّتي

(أنظر الصورة رقم – ٢١)

أما مجالس الخاصة من الناس . . فغالباً ماتكون الاحاديث فيها هي الاخرىٰ خاصة . . وقد تتناول شيئاً من المعارضات والمطاردات الشعرية والمناقشات الأدبية . . وتبادل الاخبار والمعلومات العامة والخاصة . .

صورة (٢١)

ألمداعة ـ أي النارجيلة
في دكان أحد الحدادين بصنعاء القديمة .
نقلاً من الكتاب أو الدليل السياحي (Travellers Guide To Yemen)
راجع هامشنا (١) ص (٥٧)
أمعن النظر في طول وقُطر خرطوم النارجيلة وكيفية تعليقه علىٰ الجدار . . !
إن هذا الدكان يتحول في ساعات مابعد الظهر الىٰ (مجلس قات) مصغّر . . .
وأن حرارة الكير والطرق علىٰ السندان يساعدان علىٰ تسريع مفعول القات . . !

ولقد سمعتُ سماعاً من بعض الناس في صنعاء ، والعُهدة ووزرها علىٰ الراوي ، أن بعض مجالس القات لاتخلو من الاستماع الىٰ قصائد التغزل بالفتيان دون النساء أو الفتيات . . مع حضور واحد أو اكثر من هذا النوع من الفتيان..

كما سمعت سماعاً أيضا ، والعهدة ووزرها علىٰ الراوي ، بأن بعض مجالس القات تتستر بأسم القات لتعاطي شيءٍ من الخمور التي يصنعها اليهود في صنعاء . . ويتم ذلك رغم كل القيود والعقوبات !

وهكذا تتسم بعض الفئات في المجتمع اليمني داخل المدن بازدواج الشخصية في تعاملها مع التقاليد والقيود المفروضة علىٰ هذا المجتمع .

وألعنُ مافي مجالس القات هو انشغال (المُخزّنين) عن صلاة العصر والمغرب هذا شيءٌ اكيد لأن مجلس القات يبدأ مابين وقت الظهر ووقت المغرب لذا فهم يصلون صلاة الظهر والعصر جَمْع تقديم وليس فيهم تأثير القات ثم يصلّون المغرب والعشاء جمْع تأخير.. وهو غير جائز . بدون عذر شرعي علىٰ الاطلاق .. يصلّونها ومعهم (الكَيف) ..كيفُ القات .. أي نشوته .. ! والكيفُ لايصل الىٰ حد التخدير .. ولكنه (كيفُ) وكفىٰ ... !

والقات منبّه للمدمن . . وقد يؤرقه طويلاً فلا ينام . . فاذا نام بعد الأرق لاشك وأنه سينام عن صلاة الفجر حتماً . . فلا أدري شخصياً كيف يحافظ أهل اليمن علىٰ الصلوات والصلاة الوسطىٰ . . وكيف يقوموا لله قانتين. . !

٦ – **مجالس القات وشهر رمضان** . .

جاء في أحد الأحاديث النبوية الشريفة ما معناه ، وأنا أضعف خلق الله في الحديث الشريف : (إذا أهلّ هلال رمضان تفتحت أبواب السموات ، وغُلّقت أبواب النار ، **وصُفّدت** الشياطين . .) . .

وأهل القات أناس مسلمون . . يحبون الله تعالىٰ ورسوله . . ويحبون شهر رمضان الكريم ويصومونه عن آخره . . ولهم في ذلك زيادة فضلٍ عن باقي المسلمين هو صيامهم عن (القات) طوال النهار . . وفي شهر رمضان فقط لاتفوتهم الصلوات الخمس إطلاقاً . . لأنه ليس هناك مايُشغلهم عنها فجرا وطوال النهار . . .

قال صاحبي : وهل هذا يعني أنهم يصبرون علىٰ القات طوال الشهر الكريم ؟

قلت : لعل شياطين القات لايُصَفّدون في الليل . . ولذلك تراهم يلاحقون (عشاق القات) بعد الإفطار مساءً . . ولاندري علىٰ وجه الدقة كيف يوفق هؤلاء الصائمون بين متطلبات مجلس القات وبين صلاتَيْ العشاء والتراويح . . ؟ وليس من المعقول أنهم يهملون هذه الصلوات بسبب القات . . ولكن السؤال هنا سيظل هو هو : كيف يصلّون هذه الصلوات و(الكيف) في رؤوسهم ؟ أفلا يُشغلهم ذلك عن ذكر الله ؟

٧ – **لماذا لم أجرّب القات بنفسي ؟**

عندما تحدثتُ عن شجرة (القات) في سياق الكلام عن الزراعة في اليمن (لمحات جغرافية عن اليمن) قلت بأنني كرهت الطريقة التي يتناول فيها أهل اليمن هذه الأوراق الخضراء . . . وقد كرهت ذلك منذ وصولنا الىٰ (الراهدة) النقطة الحدودية في جنوب اليمن علىٰ طريق (عدن – تعز) . .

أما وجه الكراهة في ذلك فسببه الأول هو ما وقَعَتْ عليه عينيّ لأول مرة وأنا أنظر الىٰ عدد من الجنود المدججين بالسلاح وقد تحلقّوا حول (المداعة) – النارجيلة – وهم يتناوبون التقاط الأنفاس الكريهة منها ..

كانت هذه الجماعة المتحلّقة حول النار جيلة هي من حرس تلك النقطة الحدودية التي وصلنا إليها مابين وقت العصر والمغرب وتقرر مبيتنا فيها لعدم كفاية الوقت المتبقي من النهار لمواصلة السفر الىٰ (تعز) . . . . . .

وكان هؤلاء الحرس في فترة استراحة . . وكانت غرفة الحرس هي (مجلس قاتهم) . . . . الذي لايُشرف علىٰ شيءٍ مما حوله . . . وكانت هذه الغرفة مظلمة لعدم وجود نوافذ لها . . ومما زاد في كآبة الغرفة هواؤها الفاسد بدخان التنباك المتصاعد من أفواه المدخنين . . لذلك لم استطع أن اتبين ملامح اولئك الجنود لأول وهلة . . ولكنني تبينتها بعد ثوانٍ معدودات . . فاذا بأشداقهم قد انتفخت من الخارج علىٰ هيئة نصف كرة من كرات (التنس) .. إلا أن حركة أفواههم كانت تدل علىٰ أنهم يمضغون شيئاً

القصاصة : بعد السطر الثاني مباشرة من ص ١٦٦

وبعد (٤٥) خمسة وأربعين عاما وقعت بيدي نسخة من كتاب ((القات في حياة اليمنيين)) صادر عن مركز الدراسات والبحوث اليمني في صنعاء والمطبوع في بيروت ١٩٨١ – ١٩٨٢ فقرأت فيه ما يلي :–

في الصفحة (١٧٣) تحت عنوان ((القات في الأدب اليمني)) بقلم عبد الله محمد الحبشي جاء قوله : (••• وانصرف بعض الشعراء (شعراء القات) الى التشبيب بالغلمان الذين يتناولون القات •• فها هوذا الشاعر ابراهيم بن صالح الهندي المتوفى سنة ١١٠١هـ يرى غلاماً جميلاً وقد اخضرّ فمه بالقات فيقول فيه :

أشبّه ثغره والقات فيه × وقد لانت لرقته القلوب
لآلىء قد نبتن على عقيق × وبينهما زمرّدة تذوب) ••

وفي الصفحة (١٨١/١٨٢) يتحدث عن شعر محمد بن أحمد الشامي الذي اتبع في شعره طريقة ابراهيم الهندي في وصفه لغلام وفي فمه قات فقال فيه :

لما بدا أدعج العينين مبتسماً × كأنه البدر يجلو ظلمة الغسق
والقات في فمه فيروزج وشفا – ت الثغر ياقوتة والوجه كالفلق
فقلت من عجبٍ هذا بمبسمه × (فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق)•

القصاصة : بعد السطر (٢٢) مباشرةً من ص ١٦٦

ولعل المسوءولين في حكومة الامام قد فطنوا الى هذه المشاكل والمتناقضات فقرروا قرارا لم يسبقهم اليه أحد من العالمين ••• !

قال صاحبي : فماذا قرروا في ذلك ؟

قلت : قرروا ابدال النهار بالليل وابدال الليل بالنهار ••• !

قال صاحبي : والله لم أفهم شيئا •• !

قلت : لست أنا القائل بهذا القرار حتى تفهم شيئاً أو لا تفهم •• انما قاله المسوءولون عن شعب اليمن أمام الله وملائكته والناس أجمعين ••

قال صاحبي : سألتك الله أن تفصح •• كيف أبدلوا النهار بالليل والليل بالنهار ؟!

قلت : لقد قرروا أن ينام الشعب كله نهاراً ويقوم للعمل ليلاً طوال شهر الصيام ••• !

قال صاحبي : ان مجلس القات عادةً يستغرق كل الساعات ما بين الظهيرة والمغرب والعشاء لكي يحصل (المُخزّنون) على (الكَيْف) فمن أين يأتون بمثل هذه الساعات في الليل •• وليل المسلم الصادق في شهر رمضان كله قيامٌ وذِكرٌ وقرآنٌ وصلواتٌ وسحورٌ وامساكٌ وصلاة فجر ؟ !

قلت : ألله تعالى •• وأهل اليمن أعلم بذلك ••• !

ما بين إسنانهم .. فلما تكلم أحدهم مع رفيقين مجاورين له ، انكشفت أفواههم عن اسنان بيضاء ولكنها مخضبة بصباغ نباتي اخضر وهي تطحن وتعجن مادة خضراء مشبعة باللعاب الاخضر .. فكانوا يبصقون بعضه على الأرض بطريقة تجيش النفس بالقيئ ..

أو هكذا كان شعوري في تلك اللحظات . . وبعد ثوان قليلة رأيت أحدهم وهو يقذف من فمه نفاية خضراء ثم يتناول جرعة ماء من (الكعدة) القذرة التي يشترك فيها الجميع . . فيتمضمض بها ثم يبصقها على الارض . . ويبدأ بحشو فمه بورق جديد من القات . . ولم اكن اعرف في حينه أنه القات . . . . . .

ولم أشأ أن أسأل أحداً في ذلك اليوم عما شاهدتُه في (مجلس القات الحدودي) . . لأنني لم أكن أعرف شيئا إسمه القات حتى وصل رَكبُنا الى (تعز) عاصمة اليمن الثانية في الجنوب . . والتي اضطررنا الى المكوث فيها بضعة أيام لأسباب سنأتي اليها في حينه . . . وخلال فترة المكوث هذه سمعنا عن (حكايات القات) . . وأساطيره واستعباده لخمسة ملايين نسمة من سكان (العربية غير السعيدة ...) !

وعندما تقرر موعد زيارتنا ، أو بالأحرى مقابلتنا ، لأمير (تعز) ولي العهد سيف الاسلام أحمد بن الإمام يحيى حميد الدين علمنا أن المقابلة ستتضمن دعوتنا لتناول طعام الغذاء على مائدة الأمير في قصره الخاص . . وكان من الطبيعي حضور عدد كبير من المسؤولين ووجوه البلد ليشاركونا هذه الدعوة الخاصة جداً . . . . . .

وحينما ألقيتُ نظرة فاحصة على مائدة الطعام رأيت اكثر من خمسة أوعية خزفية مستديرة الشكل وقد اسود شكلها من الخارج وهي مملوءة بطعام من المرق غليظ الهيئة نسبياً . . أخضر اللون كلون الحشيش أو البرسيم . . كان أول طعام أقبل عليه المدعوون من أهل البلاد . . فلما باشر هؤلاء بتعبية أفواههم الفاغرة من ذلك المرق الأخضر الغليظ مع الخبز . . ذكّرني منظرهم بذلك الخزين الأخضر المائع الذي رأيته في أفواه جماعة الحرس الحدودية في (الراهدة) وهم يبصقون به بين الحين والآخر . . ! ومنذ ذلك الحين كرهتُ كل طعام يشتمل على مرق أخضر غليظ أو رقيق . . وعلى الأخص (السبانخ) الذي يشبه خزين القات أعظم الشبه . . ولازلت أعاف (السبانخ) المطبوخ على الطريقة العراقية رغم مرور (٤٣) أو (٤٥) عاماً على مرورنا بالراهدة حيث كانت نقطة البداية في حكاية التعرف على القات . !

بقي علينا أن نعلم أن أطباق ذلك المرق الأخضر الغليظ كانت «الطبق المفضّل» لدى خمسة ملايين نسمة من سكان اليمن قاطبةً . . إنه «طبق الحُلْبَة» الذي لايخلو منه قصر ملكي ولا أميري ولا كوخ صعلوك . . ورغم كل هذه «الشعبية» الجامعة لمحاسن (الحلبة) . . فان طبق الحلبة لم يستطع يوماً أن يجد له طريقاً ولاباباً ولانافذة لينفذ منها الى داري في اليمن طوال ثلاثة أعوام .. ! ولا أنكر أنني قد ظلمت أهل بيتي بحرمانهم من أعز طبق يمني طوال تلك الفترة . . ولكنني كنت أحرص على استمرار ذهابنا الى دار أهلها في كل مناسبة لافساح المجال لها لكي تلتقي بحبيبتها (الحلبة) .. !

ولقد كرهتُ من (مجالس القات) أيضا ذلك الجو الخانق والهواء الفاسد في داخلها خلال موسم الشتاء خاصة حيث يعمد صاحب المجلس إلى إحكام غلق النوافذ الخشبية السوداء وإسدال الستائر الكثيفة عليها وغلق باب (المنظرة) ايضا حال اكتمال توافد الحاضرين . . ولولا الضياء المتسلل من العقود الزجاجية التي تعلو تلك النوافذ الخشبية المقفلة لساد الظلام داخل المجلس واحتاج الامر الى المصابيح . . !

ولما كان مجلس القات يستغرق عدة ساعات متتالية . . فعليك أن تتصور كمية دخان التنباك المتصاعد من (المداعات – النارجيلات) العشرة أو العشرين المنتصبة جنباً الى جنب في وسط ارضية المجلس وخراطيمها منتشرة الى جميع الاتجاهات كأطراف الأخطبوط .. !

فاذا أضفت الى ذلك مجمل الهواء الفاسد ، أو بالأحرى ثاني اوكسيد الكاربون ، الذي تنفثه صدور الحاضرين . . تبين لك مقدار مايقامر به هؤلاء الحاضرون على حساب صحتهم وسلامة أبدانهم . هذا فضلاً عن المضار الصحية العديدة التي يتركها القات في أبدانهم .. !

وإنك إن أتيت غرفة مجلس القات(المنظرة) في ضُحى اليوم التالي وجدت فضاءها وجدرانها وسقفها ومفارشها مفعمة ومشبعة برائحة

دخان النارجيلات . . وقلما اهتم أهل البيت بفتح النوافذ الخشبية السوداء من أجل التهوية ودخول أشعة الشمس لغسل تلك الروائح الكريهة من الغرفة . . !

٨ – القات بين المَدْح والقَدْح .

إنك لن تجد بين الخمسة ملايين نسمة من سكان اليمن (١٩٤٠ – ١٩٤٣) من لايمتدح القات . . ! والكثير منهم من تأخذه العزة بالإثم فيعدو على من يتجرأ بكلمة سوء على القات . . ! ولو كان القات صنماً كا للاّت والعُزّى ومناة الثالثة الكبرى لروّى أهل اليمن تربتها بدماء القرابين . . ! أما المسؤولون في حكومة اليمن (أيام زمان . .) فقد كان موقفهم من القات كموقف زعماء قريش في الجاهلية من الأصنام التي دنّسوا بها فناء البيت الحرام بإسم (٣٦٠) قبيلة هي قبائل العرب في الجاهلية . . كانت الأصنام تجتذب قبائل العرب لكي يحجوا الى البيت العتيق . . فاذا جاءوا الى مكة جاءت معهم الأموال الطائلة التي يسيل لها لعاب زعماء قريش . . ولايهم هؤلاء بعد المال إن كانت الآلهة قد رضيت أم لم ترض عن الحجيج الذين طافوا بالبيت عراة يصفقّون ويصفّرون . . ! والقات كذلك . . فطالما دَرّ على خزائن الحكومة وخزائن المنتفعين الكبار بالذهب والفضة . . فلا يهم بعد ذلك إن كان هذا القات مفيداً أم مضراً بصحة الناس وحالتهم المعاشية . . والاجتماعية أيضا . . ولما نزل القات الى ميدان المنافسة التجارية مع البن اليمني الشهير . . خسر البن وربح القات . . . ليس لأن أهل اليمن لايستهلكون البن نفسه بل قشوره . . ولكن لأن مدخول الخزينة من أرباح القات تفوق مداخيل البن ربما بنسبة ٣ رغم أن القات لايُصدَّر منه الى الخارج البعيد بسبب طبيعته النباتية وعدم تيسر التدابير اللازمة لحفظه من التلف السريع . . .

ولعل أول وآخر من تجرأ على ذم القات بين أهله المتعصبين له كان الضابط الشاعر (قسطنطين يني) الذي رافق صاحب كتاب «ملوك العرب» السيد أمين الريحاني في رحلته الى اليمن عام (١٣٤٠ هـ – ١٩٢٢م)[1] . .

قال شاعر الرحلة الريحانية في ذم القات بعد أن كان قد امتدحه أول الأمر [2] مجاملةً :

مانَفْعه أنبِئوني × هل عند شخصٍ جواب ؟
جَرّبتُه واختباري × يُجدي به الإسهاب
تنتاب جسم الفتى قشـ × عريرة والتهاب
وفيه يفعل مالا × يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخـ × ز والعذاب حراب
والنسل يضعف منه × مافي كلامي ارتياب
لانفع في القات لكن × فيه الشّقا والعذاب
وتزهق النفس منه × والقلب والاعصاب
والجفن يذبل حتى × يغشى العيون سحاب
وسوء هضمٍ وقَبْضٍ × منه يغيب الصواب
والرأس يثقل وطئاً × وبالدوار يصاب
ويعتري بعد هذا المفا × صل الإضطراب
لم يبق أرّختُ ريباً × القات للقتل باب[3]

ومن الغريب في هذا التحدّي أنّ نظم هذه الأبيات كان في اليوم الثالث من شهر رمضان عام ١٣٤٠ هـ ! ومن الغريب ايضاً أنّ

(١) (٢) : راجع هامشنا (٢) ص ٤٦

(٣) لقد صرفنا النظر عن أبياته من المقطوعة للإيجاز .

الشاعر بعث بقصيدته هذه الى الإمام يحيى ، مشفوعةً برسالة خاصة .. فردّ عليها الإمام بشعرٍ جميل ينسجم ونفس القافية .. نقتطف منه الآتي : –

فللعيون جلاءٌ × للضعف منه ذهاب
وللثغور صِباغٌ × زُمُرّديّ يُذاب (١)
أحْسِن بثغرٍ مليح × له المُذابُ رُضاب (٢)
يامـا أُحيلاه ظَلْماً × تشفى به الأحباب
وللنفوس مريح × وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى × يُخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمن × له الجليس كتاب
أما الذي قاله قسطن × طين فهو سراب
أليس من جاوز الحد × أكله والشراب
يكون عُرْضة خُسْر × ويعتريه اكتئاب
والأكل والشرب مالا × به الكرام تعاب
وإنما العيب إسرا × ف منه يبدو العجاب
هذا المُلَفَّقُ ياقسطن × طين منا جواب (٣)
يُهدى إليك عليه × من الحياء نقاب
لأنه ليس كفواً × للدُرّ وهو تراب
فاستُر مُلَّفَقَ يحيى × فالستر فيه ثواب (٤)

ولكن القات ، ولاشك فيما نقول ، مضر بالصحة متى ما وصل تعاطيه الى حد الإدمان .. وبدون الإدمان لا يحصل «الكَيْف» .. والإدمان يؤثر تأثيرا سيئاً على وظائف أجهزة الجسم كلها .. وعلى وجه التخصيص في الجهازين الهضمي والعصبي ..

ومدمن القات تراه شاحب الوجه ، غائر العينين ، ضعيف المقاومة للأمراض الاستوائية . . ولولا القات لكان (الجندي اليمني) من أقوى جنود العالم وأشدهم صبراً وجَلَداً على احتمال المشاق العسكرية . . ولقد وضعنا الجندي اليمني تحت ملاحظتنا الطويلة الدقيقة . . فوجدناه ، رغم تعاطيه القات ، ينافسنا في التحمل والصبر والجلد رغم سوء تغذيته ورداءة ملبسه وتجهيزه . . . فإن لم يكن اليمن قد خسر شيئاً جوهرياً بسبب القات . . فقد خسر كل شيء بضياع الجندي اليمني تحت وطأة القات .. !

٩ – مجالس النساء في اليمن .

وللنساء في مدن اليمن مجالسهن الخاصة .. وفي المناسبات المهمة يسمح رب البيت لهن باستعمال (المفرج) أو (المنظرة) لعقد المجلس النسائي ..

وعند توافد النسوة الى المجلس ينزعن (ستائرهن) و (براقعهن) وأحذيتهن ويضعنها في جانب من المجلس على غير نظام ولا ترتيب .. ومع ذلك فقلما يحدث الهرج والمرج عند استعادة هذه الودائع قبيل الانصراف .. !

وتُسلّم الداخلات على الجالسات في المجلس بقولهن : «كَمْسَيْتوا» ـ أي كيف أمسيتم ؟ ويردّ الطرف المقابل بعبارة «حَيّاً الله من جآ» ـ فلا يلفظون الهمزة الذيلية مِن (جاء) وأمثالها .. ولابد من تقبيل الأيدي بين الطرفين .. مع مراعاة بقية التقاليد التي تحدد عدد وكيفية التقبيل ومن هو الذي يجب أن يبدأ أولاً .. ومن الذي يجب القيام له عند الدخول ... الى غير ذلك ..

فاذا جلست المرأة جلست متربعة .. واذا استقرّت في مجلسها فانها لاتتحرك فيه ولاتغيره طوال انعقاد المجلس .. مالم يكن المجلس

خاص بالأعراس ..

وبينما لايزيد عدد الرجال في مجالسهم علىٰ العشرين شخصاً تقريباً .. فان مجالس النساء قد تضم ضعف هذا العدد ..... ويتفق مجلس النساء مع مجلس الرجال في إحكام غلق النوافذ الخشبية السوداء وإسدال الستائر عليها .. والإكتفاء بالضياء المتسلل من العقود الزجاجية الصّماء ...

وأنت إذا ماوضعت على رأسك (طاقية الإخفاء) وتسللت بشكل أو آخر الى هذا المجلس (الحريمي) .. المُعَتّم تعتيماً فنياً خاصاً . لوجدت منظراً عجباً . . . ! فقد امتزجت أشعة قوس وقزح النافذة من العقود الزجاجية الملونة فوق النوافذ بالألوان الزاهية ألمشعّة من ملابس النسوة المتربعات علىٰ المفارش فوق أرضية الغرفة .. فتشعر عندئذ وكأنك في روضة ساحرة مفعمة بكل الألوان الاساسية والفرعية الموجودة في الطبيعة ....

ولنساء اليمن ، في المدن خاصة ، جمال متنوع ككل نساء العالم بوجه عام ونساء الشرق الأوسط والشمال الافريقي بوجه خاص .. ولاننسىٰ البصمات المتنوعة التي تركها أقوام غير عرب في اليمن علىٰ مرّ العصور وتقلّب الدهور .. كان آخرهم الأتراك العثمانيون .. وهذا أمر حدث في اليمن وخدث في الحجاز وحدث في كل الجنوب العربي والخليج والهلال الخصيب والشمال الافريقي ...

ونساء المدن في اليمن لايكتفين بمواد التجميل المحلية لتجميل أنفسهن .. بل يزدن عليها مما تتفتّق عنها قرائحهنّ من المبتكرات الجمالية الإضافية .. كجدائل الزهور والريحان والأستاب الذي يسميه أهل اليمن بالشّذاب ... ! ولنساء ، اليمن في المدن اهتمامات جمالية أخرىٰ نشعر بالحرج إن دخلنا في تفاصيلها .. فهي ولاشك تخص الحياة الزوجية بالدرجة الأولىٰ ...

وللابس النساء دخل كبير في التجّمل .. لذلك اختلفت ملابس العجائز عن ملابس الشابات .. فالعجائز يسترن رؤسهن بخمار من الشاش الأسود المزركش بحيث يلف الرأس حتىٰ الرقبة والعنق .. ولكنهن لايرين بأساً من غصن أو غصنين من الريحان أو الأستاب يتدليان من الصدغين .. ويعللّن ذلك بأنه يدفع عنهن بعض الشرّ .... !

أما النسوة الشابات فتكون عصابة رؤسهن علىٰ النمط التركي .. واكثرهن يفتقرن القدرة علىٰ معرفة تناسق الالوان في ملابسهن .. ولذلك يفقدن غير القليل من الجاذبية والجَمال .....

ومن أقبح المظاهر في مجالس النساء إسراف الكثيرات منهن في تدخين (المداعات ـ النارجيلات) .. ولا يترددن عن تعاطي القات إذا تيسر لهن الحصول عليه ..

والأحاديث في مجالس النساء غالباً ماتكون أول الأمر همساً .. ولكن معظم هذه المجالس لايخلو من نسوة جريئات يستطعن كسر هذا الجمود بحكايات نسائية مثيرة وعندئذ ينقلب الهمس الىٰ غمز ولمز .. ثم ترتفع الاصوات حتىٰ يغدو المجلس كحمامّ النساء أو هو اكثر صخباً وضجيجاً ...

والرقص النسائي الشعبي يشكل مادة أساسية في (ورقة أعمال المجلس ..) فاذا حان موعده وقفت إحداهن ، بل أجرأهن ، في وسط المجلس بعد أخلائه من النارجيلات وملحقاتها .. وفي يدها الدفّ .. وينهض في إثرها عدد من النسوة اللواتي يُجِدْن الرقص .. فيرقصن أزواجاً أو ثلاثاً أو رباعاً .. وكلٌ منهن تمسك منديلاً وطرفاً من ثوبها بيد وتمسك يد زميلتها المجاورة باليد الأخرىٰ .. ويمكن للمتخصص العارف أن يميز بين الرقص الفني الصحيح وبين غير الصحيح بملاحظة الحركات المعقّدة لأقدام الراقصات .. ولايُفسد جمال هذا الرقص إلا الراقصات البدينات المترهلات .. ولكن من حسن حظ نساء اليمن أنهن يحتفظن برشاقة أجسامهن الىٰ مابعدسن اليأس ..

القسم التاسع
الإعلام في اليمن

لم نقل «وزارة الإعلام في اليمن» .. بل قلنا «الإعلام في اليمن» ...

فقد سبق أن أوضحنا في القسم الرابع من هذا الفصل بأن حكومة اليمن ليس فيها وزارات حقيقية بالمعنىٰ المفهوم وإن كانت هناك مسمّيات شكلية كرئيس الوزراء ووزير المعارف ووزير الصحة ووزير الاقتصاد والمواصلات .. فكل هؤلاء ليست لديهم دواوين وزارة ولامؤسسات وزارة .. ولاهم يحزنون .... !

لذلك بقينا حيارىٰ . ونحن نكتب كتابنا هذا . ترىٰ .. تحت أي عنوان رئيسي نضع الموضوعات التالية :

١ . الصحافة في اليمن ؟

٢ . السينما في اليمن ؟

٣ . التصوير في اليمن ؟

ولما كانت الصحافة من أقدم وأبرز وسائل الإعلام في جميع دول العالم .. وأن السينما والتصوير يمكن اعتبارهما من الوسائل الإعلامية .. فقد ارتأينا أن يكون عنوان القسم السابع من هذا الفصل هو «الإعلام في اليمن» ....

١ – صاحبة الجلالة في اليمن .. الصحافة .

إن هذا العنوان لكبير جداً علىٰ اليمن في الأربعينات .. ويكاد يكون «سبّةً» في جبين صاحبة الجلالة «الصحافة» ... !

فالصحافة في اليمن يومذاك لم تزد علىٰ (شبه جريدة اسبوعية واحدة) و (شبه مجلة شهرية واحدة) .. وكلتاهما مُلك الدولة وتحت إشرافها الدقيق ... !

أ . جريدة الإيمان .

جريدة أسبوعية رغم مرور (١٦) ستة عشر عاماً علىٰ إصدارها ... ! وهي تنشر الاخبار المحلية ومقابلات الإمام وتعيين وترقية وتنقلات الموظفين المدنيين والعسكريين والقضاة .. كما وترحب بقصائد (وعاظ السلاطين) أو مدّاحيهم من الشعراء الذين اتخذوا هذه المهنة وسيلة للإرتزاق علىٰ أبواب الإمام وسيوف الإسلام الذين يمثلون عهد ملوك الطوائف قبل عدة قرون ...

ب . مجلة الحكمة .

مجلة شهرية متقوقعة علىٰ نفسها .. تنشر أحياناً بعض مقالات يكتبها الإمام نفسه في بعض المناسبات .. كما تنشر مقتبسات من الكتب التراثية المخطوطة .. وتنشر أيضا الأحداث الخطيرة علىٰ شكل مقالات أدبية من الطراز القديم فتضيع أهمية الحدث الخطير في زحمة التعابير الأدبية القديمة .. كما حدث ذلك عندما نشرت هذه المجلة خبر الزلازل التي وقعت في منطقة (صعدة) في شمال اليمن عام ١٩٤١م (راجع المادة ـ ٥ ـ من الفصل الأول ـ لمحات جغرافية عن اليمن) ..

تحت عنوان «زلازل عظيمة» كتبت مجلة الحكمة مقالاً مطولاً نقتطف منه الاتي : ـ

[... وإنه لما كان يوم السبت ثالث عشر شهر ذي الحجة الحرام . لعله في الساعة الخامسة منه وهو آخر أيام التشريق . وقع ارتجاف عظيم وزلزال هائل مهيل بصعدة ونواحيها حتىٰ بلغت إلىٰ مسيرة ثلاثة ايام شمالاً ونحو مرحلتين غرباً ويوم من اليمن . دهشت له العقول وذهلت منه الافكار وتصدعت منه الأفئدة فطارت شعاعاً وصار الناس حيارىٰ ، وتراهم سكارىٰ وماهم بسكارىٰ . وقد كانوا مشغولين بأضاحيهم فمن مضّحٍ ومن مُشرِّقَ ومن مُقدّدٍ ومن طابخ ومن ذاهب ومن آيب . فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتىٰ تطايرت الجبال واضطربت وفارت كفوران القدور ، وغلت غليان المراجل ، وانفلق عنها اكثرها وانشقت الارض واهتزت اهتزازا شديداً ، اهتزاز ترح لا اهتزاز فرح ، ودوران غضب لادوران طرب ، ومادت في ارتفاع وانخفاض واستقامة واعتراض ..

ولقد حُكي أن أحد الأحداث كان راعياً أو ماراً تحت وادٍ وكان ممن كتب الله له السلامة فلم يتسلل من الوادي حتىٰ ابيض عارضه شيباً .. وغاض نهر النضير الشهير وفاض نهر الحضاير ، وكثر ماء الآبار بصعدة ونواحيها وخرج من مرابع الوحوش بوادي غَمْر مالا يعد من الوحوش . الأسود والنمور والفهود والضباع والذئاب والثعالب وتفّرقت في المفاوز ..... الخ] . إنتهىٰ

تلك كانت هي عقلية (مجلة الحكمة) في نشر خبر خطير من هذا الطراز .. إنه طراز لاحكمة فيه ولاجدوىٰ .. وقد لايساوي ثمن الحبر الأسود الذي أُنفِق علىٰ طبعه ... !

كان (رئيس تحرير) هذه (الصحافة المتوكلية) هو القاضي عبد الكريم أحمد المطهر .. الذي هو في الوقت نفسه يمثل وزير العدلية في حكومة الإمام ذات الوزراء بلا وزارات ولادواوين ولا مؤسسات وزارية ... !

أما المطبعة التي كانت تُسوَّد هذه (الصحافة المتوكلية) فهي المطبعة الوحيدة التي تركها العثمانيون فيما تركوا وراءهم عند رحيلهم النهائي عن اليمن عام (١٩١٨م) ... !

ولاندري لماذا عطّل الإمام يحيىٰ هذه (الصحافة المتوكلية) في عام (١٩٤١م) وحَرَمَ القراء من أقباسها النورانية .. ؟

قال بعضهم : إنها أزمة الورق وحبر الطباعة بسبب الحرب القائمة (١٩٤٠ - ١٩٤٥) ...

قلنا ، وقال أمين الريحاني من قبلنا ، أن الإمام يحيىٰ كان قد وضع يده على القناطير المقنطرة من القرطاسية العثمانية علىٰ اختلاف انواعها .. بما في ذلك ورق المطابع ... !

وباحتجاب (جريدة الايمان) و (مجلة الحكمة) عن القراء في اليمن .. احتجبت شمس العلوم والمعرفة والإيمان والحكمة عن أهل اليمن إلىٰ ماشاء الله تعالىٰ أن يكون ... !

٢ - السينما في اليمن .

يُحكىٰ أن رجلاً من أصحاب الخير أراد أن يُنقذ أهل اليمن من شرور (القات) عن طريق تحويل اهتماماتهم من (القات) الىٰ وسيلة عصرية مسلّية هي شاشة السينما بعينها .. وكان لابد له من استحصال موافقة الإمام يحيىٰ على ذلك .. فتقدم إليه بطلب تحريري شارحاً فيه خلاصة مشروعه الخيري لخدمة أهل اليمن .. ثم جلس في داره ينتظر الإجابة وهو لايدري أن لمثل هذه الطلبات في اليمن طابعها الخاص .. وهو الانتظار الذي لاتكاد تكون له نهاية .. وبالتالي الإستسلام لليأس والكف عن المشاريع الشيطانية التي لاسُوق لها في البلادِ الإمام ...

ولكن صاحبنا هذا كان صادقاً في حسن نيته من المشروع .. فلم ييأس من رَوْح الله .. وظل يعلل النفس بالآمال يرقبها .. حتىٰ جاء البشير ذات يوم يدعوه لمقابلة الإمام في المقام - أي في الديوان .. فلما مَثُل بين يدي الإمام يحيىٰ أشار اليه بالجلوس .. فاستبشر الرجل بالخير .. فلما استقر في مجلسه طلب منه الإمام إيضاحاً مفصلاً عن المشروع .. وتكلم الرجل بما يريد والإمام يصغي اليه بكل جوارحه .. مما جعل الرجل يزداد تفاؤلاً بالنتيجة .. فلما انتهىٰ من كلامه قال له الإمام :

«إني موافق علىٰ مشروعك هذا بشروط ثلاث ..» .

قال الرجل : وماهي شروط مولاي الإمام حفظه الله ؟

قال الإمام : «أولاً وقبل كل شيء أن لاتعرض علىٰ الشاشة شيئاً يمّس الدين ولانظام الحكم في البلاد» .

قال الرجل : هذا شيء مفروغ منه يامولاي ..

قال الإمام : «والشرط الثاني – أن لا تظهر النساء علىٰ الشاشة .. » .

قال الرجل ، وهو يداري ارتباكه : ولكن هذا الشيء ليس في يدي يامولاي .. ومع ذلك سأبذل جهدي في عدم حدوثه ...

قال الإمام : «أما الشرط الثالث والأخير هو أن تُصرف تذاكر الدخول الىٰ السينما مجاناً» ...

ولم ينطق الرجل بعد ذلك بحرف واحد .. بل ظل يحملق في وجه الإمام .. ثم لملم أذياله وقام وسلّم بالانصراف ولسان حاله يقول : بارت تجارتك وربّ الكعبة ... !

ومهما كانت درجة الصحة في هذه الحكاية أو الرواية .. فان هذا الرجل لوكان قد أخّر مشروعه بضع سنوات اخرىٰ لربما نجح في مشروعه وباع تذاكر السينما كالمعتاد وحوّل اهتمامات أهل اليمن نسبياً من (القات) الىٰ شاشة السينما .. ذلك أنه بعد اغتيال الإمام يحيىٰ عام (١٩٤٨م) واعتلاء وليّ عهده (سيف الاسلام احمد) عرش اليمن حدث تساهل في تشغيل آلة السينما في العراء بمدينة (تعز) وذلك بمناسبة العيد الثاني من أعياد النصر في بداية الخمسينات .. وكان الفلم المعروض قد تضمّن فعاليات العيد الأول للنصر الذي حققه (احمد) في إجهاض الثورة الوزيرية عام (١٩٤٨) والتي راح ضحيتها الأمام يحيىٰ نفسه ....

٣ - التصوير في اليمن حلال وحرام .. !

قبل أن نغادر العراق الىٰ اليمن في ربيع عام (١٩٤٠) .. كنا نعلم سماعاً أن التصوير في اليمن حرام .. ولماكان الانسان حريصاً علىٰ ما مُنع .. فقد عزمتُ علىٰ أن أتجهز بآلة تصوير وبضعة رقوق تصويرية - أي أفلام - مع مايلزم من المواد والأدوات للغسل والطبع .. كانت آلات التصوير المتيسرة في تلك الأيام لاتزال غير متطورة .. إذ لم تكن هناك مصابيح وهّاجة أي (فلاش - FLash) .. ولا (نواظير مُقرِّبة - TeLescope) .. ولا أفلام ملونة .. وكان معظم الآت التصوير يومذاك من النوع الذي يجري تثبيته علىٰ ركيزة معدنية ذات ثلاثة سيقان لكيلا تهتز الآلة عند الضغط علىٰ عتلة التصوير ....

وقبيل السفر تيسرت لدي آلة تصوير اعتيادية من نوع (كوداك - KodaK) .. وكانت فترة السفر الطويلة من بغداد الىٰ اليمن هي فترة اختبار لتلك الآلة المتواضعة ..

فلما وصلنا الىٰ (عدن) علمنا من الناس أن التصوير في اليمن له ثلاث اجتهادات كيفية هي : -

١ . أنه مُحرّم تحريماً قاطعاً بالنسبة لشخص الإمام يحيىٰ ..

٢ . وغير مقبول . أو مكروه بالنسبة للسادة المتعصبين من الزيود ..

٣ . وحلال مبتذل بالنسبة لبقية العباد ...

ولم اكن يومها قد التقيت بكتاب «ملوك العرب» للسيد أمين الريحاني الذي سبقنا في رحلته الىٰ اليمن بثماني عشرة سنة .. إلا أنني اطلعت عليه بعد عودتنا من اليمن الىٰ العراق .. وبمناسبة الحديث عن التصوير في اليمن ارتأينا أن ننقل فيما يلي نصّ ماكتبه الريحاني عن موقفه من تصوير الإمام يحي وكيف تصرّف بهذا الشأن .. فقد كتب عن ذلك في الصفحتين (١٥٩/١٦٠) من الجزء الأول يقول : -

[... أما إذااستأذَنْتَهُ بأخذ رسمه فيأبىٰ ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم زيود ، فلا أظنه علىٰ طول باعه في الاجتهاد يستطيع أن يوفق بين الأمرين .. الزيدي زيدي جندياً كان أم إماماً .. واذا كان هناك من تحريم في المذهب أو في الدين يختص بتصوير الهيئة البشرية فالتحريم يشمل طبقات الناس كلها .. علىٰ أن آلة التصوير لم تنجح فيما أباح فلم تصحّ وأسفاه من صور الجيش صورة واحدة .. وقد كنت فيما مُنع مصراً لأني كرهت أن أعود من صنعاء وليس لدي من طلعة الإمام الشريفة غير الذكرىٰ والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي من فن الرسم واغتنمت الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل .. فدرستُ وجهه ورسمت عندما عدتُ الىٰ المنزل ماحفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الإمام[1] ..

العفو يامولاي .. إننا في زمن أدبي فني يحلّ الرسم فيه غالباً محل الكلام ، وله في أحوال شتىٰ المقام الأول . فضلاً عن أن الناس غربيين أو شرقيين يرغبون في مشاهدة عظام الناس .. فاذا حُرِموا ذلك فلا يُحرَمون . بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات ..] . إنتهىٰ .

ونحن نعقّب علىٰ ذلك فنقول :-

ليس جنود الجيش اليمني وحدهم المسموح بتصويرهم .. بل التصوير مسموح به ولا اعتراض عليه حتىٰ بالنسبة لسيوف الإسلام أنجال الإمام يحيىٰ نفسه .. وكذلك جميع رجال دولة الإمام ..

لم يبق هناك من تفسير مقبول لامتناع الإمام يحيىٰ عن تصوير شخصه سوىٰ أنه كان يفكر بالتشبه بالمصطفىٰ ، صلىٰ الله عليه وسلم ، أو بالخلفاء الاربعة الراشدين الذين لايجوز تصوير أو تمثيل اشخاصهم في الأفلام السينمائية أو علىٰ خشبة المسرح كما هو معروف بالضرورة .. إلا أن السؤال المحيّر سيظل هو هو : لماذا الإمام يحيىٰ وحده هو المُحرّمَ تصويره ؟ فإن كان التحريم يتعلق بمقام الإمامة وليس بشخص الإمام نفسه . فماذا سيكون الجواب بالنسبة لمن سيخلفه علىٰ كرسيّ الإمامة من بعده وقد جرىٰ تصوير اشخاصهم قبل أن يصبحوا أئمة .. ؟ !

لقد رحل الإمام يحيىٰ ، والىٰ الأبد دون أن يفصح لأحد من الناس عن وجهة نظره الحقيقية في هذا الموضوع .. ولكن السيد أمين الريحاني استطاع ان يترك للناس وللتاريخ رسماً تخطيطياً للإمام يحيىٰ فيه ملامح عديدة من ملامح الإمام يحيىٰ

(١) راجع ص (٢٨٢) .

الحقيقية .. رغم أن طاقية الشغل التي كان يرتديها الإمام يحيىٰ أثناء عمله في الديوان قد أضاعت الكثير من ملامح الإمام الحقيقية .. فالصورة الحقيقية لاتظهر علىٰ حقيقتها إلا والعمامة الإمامية فوق العين والرأس ...

ونحن حينما استنسخنا (بيدنا ... بقلمنا) الرسم التخطيطي الذي رسمه السيد أمين الريحاني للإمام يحيىٰ قبل (٦٢) عاماً ووضعناه في الصفحة (٨٢) من كتابنا هذا إنما فعلنا ذلك علىٰ سبيل البحث والدراسة وتجديد الخبر ... مع ذلك فاننا نعتذر (لفيلسوف الفريكة) إن كنا قد تطاولنا علىٰ (ريشته) المبدعة التي تركت لكل الحيارىٰ صورة الإمام يحيىٰ بعد أن امتنعت عنهم دهراً طويلا ...

لقد سبق وذكرنا في مقدمة كتابنا هذا أن زميلنا في البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن الرئيس الأول محمد حسن المحاويلي (حالياً ـ المقدم المتقاعد) كان قد ألّف كتاباً بعنوان «قلب اليمن» صدر عام (١٩٤٧) ، وكان قد زيّن صدر كتابه بثلاثة تصاوير فوتغرافية أولها للملك فيصل الثاني والثانية للموصّي على العرش الأمير عبدإلاله والثالثة للإمام يحيىٰ حميد الدين وهو بكامل قيافته الإمامية الرسمية .. فلا ندري على وجه الدقة من أين جاء الزميل بهذه الصورة للإمام يحيىٰ .. ولكننا ندري أنه كتب تحتها عبارة (النقل ممنوع) .. رغم أن الصورة لاتشبه الإمام يحيىٰ كما رأيناه بأعيننا في اليمن ... !

وآخر ماخطر على بالي وأنا اكتب عن (التصوير في اليمن حلال وحرام) هو صورة ماريا تريزا على الوجه الأول من الريال الفضي النمساوي الذي تحدثنا عنه آنفاً ... فلا ندري لماذا لم يعتبره الإمام يحيىٰ في عداد المحرمات .. رغم أن هذا الريال النمساوي يرافق كل المسلمين من أهل اليمن في جيوبهم عند أداء الصلوات الخمس في كل أربعٍ وعشرين ساعة ... ؟ !

القسم العاشر

المطبخ اليمني

لاشك وأن معظم القراء من العرب والأعاجم قد استمعوا إلىٰ من يتحدث عن «المطبخ الإيطالي» و «المطبخ الفرنسي» و «المطبخ الانكليزي» و «المطبخ الصيني» ... والخ ..

إلا أن أحداً من هؤلاء المستمعين لايمكن أن يكون قد استمع الىٰ من يتحدث له عن «المطبخ اليمني» مالم يكن هذا المتحدث ممن طوّحت بهم الأقدار فأوصلتهم إلىٰ اليمن بشكل من الأشكال .. وحتىٰ هذا المطوّح به لايمكن أن يعرف شيئاً عن المطبخ اليمني مالم يمكث في اليمن سنينَ عددا ... !

فالمطبخ اليمني لايعرف طبق المايونيز ولا المشويات ولا المحشيات ولا المقليات ولا الفول المدمّس ولا البرغل ومشتقاته ... ولا .. ولا .. ولا ... إلا أنه يُنتج من الأطباق مالايخطر ببال إنسان لايعرف اليمن .... !

ولعل المطبخ اليمني قد اكتسب كل هذه الشعبية بسبب انعدام المطاعم والفنادق الأهلية أو الحكومية في اليمن .. أللّهم إلا تلك الملاجئ البدائية التي يسمونها في اليمن : (مِقْهاية) أو (مخاية) .. وهم يعنون بها المقهىٰ أو منزل الاستراحة والمبيت .. وهي تشبه خانات المسافرين التي كانت شائعة عندنا في القرون الوسطىٰ ومابعدها ...

إن (المقهاية) اليمنية عبارة عن مبنىً بدائي جداً ينام فيه المسافرون مع حيواناتهم من جمال وبغال وحمير وماشية تحت سقف واحد أحياناً وتحت سقفين أحياناً أخرىٰ .. فلا نوافذ ولا أسرّة ولا مفارش ولا اغطية ....

وليست هناك أية درجات تميز المقهايات اليمنية بعضها عن بعض .. فالكل سواسية كأسنان المشط ..! سواء كانت المقهاية في العاصمة (صنعاء) أم في حدود الربع الخالي ..!

أما الخدمات التي تقدمها هذه المقهايات لزبائنها الكرام من بني آدم وجمالٍ وبغال وحمير .. فلن تتجاوز الماء والعلف وقشر البن المغلي في أوعية خزفية حمراء يشربونه بدلاً من الشاي .. واكثرهم يشربه من دون سكر .. ومع ذلك يستسيغونه رغم مرارته القليلة ويزعمون بأنه يشفي المصابين بالتدرن الرئوي .. وهو زعم لايقوم عليه أي دليل ...

إن أي إنسان غريب عن اليمن إذا ساقه القدر يوماً وحطّ الرحال في أية مدينة يمنية ولم يكن يحمل معه توصية استضافة على الحكومة أو أحد المواطنين من أهل تلك المدينة .. فان هذا الانسان لامحالة هالك .. إما من الجوع .. وإما من المبيت بالعراء ..! ولاينقذه من التهلكة إلا المطبخ اليمني في دار أحد الكرماء .. وقد حدث هذا فعلاً لأحد الغرباء فجاء يقصّ علينا ماحدث له فقال : ـ

[... عندما جلست إلىٰ مائدة الطعام ظهراً في بيت هذا الرجل الكريم وألقيت نظرة فاحصة على محتوىٰ الأطباق المرصوفة فوق السماط المفروش على الأرض تملكني الذهول والعجب . . فقلت في نفسي : ترىٰ أي مطبخ هو هذا الذي أنتج كل هذه الأصناف من الأطعمة ..؟! (أنظر الصورة رقم – ٢٢ –) ..

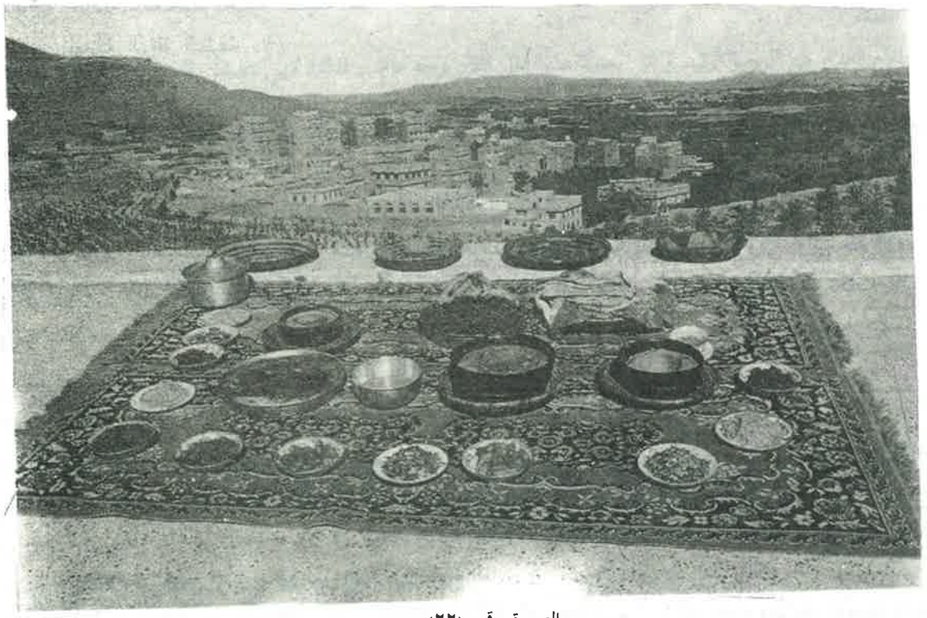

الصورة رقم (٢٢)

السَماط .. !

ـــ(مائدة طعام الغداء في البيت اليمني) .

وبعد الانتهاء من تناول الطعام جلسنا نحتسي اقداح قشر البن .. ودفعني الفضول وحب الاستطلاع الى أن أطلب من مضيفي الكريم قبل الانصراف أن يمكّنني من زيارة عابرة للمطبخ السحري الذي أبدع كل هذا الابداع .. وأنا أعلم مما سبقت لي دراسته أن اليمن كله لايعرف الكهرباء ولا عهد له بالطباخات النفطية أو الغازية أو الكهربائية ماعدا الطباخات النفطية الصغيرة التي تعمل بالهواء المضغوط (البريمس) .. وهذه لايمكن بأي حال من الأحوال ان تُنتج كل هذه الاصناف من الأطباق اليمنية ...

واستجاب الرجل لفضولي ، وقد كان كريماً حقاً ، فقادني الى عتبة المطبخ وقال لي تفضل ...!

قلت له : وإلىٰ أين اتفضل ؟

قال الرجل : إلىٰ المطبخ .. ألم تطلب إليّ ذلك ؟ فهذا هو المطبخ ..

قلت له : بالله عليك .. أنا ضيفك اليوم .. فلا تسخر مني ولا تُشمت بي الأعداء ...

قال : إذن .. أمهلني قليلاً لكي آتيك بفانوس تستضيئ به قبل أن تجتاز عتبة المطبخ ..

وفكّرت ملياً وأنا أحملق بعينيّ في ذلك الكهف المظلم الذي قيل لي بأنه المطبخ .. وحاولت أن أرجع عنه وألعن الفضول الذي ساقني اليه .. ولكن صاحب الدار كان أسبق مني حينما حضر وبيده الفانوس وقال لي : الآن تفضل ياسيدي ...

ودخلت الى المطبخ فلما صرتُ في وسطه أجَلْتُ ببصري في أرجائه .. ولولا الفانوس لما استطعت أن أتبين شيئاً من معالم المطبخ الداخلية .. لأن المطبخ لاتوجد فيه غير كُوّة أو كوّتين قريباً من السقف لخروج الدخان .. وكانت جدران المطبخ وسقفه أشد اسوداداً من السخام نفسه ...!

وعلى ضوء الفانوس وجدتُ تنوراً لعمل الخبز .. والىٰ جانبٍ من المطبخ موقدان أو ثلاثة مواقد للطبخ مبنية بالحجر والطين .. وفي جانب آخر مكان لوضع الإحتياج اليومي من الوقود النباتي والحيواني للتنور ومواقد الطبخ .. أما الخزين العام من الوقود فمكانه في الطابق

الارضي المظلم أيضاً ...

وأجهدتُ بصري في البحث عن أدوات المطبخ فارتد إليّ البصر خاسئاً وهو حسير ...!

وصرتُ أتساءل مع نفسي : أين هي خزانات المطبخ (الكاونترات) ..؟

واين هي الرفوف الخاصة بالصحون الخزفية الصينية ..؟

واين هي القدور المعدنية البّراقة النظيفة ..؟

وأين . . وأين . . وأين ؟

ورثىٰ صاحب الدار لحالي .. فأخذ بيدي الى مكان التنور وقال لي : لعلك تبحث عن هذه (الجِفان) المفتوحة والمضمومة الموضوعة فوق التنور والمواقد ؟

قلت له : كلا .. ولكنني ابحث عن القدور التي تطبخون بها والأواني التي تأكلون بها والاقداح التي تشربون بها الماء .. وغير ذلك ..

قال الرجل وهو يبتسم : ياسيدي . . لقد كانت هذه (الجِفان) الخزفية و(المقالي)[1] الحجرية هي قدورنا وهي أوانينا منذ الآف السنين ولم نشعر في أي يوم من الايام أننا في حاجة الى تبديل أو تطوير هذه الأدوات البسيطة الى ادوات اخرىٰ معقّدة تكلّفنا غالياً بسبب استيرادها من بلاد الأجانب ...! ولكننا لن نرفض المستوردات الأجنبية يوم نستطيع أن نحصل عليها من غير استغلال لحريتنا وكرامتنا .. ونحن نتطلّع الى اليوم الذي نستطيع فيه أن نصنع هذه الحاجيات المتطورة في بلادنا وبأيدينا ...

فأعجبتني عقلية الرجل المتطورة قبل أن تتطور عمارة مطبخه ومحتوياتها .. وسألته أن يوضح لي حكاية (الجِفان) و (المقالي) .. فقال :

إن التنور عندنا لايقتصر استخدامه على إنتاج الخبز فقط .. بل هناك أنواع من الأطعمة اليمنية لايمكن إنجازها إلا بوضع أوعيتها على النار المتبقية داخل التنور الكبير بعد الإنتهاء من عمل الخبز .. لذلك ترىٰ بعض الجفان والمقالي موضوعة فوق التنور .. فنحن نصنع المرق الأبيض من لحم البقر وهذا لايمكن إنضاجه إلا في درجة حرارة عالية .. وهذه لاتتيسر بسرعة وسهولة إلا في التنور الكبير ..

قلت في نفسي : لعل التنور في المطبخ اليمني يعمل عمل الفرن في الطباخ الغازي أو الكهربائي في بلاد الغاز والكهرباء .. ومنها بلدي الحبيب (العراق) الذي كان أهله الى عهد قريب يعتمدون على التنور تماماً كما يفعل أهل اليمن هذا اليوم ...! كان طعام (البُرْمَة) الموصلية لاينضج إلا في التنور أو في مواقد الحمامات الأهلية التي كانت تسمىٰ بـ (الكَرْخان) وهي كلمة تركية عثمانية أصلها (كول خان) اي مكان الرماد الحار المتخلّف عن وقود الحمامات الأهلية ..! وكان طعام (البرمة) الموصلية لاينضج نضجاً كاملاً إلا بوضعه في زير صغير من الفخار يسمىٰ بالبرمة .. ومنه اشتق هذا الطعام اللذيذ إسمه "(البرمة) ....

فنحن العراقيون وأهل اليمن وكل البلاد العربية من عجينة تاريخية اجتماعية واحدة .. ولكننا اختلفنا في سرعة التطور من القديم الى الحديث .. وكانت (العزلة اليمنية) الطويلة من اعظم أسباب تخلّف اليمن عن الركب العربي ...

وأردتُ الانصراف الىٰ شأني فاستأذنت مضيفي الكريم فأبىٰ وقال : [هذا لن يكون ياسيدي .. أنت ضيفي لثلاثة أيام .. وبعدها يفعل الله مايشاء] . فما كان مني إلا أن شكرت الرجل على كرم ضيافته العربية الأصيلة .. وأقمتُ عنده ثلاثة أيام أحطتُ خلالها عِلماً بكل أسرار المطبخ اليمني وما يُنتجه من أصناف الطعام .. وإليك عزيزي القارئ أسماء الأطعمة ومواصفاتها : -

١ - طعام الفطور

أ. الفول (الباقلاء)

يسلقون الباقلاء اليابسة ثم ينزعون قشّرتها ثم يعجنونها كما نعجن البطاطس المسلوقة عندنا .. وربما أضافوا اليها شيئاً من النعناع اليابس ...

٢ . السّبايّة

يعجنون الدقيق الأبيض بالسمن الحُرّ ثم يجعلونه اقراصاً يخبزونها في التنور .. فاذا أخرجوها من التنور صبّوا عليها السمن والسكر أو العسل ..

(١) المقالي : جَمْع (مقلاة) : وعاء منحوت من حجر خاص له قابلية احتمال درجة حرارة عالية يستعمل المطبخ بدلاً من القدور النحاسية أو غيرها .. والظاهر لنا أن تسمية هذا الوعاء بالمقلاة لاتنطبق علىٰ حقيقة استعماله للطبخ وليس للقلي .. وأهل اليمن أدرىٰ بما لاندري ....!

٣ - قشر البن

يغلون قشر البن كما نغلي الشاي .. ويزكّون طعمه بشيء من الهال (الهيل) أو الزنجبيل .. ولا يشربونه مع السكر ..

أما الوعاء الذي يغلون فيه القشر فهو من الفخار الأحمر الذي يتحول لونه الى الاسود بعد استعمال طويل ...

٢ - طعام الغداء

تُعتبر وجبة طعام الغداء هي الوجبة الرئيسية التي يعتمد عليها أهل اليمن بوجه عام .. لذلك فهي تتضمن العديد من ألوان الطعام نذكر منها الآتي : -

أ . اللُّحوح

عجين الدقيق .. يُفتح أقراصاً كبيرة كأقراص خبز الرقاق ..

ب . الشُفوت

خليط من الثوم والكراث والنعناع والكرفس يثرمونه بالسكين .. ثم يضيفون إليه الطماطم واللبن .. ثم يفرشونه على أقراص اللّحوح .. فتكون جاهزة للأكل ..

ج . الحِلْبة (الطبق اليمني المفضل) .

يطحنون كمية من الحلبة حسب الحاجة وينقعونها في الماء لمدة ثلاث ساعات أو اكثر وذلك لطرد مافيها من المذاق المرّ .. ثم يجري خفقها كخفق البيض حتىٰ تكتسب لوناً أبيضاً ويكون قوام المخفوق غليظاً بعض الشيء .. ثم يضيفون اليه مثروم الكراث والكرفس والنعناع والتوابل الحارة جداً .. وعندئذ تأخذ إسماً جديداً هو «فَلْتَة» ..

وأما نوع الخبز الذي يؤكل مع الحلبة فيسمونه «المَلُوح» ...

د . الحلبة الحامضة

يأخذون قسماً من الحلبة المذكورة في (ج.) أعلاه ويضيفون اليها كمية مناسبة من الخل .. ثم يأكلونها مع خبز الملوح والفجل الذي يسمونه «الكُشمي» ..

ه . بنت الصحن

يخفقون البيض مع الطحين ويتركونه لفترة من الوقت حتىٰ يختمر .. ثم يفرشونه أقراصاً رقيقة وكبيرة ويجعلونها عدة طبقات كما هي الحالة في عمل (البقلاوة) .. ثم يضعونها في التنور الكبير .. فاذا اخرجوها صّبوا عليها السمن الحُرّ والعسل ...

و . سوسي .

وهي أكلة شبيهة الى حدٍّ ما ببنت الصحن .. وتختلفان قليلاً في كيفية استعمال البيض المخفوق ..

ز . مرق اللحم .

المرق نوعان : مرق من لحم الضأن ومرق من لحم البقر .. وكلاهما تكثر فيه التوابل الحارة .. ويجري تناولها بعد الانتهاء من جميع الأكلات المذكورة أعلاه ..

٣ - طعام العشاء .

إن وجبة طعام العشاء يمكن اعتبارها وجبة مهملة بسبب استعمال (القات) الذي يستغرق وقتا طويلاً يتجاوز أي موعد ملائم لوجبة العشاء .. واذا اقتضت الضرورة وسمحت الظروف فليس هناك طعام خاص بوجبة العشاء .. وبالامكان تناول أي نوع من أطعمة الغداء ..

ومما يلفت النظر عند جلوس أهل اليمن لتناول طعام الغداء أنهم يبدأون بالفاكهة وينتهون بالمرق الحار المشبع بالتوابل .. وهم يزعمون أن البدء بالفاكهة يفتح الشهية للطعام . . .

ولا تخلو موائد الموسرين في اليمن من اطباق الأرز والخضار التي تعلّموا إعدادها من الاتراك ..!

القسم الحادي عشر

الأعياد والعُطل الرسمية في اليمن

١ . إن بلداً مُغلقاً على أهله كاليمن لاشك وأن اهله في أمّس الحاجة الى الفرص والمناسبات التي يُنفّسون بها عن أنفسهم من هذا الإنغلاق المحكم ..

ونحن إذا أمعنا النظر في طبيعة الفرص والمناسبات التي يمكن أن تتيسر في هذا البلد المغلق خاب ظننا فيها لأنها أقل عدداً من أصابع اليد الواحدة ...!

فالأعياد الاسلامية الرسمية في اليمن هي : ـ

أ . عيد الفطر .

٢ . عيد الأضحىٰ .

والاعياد الاسلامية المذهبية هي : ـ

١ . عيد النشور .

٢ . الجمعة الرجبية .

أما العُطل الرسمية فهي أيام الجمعة من كل اسبوع .

عيد النشور : أو يوم الغدير .

وموعده بعد عيد الأضحىٰ .. وفيه يخرج الناس بعد الضحىٰ الى مكان معلوم خارج السور الجنوبي يقع عند السفح الغربي لجبل (نُقُم) المهيمن على صنعاء .. وهناك ينصبون الخيام الكبيرة والسُّرادقات التي سيؤمها الإمام بالذات ومن هو حاضر من أنجاله في صنعاء ثم رجال الدولة من مدنيين وعسكريين من ذوي المناصب العالية .. كما ويحضر عدد من وحدات الجيش .. ومن حول هؤلاء جميعا حشود كبيرة من المواطنين .. فاذا اكتمل الحضور تقدم الشعراء والخطباء بين يدي الإمام يتنافسون في اكتساب إعجابه .. لأنه هو نفسه شاعر مقتدر ... وهم إذ يفعلون ذلك إنما يُعبّرون عن ولائهم وإخلاصهم بتجديد البيعة له أسوةً بما كان من خبر الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في يوم الغدير .. ولكن .. شتان بين الإمامين . . . . !

حتىٰ إذا انتهىٰ الشعراء والخطباء من قصائدهم وخطبهم تقدم أقدم أمراء الجيش فناول الإمام بندقية عسكرية مع كمية من العتاد فيبادر الإمام الى الرمي بالبندقية على هدف او اكثر يجري إعدادها في التوّ واللحظة .. ثم يتقدم أنجاله سيوف الاسلام فتُعطىٰ لهم بنادق أخرىٰ يرمون بها على نفس الأهداف متبارين ومتنافسين فيما بينهم .. وعندما تأخذهم الحماسة في ذلك يضحك الإمام منهم مسروراً ويُغري بعضهم ببعض .. ثم يعقبهم بعض العسكريين وبذلك تكون هذه المناسبة فرصة للمباراة بالرمي الحقيقي .. فتثير جواً لطيفاً من المتعة والسرور لدىٰ الجميع ..

وقد يعقب المباراة بالرمي مباراة اخرىٰ في العاب الفروسية .. تنتهي قبل موعد صلاة الظهر ..

وبانتهائها ينتهي الإحتفال بعيد النشور فينصرف الجميع عائدين الى صنعاء ..

الجمعة الرجبيّة

وهي أول جمعة من شهر رجب الخير .. يجري الاحتفال بها تذكاراً لتاريخ دخول أهل اليمن في الإسلام .. هذا فضلاً عن فضيلة هذه الجمعة لدىٰ جميع المذاهب الاسلامية ..

٢ ـ وبمناسبة الحديث عن الأعياد والعُطل الرسمية في اليمن والتي تمهّد فرص الملاقاة بين الناس ..كان لابد لنا من التعرف على اسلوب تبادل التحيات فيما بينهم عند اللقاء ..

فاذا لقي الصاحب صاحبه سبقت بسماتهما تحاياهما .. وهذا في الواقع من سنن الإسلام الأصيلة ..

ثم يقول الأسرع منهما لصاحبه : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .. فيردّ الثاني تحيته بأحسن منها فيقول لصاحبه : (وعليكم أفضل السلام ورحمة الله وبركاته) .. ثم يتصافحان .. ثم يتحدثان .. فاذا انتهيا توادعا بالسلام وانصرف كل الى شأنه .. ـ هذا إذا كان اللقاء قد جرىٰ في الطريق صدفة .. أما إذا كان اللقاء في بيت أو مجلس فيقول الأول للثاني : (كَاَصْبحتُم) أو (كَاَصْبحتوا) وهي

مختصر (كيف أصبحتم ؟) ، وإن كان الوقت مساءً قالوا : (كَاَمْسَيْتُم) أو (كَاَمْسَيْتوا) وهي مختصر عبارة (كيف أمسيتم ؟) .. فيردّ الثاني بقوله : (صَبَّحْكُم بالخير والعافية) أو (مَسَّاكُم بالخير والعافية) ..

يضاف الى ماتقدم أن الأصغر سناً يلثم ظهر الكف من الأكبر سناً ثلاث مرات ، ثم يفعل الكبير نفس الشيئ مع الأصغر .. فاذا استقر الطرفان في مكانيهما من المجلس قال صاحب المجلس لضيفه : (حَيّا الله من جآ) مع إهمال الهمزة الذيلية .. فيردّ الضيف بما يناسب فيقول مثلاً : (حّياكم الله) ...

ثم يقوم صاحب الدار أو أحد أولاده بتقريب (المجمرة) أو (المبخرة) من الضيف فيعطّر بها رأسه وعمامته وملابسه ...

٣ ـ وطالما تحدثنا عن لغة التخاطب في تبادل التحية .. نرىٰ من المناسب أن نتطرق قليلاً وباختصار الى بعض مفردات اللغة أو اللهجة الصنعانية التي استمعنا اليها طوال ثلاث سنوات لم نكن خلالها متفرغين ولا متخصصين لدراسة هذه اللهجة التي لم نستطع ضبطها من الناحيتين العلمية والتطبيقية ..

ولذلك سوف لن نكتب عنها كثيراً . . خاصةً وأن في اليمن ، كما في كل بلاد العالم ، العديد من اللهجات . . وقد يصعب على ابن صنعاء فهم رجل القبيلة القادم من منطقة لاتبعد عن صنعاء اكثر من بضع كيلو مترات .. فلكل إقليم أو منطقة لهجة خاصة زاخرة بالمفردات التي لايفهمها الواحد عن الاخر .

أضف الى ذلك كثرة المفردات الدخيلة على لغة ولهجات أهل اليمن .. وخاصة المفردات التركية العثمانية .. وهي حالة معروفة تأثرت بها كل الاقطار العربية التي رزحت طويلاً تحت الحكم العثماني لمدة تزيد على أربعة قرون ....

وعلىٰ الرغم من انصرام ثلاثة ارباع القرن على انسحاب آخر تركي عثماني من البلاد العربية .. فلا يزال معظم أهل هذه البلاد حتىٰ اليوم يتبادلون في احاديثهم الخاصة والعامة ألفاظاً تركية عثمانية بالاضافة الى المفردات الفارسية التي مضىٰ على ترسّباتها في لغة العرب اكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ..!

وربما كانت اليمن من أقل البلاد العربية تلوّثاً بدخائل اللغات غير العربية .. وذلك بسبب عدم استقرار الوجود التركي العثماني في داخل اليمن كما رأينا في الفصل الثاني من كتابنا هذا (لمحات تاريخية عن اليمن) ..

ومما لفت انتباهنا في لغة ولهجات أهل اليمن هو أن لغة القبائل اليمنية اكثر نقاءً من لغة أهل المدن .. أما لهجاتهم فلا يحيط بها إنسان ...!

والآن .. سنذكر بعض النماذج المحدودة من مفردات اللغة واللهجة الصنعانية التي عانينا منها أشد المعاناة خلال أعمالنا مع الجيش اليمني أو اختلاطنا مع الأهالي : ـ

الكلمة اليمنية (الصنعانية)	معناها	ملحوظات
كَمْبِرْ	إجلس ، أقعد	وأصل اللفظة (قَمبْر) إلا أن اهل صنعاء يلفظون حرف القاف (ق) كَافاً معجّمة ..
سَنَبْ	إنهض ، قُم ، قف	
أسْتَرْ	**أقدِرْ ، أستطيع .**	
خُضْعي	ذليل ، خَضوع	
ضَلَطْ	نقود	صْرَافة ، (فَكّة)
زَلَّجْ	أرسَلَ .. سَفَّرَ	
شِرْكَة	مشاركة في شيئ	مشاركة في ثمن شراء كمية من اللحم يطبخها ويشترك في أكلها بضعة أشخاص وخاصةً من الجنود .
المْرفَعْ	الطبل ، وجمعه مرافع	
ألدَّايِرْ	المفتاح	

ألدَّيْمَة	المطبخ
ألماسَة أو المَاصَة	المنضدة
هِدَارْ	يقال : (بلاش هدار ودَاوِيَة) أي بلاش لغو وكلام فارغ
زَبَجَ يَزْبُجُ	ثرثر يثرثر .
يَتَخَاوَصْ	ينظر بعين واحدة ويُغمض الاخرىٰ حين يريد النظر من ثقب الباب مثلاً .
حِزْوِيَّة	قصة أو حكاية للأطفال
آمْنَشِّفْ	أي معه أرق .
ألشَّذَبْ	ألأستاب.
حوائج	أفاوِيّات ، بهارات ، توابل
تَحيَّرْ	تأخر عن الحضور
ألمُغْمُقْ	حجاب الوجه للمرأة ، البُرْقُع .
مَازِدْ جَاشْ	لم يأت أو لم يرجع بعد
شِلْ	خُذْ أو إحْمِلْ
يِبْسِرْ	يُبْصِرْ ، يرىٰ
جَمَدْ	ماء جامد ، ثلج متحجرّ
يَصْطَبِحْ	يتناول فطور الصباح
طَمَاطِيسْ	الطماطم ، الطاطة ..
دَوْرة	ألمشي بقصد التريّض
يْتكَهْوَة	يشرب القهوة
مقْهايَة	المقهىٰ
مَخَايَة - أو - سَمْسَرَة	خان لنزول المسافرين . . .

جَمْعها حَزَاوي ، والفعل منها يتحازىٰ ، والمِحْزِوي هو القَصَّاص .

نبات من فصيلة الرياحين له رائحة زكية ، يوجد منه عندنا في العراق وخاصةً في الموصل يزرعونه في الأصص ، ويتميز بأوراقه الناعمة جداً . . ويتكاثر بالعُقَلْ .

وتدخل عبارة (مَازِد) على الافعال فتنفيها .. كأن يقول مثلاً : شِلْ هذا للحَبْس ، أي خُذ هذا الى الحبس أي السجن .

وفي اللغة العربية (الجَمْد) ماجَمُدَ من الماء و(الجَمَدْ) بفتحتين جَمْع (جامد)

والإسم (دورة) مشتق من الدوران حول مكان معيّن ؛ ذلك أن أحدهم إذا أراد رياضة المشي صباحاً قبل الذهاب الى مكان عمله خرج من أحد أبواب صنعاء القريبة منه وصار يمشي ويمشي حتى يستكمل دورةً حول كل أو بعض السور المحيط إما بصنعاء القديمة أو الجديدة (بئر العزب) ...

وأهل اليمن يشربون المَغْلي من قشر القهوة بدلاً من الشاي .. ولا يستعملون معه السكر ..

وقد أوضحنا ذلك قبل الآن . . .

صَمِيلْ	العصا أو (المگوار) . .
كِبَا	ألجَلَّة . . . .
نَاهِي	جيد ، عَال ، جميل .
مِقْشَامَة	بستان صغيرة مُرتجلة . . .
زَنَّة	وجَمْعها (زنين) وهي الثوب الطويل - الدشداشة .
ألجَنْبِيَّة	الخنجر اليمني ذو الغمد المعقوف .
ألَلّحْفَة	الشَمْلة . . .
ألسَّلِيط	زيت نباتي ، خاصة من السمسم .
ألتَّنْصير	وجَمْعها (تناصير) وهي الاحتفالات بالنصر العسكري . . .
ألعَنْقَرِيبْ	سرير منام خاص بمنطقة تهامة . . .
الزنار ، أو المِحْزَقْ	ألنِّطاق أو الحزام الذي يشدّ علىٰ (الجنبية) الخنجر . .
ألنَّقِيلْ	العقبة أو المضيق بين جبلين . .
غُدْوَة	غداً .
ألدَّوْشَن	مايقال من الكلام عند إلانشاد والمديح لغرض إلاستقبال والترحيب .
خَيْرات	كثير . . . .
يَشْتَهي	يريد ، يبغي . .
ألقُرَاشْ	ألدَّواب ، ومفرده (قَارشة) . .

المثل الدارج لدىٰ العرب يقول : العصا لمن عصا . .

وأهل اليمن يقولون : (صميل !) للتعبير عن غيظهم من شخص لايُحْسِن طلب الشيءَ . .

روث البقر المجفف في الشمس علىٰ شكل أقراص للوقود .

عادةً تكون في أرض صغيرة تحيط بها عدة بيوت ، وسبق أن جرىٰ حفر هذه الأرض للاستفادة من ترابها في بناء تلك البيوت فصارت حفرة كبيرة غير منتظمة زرعوا فيها شيئاً من التين الشوكي الذي يسمونه هم (ألبَلَسْ) ، وقليل من اشجار الرمان وبعض المخضرات الخفيفة كالكرفس والكراث والنعناع والفجل . . ولا ننسىٰ أن أهل اليمن يلفظون القاف كَافاً معجّمة فيقولون : مكَشَامَة . .

وقد تحدثنا عنها في سياق الكلام عن أزياء ملابس الرجال في اليمن . .

يكون فيها إشعال النيران علىٰ أسطح المنازل والمباني الحكومية وما إلىٰ ذلك . . .

قوائمه من الخشب وسطحه نسيج من حبال اللّيف الذي يُسمونه (ألسَّلَبْ) . .

كأنْ يقول : عندي فلوس خيرات ، أي كثير .

أَلْبُنْدُقْ	البندقية . .
أَلْمَسَنَىٰ أو السَّاقية	المجال المنحدر الذي يسير فيه جملٌ أو اكثر لغرض الاستقاء من الآبار . . وقد أوضحنا ذلك من قبل . .
أَلْعَشي	من الكلمة التركية العثمانية (آلجي) أو (آشجي) أي الطباخ . .
أَلْزَحَارِفْ	لفظ تهكُّمي عن غائط المراحيض . .
أَلبَزّ	أقمشة الكتّان أو القطن أو غيرهما . .
أَلقَواري	جَمع (قاري) وهي العربة التي تجرها البغال أو الحمير والتي تسمىٰ في مصر (الكارو) . وتستعمل لرفع الأزبال من الاسواق والطرقات . .
أَلأَرْفَاد	جمع (رفد) وهو ما يقدمه الأقارب والأصدقاء والضيوف للعروسين . .
أَلكَوْرَجَة	في غير الشيء الموزون بالميزان تساوي عشرين وحدة . . كأن تقول : كورجة عقيق ، أي عشرين حجراً من العقيق . . أما اذا قُلت (كورجة أباريق أو قُلَل) فتعني أربعة أباريق أو قُلل التي يسميها اهل اليمن (كُعْدَة) .
أَللُّبَّة	وجمعها (لُبّات) وهي القلادة والقلائد . .
أَلمَخْلَصْ	الفضة . .
أَلجَلاَبَة	جُبّة واسعة الأكمام من الحرير المُقَصَّبْ بخيوط الفضة أو الذهب . .
أَلمَوَاجِبْ	الولائم . .
أَلسَّوَاد	الفحم .
أَلمَخَارَفْ	مشتق من الخريف ويُقصد بها المصايف
حَجَر الحَبَشْ	هو الحجر الصخري الأسود للبناء .
حَجَر الصُنْبر	حجر كبير مستطيل يوضع في أركان البنيان .
حَجَر المَيَاظير	جمع ميظار ، وهي الحجارة الصغيرة الحادة التي توضع تحت الاحجار الكبيرة في البناء لتعديل وضعيتها واستقرارها ، وهي ماتُسمىٰ في بغداد بـ (شُكَفْ) جمع (شُكفة) . .
أَلتكْبيس	تدليك الشخص في الحمامات الأهلية . .
أَلعُطْب	القطن الذي يستعمله الندافون لعمل المفارش . .
أَلتَّنَاوير	جمع تنّور
أَلبُرْمَة	وعاء من الفخّار يُطْبخ فيه طعام (أَلْمِسيسْ) المؤلف من العدس واللوبياء اليابسة . وهو يشبه الىٰ حدٍ كبير (البُرمة) الموصلية في العراق .

أَلجُمِينْ	جَمْع (جَمَنَة) وعاء من الفخار يستعمل لتحضير قشر البن المغلي . .
أَلجِفِينْ	جمع (جَفْنَة) وعاء من الفخار يستعمل للطبخ بدلاً من القدر .
المقالي	جمع (مقلاة) – راجع هامشنا (١) صفحة ١٧٦ .
أَلجَرَّة	وعاء من الفخار الكتيم يوضع فيه السمن . .
أَلمِعْجَانَة	وعاء من الفخار يعجن فيه العجين . .
أَلكيزَان	جمع (كوز) وهو القدح من الفخّار لشرب الماء . .
عَيِّنَة	نموذج .
أَلمِعْتَاش	الشخص الرقيق الحال .
أَلمَخَاضِبْ	جمع (مَخْضَبَة) وعاء من الفخّار تُعْجَن فيه الحِنّاء .
أَلهوبَة	مكنسة كبيرة من سعف النخيل . .
أَلفِتَاشْ	ألتفتيش .
وَدَاعَة	أمانة .
قُشْمي	الفجل ، ويلفظون القاف (كَاف) . .
أَلجُبَا	سطح المنزل . .

أَلقسم الثاني عشر
أَلمَآتم الإسلامية الصحيحة في اليمن

ربما لن تجد في كل الأقطار العربية والاسلامية شعباً يعرف الموت ويفهم فلسفته الدينية ويؤمن بها إيماناً عميقا كالشعب اليمني علىٰ الاطلاق . . ويكفي أن تعلم أن اكبر وأصغر ، أغنىٰ وأفقر شخص يموت في اليمن يُشيّع الىٰ مثواه الأخير وتقام الفاتحة عن روحه لمدة ثلاثة أيام في أحد المساجد مجاناً ومن دون فناجين قهوة ولاسكائر ولا حتىٰ ماء للشرب . . وكل هذا يجري ويمضي فلا تسمع فيه عويلاً ولا صائحةً ولا نائحة ولا لطم خدود ولا شق جيوب . . فكأن المرحوم قد سافر الىٰ (الحديدة) وسيعود إلىٰ أهله في صنعاء بعد أسبوع . . . !

فاذا مات (زيدٌ) قام أبوه أو أخوه أو إبنه أو صهره ينعيه إلىٰ الأقربين وفي الجوار ثم الأبعد فالأبعد . . ويُخبرهم بإسم الجامع الذي ستجري فيه صلاة الجنازة فيذهب الناس إليه . . لأن الدروب الضيقة جداً في مدن اليمن لاتساعد علىٰ ازدحام المشيعين . . ويقوم بحمل الجثمان الىٰ الجامع أهل الميت وبعض الأقارب والجيران . . فاذا انتهت الصلاة علىٰ الجنازة حملوها علىٰ الاكتاف ودخلوا في ترتيب المسير علىٰ الوجه التالي : -

غالباً ما تتقدم الجنازة مجموعة من تلامذة الكتاتيب تقوم بترتيل بعض الأناشيد الدينية . .

ومن ورائهم الجنازة يحيط بها أهل الميت وذووه .

وتليهم جماعة المشيعين . . فقط . .

ولن تخرج أية امرأة من بيت الميت لتعقيب الجنازة . .

ولن ترتدي أية إمرأة أو رجل ملابس الحِداد السوداء . .

فاذا انتهىٰ دفن الميت . . وقف ذووه صفاً واحداً وتقدم المشيعون لتعزيتهم . . وعند الانتهاء من ذلك وقبل تفرّق المشيعين ينادي فيهم أحد ذوي الميت قائلاً : (الدريس في الجامع الفلاني) . . أي أن اجتماع المُعَزّين سيكون في الجامع الفلاني لغرض ترتيل القرآن مجتمعاً – ووقته عادةً بعد صلاة المغرب . .

وقبل أن يحين وقت صلاة المغرب يتوافد المعزون الى الجامع المعّين وكلٌ منهم يحمل معه فانوساً ليستضيئ به عند تلاوة القرآن .. لأن فوانيس الجامع أو المسجد قليلة العدد لاتكفي لهذا الغرض ..

فاذا انتهوا من صلاة المغرب تناول كل منهم مصحفاً أو جزءاً معّيناً من القرآن الكريم وجلسوا صفوفاً أو تحلّقوا حلقات وبدأوا بالترتيل جهراً على صوت واحد .. فاذا انتهىٰ (الدريس) اختتاماً بسورة الفاتحة انفضّ القوم من الجامع على أن يعاودوا ذلك مدة يومين آخرين متتاليين ..

وحتىٰ في مصيبة الموت لاينسىٰ هؤلاء القوم محبوبهم (القات) ...! فاذا عاد الرجال من أهل الميت وذويه من (الدريس) جلسوا (يُخَزّنون) القات هزيعاً من الليل .. وبدلاً من لغو الحديث وقراءة الأشعار فانهم اليوم ينشدون شيئاً من المناقب النبوية الشريفة .. ويذكرون ميّتهم بخير ..

وطوال أيام العزاء الثلاثة لن تسمع في جَمْع النساء في بيت الميت عويلاً ولا مناحةً .. فالكل رجالاً ونساءً لايتعدون حدود البكاء الاعتيادي حزناً على ميتهم .. والكل يلتزم بأمر النبي الكريم ، صلىٰ الله عليه وسلم ، القائل «لاعزاء بعد ثلاث» ..

وأهل الميت في اليمن لايقتلون أنفسهم ظلماً بإعداد الطعام ونصب الموائد وتبذير الأموال الطائلة تباهياً وتفاخراً فيملأ المدعوون كروشهم على حساب الفقراء .. إنما يقوم هؤلاء أنفسهم بإعداد الطعام اللازم لأهل الميت الذين شَغَلَهم الموت عن كل شيئ إلا (القات) ..! وهم إذ يقدمون الطعام لأهل الميت إنما يفعلون ذلك عملاً بسنّة الرسُول الكريم ، صلىٰ الله عليه وسلم ، حينما استشهد جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في غزوة (مؤتة) ، وحَزُن وبكىٰ عليه رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال لبعض الناس مايعني «إصنعوا طعاماً لآل جعفر فقد وقع لهم مايُشْغلهم» ...

وأهل اليمن (الزيود) لايرفعون قبور موتاهم بالبناء والقباب ، فالسُّنّة النبوية الشريفة تقول : «خير القبور الدوارس» .. ولكنهم لايُنكرون احترام ضريح مؤسس وناشر المذهب الزيدي الكائن في مدينة (صعدة) بشمال اليمن ، كما ويحترمون ويقدسون الحضرة الشريفة في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة .. وكذلك اضرحة العتبات المقدسة في العراق ..

إن هذه اللمحة العامة التي رسمناها بايجاز عن هذه الظاهرة الاجتماعية في اليمن لجديرة حقاً بالتأمل والتفكير .. والعِبرة أيضاً .. لأنها تحدد لنا بكل وضوح أبعاد الهوّة السحيقة التي صارت تفصل بين ماجاء به الاسلام الحنيف كتاباً وسُنّةً عن حديث الموت وبين ماالتصقّ به اغلب المسلمين في جاهلية اليوم من بِدَعٍ وضلالات ما أنزل الله بها من سلطان .. حتىٰ غدت مصيبة الموت نفسها أرحم وأخفّ وطأً علىٰ أهل الميت من وطأة التكاليف عليهم خلال أيام العزاء الثلاثة .. ثم اليوم السابع .. ثم الأربعين .. ثم مرور العام الأول على الميت .. وإلىٰ آخر ماهنالك من بِدَعٍ ومبتكرات ...!

فعسىٰ أن يثوب المسلمون اليوم الىٰ الحق الصريح من تعاليم الاسلام الحنيف لكي يلحقوا بالأمة التي كانت خير أمةٍ أُخرجت للناس : أمَرتْ بالمعروف ونهتْ عن المنكر وآمنت بالله ...!

* **فذلك هو « اليمن » بلمحاته الثلاث :**

الجغرافية .

والتاريخية ..

والإجتماعية ..

وهي بمجموعها تقدم لك ، عزيزي القارئ ، صورةً واضحةً متكاملة لهذا الطراز الفريد من البلاد العربية الذي طال تخلّفه عن الرّكْب حتىٰ أوشك على الضياع من صفحات التاريخ الحديث ...!

ويكفي برهاناً على ذلك أنه كلما وقع خَطْب جَلَلْ في انحاء اليمن .. ظل الناس في البلاد العربية الأخرىٰ يهزّون برؤوسهم عجباً ويتساءلون : مااليمن ؟ وما صنعاء ؟ وما الإمام ؟ وما سيوف الإسلام ؟ ... !

ثم يقولون لأنفسهم : نحن لانعرف عن اليمن غير (مَعِين) و (سَبأ) و (حِمْيَر) و (سدّ مأرب) و (سيْل العِرَم) ..!

ويقول العارفون منهم : بل نحن نعرف اكثر منكم .. نعرف كيف دخل الاسلام الى اليمن وكيف قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه

وسلم ، في أهل اليمن : «الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية» ...

فيتساءل آخرون : فأين صار ذلك اليمن إذن ؟

فيجيب الباقون : لقد ضاع في خضمّ التاريخ ...!

فإلىٰ هذا البلد الضائع توجَّهَت (البعثة العسكرية العراقية) في ربيع عام (١٩٤٠ م) والحرب العالمية الثانية قائمة على قدم وساق ...!

فإلىٰ اليمن .....

• **إنتهىٰ الفصل الثالث من الكتاب**

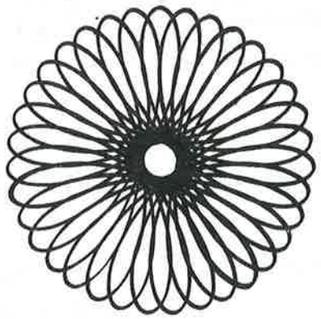

ألفصل الرابع
تشكيل البعثة العسكرية العراقية إلىٰ اليمن

١ ـ فكرة إرسال البعثة

في ربيع عام ١٩٣٤ فوجئ العالم العربي بنشوب حرب بين المملكة العربية السعودية وبين المملكة اليمنية .. واندفعت القوات السعودية عبر منطقة (عسير) الى تهامة اليمن على طوار الساحل الشرقي للبحر الأحمر .. حتىٰ وصلت الى (الحديدة) فاحتلتها .. تمهيداً للاندفاع منها نحو هضبة اليمن باتجاه العاصمة صنعاء .. وكان لابد من مضي وقت غير قليل لكي تتمكن القوات السعودية من إكمال استعداداتها قبل أن تجازف بالاندفاع الى داخل البلاد اليمنية التي غالباً ما استعصت على الفاتحين ..

وقبل أن يتم القليل من تلك الاستعدادات فوجئ العالم العربي هذه المرة بتوقف الحرب بين القطرين العربيين الشقيقين في حزيران ١٩٣٤ .. وأعقب ذلك صلح كريم بين الطرفين توثّق بعقد «معاهدة الطائف» وكان أمدها عشرون عاماً قابلة للتجديد ..

وليس من أهداف كتابنا هذا التوغل في حقيقة الاسباب السياسية التي ادت الىٰ كلٍ من نشوب تلك الحرب فجأة وانتهائها بفجأة أشد ..

ولقد اهتمت كافة الدول العربية يومها بنشوب تلك الحرب وعملت على احتوائها بكل الوسائل الممكنة قبل أن يستفحل خطرها في المنطقة العربية الجنوبية ..

وكانت تلك المساعي العربية قد بُذلت على مستوىٰ الحكومات والوفود .. وكان من جملة تلك الوفود وفد عراقي[1] غادر العراق متوجهاً الى المملكة العربية السعودية ومنها الى اليمن حاملاً معه تهنئة الحكومة العراقية والشعب العراقي لكلا الفريقين المتصالحين ..

وانتهز الوفد العراقي فرصة لقائه التاريخي بالإمام يحيىٰ حميد الدين في (صنعاء) فأشار عليه بقبول التعاون العراقي مع اليمن عن طريق إرسال البعثات التعليمية والعسكرية لرفع المستوىٰ التعليمي في اليمن وتدريب الجيش اليمني وفق الاساليب الحديثة .. كما أشار الوفد على الإمام يحيىٰ بارسال عدد من الطلبة اليمنيين الى العراق للدراسة في معاهده التعليمية والعسكرية .. فرحّب الإمام يحيىٰ بتلك البادرة الطيبة وشكر الوفد والحكومة العراقية عليها .. ولقد مكث الوفد العراقي في صنعاء فترة من الزمن معززاً مكرماً ثم قفل راجعا الى بغداد ...

ولم يمض وقت طويل حتىٰ أوفدت حكومة صنعاء أول وجبة من الطلاب اليمنيين للدراسة في العراق .. وكان علىٰ رأس هذه الوجبة مراقب لشؤونها هو (محيي الدين العنسي) .. وكان الطلبة اليمنيون يدعونه دائماً بعبارة «شَيخَنا محيي التّين» يقلبون الدال (د) تاءً (ت) ..

ودخل بعض الطلبة من هذه الوجبة في دار المعلمين الابتدائية والبعض الآخر دخل المدرسة العسكرية .. وسبق أن أشرنا الى أسمائهم في الصفحة (١٤٤) في سياق حديثنا عن المدارس في اليمن ..

وفي عام ١٩٣٥ أوفدت الحكومة اليمنية وجبة ثانية من الطلاب اليمنيين للدراسة في المعاهد العراقية وخاصة في المدرسة العسكرية .. وبسبب مستوياتهم العلمية الضعيفة فقد قامت الجهات العراقية المختصة بإعداد مناهج تدريس إضافية لهؤلاء الطلاب في مختلف الموضوعات الدراسية ..

وأذكر أنني عندما دخلت (المدرسة العسكرية الملكية) في بغداد في خريف عام (١٩٣٦) وجدتُ خمسةً من الطلاب اليمنيين (الوجبة الثانية) ينتظمون معنا في الصفين الحربيين (أ) و (ب) ..

وهاهي ذي أسماؤهم على التوالي : ـ

---

(١) إن لم تخنّي الذاكرة المُتعَبة . بعد نصف قرن من الزمان . فقد كان الوفد برئاسة السيد جميل بك المدفعي وعضوية كلٍ من السيدين ثابت عبد النور وابراهيم جلبي عطار باشي .. فإن كان في هذا بعض الخطأ أرجو من العارفين الكرام تصحيحه لي حتىٰ استدركه في طبعة اخرىٰ بإذن الله

القصاصة : تحل محل الأسطر العشرة قبل السطر الأخير من ص ١٨٦

ولم يمض وقت طويل حتى أوفدت حكومة صنعاء عام ١٩٣٥ أول وجبة من الطلاب اليمنيين للدراسة في العراق وكان عددهم أحد عشر طالبا يشرف عليهم مراقب اسمه (محي الدين العنسي) .. وكان الطلبة اليمنيون يدعونه دائماً بعبارة (شَيخَنا محي التّين)، يقلبون حرف الدال تاء ... !

ودخل هؤلاء الطلبة المدرسة العسكرية الملكية في بغداد .. وسبق أن أشرنا الى أسمائهم في الصفحة (١٤٤) في سياق حديثنا عن المدارس في اليمن ...

وفي العام التالي أوفدت الحكومة اليمنية تسعة طلاب آخرين للدراسة في المعاهد العراقية، دخل أربعة منهم دار المعلمين الابتدائية والتحق الباقون بالمعاهد العسكرية ومنها المخابرة ..

وبسبب مستوياتهم العلمية الضعيفة جميعا فقد قامت الجهات العراقية المختصة بإعداد مناهج تدريس وتدريب اضافية لهم لكي يتمكنوا من مواكبة الطلاب العراقيين ..

وأذكر أنني عندما دخلت (المدرسة العسكرية الملكية) في بغداد في خريف عام ١٩٣٦ وجدتُ خمسةً من الطلاب اليمنيين (الوجبة الاولى) ينتظمون معنا في الصفين الحربيين (أ) و (ب).

١ . محمد عبد الخالق حجر .
٢ . محمد صالح التُّني . في الفصيل الحربي (أ) .
٣ . أحمد اسحاق .
٤ . أحمد الآنسي . في الفصيل الحربي (ب) .
٥ . محمد عامر

أما الباقون منه طلاب الوجبة الأولى - وعددهم ستة - فقد تحولوا لدراسة المخابرة في فوج المخابرة الدول ببغداد .

وعندما تخرّج هؤلاء الطلاب اليمنيون في (المدرسة العسكرية الملكية) في بغداد كان مَثَلُهم بالنسبة الى اليمن كمثل الطلاب العراقيين الذين يتخرجون ضباطاً في (ساندهرست) بانكلترا ، أو (وست بوينت) في الولايات المتحدة الأمريكية .. أو أرقىٰ من ذلك بكثير ..

فلما التقينا بهم في صنعاء بعد أربع سنوات فقط لم نجد فيهم احداً قد احتفظ بربع رصيده العسكري من المعلومات التي تلقاها في العراق . (المدرسة العسكرية الملكية العراقية) .. وبعد أن اطلعنا على الاوضاع السيئة والظروف القاسية التي كانوا يعيشونها في الظل الثقيل من وطنهم (اليمن) أدركنا اسباب ضياعهم العسكري في ذلك الوطن الضائع نفسه ...!

كانت الاعوام الستة (١٩٣٤ - ١٩٤٠) التي انصرمت على ذهاب الوفد العراقي الى صنعاء لتهنئة الحكومة اليمنية وعرض التعاون العراقي مع اليمن حافلة بالاتصالات والإجراءات التي تكللت بعدة نجاحات .. كان أهمها - على مانرىٰ - تبلور فكرة إيفاد بعثة عسكرية عراقية الى اليمن للقيام بكل مايمكن القيام به لتحديث التنظيم والتدريب في الجيش اليمني ..

٢ - **تشكيل البعثة .**

في مطلع عام ١٩٣٩ كانت وزارة الدفاع العراقية قد باشرت بأولىٰ الخطوات لتشكيل هيئة البعثة العسكرية المزمع إيفادها إلىٰ اليمن .. فأصدرت بلاغاً الى كافة تشكيلات ومؤسسات الجيش العراقي ، عدا القوة الجوية ، توضح فيه الغرض من تشكيل وإيفاد البعثة ومدة إيفادها الى اليمن وتسأل عن الراغبين من الضباط وضباط الصف بالإنتماء الى هذه البعثة ..

وعلىٰ الرغم من بعض المغريات التي ستُمنح للمنتمين الى هذه البعثة [١] .. فإن الاستجابة لهذا البلاغ كانت على غير مايرام .. لأن «الإيفاد» لم يكن الى انكلترا أو فرنسا أو الولايات المتحدة الامريكية ..

فلو كان الأمر كذلك لتغير الحال .. أما إلىٰ «اليمن» .. فلا ..! لذلك حصل إبطاء غير قليل في تشكيل هيئة البعثة ..

في خريف عام (١٩٣٩ م) كنت أعمل مساعداً لآمر الفوج الثاني لواء السادس في الموصل المقدم (عطا محمود) رحمه الله [٢] . وكانت قطعات الموصل كلها في معسكرات التدريب الإجمالي في أطراف الموصل ..

ولكن مثل هذا البلاغ ، الصادر من وزارة الدفاع العراقية بصدد تشكيل البعثة ، لم يكن قد وصل الى فوجي إطلاقاً .. ومساعد الفوج هو أول من يطّلع على مثل هذه البلاغات عند وصولها ...!

في ١٩٣٩/١٠/٢٢ صدر أمر نقلي الى منصب آمر رشاشات (فِكَرْس - Vickers) في سفينة «ذات الصواري» في القوة النهرية .. وكانت هذه القوة يومئذ ترابط في البصرة .. ولها مفرزة متقدمة في ميناء (الفاو) هي سفينة «ذات الصواري» نفسها .. فالتحقت بها في (الفاو) .. وبعد شهر واحد جرىٰ تبديل هذه المفرزة بأخرىٰ من القوة النهرية .. فعادت بنا «ذات الصواري» الى البصرة .. (أنظر الصورتين رقم - ٢٣ و ٢٤) ..

تألف منه سفينتي «ذات الصواري» و «عبد الرحمن» فالتحقت بذات الصواري

---

(١) المغريات أو المشجعات كانت تتضمن :

أ . يتقاضىٰ الموفد راتب رتبته الشهري من الحكومة اليمنية بالاضافة الى راتب رتبته في الجيش العراقي ومساوياً له .

ب . تجري ترقية عضو البعثة الى الرتبة التالية وهو في اليمن حالما تنتهي المدة الأصغرية للرتبة التي هو فيها .. ويشمل ذلك تعديل الراتب الشهري ايضا في البلدين مع مايستحقه العضو من المخصصات النظامية ..

ج . تؤجل امتحانات الترقية ، للاعضاء الذين لم يؤدوا هذه الامتحانات قبل سفرهم الى اليمن الى مابعد عودتهم الى العراق .

د . يسري مفعول هذه المقررات مدة الإيفاد الى اليمن وهي ثلاث سنوات .

(٢) وصل الى رتبة أمير لواء قبل إحالته على التقاعد .

الصورة رقم (٢٣)
الملازم الثاني سيف الدين سعيد
آمر رشاشات (ذات الصواري)
١٩٣٩/١٠/٢٢

الصورة رقم (٢٤)
(ذات الصواري) القوة النهرية ـ قيادة شط العرب ـ البصرة

في أوائل شهر كانون الثاني (١٩٤٠) كنت أجلس مع آمر[١] السفينة في مقصورته حينما دخل علينا مراسل من مقر القوة النهرية وناول آمر السفينة كتاباً منفرداً وانصرف .. وحينما قرأ آمر السفينة مضمون الكتاب ابتسم أول الأمر .. ثم صار يضحك .. ثم ناولني الكتاب وهو يقول : [تفضل مولانا .. هل تذهب لليمن ..؟!] .. وتناولت الكتاب .. فاذا به هو البلاغ الذي أصدرته وزارة الدفاع بصدد تشكيل البعثة العسكرية.....!

فلما رآني آمر السفينة جاداً في قراءة البلاغ والتمعّن في مضمونه .. ضحك مرة اخرىٰ وقال : [ربما راق لك هذا الخبر..!] ..

قلت : نعم والله .. فلقد سئمت هذه الحياة الراكدة بين الماء والسماء .. ثم كتبتُ في أسفل البلاغ كلمةً واحدة فقط هي : «أرغب» ووقّعت أدناها .. ودفعتُ بالبلاغ الى آمر السفينة .. فتناوله مني وهو فاغر الفم يحملق بوجهي في غاية الاستغراب .. ثم قال : [هلْ عرفت إلىٰ أين أنت ذاهب ؟] ..

قلت : نعم .. ذاهب الى اليمن ..

قال : [وهل تعرف ماهو اليمن ؟] ..

قلت : طبعاً أعرف .. أليس هو بقطر عربي .. ثم ماذا ؟

قال : [لم أقصد هذه الناحية .. ولكن الشائع أن اليمن بلد متخلّف جداً .. وأهله لايزالون بدواً يسكنون الخيام وإمامهم يفترش الأرض ليحكم بين هؤلاء البدو ..] ..

قلت : لماذا يذهب المغامرون الأجانب الى مجاهل القارة الافريقية وأدغالها ووحوشها من الحيوان والانسان .. ولانذهب نحن الى بلدٍ عربي كل عيبه ، كما تقول ، أن أهله لايزالون يسكنون الخيام ..؟

فلما يئس آمر السفينة من إقناعي بوجهة نظره ضرب الجرس **فحضر المراسل .. فناوله البلاغ ...**

والحقَّ أقول اليوم .. بأنني حينما كتبت كلمة «أرغب» في ذيل البلاغ .. ووقّعت أدناها .. لم اكن أدري أني أوقّع على تحديد كافة أبعاد حياتي المستقبلية وهي لاتزال غيباً من المُغيّبات .. والتي لم يستطع آمر السفينة أن يتنبأ ببعدٍ واحد من تلك الأبعاد .. فقد كان الرجل هو الآخر لايزال شاباً غِراً لايعلم الكثير عن الحياة ...

وبعد يومين أبلغني آمر السفينة بأن آمر القوة النهرية (العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد[٢]) يطلب مني أن أواجهه في مقره .. ولم اكن قبل ذلك قد اشتغلت في معية هذا الرجل بتاتاً .. ، سوىٰ أنني أذكر جيداً أنه كان برتبة رئيس أول ركن حينما عُيّن رئيساً للجنة الامتحان العملي في درس التعبية الذي أجروه لنا قبيل التخرج في (المدرسة العسكرية الملكية) ... وكان مجرد الوقوف أمام هذا الرجل اثناء الواجب العسكري يكفي لبعث الرهبة في نفوس التلاميذ .. بل وحتىٰ الضباط ..!

ولكنني اليوم ، وقد بعث في طلبي للمواجهة ، لست تلميذاً على كل حال .. ولست في (لُجّة الامتحان) .. فذهبت لمواجهته وأنا لا أزال أتذكر مفردات مناقشتي مع آمر السفينة .. ومع ذلك فقد كنت أخشىٰ أن أقف أمام آمر القوة ويكون موضوع المواجهة حول الذهاب الى اليمن .. ووقع ماكنت أخشاه ..

فلما وقفتُ أمام الرجل .. إبتسم على غير عادته ثم قال يسألني :

[أصحيح أنك تريد الذهاب الى اليمن؟] ..

قلت : نعم سيدي .

قال : (وهل فكرت جيداً في ذلك ؟] ..

قلت : نعم .. وأنا أعلم وأدرك أنني مُقْدم على مغامرة ...

---

(١) هو الملازم الأول وجدي بكر من أهالي كركوك .. وكان ضابطاً من صنف المشاة ..

(٢) كان الرجل برتبة رئيس أول ركن يوم امتحنني بدرس التعبية العملي في المدرسة العسكرية الملكية .. وكان برتبة عقيد ركن يوم تعيّن رئيساً للبعثة العسكرية العراقية الى اليمن فعملتُ معه ثلاثة أعوام .. وكان برتبة زعيم ركن يوم تعيّن قائداً لقوات «رواندوز» في حركات الملا مصطفىٰ البرزاني عام ١٩٤٥ وكنتُ أنا برتبة رئيس شاركت في هذه الحركات كآمر سرية إسناد ف٣ . ل٣ . فق٤ ..

وكان برتبة أمير لواء ركن حينما تعيّن قائداً للفرقة الثانية في كركوك . وكنتُ أنا في منصب مقدم اللواء الثالث ثم آمراً للفوج الاول في نفس اللواء .. ثم أُعيرت خدماته فتعيّن مديراً عاماً للسكك ولم يمكث طويلاً . وأحيل على التقاعد نهائياً .

قال : [ولكنني أرىٰ أن مستقبلك هنا في الجيش .. فأنت لاتزال صغير السن .. صغير الرتبة[1] ..!]

قلت : أليست الخدمة العسكرية واحدة هنا وهناك ؟

قال : [نعم .. ولكن المشقة في اليمن اكبر والمشاكل اكثر..] .

قلت : وأنا اريد ذلك سيدي .. فقد سئمت هذه الحياة الميتة في السفن الراكدة في شط العرب .. فضحك آمر القوة من مقالتي هذه ثم قال : [أُمهلك أسبوعاً واحداً لكي تعيد النظر في قرارك .. ثم نرىٰ مايكون ..] ..

فخرجتُ من عنده وأنا أفكر في أمرٍ فاتني لحد الآن : من سيكون رئيساً للبعثة ؟ ومن هم الضباط الذين سينتمون الى البعثة ؟ وقبل أن أغادر مقر القوة النهرية خطر ببالي أن أعرّج على صديق لي يعمل كاتباً مدنياً على الطابعة في مقر قيادة شط العرب[2] الكائن في (المعقل) شمال مدينة البصرة فأسأله عما يمكن أن يعرفه في صدد تشكيل هيئة البعثة .. فأخبرني بأن وزارة الدفاع قد بتّت في تعيين العقيد الركن اسماعيل صفوت رئيساً للبعثة ....!

وكان لابد لي أن أستأذن أهلي في أمر السفر الى اليمن قبل البت في هذا الشأن فكتبت الى والدي ، رحمه الله ، وهو يومئذ مع الأهل في الموصل .. وبعد أقل من أسبوع جاءني الجواب وفيه أنهم يتركون لي الخيار في ذلك شريطة أن لا أغادر العراق قبل أن أزورهم للتوديع ...

وفي اليوم التالي قدمتُ طلباً لمواجهة آمر القوة النهرية .. وفي تلك المواجهة أصررت على ترشيحي للبعثة العسكرية الى اليمن .. لأن البّت في الترشيح من صلاحية وزارة الدفاع .

في أوائل شهر شباط (١٩٤٠) صدرت الموافقة النهائية على الضباط وضباط الصف الذين تم ترشيحهم للبعثة العسكرية .. وجرىٰ تبليغ وحداتهم بذلك لانجاز معاملات إنفكاكهم وتشفيرهم الى بغداد لمراجعة وزارة الدفاع .

في يوم ١٠/٢/ ١٩٤٠ غادرتُ البصرة الى بغداد ...

وفي يوم ١٩٤٠/٢/١١ إلتحقت بهيئة البعثة في وزارة الدفاع .. وعندئذ علمت أن هيئة البعثة قد تألفت من الضباط وضباط الصف التالية أسماؤهم أدناه : ـ

الضباط

١ . العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد ـ رئيساً للبعثة .
٢ . الرئيس محمد حسن المحاويلي ـ ضابط مشاة .
٣ . الرئيس جمال جميل ـ ضابط مدفعي .
٤ . الملازم الأول عبدالقادر محمد الناظمي ـ ضابط مخابرة .
٥ . الملازم الثاني سيف الدين سعيد ـ ضابط رشاشات (فكرس ـ Vickers) وبقية الاسلحة الخفيفة .
(أنظر الصورة رقم ـ ٢٥ ـ) .

---

(١) كنت يومئذ لا ازال برتبة ملازم ثاني وبيني وبين الترقية سبعة اشهر تقريباً ..

(٢) كانت هناك قيادة بهذا الاسم المضخم على رأسها (احمد رشدي باشا) ليس في إمرته غير أربعة سفن نهرية صغيرة هزيلة هي القوة النهرية التي لاتستطيع العمل لا في الانهار ولا في البحار ولا في الأهوار ...! وهذا اللّغز المُحيّر له حكاية طويلة وعريضة ليس هنا مجال تفصيلها ..

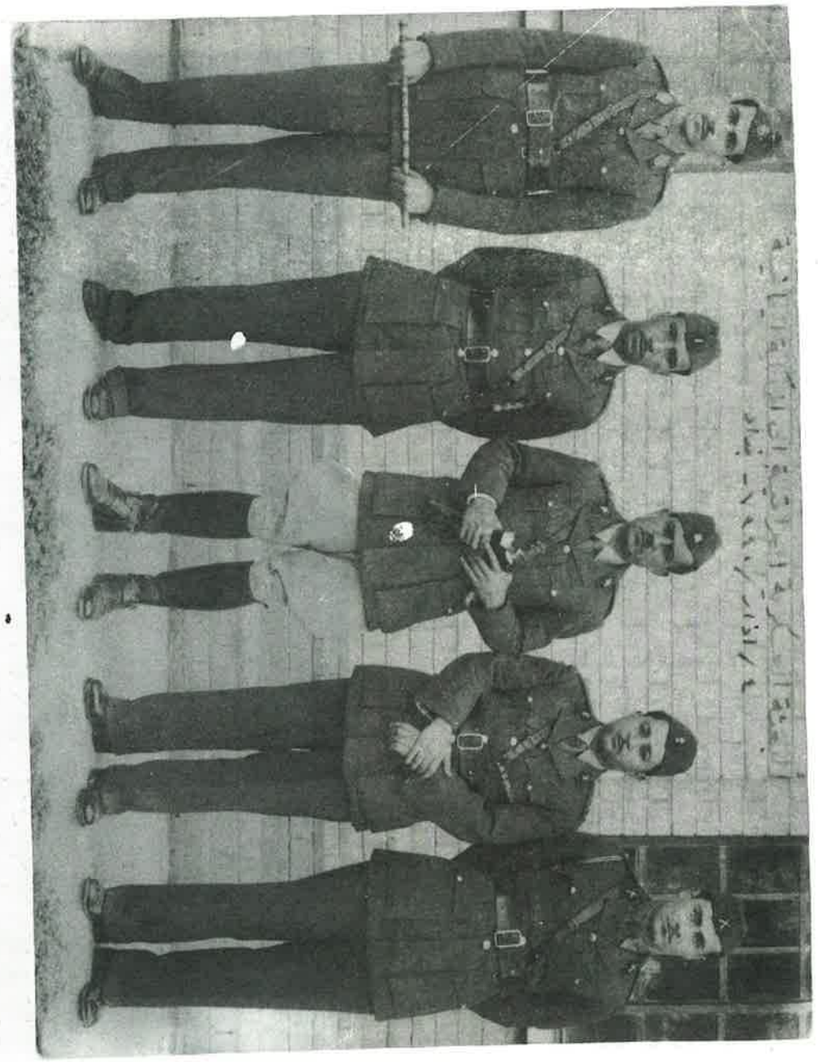

من اليمين الى اليسار :
١ ـ الملازم الثاني سيف الدين سعيد آل بجي بك .
٢ ـ الرئيس جمال جميل .
٣ ـ العقيد الركن إسماعيل صفوت سعيد .
٤ ـ الرئيس محمد حسن الخاويلي .
٥ ـ الملازم الأول عبد القادر محمد الناظمي .

الصورة رقم (٢٥)
جرى سحبها عند الركن الشمالي الأمامي من مبنى وزارة الدفاع من قبل مصور الجيش
البعثة العسكرية العراقية الى المملكة اليمنية
٤/آذار/ ١٩٤٠ ـ بغداد
هيئة ضباط البعثة العسكرية العراقية الى اليمن
(١٩٤٠ ـ ١٩٤٣)

الصورة رقم (٢٩)
هيئة ضباط وضباط صف البعثة العسكرية العراقية الى اليمن
(١٩٤٠ - ١٩٤٣)

ضباط الصف

١. النائب الضابط الكاتب خلف عُبَيْد - لقر البعثة.
٢. رئيس عرفاء قحطان أحمد - مشاة.
٣. العريف عبد عُبَيْد - مدفعية.
٤. العريف مسير حسن - مدفعية.
٥. العريف نزّال برغش - مشاة.
٦. العريف صبري الريحاني - مشاة.
٧. النائب العريف كاظم عبدالله - مشاة.
٨. العريف سعدون حمود - رشاشات فكرس.
٩. العريف حسن عسكر - رشاشات فكرس.
١٠. العريف كاظم عبدالله - مخابرة.
١١. العريف محمد فرج - مخابرة.
١٢. النائب العريف حسّون.. - مخابرة.

من اليمين الى اليسار:
الجالسون على الارض: النائب العريف حسّون..
العريف سعدون حمود.
العريف حسن عسكر.
الضباط: الملازم الأول عبدالقادر محمد الناظمي
الرئيس جمال جميل.
العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد.
الرئيس محمد حسن الخاوري.
الملازم الثاني سيف الدين سعيد آل محي بك
الواقفون: العريف كاظم عبدالله.
العريف نزال برغش.
العريف محمد فرج.
النائب الضابط الكاتب خلف عُبَيْد.
رئيس العرفاء قحطان احمد
النائب العريف كاظم حمود
العريف مسير حسن
العريف عبد عُبَيْد
العريف صبري الريحاني (لم يحضر التصوير)

واحد من صناديق المخابرة وليس

٣ - ملحوظات حول تشكيل هيئة البعثة

مدة ثلاث سنوات

أولاً - إن بعثةً عسكرية تتألف من سبعة عشر شخصاً لتقوم بمهمة عسكرية شاقة ومعقّدة عبر آلاف الكيلومترات.. وفي بلدٍ كاليمن الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق كان لابد وأن يرافقها ضابط طبيب وإثنين من المضّمدين الصحيين... إلا أن مديرية الأمور الطبية في وزارة الدفاع اكتفت بتجهيز البعثة بصندوق جلدي واحد من صناديق وحدات الميدان الطبية حشروا في داخله خليطاً من العقاقير الطبية والمحارير (أي مقاييس درجة الحرارة) والملاقط والمقصات والضمادات والقطن والشاش والافلنت والمطهرات والمراهم والمروّخات والجرعات القابضة والجرعات المسهّلة والجرعات المنفّثة وسيفون الحقنة الشرجية .. و ... و.. وكل ماوقع في متناول أيدي المسؤولين في المدخر الطبي العسكري ...! وكان من بين تلك العقاقير الطبية أصناف لايفهم كيفية استعمالها إلا طبيب ...!

مستشفى الميدان الأول بمعسكر الرشاش

لقد كان وجود طبيب عسكري مع البعثة اكثر من ضرورة .. ومن تلك الضرورات مساهمة هذا الطبيب في فتح دورات صحية عسكرية للجيش اليمني أسوة بما فعلناه نحن في فتح مختلف الدورات التدريبية العسكرية بين صفوف الجيش اليمني ...

ثانياً - كان ينقص هيئة البعثة ضابط وضابطي صف من صنف الخّيالة .. نظراً لوجود الخّيالة في الجيش اليمني خلال تلك الحقبة الزمنية ولو على مقياس محدود .. فقد كانت هذه الخيالة في أمسّ الحاجة إلىٰ التنظيم والتدريب الحديثين ...

ثالثاً - وكان ينقص هيئة البعثة مصّور عسكري لتسجيل كافة فعاليات البعثة طوال ثلاث سنوات .. وكان هذا التسجيل التصويري سيُعتبر سجلاً وثائقياً لأعمال البعثة .. فهو يُغني عن مئات الصفحات من التقارير التحريرية التي لايمكنها أن تفعل ماتفعله الصورة الجيدة ...

ولقد ذكرتُ في خواتيم الفصل الثالث السابق كيف أني حصلتُ على عدد لابأس به من التصاوير الفوتوغرافية التي التقطتُها بآلة تصوير اعتيادية في اليمن .. وها أنذا أعرض قسماً منها على صفحات هذا الكتاب .. وأعلم بأنها قد فقدت الكثير من الوضوح بسبب مرور مايقرب من نصف قرن على افلامها ....!

رابعاً - وكان ينقص هيئة البعثة أيضاً مايسمىٰ بـ (التأهيل) للمهمة الملقاة على عاتقها في بلدٍ كاليمن . فقد سافرت البعثة الى اليمن وليس بين أعضائها من الضباط من يعلم بأن التصوير الفوتوغرافي في اليمن ليس محرماً إلا على شخص الإمام يحيىٰ فقط ...!
وليس بين أعضائها من يعلم حرفاً واحداً عن تنظيمات وتشكيلات وتسليح وتدريب الجيش اليمني ...!
وليس بين أعضائها من يعلم شيئاً حقيقياً عن طبيعة المجتمع اليمني الذي ستعيش فيه البعثة لمدة ثلاث سنوات ...!
لقد كانت مهمة هذا (التأهيل)[1] تقع على عاتق مديرية الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع بالدرجة الأولىٰ .. ومن ثم ماكان يسمىٰ في حينه بـ «مديرية الدعاية العامة» التي كانت بمثابة وزارة الإعلام في يومنا هذا ...
خامساً - عدم تجهيز البعثة بمكتبة عسكرية تضم أهم الكتب والكراريس الخاصة بالتدريس والتدريب لكي يرجع اليها ضباط وضباط صف البعثة عند الضرورة .. ولكننا أخذنا معنا بعض كتبنا العسكرية الشخصية وهي ليست كافية طبعاً ....

٤ - الاستحضارات للسفر

في اجتماع خاص لضباط البعثة تقرر توزيع واجبات الاستحضار للسفر على النحو التالي : -

الرئيس محمد حسن -
١. إدارة ضباط صف البعثة ..
٢. تعقيب معاملات البعثة في دوائر وزارة الدفاع .

الرئيس اجمال جميل -
١. تعقيب معاملات تسفير البعثة وجوازات السفر ..
٢. القيام بواجبات ضابط إداري للبعثة طوال فترة السفر .

(١) واجع ماكتبناه عن الدكتورة الطبية الفرنسية (كلودي فايان) في النصف الأعلى من ص ١٣٩ حيث نقلنا عنها قولها - ! وكنت اعلم أنني سأستعمل الحصان في تنقلاتي باليمن لذلك تدربتُ على ركوب الخيل ..! ..

الملازم الاول عبد القادر الناظمي -

أ . استلام بعض تجهيزات المخابرة الأساسية من الدوائر المختصة .من ذلك مثلا :

عدد	
٢	عَلَمْ مخابرة - بصفة نموذج .
٢	راقم شمسي .
٢	قنديل ليلي .
٢	تلفون ميدان علامة - ٤
٢	جهاز مدّ للاسلاك .
٢	جهاز مفتاح مورس .
١٠	دفاتر نماذج برقيات
كمية	من الخلايا الجافة للتلفونات .

ب . التعاون مع الملازم سيف الدين عند الضرورة .

الملازم الثاني سيف الدين سعيد -

أ . إستلام المواد والتجهيزات التالية من الدوائر المختصة في وزارة الدفاع :-

عدد	
٥	عُدّة سروج ضباطية كاملة مع المواد اللازمة لصيانتها .
٥	مسدسات ضباطية مع عتادها .
٥	حكوك (قباص ، بوصلة عسكرية) .
٥	نواظير ميدان .
١	صيدلية سفرية .

لقد استغرق إنجاز هذه الاستحضارات حوالي اسبوعين بما في ذلك رزم المعدات والتجهيزات داخل صناديق خشبية وجعلها جاهزة للنقل الى مثابة معينة يجري فيها التحميل على إحدىٰ سيارات شركة «نيرن» التي سنسافر عليها من بغداد الى دمشق يوم ١٩٤٠/٣/٤ .

بتاريخ ١٩٤٠/٢/٢٤ صيدر الأمر الاداري من وزارة الدفاع بنقل كافة أعضاء البعثة العسكرية العراقية إلى القائمة العامة .. ومنذ ذلك التاريخ صار رئيس البعثة يمارس صلاحياته بالنسبة لكافة اعضاء البعثة من ضباط وضباط صف ..

في ١٩٤٠/٢/٢٤ مَنحني رئيس البعثة إجازة غير رسمية لمدة ثلاثة أيام أذهب بها لزيارة أهلي في الموصل .. فسافرت بنفس اليوم ٢/٢٤ وعدتُ الى بغداد يوم ١٩٤٠/٢/٢٨ .

كانت الأيام ١و٢و٣/٣/١٩٤٠ هي آخر أيام الاستحضارات للسفر .. وغداً سنودع بغداد لنغيب عنها ثلاث سنوات في بلادٍ لانعرف عنها غير الأساطير .. إنها «بلاد اليمن» ...!

*** إنتهىٰ الفصل الرابع من الكتاب**

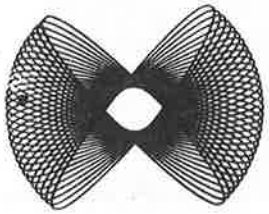

ألفصل الخامس

وقائع سفر البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن

الاثنين ـ ٤ / ٣ / ١٩٤٠ ـ بغداد

كان المطار المدني في غربي بغداد هو مثابة الإجتماع بالسادة المودِّعين . . وكان الكمرك المجاور للمطار المدني هو مثابة تحميل عفش البعثة والانطلاق منه عبر الصحراء الىٰ دمشق علىٰ متن إحدىٰ سيارات شركة (نيرن) للسفريات . . ففي ذلك الزمن لم تكن هناك خطوط جوية مدنية لنقل المسافرين . . . .

وكان في توديع البعثة يومئذ علىٰ ما أتذكر :

مدير الخارجية العام ـ عن وزارة الخارجية . .

مدير الحركات العسكرية في وزارة الدفاع .

مدير الاستخبارات العسكرية بوزارة الدفاع .

آمر الانضباط العسكري في بغداد .

وزير فرنسا المفوض في بغداد (وقد كانت سوريا ولبنان يومئذ تحت الانتداب الفرنسي . .) .

أقارب وأصحاب اعضاء البعثة . .

معظم طلاب البعثة اليمنية الذين كانوا يدرسون في العراق [1] . .

لقد كان التوديع مؤثراً في النفوس ولا عجب . . . فتلك أول بعثة يوفدها العراق الىٰ قطر عربي شقيق . . وأول بعثة عسكرية الىٰ جيش عربي شقيق . . لقد كان ذلك حدثاً فريداً في تاريخ الأمة العربية الحديث . . وكان هذا الحدث مُمَثّلاً في سبعة عشر رجلاً تطوعوا من تلقاء أنفسهم لحمل هذه المسؤولية العسكرية الكبرىٰ . . وفي ضمنها مسؤوليتان أخريان : مسؤولية قومية ، ومسؤولية تاريخية . . ولقد كان اختيار العقيد الركن اسماعيل صفوت سعيد بالذات لرئاسة هذه البعثة هو اكبر دليل علىٰ اهتمام القيادتين السياسية والعسكرية في إنجاح هذا التعاون القومي العسكري مع القطر اليمني الشقيق . .

ولقد برهنت وقائع السنوات الثلاث التي أمضتها البعثة في اليمن . . وبشهادة اليمن نفسه جيشاً وشعباً وحكومةً علىٰ أن هذه البعثة ما كانت لتنجح في مهمتها الصعبة في اليمن لولا شخصية رئيسها بالذات . . ! فلقد ظل ثمانون الف نسمة ، هم سكان العاصمة صنعاء ، لايذكرون من كافة اشخاص البعثة العسكرية العراقية غير «العَكَيد» أي «العقيد» اسماعيل صفوت . . دون أن يعرفوا إسمه ! وحتىٰ الإمام يحيىٰ نفسه . كان لايذكر رئيس البعثة إلا بهذا التعبير :

(ما أخبار العكَيد ؟ »

«كيف صحة العكَيد ؟ »

ما لنا لانرىٰ العكَيد ؟ »

الخ . . . .

في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً تحركت بنا سيارة «نيرن» ووجهتها (دمشق) . . .

---

(١) في مطلع الفصل السابق كنا قد ذكرنا شيئاً عن الطلاب اليمنيين الذين أوفدتهم الحكومة اليمنية للدراسة في المعاهد العراقية . . وذكرنا منهم الطالب (محيي الدين العنسي) المكلف بمراقبة شؤون الطلاب اليمنيين . وعندما سافرت البعثة العسكرية العراقية الىٰ اليمن سافر معها (محيي الدين العنسي) الىٰ صنعاء .

كان (العنسي) شاباً في حدود الخامسة والعشرين من العمر . قصير القامة . معتدل الهيئة . شديد التكتم . . ومع ذلك فأنه لم يستطع ترضية كل الطلاب اليمنيين المكلف بمراقبة شؤونهم فرشاه البعض منهم الىٰ وزير المعارف في اليمن (سيف الأسلام عبد الله) فأمر بأعفائه من البعثة اليمنية . . . . وسمع (العنسي) بخبر البعثة العسكرية العراقية الى اليمن . .

فبادر الىٰ مقابلة رئيس البعثة وسافر معنا الىٰ اليمن . . وبعد فترة وجيزة استحصل وظيفة في وزارة المعارف كان غرضنا من هذا التعريف بمحيي الدين العنسي لبيان مشاركته لنا في وقائع سفر البعثة من بغداد الىٰ صنعاء ليس إلا ...

وكان عضو البعثة الرئيس جمال جميل قد تجهّز من (كازينو ومطعم شريف وحداد [1]) بكمية وفيرة من الأطعمة الناشفة (الساندويشات) اللذيذة . . فتناولنا منها وجبة الغداء في سيارة «نيرن» . . . وكانت سيارات «نيرن» في تلك الايام نظيفة ومريحة ودقيقة في مواعيدها . . وبما أننا لم نكن قد رأينا أو جرّبنا السفر بالطائرات المدنية الحديثة . . لذلك كانت سيارة نيرن بالنسبة لنا شيئاً ممتازاً لانظير له في وسائط النقل عبر الصحراء . . .

الثلاثاء ـ ٥ / ٣ / ١٩٤٠ ـ دمشق

في حوالي الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم مررنا بغوطة الشام وهي علىٰ مسافة بضع كيلومترات عن دمشق حيث وجدنا في استقبال البعثة كلاً من القنصل العراقي في سوريا وسكرتيره ومعهما ممثل عسكري للحاكم العسكري الفرنسي في سوريا . . وبعد تبادل السلام والترحيب استأنفنا الحركة الىٰ دمشق . . وتوقفت سيارة نيرن أمام (فندق أمية) الذي تقرر حلولنا فيه . . وكان هذا الفندق من أفخم وأشهر الفنادق في دمشق . . .

وسارع الحاكم العسكري الفرنسي للتعرف علىٰ ماهية هذه (البعثة العسكرية العراقية) الذاهبة الىٰ اليمن . . فأوعز الىٰ عدد من ضباطه الكبار بدعوة ضباط البعثة العسكرية العراقية الىٰ مأدبة غداء في دار الضباط الفرنسيين في دمشق . . ولا شك أن الدعوة قد جاءت عبر قناة القنصلية العراقية . . وإلا لَمَا وافق رئيس البعثة علىٰ تلبيتها . .

وذهبنا الىٰ دار الضباط الفرنسي فوجدناه مكتضاً بالضباط الفرنسيين من مختلف الرتب العسكرية . . من الملازم وحتىٰ الزعيم . . والكل في صخب وضجيج وهم يشربون الجعّة والنبيذ ويلتهمون الأطباق التي أمامهم التهاماً . . !

ولما كانت قاعة النادي واحدة لجميع الرتب من الضباط وليس فيها، علىٰ ما يظهر ، مَرافِقٌ خاصة للضيوف..فقد تخيَّروا أو حجزوا لنا مائدة في أحد أركان القاعة . . وكان عدد الضباط الفرنسيين الذين جلسوا معنا علىٰ المائدة خمسة اكبرهم برتبة زعيم . . وكان أحدهم . ولا شك أنه من قسم الأستخبارات ، يتكلم العربية بوضوح فصار ترجمان المائدة . . وقد لجّوا كثيراً في اسئلتهم عن ماهية البعثة ومهمتها . . ولكن رئيس البعثة أحسن الإيجاز والاقتضاب . . وقد ساعده علىٰ ذلك إرتفاع الصخب والضجيج داخل القاعة . . كلما وصل عدد من الضباط الفرنسيين الى النادي . . .

وبعد ساعة واحدة تقريباً إنفضت مأدبةالغداء الفرنسية وقمنا للانصراف شاكرين للمضيفين ضيافتهم . . ثم غادرنا النادي عائدين الىٰ الفندق . . فقد كنا بحاجة الىٰ الراحة بعد الرحلة الليلية الطويلة من بغداد الىٰ دمشق .

وفي مساء هذا اليوم نفّسه حضرنا مأدبة عشاء أقامتها القنصلية العراقية في دمشق علىٰ شرف البعثة ، أقصد ضباط البعثة . دُعيَ اليها عدد كبير من المسؤولين ووجوه البلد [2] .

الاربعاء ـ ٦ / ٣ / ١٩٤٠ ـ دمشق

في الساعة الثامنة صباحاً ذهبنا لزيارة الجامع الأموي الشهير . . ووقفنا بضع دقائق أمام قبر البطل الاسلامي صلاح الدين الأيوبي لنقرأ الفاتحة علىٰ روحه الطاهرة اعترافاً ببطولاته التاريخية العظيمة . . ثم انتقلنا إلىٰ قبر قائدٍ عربيٍ مسلمٍ آخر وقرأنا الفاتحة علىٰ روحه اعترافاً بجليل خدماته العسكرية والسياسية . . . الرجل الفذّ ياسين باشا الهاشمي . . . . !

كان ذهابنا وإيابنا عبر (سوق الحميدية) الشهير في دمشق الشام . .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر قمنا بزيارة الجنرال (كيلر) الفرنسي في مقره العام . . ولم تستغرق الزيارة اكثر من نصف ساعة . . ولم نستغرب من وقوف (كيلر) علىٰ مجمل المعلومات عن البعثة العسكرية العراقية . . فقد نقلها اليه (ترجمان المائدة) الذي كان يجلس معنا يوم أمس علىٰ مائدة الغداء في دار الضباط الفرنسيين . . . !

وفي مساء هذا اليوم أقامت القنصلية العراقية حفلة (كوكتيل) تكريماً للبعثة . . وقد دُعي لهذه الحفلةعدد من وجوه دمشق وأعيانها . كما

(١) كان أول افتتاح هذا المحل في الطابق الأرضي للعمارة المجاورة لجامع السيد سلطان علي في شارع الرشيد . . وكان صاحب هذا المحل أول من أستخدم بعض الفتيات لخدمة الزبائن . . فكانت أول بدعة في تاريخ بغداد . . . !

(٢) لقد إرتأينا الإيجاز في تفاصيل وقائع السفر مابين (بغداد) ودمشق وبيروت وفلسطين وبورت سعيد والقاهرة . لأن معظم الناس يعرفون ذلك . . إذ لاجديد فيه إلا القليل . . ونحن نذكر هذا القليل . .

دُعي اليها عدد من الضباط الفرنسيين يتقدمهم الجنرال (كيلر) نفسه . . واستغرقت الحفلة نحواً من ساعتين . . . . .

الخميس ـ ٧ / ٣ / ١٩٤٠ ـ بيروت ـ حيفا .

في حوالي الساعة العاشرة صباحاً غادرنا دمشق بسيارات صالون الىٰ بيروت ، وكانت لنا وقفة في (عالية) مدة نصف ساعة [1] . . ثم استأنفنا الحركة الىٰ بيروت . . وعندما اكملنا الانحدار من الجبل شعرتُ شخصياً بتأثير الهبوط السريع من أعالي جبل لبنان . . علىٰ شكل وشيش في الأذن وخفقان يسير في القلب . . ثم وصلنا بيروت خلال ساعتين تقريباً منذ أن غادرنا دمشق . . وكان وصولنا الىٰ بيروت متزامناً مع موعد طعام الغداء علىٰ مائدة قنصل العراق العام السيد تحسين قدري . . وأعقب الغداء تناول الشاي والقهوة . . وتبادل الحديث عن البعثة والسفر الىٰ اليمن . . .

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر غادرنا بيروت بسيارات صالون لبنانية متوجهين الىٰ (حيفا) [2] في فلسطين إبان الحكم البريطاني . . وقد

الصورة رقم (٢٧)

وقفة عند (عاليه) في لبنان .
من اليمين الىٰ اليسار :
١ – الملازم الاول عبد القادر الناظمي .
٢ – الملازم الثاني سيف الدين سعيد .
٣ – الرئيس محمد حسن .
٤ – الرئيس جمال جميل .

(١) أنظر الصورة رقم (٢٧) .

(٢) لا اتذكر الان تماما الأسباب التي دعت الىٰ تسفير البعثة عن طريق (بيروت ـ الناقورة) بسيارات لبنانية . و (الناقورة ـ عكا ـ حيفا) بسيارات صهيونية . و (حيفا ـ غزة ـ العريش ـ القنطرة ـ بورت سعيد) بالقطار الانكليزي / المصري ؟ ولماذا لم يجر التسفير بحراً من بيروت الىٰ بورت سعيد . أو من بيروت الىٰ الاسكندرية التي ستصل اليها الباخرة الانكليزية المقرر سفر البعثة عليها الىٰ (عدن) . . ؟

إن كان الأمر يتعلق بتكاليف السفر وأن النقل بالسيارات والقطار هو أقل كلفة من النقل البحري . . فقد أدىٰ سفر البعثة غير المتزامن مع وصول الباخرة الىٰ بورت سعيد الى الانتظار ستة ايام في بورت سعيد . . !

لاشك وأن القرار في اختيار طريق السفر ووسائله والفنادق التي تنزل فيها البعثة كان قد تأثر كثيراً بتدخلات (شركة توماس كوك ـ Tho . Cook & Sons) في بغداد . .

فاستقبلنا كلٌ من السيد تحسين قدري والسيد هاشم خليل سكرتير القنصل العام لتوديعنا الىٰ مسافة معينة الىٰ الجنوب من بيروت (أنظر الصورتين رقم - ٢٨ و ٢٩) . .

من اليمين الىٰ اليسار :
٥ – شيخنا محيي الدين العنسي . . !
٤ – الرئيس جمال جميل .
٣ – الرئيس محمد حسن المحاويلي .
٢ – الملازم الاول عبد القادر الناظمي .
١ – السيد هاشم خليل سكرتير القنصل العام .

ألصورة رقم (٢٨)
عند مثابة التوديع جنوبي بيروت
قبل وصول رئيس البعثة برفقة السيد تحسين قدري .

الصورة رقم (٢٩)

عند مثابة التوديع جنوبي بيروت بعد وصول رئيس البعثة برفقة السيد تحسين قدري الىٰ المثابة
من اليمين الىٰ اليسار :
٦ – السيد هاشم خليل .
٢ – الرئيس جمال جميل .
٣ – الملازم الثاني سيف الدين سعيد .
١ – العقيد الركن اسماعيل صفوت .
٤ – السيد تحسين قدري القنصل العراقي العام في بيروت .
٥ – الرئيس محمد حسن المحاويلي .
٧ – شيخنا محيي الدين العنسي . . . . !

عند وصولنا الىٰ (الناقورة) - النقطة الحدودية اللبنانية مع فلسطين - كان علينا أن نستبدل السيارات اللبنانية بسيارات من شركة نقليات صهيونية في (حيفا) . . فقد كان ينتظرنا عند (الناقورة) ضابط انكليزي برفقة قائمقام (حيفا) . . فقد جاء الاول لاستقبال البعثة موفداً من قبل القيادة البريطانية العامة في فلسطين ، وحضر القائمقام لاستقبالنا موفداً من قبل المندوب السامي البريطاني في فلسطين . . وكانت السيارات اليهودية جاهزة لنقلنا الىٰ (حيفا) . . فركبناها واستأنفنا المسير . . . .

كانت الطريق التي نسير عليها محاذيةً تماماً لساحل البحر الابيض المتوسط . . فاذا نظرنا عن يميننا رأينا صفحة مياه البحر الزرقاء تسبح في لُجتّها أشعة الشمس الآخذة بالانحدار نحو الأفق البعيد . . وإذا نظرنا عن شمالنا عجز البصر عن متابعة «بيّارات» الليمون والبرتقال الملزوزة بعضها الىٰ بعض . .

كانت السيارة التي نستقلها (أنا وعبد القادر الناظمي ومحمد حسن) تسير على الطريق المبلطة بسرعة معتدلة وثابتة لاتتجاوز السبعين كيلو متراً في الساعة . . وفجأةً حاول زميلنا الرئيس محمد حسن أن يجرب حظه في التكلم بالانكليزية مع سائق السيارة فطلب منه أن يزيد في سرعة السيارة ولو قليلاً . . ولكن السائق لم يفهم شيئاً مما قاله (الأخ أبو عزمي) - الرئيس محمد حسن - . . . ! فما كان من زميلنا (الناظمي) إلا وأن هبّ لنجدة أخينا (أبو عزمي) فتولىٰ بالنيابة عنه توجيه نفس الطلب الىٰ السائق . . وبما أن (الناظمي) كان يُحسن الانكليزية فقد أجابه السائق علىٰ الفور من دون أن يلتفت إليه وقال له بالانكليزية ما يعني بالعربية : [عفواً سيدي . . أنا متقيّد بتعليمات الشركة . . فلا استطيع زيادة السرعة ولاإنقاصها . . وعليّ أن أصل الىٰ حيفا في ساعة محدّدة . .] . . !

لاشك . . وأن كلاً منا قد تعلّم شيئاً مفيداً بعد أن استمع الىٰ إجابة ذلك السائق الذي لم يكن أحد هناك يراقبه أو يحاسبه في تلك الساعة وكان بامكانه أن يسير بسرعة الجمل أو بسرعة الطائرة . . عِلماً بأن المسافة ما بين (الناقورة) و (حيفا) لاتزيد علىٰ ستين كيلو متراً . . . !

لقد كان سائقا نموذجياً في الحرص والأمانة تجاه شركة النقليات التي يعمل فيها . . . !

وصلنا الىٰ (حيفا) في الساعة السادسة مساءً . . وكان نزولنا في فندق (سافوي) وهو يومئذ كان يُعد من الفنادق الفخمة في الشرق الاوسط .

الجمعة - ٨ / ٣ / ١٩٤٠ - في القطار من حيفا الى بورت سعيد .

في الساعة السابعة صباحاً أخذنا مقاعدنا ذات الدرجة الاولىٰ في القطار المسافر من حيفا الىٰ بورت سعيد في المملكة المصرية . . وكانت الرحلة بطبيعة الحال نهارية استغرقت نحواً من إثنتي عشرة ساعة . . ولم يخفف من الضجر والملل في هذه الرحلة النهارية سوىٰ تلك المناظر الجميلة علىٰ جانبي سكة الحديد داخل الأراضي الفلسطينية . . ولكن سرعان ما اختفت تلك المناظر الجميلة حينما دخل القطار حدود سيناء . . حيث تبدل كل شيء بما في ذلك درجة حرارة الطقس . . حيث اخذت بالارتفاع تدريجياً . . . .

في حوالي الساعة السادسة مساءً وصل بنا القطار الىٰ مدينة (القنطرة) . . وبعد وقفة قصيرة بسبب إجراءات كمركية (لاتخص البعثة طبعاً) استأنف القطار سيره الىٰ بورت سعيد فوصلناها ليلاً . .وكان نزولنا في فندق (آكري بالاس) الممتاز بإشرافه علىٰ البحر . . وكان من المقرر أن نقضي في هذا الفندق بضعة أيام ننتظر وصول الباخرة الانكليزية التي ستقلنا من بورت سعيد الىٰ (عدن) يوم ١٤ / ٣ / ١٩٤٠ . (أنظر التصويرين رقم - ٣٠ و ٣١) . .

الصورة رقم (٣٠)
عند تمثال المهندس فرديناند دي لسبس
فاتح قناة السويس

١ – الملازم سيف الدين سعيد
٢ – الرئيس محمد حسن .
٣ – الرئيس جمال جميل .
الملازم الأول عبد القادر الناظمي
يسحب الصورة .

الصورة رقم (٣١)
ميناء بورت سعيد

الأحد ـ ١٠ /٣ـ الثلاثاء ـ ١٢ / ٣ / ١٩٤٠ ـ في القاهرة .

وارتأىٰ رئيس البعثة أن نتحيز فرصة هذا الانتظار لنزور القاهرة . . فركبنا قطار الديزل صباح يوم الأحد ـ ١٠ / ٣ / ١٩٤٠ فوصلنا القاهرة قبيل الظهر . واستقبلنا في محطة القاهرة نائب القنصل العراقي الذي أخذنا الىٰ دار القنصلية العراقية حيث استرحنا قليلاً ريثما تم ترتيب نزولنا في فندق (ناسيونال) وهو يومئذ من الفنادق المحترمة في القاهرة . .

في اليوم التالي ـ الاثنين ١١ /٣ ذهبنا برفقة نائب القنصل العراقي الىٰ (سراي عابدين) حيث سجلّنا أسماءنا في سجل التشريفات الملكية . . ثم قمنا بجولة عامة في بعض أنحاء القاهرة . . عُدنا بعدها الىٰ (نادي محمد علي) لحضور مأدبة غداء أقامتها المفوضية العراقية تكريماً للبعثة . .

وخلال اليومين التاليين قمنا بعدة جولات داخل القاهرة للاطلاع علىٰ أهم معالمها السياحية بقدر ما تسمح به الظروف في حينه . . كما تيسرت لنا زيارة الإهرامات والمتحف الفرعوني . . ولم ننس طبعاً زيارة حديقة الحيوانات وقد كانت يومئذ الفريدة من نوعها في الشرق الأوسط . . !

ومن المعالم الأخرىٰ التي شاهدناها يومئذ في القاهرة هي القلعة (قلعة محمد علي باشا الكبير) . . وخان الخليلي وجامع أحمد بن طولون . . وحديقة الأندلس الجميلة (أنظر الصورة رقم ـ ٣٢) . .

الصورة رقم (٣٢)
الحديقة الاندلسية في القاهرة .

سيف الدين سعيد .

وكنا خلال هذه الجولات إذا حان موعد طعام الظهيرة ذهبنا الىٰ مطعم شرقي طبّقت شهرته الآفاق في القاهرة وخارجها . . ذلك هو (مطعم الحاتي) الذي كان مشهوراً بتقديم المشويات المنوعة . . وفي مقدمتها (الكباب) والفراخ المحمّرة . . ولقد كان مطعم الحاتي جديراً بتلك الشهرة الواسعة . . وكانت نظافة المطعم ونظافة عماله وأدواته مما يشجع علىٰ ارتياده مراراً . . هذا فضلاً عن هوادة أسعاره . .

لقد استمتعنا حقاً بزيارتنا للقاهرة . . في زمن لم يكن السفر إليها سهلاً وميسوراً كما هي الحالة في أيامنا هذه . . فقد كان الوصول الىٰ القاهرة يومئذ يشبه الىٰ حدٍّ كبير وصول المسافر في أيامنا هذه الىٰ (نيويورك) او (موسكو) أو (طوكيو) . . . .

الثلاثاء ـ ١٢ / ٣ / ١٩٤٠ ـ العودة الىٰ بورت سعيد .

بعد ظهر اليوم ركبنا القطار المتوجه الىٰ (بورت سعيد) . . وقد كان في توديعنا القنصل العراقي ومساعده . .

وطوال الساعات الثلاث التي استغرقها القطار ما بين القاهرة وبورت سعيد . . كانت المناظر الريفية المصرية لاتغيب عن بصرنا إلا لفترات قصار . . وهي بوجه عام تشبه الريف العراقي ما بين بغداد والديوانية ، أو بغداد ـ بعقوبة . . وهي بجملتها أرياف تستصرخ المسؤولين عن إصلاح الريف العربي وإنقاذه مما يعانيه من تخلّف وانحطاط . . . .

وفي الساعة التي وصلنا فيها الىٰ بورت سعيد وصلت اليها أيضاً الباخرة الانكليزية المسماة (نارکوندة ـ NARKUNDA) التابعة لشركة (P&O) والتي كان مقرراً أن نسافر علىٰ ظهرها من بورت سعيد الىٰ (عدن) . . علماً بأن الخط البحري لمسار هذه الباخرة الفخمة ينتهي في مياه اليابان بعد مرورها بعدن والبحر العربي والمحيط الهندي ثم استراليا ثم هونكونك فاليابان . .

الخميس ـ ١٤ / ٣ ـ ١٧ / ٣ / ١٩٤٠ في المدينة العائمة (نارکوندة ـ NARKUNDA) .

في الساعة التاسعة صباحاً كنا نتسلق سلّم الباخرة الىٰ طابقها العلوي . . فلما صرنا عند مدخله قادنا دليل خاص الىٰ الجناح المخصص لنا من الدرجة الأولىٰ . . أما ضباط صف البعثة فقد كانت لهم غرفهم الخاصة في الدرجة السياحية . .

كانت الباخرة (نارکوندة) بالنسبة لنا في ذلك الوقت مدينة انكليزية بكل معنىٰ الكلمة تعوم فوق سطح البحر . . وإن شئت قلت هي عوّامة هائلة شُيّدت عليها مدينة عامرة لاينقصها شيء حتىٰ «الكنيسة» !

كان الشخص الوحيد من ضباط البعثة الذي سبقت له تجربة الإقامة الوقتية أو المحدودة في مثل هذه المدينة العائمة (نارکوندة) هو الزميل الملازم الاول عبد القادر الناظمي . . فقد سبق له السفر الىٰ انكلترا وشاهد مثل هذه الاجواء الغريبة عنا . . لذلك صار دليلنا ومرشدنا الىٰ جميع مرافق هذه المدينة العائمة . . وعلىٰ الأخص عندما تحين أوقات الذهاب الىٰ مطعم الباخرة الكبير حيث كل شيء فيه يبدو غريباً وبالخاصة تلك القوائم اليومية التي تتضمن منهج أصناف الطعام لكل وجبة . . .

في اليوم التالي كنا نجلس حول مائدتنا الخاصة في مطعم الباخرة لتناول وجبة الغداء . . فلما حضرت الأطباق الكبيرة المنوعة كان كل شيء في مظهرها الخارجي ينم عن جودة الطعام . . . فبدأنا نأكل منها علىٰ مهل واستحياء . . وبعد التذوق والاستحسان ضربنا بالتمهل والاستحياء عرض الحائط . . وصرنا نلتهم الطعام التهاماً . . ونطلب المزيد من الخبز . . والخبز عند الغربيين ، خاصة الانكليز منهم ، يأتي في الدرجة الثالثة من الأهمية بعد الطعام . . فلايقدمون منه الىٰ المائدة إلا القليل . . أما الماء فلا أهمية له عندهم أثناء الطعام لانهم يستعيضون عنه بالمشروبات الأخرىٰ . . .

فلما حضر الخبز الاضافي الىٰ المائدة حضرتْ معه علائم الدهشة والاستغراب مرتسمةً علىٰ وجه خادم السفرة وهو يحملق في وجوهنا ليعرف من أي بلاد الله نحن . . . ! وما كان لهذا الخادم أن يندهش من طلبنا لمزيدٍ من الخبز وهو يعلم ، ونحن لا نعلم ، أن هواء البحر يزيد في شهية الانسان للطعام . . . .

وهَمَس الزميل (أبو عزمي) ـ محمد حسن ـ شيئاً في أذن الزميل جمال جميل . . فردّ عليه الأخير بصوت مسموع مُؤيداً صحة ما همس به (ابو عزمي) عن جودة مذاق اللحم الذي كنا نأكل شرائحه بلذة ونَهمَ . . وبادر رئيس البعثة أيضا الىٰ تأكيد جودة اللحم ومذاقه العجيب . . فانفرجت أسارير زميلنا (أبو عزمي) عن ابتسامة عريضة ابتهاجاً بالتأييدات التي تلقاها عن رأيه في جودة اللحم ومذاقه اللذيذ . .

وكان الزميل (الناظمي) يرقب الأحداث الدائرة حول مائدتنا وينتهز كل فرصة من هذا القبيل ليمازح الأخ (أبو عزمي) . . لمجرد المزاح طبعاً . . فابتدر يسأل (أبا عزمي) ويحاوره : ـ

– لاشك وأن هذه الشرائح من اللحم لذيذة .. ولكن هل عرفتَ ماهو نوع اللحم الذي أكلت منه الآن ...؟

- فأجابه الأخ أبو عزمي إجابة لاتخلو من المنطق والتحدي :

* وهل عرفته أنت ؟

قال الناظمي :

– طبعاً أعرفه . . وأعرفه منذ زمن بعيد . . وقد أكلت منه مراراً عندما سافرت الىٰ انكلترا قبل عامين . . .

قال أبو عزمي :

* ولكنك لم تجبني علىٰ سوألي بعد . . هل عرفته أنت ؟

قال الناظمي وهو يضحك :

– إنه لحم خنزير يا أبا عزمي . . !

فضجّ الجميع بالضحك . . إلا أن الأخ أبا عزمي ماكان ليستسلم بهذه السهولة أمام الناظمي . . فقال له :

* ولكن ذلك لن يغير شيئاً من حقيقة الأمر . . فهذا اللحم ممتاز ولذيذ . . ولايمكن أن يكون لحم خنزير . . لأن الله تعالىٰ حرّم الخبائث ولم يحرّم الطّيبات من الرزق . .

قال الناظمي وهو يغمز قناة الأخ ابو عزمي :

– «حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . . . . » !

وهنا . . وصل خادم السفرة بأطباق جديدة من اللحوم وتوابعها . . فأنْسَتْنا المحاورة عن لحم الخنزير ورُحنا نلتهم من الأطباق الجديدة ما لذّ وطاب . . ولاندري إن كان أو لم يكن بينها لحم خبيث . . !

وكانت (ناركوندة) مجهزة بالعديد من وسائل التسلية والترفيه ، منها علىٰ سبيل المثال : -

١ً . أدوات رياضية خفيفة خاصة بالممرات المكشوفة في الباخرة (أنظر الصورة رقم - ٣٣) . .

٢ً . حوض للسباحة في مقّدم الباخرة . .

٣ً . قاعة للسينما . .

٤ً . قاعة للرقص والموسيقىٰ .

٥ً . قاعة للتدخين .

٦ً . المكتبة . .

٧ً . المشرب (BAR) .

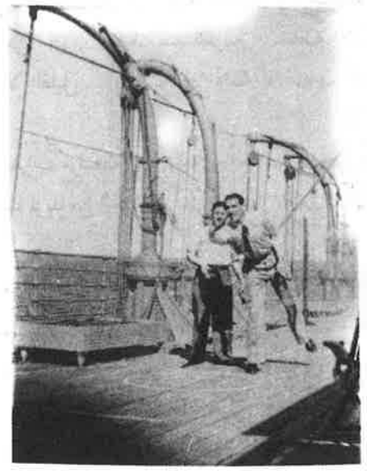

الصورة رقم (٣٣)
في الباخرة الانكليزية (ناركوندة – NARKUNDA)
الزميلان عبد القادر الناظمي وجال جميل يتسلّيان بلعبة رمي الحلقات ... .

وفي هذه المدينة العائمة خدمتان أخريان هما : البريد والمصرف . . ولقد أرسل معظمنا بعض الرسائل الىٰ ذويه في العراق عن طريق هذا (البريد العائم) فوق مياه البحر الأحمر . . ولاشك أن الباخرة قد سلّمت بريدها الىٰ مصلحة بريد (عدن) حيث تقوم هذه المصلحة بتوجيه ذلك البريد غالباً باتجاه القاهرة . . أو باتجاه الهند حسبما تمليه الظروف الحربية في حينه . . فقد كنا في العام الاول من الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ - ١٩٤٥) . .

ومنذ خروج (ناركوندة) من جنوبي قناة السويس صرنا لانرىٰ في النهار غير الماء والسماء . . ولولا وسائل التسلية المتيسرة في الباخرة لأصابنا الضجر والملل في ساعات النهار . . أما في الليل فالامر يختلف تماماً . . فعلاوة علىٰ وجود السينما وقاعة الرقص . . فان مجرد الاستلقاء علىٰ الكراسي الطويلة في الممرات الجانبية المكشوفة [1] والتطلع الىٰ القبة السماوية بما فيها من مجرّات غير متناهية . . فان مجرد

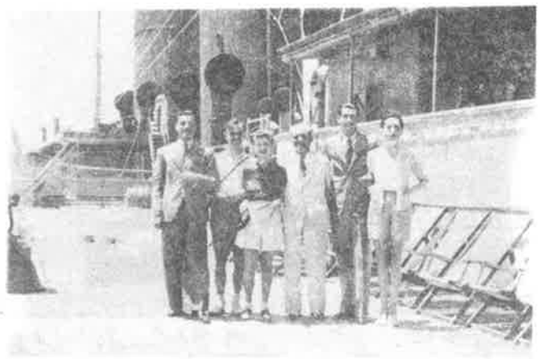

الصورة رقم (٣٤)
مع بعض المسافرين الىٰ استراليا .

ذلك يكفي لدفع الضجر والملل عن الانسان . .وربما كان الوقوف ليلاً في مؤخرة الباخرة والتطلّع الىٰ الأمواج البيضاء المندفعة من تحت الباخرة بقوة رفّاساتها الضخمة والْتماع الأسماك الفسفورية بين تلك الأمواج كالمصابيح الصغيرة . . يكفي أن يكون باعثاً علىٰ التسلية والارتياح . .

وانصرمت الأيام الأربعة (١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ ـ مارس ١٩٤٠) في المدينة العائمة وكأنها حُلم جميل قصير . . حتىٰ مررنا بمضيق باب المندب بتاريخ ١٦/ ٣/ ١٧ ولم نشعر بذلك المرور لولا (لوحة الحركات [2] NAVIGATION – BOARD) التي كانت علىٰ الدوام تُعلن لركاب الباخرة عن وقت وتاريخ الوصول . الىٰ المواقع الجغرافية المهمة علىٰ طريق الملاحة . .

ثم كان الوصول الىٰ خليج (عدن) مساء اليوم السابع عشر من مارس – ١٩٤٠ ، وقبل أن تدخل (ناركوندة) الىٰ الميناء أسرعت نحوها بعض الزوارق البخارية لكلٍ منها شأن خاص مع هذه الباخرة العظيمة . . وكان أحد تلك الزوارق يحمل في مقدمته العلمين العراقي والبريطاني . . حتىٰ اذا اقترب من صفحة الباخرة ظل يرافقها حتىٰ دخلت ميناء عدن وألقت بمراسيها الجبارة في الميناء . . وعندئذ صعد من الزورق البخاري المعاون الأول لحاكم (عدن) العام (المستر ويليام إنكَرامس – W. H. INGRAMS) وبصحبته عدد من الضباط

(١) انظر الصورة رقم (٣٤) .

(٢) إن الكلمة NAVIGATION تعني (الملاحة) البحرية . ولكنها جاءت هنا لتعني (الحركات) .. أي وقائع مسار الباخرة .

الانكليز . . لقد جاءوا لاستقبالنا في عرض الخليج العدني . . وبعد تبادل السلام وقليلاً من الكلام معنا . . عادوا أدراجهم الىٰ (عدن)
أنظر الصورة رقم (٣٥) . .

الصورة رقم (٣٥)
ميناء (عدن) .

ولقد أحزننا والله . . أن نجد الضباط الانكليز يهرعون لاستقبالنا في عرض البحر . . ولم نجد عربياً واحداً من عرب عدن يفعل ذلك . . ولو عند نزولنا الىٰ البر العدني . . ! ومع ذلك فقد قيل بأن هناك نادٍ في عدن يسمىٰ بالنادي العربي . . وإليه ينتمي خطباء وشعراء من عرب عدن . . ! !

لقد فقدت (عدن) وجه عروبتها منذ مايزيد علىٰ قرن من الزمان . . منذ أن احتلها الاسطول البريطاني عام (١٨٣٩) علىٰ يد (الكابتن هينس – Haines) . . . !

فما هي حكاية (عدن) في التاريخ الحديث ؟

الاثنين – ١٨ / ٣ / ١٩٤٠ – عدن (أنظر الخريطة رقم ٨ – في الصفحة التالية ٢٠٥) .

عدن – لقد عرفها الفينيقيون وكانوا يعتبرونها من أهم المراكز التجارية في جنوب شبه جزيرة العرب . . وقد جرىٰ تداول احتلال عدن بين الرومان والفرس والأحباش حتى القرن السادس الميلادي . .

تقع عدن في شبه جزيرة بركانية صغيرة ، ضمن مخروط بركاني خامد يندفع بروزاً الىٰ داخل البحر العربي . . ويتميز هذا التركيب البركاني الخامد بكثرة القمم الوعرة والجروف الحادة تتخللها شقوق واسعة وأخاديد عميقة . . .

وعندما يتسلق المرء الىٰ قمة (جمّر) أو (جم جم) كما يسميه أهل عدن ، يدرك لماذا تكالب الفاتحون دائماً للاستيلاء علىٰ هذه البقعة السوداء من الأرض . .

فاذا نظر المرء الىٰ الاسفل باتجاه البحر وجد الميناء ، الذي يشبه المنجل العريض في شكله . وقد تحصّن مدخله بمُسيَّفين توأمين من

الخريطة رقم (٨)
خريطة عدن

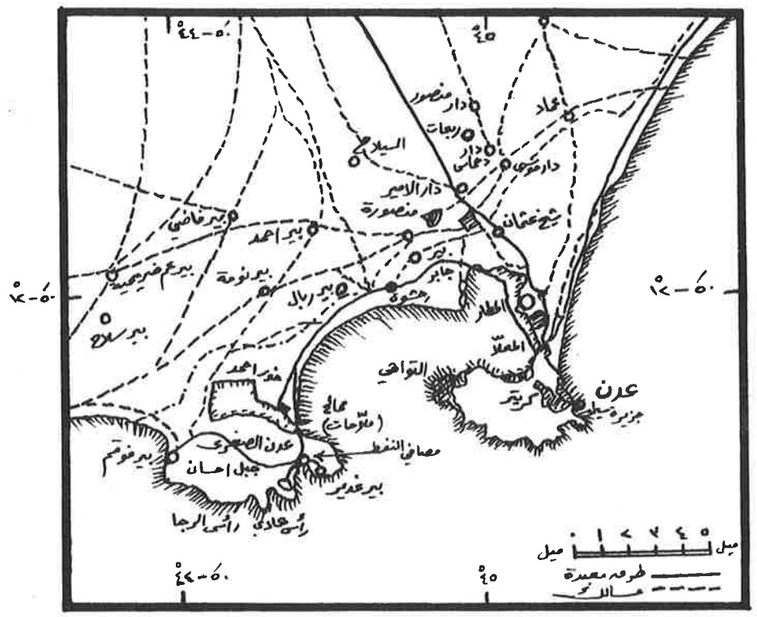

هذه الخريطة مقتبسة ومُعرّبة من كتاب :

(Aden & The Yemen) by Sir Bernard Reilly .
The First Governor of Aden Under the Colonial Office 1937 – 1940
The book was first published , july 1959 , London . (١)

(١) راجع هامشنا (٢) ص (٢٣) ابتداءً من السطر السادس .

الصخور البركانية . . وهو من الاتساع مايجعله قابلاً لاستيعاب الأسطول البريطاني بكامله في ملجأ امين . .

ولقد كانت سفن المعينيين والسبأيين والحميريين تفد الىٰ هذا الميناء لتفرغ حمولتها من كنوز الهند والجزر الشرقية والملايو . . ثم تعدّ العدة للقيام برحلات جديدة الىٰ مستعمراتها علىٰ الساحل الأفريقي . . وقد ثبت مؤخراً أن سفن السبأيين وصلت الىٰ رأس الرجاء الصالح في أقصىٰ الجنوب الافريقي . .

وعندما بدأ عصر المحركات البخارية . . وشمل فيما شمل السفن البحرية والاساطيل الحربية صارت بريطانيا تفتش في لهفة عارمة عن موقع ساحلي في البحر الاحمر والبحر العربي يصلح أن يكون قاعدة لتموين سفنها التجارية وأساطيلها البحرية بالفحم الحجري . . لكي تستطيع إدامة النقل البحري علىٰ طريق الهند . . اكبر مستعمرات التاج البريطاني . . .

وظلت شركة الهند الشرقية البريطانية تحوم حول عدن مدة عشرين عاماً تفتش عن الحيلة والوسيلة للسيطرة علىٰ هذا الموقع الاستراتيجي الخطير بعد أن ثبت لديها أنه أفضل موقع علىٰ طريق الهند بعد قناة السويس . .

وأخيراً . . عمدت شركة الهند الشرقية الىٰ الحل الاستعماري الكلاسيكي . . فافتعلت حادثاً مبيّتاً في خليج عدن . . فقد غرق لهم مركب شراعي في تلك المياه ، ولاأظن إلا أنهم هم الذين أغرقوه ، فسطا عليه عرب سلطان لحج وعدن ونهبوه . . فبعثت إدارة الشركة (الكابتن هينس — Captain Stafford Bettsworth Haines) علىٰ سفينة حربية تحمل ثلاثمائة جندي . . فلما وصل الىٰ عدن بادر الىٰ مفاوضة السلطان محسن بن فضل طالباً منه التعويض المادي عن المنهوبات ، فرفض السلطان قائلاً بأن المركب الشراعي كان قد دخل المياه الاقليمية للسلطنة . . فاحتج الانكليز بالفرمان العثماني الذي حصلوا عليه من الباب العالي في استامبول (١٨٣٨ م) ، والفرمان يخولهم حق الاتجار في الممالك والمياه العثمانية . . ورفض السلطان حجة الانكليز . . فردّ عليه الكابتن هينس بقصف عدن من البحر . . وبعد قتال لم يدم طويلاً اضطر السلطان الىٰ عقد معاهدة مع الانكليز تحفظ له بعض حقوقه . . وهكذا احتل الانكليز عدن سنة (١٨٣٩ م) . . فكان ذلك بداية ظهور المحميات التسع للوجود . . .

وأراد الانكليز توسيع منطقة الاحتلال في عدن فطلبوا الىٰ السلطان أن يبيعهم ضاحية (الشيخ عثمان) القريبة من عدن فرفض السلطان طلبهم . . وكان لهذا السلطان المنكود الحظ والضيّق العقلية شقيق يحب المال اكثر من حبه لضريح الشيخ عثمان ونزيله . . ، وكانت لهذا الشقيق الخائن يدٌ في إدارة أمور السلطنة قد أقرّه عليها السلطان . . فتقرّب الانكليز من هذا الشقيق . . وأغروه بالمال . . وعقدوا معه اتفاقاً سرياً عام (١٨٨٢ م) يتنازل لهم بموجبه عن ضاحية الشيخ عثمان لقاء مبلغ قدره (— / ٠٠٠ ر ٢٠) عشرون ألف ريال ، أو مايعادل (— / ٠٠٠ ر ٤٠) أربعين الف روبية ، أو مايساوي (— / ٢٥٠٠) ألفين وخمسمائة جنيه ذهب انكليزي . . فأمضىٰ صك البيع نيابةً عن أخيه السلطان . فاعتبره الانكليز صكاً قانونياً وخططوا بموجبه حدودهم التي شملت ضاحية الشيخ عثمان التي تقع علىٰ مسافة ستة عشر كيلومتراً الىٰ الشمال من عدن : .

فلما علم السلطان محسن بذلك طرد أخاه من البلاد وصادر أملاكه وحرمه من حقوقه في السلطنه . . ولكن ذلك لم يغير شيئاً من الأمر الواقع مع الانكليز . . ودخلوا الشيخ عثمان وأقاموا لهم فيها حامية قوية لايستطيع السلطان ولاخلفاؤه أن يقاوموها . . وأصبحت ضاحية الشيخ عثمان مع مرور الزمن بلدة عامرة بالجنود الهنود والحانات والموبقات من كل لون وطراز . . . !

كانت عدن قبل احتلالها من قبل الانكليز عام ١٨٣٩ من ممتلكات الامبراطورية العثمانية إسمياً والمتصرف الفعلي فيها هو سلطان لحج . . وكان العثمانيون قد أستولوا علىٰ عدن سنة (١٥٣٨ م) وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني . . وكان ذلك هو ابتداء الاحتلال العثماني الأول لليمن . . وقبل العثمانيين كانت عدن في حوزة الأئمة الأقوياء من زيود اليمن . .

أما عدن اليوم فهي مدينة مفتوحة ليست بالعربية ولابالغربية ولابالشرقية [1] . . فهي مدينة التجارة الحرة ومستودعات الفحم الحجري (والنفط عصب الحياة للسيطرة علىٰ طريق الهند . .) فهي من الوجهة الاستراتيجية العسكرية ترتقي الىٰ مصافّ (جبل طارق) و (قناة السويس) . . أما من الوجهة التجارية فان عدن مركز للتصدير والاستيراد . . وفيها البنك الأهلي الهندي يقبض علىٰ زمام المال والاقتصاد ليس في عدن وحدها بل تمتد سيطرته الىٰ جميع الاقطار التي لها سواحل في حوض مضيق باب المندب .

من الوجهة الجغرافية المحلية . . يمكن تقسيم (عدن) الىٰ قسمين رئيسيين تبلغ مساحتها (٧٥) خمسة وسبعون ميلاً مربعاً :—

(١) هذا بالنسبة لفترات الحكم البريطاني في (عدن) والمحميات . .

القسم الاول — ويسمىٰ بـ (التواهي) ، ويقع على الشاطئ . . وفيه يقوم دار الاعتماد البريطاني . . ودور القناصل والموظفين وبعض الأسواق . . ومخازن الفحم . . وإن هذا القسم محاط بأقوىٰ الحصون والقلاع . . وفيه يقع مركز المواصلات العالمية بأسلاك البرق الممتدة في قعور البحار . . فأذا أصيب هذا المركز بأي عطل شُلّت المواصلات البرقية بين أقطار الشرق والغرب . . !

القسم الثاني — ويسمىٰ بـ (كريتر — Crater) ، ويقع وراء الجبال علىٰ مسافة تسع كيلومترات تقريباً في فوهة بركان خامد ، ويسكن هذا القسم اكثر من (٠٠٠ ر ٥٠) خمسين الف نسمة هم خليط عجيب غير متوازن من مختلف شعوب الأرض والأديان والمذاهب والنِحَل والملل . . !

وفي هذا القسم من عدن أثر تاريخي خالد مع الزمن يشهد بالذي كانت عليه (عدن الأمس البعيد) من مجدٍ غابر تليد . . إنه السدود العظيمة التي شيدها أولو العزم من الرجال ليخزنوا وراءها (٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٨٠) ثمانين مليون غالون من مياه الأمطار . . وبعض هذه السدود محفور في صخور الجبال البركانية السوداء . .

لقد بنوا هذه السدود في مضيق متحدّر بين جبلين عظيمين علىٰ شكل مدرّجات بحيث يصبّ السد الأعلىٰ مياهه عند الامتلاء الىٰ السد الذي يليه في الانحدار . . حتىٰ تنتهي المياه بعد امتلاء السدود الىٰ الخزان العظيم المشيد عند قَدَمَيْ الجبلين . . إلا أن هذه العمارة الهندسية الهائلة لاتؤدي عملها علىٰ الوجه الاكمل عندما يقل نزول الامطار أو احتباسها بين الحين والآخر . .

علىٰ أن تاريخ هذه السدود ، وهي من أجمل الأعمال الهندسية في عالم الأمس ، لايزال مجهولاً وقد اختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كثيراً . . ولكن أحداً منهم لم يختلف في حقيقة أن هذه السدود كانت مردومة عندما احتل الانكليز (عدن) . . وبعد استقرارهم فيها حاولوا إصلاحها في عام (١٨٥٦) . . ولكنهم لم يستطيعوا التغلب علىٰ معضلة قلة الأمطار أو احتباسها . . لذلك وجّهوا اهتمامهم الىٰ حفر الآبار الارتوازية في منطقة الشيخ عثمان لتأمين مياه الشرب لسكان عدن . . ولم تكن مشاريع تحلية مياه البحر قد عُرفت بعد في ذلك الزمان . .

* **تلك هي (عدن)** التي أمضينا فيها ستين ساعة منذ وصولنا اليها مساء (١٧ / ٣) وحتىٰ غادرناها ضحوة يوم (٢٠ / ٣ / ١٩٤٠) . . .

علىٰ الرغم من وصولنا الىٰ عدن في منتصف شهر مارس . . إلا أن درجة حرارة الطقس في الظل كانت في حدود (٤٠°) درجة مئوية . . لقد كنا نتصبب عرقاً ونحن ندرع بعض الشوارع الرئيسية في عدن نهاراً . . وأما في الليل . . فقد تعذّر علينا أن ننام بارتياح رغم أن الفندق الذي تقرر نزولنا فيه كان مجهزاً بالمراوح الكهربائية السقفية . . !

كان توقّفنا في عدن مدة يومين توقفاً اضطرارياً . . وذلك لكي يقوم وكيل الحكومة اليمنية في عدن بشراء وإعداد السيارات اللازمة لنقلنا من عدن الىٰ صنعاء عن طريق (عدن — تعز — الحديدة — باجل — معبر — صنعاء . .) . .

فمن هو هذا الوكيل ياترىٰ . . وماحكايته ؟

كل اليمن وكل البلاد المطلة علىٰ حوض مضيق باب المندب يعرفون «الجبلي» ولايُشترط أن يعرفوا إسمه الكامل . . وقد يكتفي بعضهم بتسميته (وكيل الإمام في عدن) . .

أما إسمه بالكامل فهو : (الشيخ الجَمالي علي محمد الجبلي) . . إنه إسم مركب . . يشبه المعادلات الجبرية ذات الثلاثة مجاهيل . . . !

المجهول الأول — من الذي خلع عليه منصب الشيخ ؟

المجهول الثاني — مامعنىٰ (الجمالي) ؟ . . وهذه أيضا لم نُحِط بها عِلماً ومعرفةً إلا بعد الوصول إلىٰ صنعاء والاندماج تدريجياً بالمجتمع اليمني . . فقد عرفنا أن كلمة (الجمالي) كلمة تقدير وتعبير واحترام تسبق إسم الشخص المراد تقديره واحترامه والمسمىّ بـ (علي) . . فيقولون : الجمالي علي بن الحسين . .

وكلمة التقدير والاحترام للشخص المسمىٰ (أحمد) هي (الصَّفي) فيقال الصّفي أحمد . . .

وكلمة التقدير للشخص المدعو عبد الله هي (الفخري) . . .

وهكذا . . فان لديهم مجموعة من كلمات التقدير يُسبِقون بها أو يُصدِّرون بها أسماء الأشخاص .

المجهول الثالث — مامعنىٰ (الجبلي) ؟

هذا مالم نستطع التوصل الىٰ معرفته رغم كل التحريات والاستفسارات . . . !

إن هذا (الجبلي) شخصية عجيبة بارعة ذات خبرة عميقة وطويلة في شؤون المال والاقتصاد والتجارة . . وبناء علىٰ هذه المميزات

المفريدة والمقرونة بالأمانة والثقة المطلقة فقد أرسله الإمام يحيىٰ الىٰ عدن ليقوم بتدبير وتصريف الشؤون المالية والتجارية لحكومة الإمام في (عدن) . .

فلما ذهب الجبلي الىٰ عدن واطلع علىٰ سير الأعمال المالية والتجارية فيها أدرك علىٰ الفور أهمية وضرورة التكيّف والتأقلم مع هذا العالم الصغير (عدن) بكل مظاهره الحديثة المتطورة . . لذلك فتح له مكتباً في حيّ (كريتر) أي المدينة القديمة التي تشويها الشمس نهاراً والواقعة في تجويف بركان خامد . . .

ومكتب الجبلي هذا عبارة عن غرفة طويلة مظلمة يصل اليها الانسان المُراجع عن طريق ردهة مزدحمة بخزانات الاوراق والمناضد الخشبية والآلات الكاتبة التي لاتعرفها اليمن حتىٰ اليوم . . ولكن الجبلي بنفس الوقت لم ينس جليسته وأنيسته (المداعة اليمنية) أي النارجيلة . . فقد وضع الجبلي نارجيلة كبيرة في إحدىٰ زوايا الردهة يأوي اليها كلما حَزَبَه أمر عظيم . . !

وللجبلي طرازان من الملابس . . كلٌ منهما يناقض الآخر . . ففي ساعات العمل يرتدي الجبلي قميصاً واسعاً ويضع علىٰ رأسه طاقية خفيفة بيضاء . . وينتعل بأي نعال يتيسر في حينه . .

فاذا مااستلزم حضور الجبلي الىٰ مقابلات رسمية مع الأجانب في عدن أرتدىٰ الملابس الافرنجية . . فتضيع شخصيته اليمنية في الحال إلىٰ أجلٍ مسمىً لن يطول إن شاء الله . . .

والجبلي لايحمل أية شهادة مدرسية حديثة . . ولكنه مع ذلك بارع في شؤون المال والتجارة والاقتصاد . . ومن براعاته أن الاشخاص الأجانب الذين يعملون في اليمن يُرسِلون مايدخرونه من رواتبهم بالريال النمساوي الىٰ عدن . . وهناك يقوم الجبلي بصرفها في أنسب فرصة ويضعها في أنسب فرصة في البنك الهندي الأهلي لحسابهم . . وبطبيعة الحال لايقوم الجبلي بهذه الخدمات لوجه الله تعالىٰ من دون مقابل . . وبذلك يكون قد قام بخدمة مزدوجة لبلده وللأجانب . . ! وتقول الشائعات الخبيثة أن الجبلي لايقوم بخدمة الطرفين من دون مقابل لنفسه أيضاً . . والله أعلم . . . !

ذلك هو الجبلي الذي يقيم ويعمل بالقرب من فوهة البركان الخامد في عدن . . وقد أمره الإمام يحيىٰ حميد الدين بشراء وإعداد السيارات اللازمة لنقل (البعثة العسكرية العراقية) الىٰ صنعاء واعتبار كل التكاليف المصروفة لذلك علىٰ حساب حكومة صنعاء . . وسنرىٰ فيما بعد كيف قام (الجبلي) بتنفيذ تلك الأوامر الإمامية السنيّة . . . .

الثلاثاء – ١٩ / ٣ / ١٩٤٠ – عدن

بعد تناول طعام العشاء كنتُ أنا والزميل عبد القادر الناظمي جالسين مع رئيس البعثة في صالة الفندق بالطابق الارضي نحتسي أقداح الشاي ، والمراوح الكهربائية السقفية تعمل بأقصىٰ طاقتها . . ولكن دون جدوىٰ . . فقد كان العرق يتصبب من أجسامنا . . وكنا نحسّ بانسيابه فوق جلودنا من تحت الملابس . . . !

وفجأةً وقع بصري علىٰ الزميل جمال جميل قادماً من خارج الفندق وبصحبته رفيق السفر (شيخنا محيي الدين العنسي) . . فلما وصلا مجلسنا سلّما علىٰ رئيس البعثة فأشار اليهما بالجلوس . . وبعد بضع دقائق قال رئيس البعثة وهو يسأل الرئيس جمال جميل :

«ماذا فعلت مع هذا الجبلي بخصوص السيارات ومواعيد السفر ؟»

قال الرئيس جمال جميل وهو يبتسم : لقد أكد لي الجبلي بأن كل شيءٍ جاهز . . . السيارات ، والسُوّاق ، وأن بامكاننا السفر صباح الغد . . وأخبرني الجبلي بأن هناك شخص مصري إسمه (عبد القادر علاّم) يعمل مهندساً في مصنع النسيج الحكومي بصنعاء وهو الآن عائد مع زوجته من إجازة قضاها في القاهرة ويريد الوصول الىٰ صنعاء . . ولابد أن يرافق البعثة في سفرها الىٰ صنعاء . . !

فلما استمعتُ الىٰ هذا الخبر الذي نقله جمال جميل عن (الشيخ الجمالي علي محمد الجبلي) أدركت مدىٰ مايتمتع به هذا الجبلي من دهاء وعبقرية ومكر إلىٰ جانب الأمانة في خدمة سيده الإمام في صنعاء . . فلا يترك أحداً من الأجانب العاملين في اليمن عرضةً للضياع في طريق السفر . . خاصةً سفر العودة الىٰ اليمن لاستئناف العمل . . إذ لابد أن يجد له الجبلي مقعداً في أية قافلة متوجهة الىٰ داخل اليمن . . !

وعندئذ أيضا أدركتُ لماذا قام الجبلي بتجهيز البعثة بثلاث سيارات صالون وسيارتين (بوكس BOX) ذات البدن الخشبي . . !

ومنذ البداية كنا قد استغربنا من تخصيص ثلاث سيارات صالون لخمسة ضباط فقط . . هم ضباط البعثة . . وكنا قد حملنا ذلك في حينه علىٰ محمل المبالغة بتكريم البعثة . . !

والآن . . تبين أن الجبلي سيقوم بأرداف شخص أو شخصين علىٰ الأقل في كل سيارة من سيارات نقل البعثة كلما قطعت البعثة مرحلة أو مرحلتين من مراحل الطريق الى صنعاء . . وقد حدث ذلك فعلاً ابتداءً من (عدن) وانتهاءً بصنعاء . .

فمن (عدن) – أردف الجبلي معنا أخينا المصري وحرمه . .

ومن (تعز) – أردف الجبلي معنا سيداً زيدياً رأينا منه العجب العجاب في الطريق . . .

وسنأتي بعد حين الىٰ الحديث الشيّق عن هؤلاء الصّحاب (صحاب السفر) الذين علّقهم الجبلي بأذيالنا لمسافة ألف كيلومتر من (عدن) الىٰ (صنعاء) علىٰ طريقٍ لاتسلكها إلا الشياطين . . !

الأربعاء – ٢٠ / ٣ / ١٩٤٠ – عدن – لحج – الراهدة .

في الساعة السابعة صباحاً حضرت خمس سيارات جديدة عند باب الفندق الذي كنا ننزل فيه . . كانت ثلاث سيارات منها من طراز صالون (فورد) و (شوفر) ليركب فيها ضباط البعثة وسيارتان من طراز (بوكس) ليركب فيها ضباط صف البعثة . . وسيارة حمل (لوري – ٣ / طن) لعفش البعثة . .

هذه هي السيارات التي قام الجبلي بشرائها من عدن وجهزكلاً منها بسائق يمني أو عدني .. واحضرها عند باب الفندق وقال لنا : [تفضلوا اركبوا باسم الله مجراها ومرساها ..] ..!

وبما أن أخينا المصري يصطحب حرمه معه . . فقد استحوذ علىٰ سيارة صالون بكاملها لحسابه . . ولم يسمح لمخلوقٍ ان يقترب منها حتىٰ اضطرته وعورة الطريق فيما بعد إلىٰ استجداء النجدة من ضباط وضباط صف البعثة كما سنرىٰ ذلك بعد حين . .

ولم يخطر علىٰ بال أحد من هيئة البعثة أن يسأل أحداً من السائقين عما إذا كان علىٰ أتم الاستعداد للسفر أم لا . . ؟

ولماذا يسأل وهو يرىٰ بعينيه أن السيارات التي أمامه جديدة تماماً . . أو كما يقول ابن بغداد : «إجديدة بالكاغد» . . ؟ !

ولماذا يسأل وهو لايعرف شيئاً عن تفاصيل جغرافية اليمن وطرق المواصلات فيها . . ؟

إذن . . لتؤجل الإجابة علىٰ هذه الاسئلة وعما ارتكبه «الشيخ الجبلي» من الإهمال والتقصير في إعداد هذه السيارات للسفر بها على طُرقٍ لاتسلكها غير سيارات الجيب واللاندروفر العسكرية الجديدة . . !

في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم تحركت قافلة (البعثة العسكرية العراقية) من باب الفندق . . ومعها (رقيب غير مرغوب فيه) . . !

ذلك أن طريق السفر الىٰ اليمن يمر من باب قصر السلطان . . سلطان (لحج) . . وهذا يعني أن البعثة لابد وأن تتوقف قليلاً عند هذا القصر للسلام علىٰ صاحبه . . وهو علىٰ كل حال رجل عربي كريم وإن كان مغلوباً علىٰ أمره بسبب ماقترفه أسلافه من أخطاء تاريخية لاتُغتفر . . !

ولما كان الانكليز يحرصون أشد الحرص علىٰ مراقبة هذا السلطان . . فقد صار لزاماً علىٰ حاكميّة (عدن) العامة أن تبعث معنا نائب الحاكم العام الكابتن سيجر الذي سنراه في الصورة بعد قليل . . ولما كان (الشيخ الجبلي) لايستطيع إرداف الكابتن سيجر في سيارات سيده ومولاه الإمام يحيى بدون ترخيص . . فقد رافقنا الكابتن سيجر بسيارته الرسمية وكان يتقدم القافلة وكأنه دليلها . . !

بعد الخروج من حدود المدينة (عدن) ظلت السيارات تسير فوق طريق مبلطة تتجه نحو الشمال . . وتمر في أرض صلبة قاحلة . . وبعد ستة عشر كيلومتراً مررنا بضاحية (الشيخ عثمان) التي باعها شقيق السلطان القديم للانكليز بحفنة من الجنيهات[1] . . . !

وبعد أن كانت ضاحية (الشيخ عثمان) ضاحية شريفة ونظيفة قبل أن يبيعها الشقيق اللئيم للانكليز . أصبحت بعد بيعها ضاحية صاخبة يلجأ اليها أخلاط الرجال والشباب من سكان عدن والعاملين فيها ليقضوا أوقاتاً صاخبة عابثة في حاناتها وأوكارها الداعرة . . .

وحالما تركنا (الشيخ عثمان) وراءنا يئن في ضريحه مما ارتكبه بحقه شقيق السلطان القديم دخلنا حدود سلطنة (لحج) التي هي الآن (١٩٤٠ -١٩٤٣) تحت الحماية البريطانية .

فما هي (لحج) ؟[2]

---

(١) راجع مذكرة يوم الاثنين ١٨ / ٣ / ١٩٤٠ . . .

(٢) راجع هامشنا (٢) ص ٢٣ من الفصل الأول (نحات جغرافية عن اليمن) .

هي سلطنة لحج وتسمىٰ أيضاً (سلطنة العبدلي) وهي أقدم المحميات التسع ، وعاصمتها (لحج) أو (الحوطة) . . تبعد عن عدن حوالي اربعين كيلومتراً . . ويبسط سلطان لحج سيطرته علىٰ قبائل (الصُبَيحة) . . وعندما يذهب السلطان الىٰ عدن في زيارة رسمية تُطلَق له مدافع التحية إحدىٰ عشرة طلقة . . ويخاطبه الجميع بعبارة «صاحب السموّ» . . . ! ومع ذلك فهناك بين قبائل هذه السلطنة أناس لايزالون علىٰ الجاهلية الأولىٰ لايعرفون الاسلام . . ! يسكنون اكواخاً من القشّ والطين . . . !

كان وصولنا الىٰ قصر السلطان (عبد الكريم فضل) في الساعة التاسعة تقريباً . . فترجلنا من السيارات[1] . . وكان السلطان عند

الصورة رقم (٣٦)

سيارات البعثة أمام قصر السلطان في (لحج) . .

مدخل القصر فاستقبلنا الرجل بالبشاشة والترحاب . . ودخلنا القصر معه . . فصعد بنا الى ردهة الاستقبال في الطابق العلوي من القصر ، وهي ردهة فسيحة وأنيقة . . . وقصر السلطان ينار بالكهرباء بواسطة مولّد كهربائي خاص . .

والسلطان عبد الكريم فضل عربي صميم رغم ارتدائه خليطاً من الملابس العربية والافرنجية والهندية . . ملامحه العربية لاغبار عليها . . نحيل الجسم ، مستطيل الوجه ، دقيق الأنف ، غائر العينين ، يناهز الستين من العمر . . ولكنه يظهر اكبر من سنه . .

شربنا القهوة العربية في معيته . . واستغرقت الزيارة حوالي ثلاثة أرباع الساعة . . ثم أستأذنا بالانصراف . . فنزل السلطان معنا إلىٰ الباب الخارجية وودعنا أيضا بالبشاشة والاحترام (أنظر الصورة رقم – ٣٧) . .

الصورة رقم (٣٧)

السلطان عبد الكريم فضل سلطان (لحج) يودع هيئة البعثة عند الباب الخارجية لقصره . والىٰ يمينه يقف الكابتن (سيجر) . . إنه الظل الملازم لكافة سلاطين ومشايخ المحميات . . !

(١) أنظر الصورة رقم (٣٦) . .

واستأنفنا السفر . . وظل (الكابتن سيجر) متعلقا بأذيالنا بحجة أنه يود توديعنا عند الحدود اليمنية الجنوبية . . . .

ومضت بنا السيارات أول الأمر في وادٍ خصيب يجري فيه ماء (تيبان) حيث تنمو في هذا الوادي اشجار الموز والمانكا والبابايا وحتىٰ الطماطم (البندورة) ولكن سرعان ماظهرت الارض الجرداء وراء هذا الوادي مباشرة تعصف بها الرمال المتحركة . .

وقبيل الظهر مررنا بأراضي (سلطنة الحوشبي[1]) لانرىٰ فيها غير الاكواخ الحقيرة من القش والطين . . وبعضها مطلي بالجبس الابيض . . .

وبعد بضع كيلومترات تبدلت طبيعة الأرض الىٰ صخرية جبلية تتدرّج في الارتفاع . . وصارت محركات سياراتنا تزمجر وهي تتسلق حواجز صخرية متعاقبة . . وانخفض معدل سرعة المسير إلىٰ (١٠ – ١٥) كيلومتر في الساعة . . وبعد كل مائة متر كنا نسائل أنفسنا فيما إذا كنا سنستطيع مواصلة السفر الىٰ (تعز) بهذه الحالة أم لا . . ؟ (أنظر الصورة رقم – ٣٨) .

الصورة رقم (٣٨)

ضباط صف البعثة في حالة استراحة بعد اجتياز عقبة كأداء في الطريق قبيل الوصول الىٰ الحدود اليمنية الجنوبية . .

ولقد اضطررنا اكثر من مرة الىٰ الترجل من السيارات لدفعها بالأيدي لتجتاز العقبات . . وكان الله تعالىٰ في عون سيارة اللوري (٣ – طن) وسائقها ومعاونه . . وهي تحمل اكثر من طنين من عفش البعثة . . وكم من المرات اضطررنا الىٰ التوقف لنجدة هذه السيارة عند العقبات الصعبة . . وكم من المرات اضطررنا الىٰ تنزيل بعض حمولتها من العفش الثقيل لنخفف عنها ثم نعود ننقل ذلك العفش لنضعه مرة أخرىٰ في السيارة . . ولولا همة ضباط صف البعثة وحماستهم لَمَا وصل عفش البعثة الىٰ صنعاء . . !

وعلىٰ مسافة خمس كيلومترات تقريباً من الحدود اليمنية جابهتنا عقبة كأداء اضطرتنا الىٰ التوقف اكثر من ساعة . . الأمر الذي هيأ الفرصة المناسبة للتخلص من (الكابتن سيجر) . . فعاد أدراجه الىٰ عدن دون أن يصل معنا الىٰ الحدود اليمنية كما كان يريد . . . ! والحق أن رئيس البعثة كان قد تضايق جداً من تعلّق الكابتن سيجر بأذيالنا . . وكان حريصاً علىٰ التخلص منه بأية طريقة قبل وصولنا الىٰ الحدود اليمنية . . لأن وجود هذا الكابتن برفقتنا قد يسيئ الىٰ سمعة البعثة وكرامتها ومستقبل مهمتها العسكرية في اليمن . .

وبعد بضع كيلومترات أخرىٰ وصلنا الىٰ قرية (الشّريكة) وهي أول قرية يمنية حدودية حيث وجدنا أربعة ضباط يمنيين قد هرعوا لاستقبالنا قادمين من (تعز) . كان أقدمهم برتبة عقيد واسمه (محمد سرّي شايع)[2] قائد منطقة (تعز) العسكرية . فترجلنا من السيارات وتبادلنا السلام . ثم ركبنا السيارات واستأنفنا المسير . . وبعد أن قطعنا مسافة تسعة عشر كيلومتراً تقريباً وصلنا الىٰ قرية (المراهدة) التي تبعد عن لحج حوالي (٧٥) كيلومتراً . . وبهذا نكون قد قطعنا مسافة تقرب من (١٣٥) كيلومتر منذ أن غادرنا (عدن) صباح اليوم . .

كانت تلك أول مرة تقع فيها أنظارنا علىٰ مجموعة صغيرة من إخواننا الضباط اليمنيين . . وكانت تلك أول صورة حيّة ابتعثت في نفوسنا الحزن ونحن نشاهد هؤلاء الضباط في قيافة عسكرية رديئة جداً . . وهي من الرداءة التي تطعن كرامة الانسان اليمني والشعب اليمني وحكومة الإمام . . !

(١) راجع هامشنا (٢) ص ٢٣ من الفصل الأول (لمحات جغرافية عن اليمن) . .

(٢) وسنرى صورة المومأ اليه قريباً عند وصولنا الىٰ (تعز) . .

الله تعالىٰ وحده يعلم مدىٰ الخجل الذي غمر وجوه هؤلاء الضباط ونفوسهم عندما وقعت أنظارهم علينا ونحن في أبهىٰ قيافة عسكرية من طراز ذلك الزمان . . . !

لاشك أن هؤلاء الضباط اليمنيين الأربعة الذين هرعوا لاستقبالنا في (الشريكة) كانوا يرتدون خير مالديهم من ملابس عسكرية . . لأنهم خرجوا لاستقبال بعثة عسكرية عربية اسلامية . . لذلك تساءلت مع نفسي : إذا كانت هذه هي خير مالديهم من الملابس العسكرية . . . فكيف هي إذن أردأ الملابس العسكرية لديهم ولدىٰ بقية ضباط الجيش اليمني . . ؟ !

وجاءني في الأيام التالية اكثر من عشرين جواباً علىٰ ذلك التساؤل حينما شاهدنا الكثير من ضباط الجيش اليمني وهم يرتدون من كل أنواع الملابس ماعدا الملابس العسكرية المتعارف عليها في العالم . . . !

وسوف نرىٰ في هذا الفصل والفصول الأخرىٰ القادمة صُوَراً فوتوغرافية عديدة يظهر فيها ضباط من الجيش اليمني وهم يرتدون كل غريب وعجيب من الملابس العسكرية . . .

وقادنا القائمقام[1] (سرّي بك) الىٰ مبنىٰ حكومي في (الراهدة) . . فاذا هو بناء من الحجر له فناء واسع مكشوف ومن حوله عدد من المرافق الارضية . . وإلىٰ جانب منه سلّم حجري يؤدي الىٰ سطح صغير مكشوف وإلىٰ طرف من هذا السطح غرفة كبيرة ذات نوافذ صغيرة . . فصعدوا بنا الىٰ هذه الغرفة حيث قدموا لنا أقداحاً صغيرة من مشروب **(قشر ألبن)** الذي تحدثنا عنه مراراً في الفصول السابقة . .

لقد تبين لنا فيما بعد أن هذا المبنىٰ الحكومي ذو الطراز القديم هو مركز كمركي حدودي فيه عدد من الموظفين والجنود . . وفي جانب من فنائه المكشوف يقوم (الميزان الكبير) المكون من جذعَيْ شجرة يابسين أعوجين بارتفاع مترين تقريباً يربط بينهما من الأعلىٰ جذع ثالث يتدلّىٰ من وسطه ذراع الميزان . . . وإن هذا الكمرك بعمارته البدائية وميزانه الأشد بدائية وبطريقة عمل الموظفين والجنود فيه يشكل لوحةً فنية رائعة يرجع تاريخها الىٰ بداية القرن العاشر للميلاد . . . !

لقد كان من المتعذر استئناف الرحلة الىٰ (تعز) في نفس اليوم بسبب رداءة الطريق واقتراب ظلام الليل . . فاذا حلّ الظلام استحال علىٰ السيارات أن تقطع كيلومتراً واحداً في ساعة واحدة . . حتىٰ ولو أضأنا لها الطريق بالمصابيح الكاشفة . . هذا من جهة . . ، ومن جهة أخرىٰ فقد كنا نحن شخصياً بحاجة الىٰ الراحة بعد الإرهاق الذي أصابنا اليوم من جراء وعورة الطريق واستعصاء السيارات بين عقباته الكثيرة . . . لذلك تقرر مبيتنا في (الراهدة) علىٰ أن نستأنف السفر في صباح اليوم التالي . . وبسبب اقتراب ظلام الليل فانني لم استطع التقاط أية صورة فوتوغرافية في (الراهدة) . . فلم اكن أمتلك جهاز التنوير الليلي (فلاش Flash) ، كما أنني لم اكن مستوثقاً بعد من درجة حساسية أهل اليمن تجاه التصوير ولاأريد أن تقع لنا مشكلة بهذا الصدد ونحن لانزال عند عتبة اليمن . . . !

وبعد حلول الظلام فوجئنا بقدوم أحد الضباط الأربعة الذين هرعوا لاستقبالنا في النقطة الحدودية (الشريكة) فلما وقف أمام رئيس البعثة حيّاه وقال : [تفضلوا للعشاء سيدي . .] . . وكان القائمقام[2] سرّي بك يجلس الىٰ جوار رئيس البعثة فكرر بدوره الدعوة للقيام الىٰ العشاء . . فقمنا ازىٰ القرم وقد مدّوا ساطاً طويلاً علىٰ أرضية السطح المكشوف . . ونقشوا وجه الساط بأطباق البيض المقلي والأرز ومرق اللحم وأقراص الخبز الحار وفوقها السمن والسكر والعسل . . وشيئ يشبه (كبة حلب) وما إلىٰ ذلك . .

وعلىٰ ضوء الفوانيس النفطية تحلّق الحاضرون حول الساط وبدأوا يأكلون باسم الله . . حتىٰ إذا شبعوا كفّوا أيديهم وقالوا الحمد لله الذي أطعمنا هذا وماكنا له بآكلين . . . !

ثم أديرت أقداح الشاي هذه المرة بدلاً من (قشر البن) . . فدلّ ذلك علىٰ دقة الملاحظة لدىٰ إخواننا الضباط اليمنيين وعلىٰ رأسهم القائمقام سرّي بك . . فقد لاحظوا بعين الدقة عزوفنا عن تناول قشر البن عند أول وصولنا الىٰ (الراهدة) . . وعَلِموا بدليل العقل أننا ندمن شرب الشاي . . ؟

لقد كان هذا الرجل (القائمقام سرّي بك شايع) صورة طبق الاصل من اولئك الضباط الاتراك الممتازين خُلُقاً وسلوكاً وعملاً وحديثاً . . فضلاً عن التواضع الشديد الذي أحالته ظروف الضباط في الجيش اليمني المتوكلي الىٰ (ذِلّة) . . . . ! ومع ذلك فقد حظيَ القائمقام سري بك بتقدير وإعجاب رئيس البعثة العقيد الركن اسماعيل صفوت الذي حزِن كثيراً لمصير القائمقام سري بك يوم سمع بخبر

(١) و (٢) القائمقام : لفظة تركية عثمانية عسكرية تعني (العقيد) . وقد أوضحنا ذلك مراراً في الفصل الثالث (لمحات إجتماعية عن اليمن) . . .

إعدامه من قبل الإمام أحمد بن يحيىٰ حميدالدين بعد إجهاض الثورة الوزيرية عام ١٩٤٨ .. فقد أتُّهم سري بك بالاشتراك في تلك الثورة .. فكان مصيره الىٰ سجن (نافع) الرهيب حيث أثقلوه بخمسين كيلوغراماً من السلاسل وألاطواق والتحاميل الحديدية ... وبالتالي قُطِعَت رأسه بالسيف .. في مدينة (تعز)

وحان وقت النوم . . ونحن في حاجة إليه كما أسلفنا . . فافترش كلٌ منا فراشه السفري العسكري فوق ذلك السطح المكشوف . . واضطجعنا نلتمس الإغفاءة ونتفحّص الكواكب والنجوم في القبة السماوية . . ومضت ساعة . . ثم أخرىٰ . . فنام البعض ممن أنعم الله عليهم بسرعة الاستسلام للنوم . . وامتنع النوم عن الآخرين وأنا منهم . . فلم يغمض لي جفن قبل منتصف الليل . . ولست أدري متىٰ غفوت .. ولكنني بالتأكيد أعلم أنني استيقظت مكرهاً إثر لسعاتٍ شديدة في اكثر من موضع من جسمي .. وكان من الطبيعي أن أتهم نوعاً أو أكثر من أنواع البعوض أو البراغيث . . ولم اكن قد رزمت ناموسيتي (الكُلّة) مع الفراش السفري . بل تركتها في حقائب السفر . لأنني كنت مقتنعاً جداً بأننا نسافر الىٰ (العربية السعيدة) . . ولايُعقَل أن نجد في هذه (السعيدة) ماهو ألعن من البعوض والبرغوث . . . . !

وحاولتُ جاهداً أن أعقد صُلحاً أو هدنة مع هذا الذي يلسعني بدون رحمة فلم أنجح . . فنهضت من فراشي ألتمس أحد القوانيس وصرت أفحص ملابسي ظهراً لبطن فلم أجد فيها شيئاً من الحشرات الضارة . . ولكنني وجدت بقعاً من الدم وبينها حشرتان مهروستان في القسم الاسفل من سروال النوم . . كانت الحشرة الواحدة بحجم وشكل ولون حشرة (السُّونة) ذات الظهر القرني الأحمر . . فلما سألت عنها أبناء (العربية السعيدة) قالوا : [هذه هي حشرة الكُتَنْ . . تنام معنا وتستيقظ قبلنا فلانجد الأحياء منها الا نادراً . . لأن معظمها ينسحق تحت أجسامنا . .] . .

وسألنا قاموس المنجد ثم المحيط ثم دائرة المعارف الحيوانية والحشرية عن حشرة (الكُتَن) فقالوا بلسانٍ واحد : [لا نعرفها . .] . . ! ولم نسأل أحداً آخراً بعد ذلك . . حتىٰ وصلنا الىٰ (صنعاء) . . وهناك عرفنا كيف يتحصن الناس ليلاً أو نهاراً ضد هذه الحشرة . . فقد سألناهم فقالوا : إما أن تنام علىٰ سرير ذو أربعة قوائم . . كل قائمة منها تغطس في وعاء به ماء . . فلا تقربه حشرة الكتن وإن دخلتَ في الوعاء غرقت بالماء وماتت . .! وإما أن تنام داخل كيس من القماش وتعقد فوهته فوق رأسك . . . ! فتخيّر ماشئت . . .

الخميس ٢١ / ٣ / ١٩٤٠ - إلىٰ (تعز) .

وأشرقت الأرض بنور ربّها وأسفر الصباح .. فنهضنا .. ومدّ لنا القوم ساط الفطور وعليه أطباق البيض المقلي والعسل والخبز الحار .. جزاهم الله خيراً .. فقد كانوا كرماء معنا في كل شيء .. في الاستقبال .. وتأمين المأوىٰ والطعام وغير ذلك ..

تحركت سيارات قافلة البعثة من الراهدة في الساعة الثامنة صباحاً . . وبرفقتنا الضباط الاربعة اليمنيون وعلىٰ رأسهم القائمقام محمد سرّي بك . .

فما أن قطعنا ثلاث كيلومترات بعد (الراهدة) حتىٰ أخذت السيارات تتعثر بين عقبات الطريق . . وأحجمت السيارة الثالثة من سيارات الصالون عنّ الحركة فلم تستطع اجتياز العقبة فهرعنا الىٰ نجدتها . . وكان في داخل هذه السيارة أخانا المصري وزوجته[1] ولكن هذا المصري لم يترجل من السيارة ويشترك معنا في إنقاذ سيارته من تلك العقبة . . فقد ظل قابعاً في داخلها وهو يرىٰ بعينيه كيف كان العرق يتصبب من أجسامنا ضباطاً وضباط صف لكي نحمل سيارته حملاً عن الأرض لندفع بها الىٰ الأمام . . !

وكانت الطريق تزداد وعورة كلما اقتربنا من مدينة (تعز) التي تقع علىٰ ارتفاع (١٢٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر . . ومما كان يزيد في وعورة الطريق هو الوديان العديدة المتداخلة بعضها ببعض وكلها تقاطع الطريق في عشرات النقاط منه . . وهذا مما يزيد في عدد الهبوطات الىٰ أسفل ثم الصعودات الىٰ أعلىٰ . . تماماً كما تفعل الأمواج العاتية بالسفن الصغيرة في لُجّة بحر غاضب . .

وكان من الطبيعي أن يزداد تعثّر السيارات في مثل هذه الوديان . . وماكنا لنبالي بما ينجم عن ذلك من الأتعاب لولا هذا السلوك الشاذ الذي التزم به أخونا المصري (عبد القادر علام) . . الأمر الذي لم يعد يحتمله الزميل عبد القادر الناظمي . . واضطره الىٰ التحرش

(١) راجع مذكّرة اليومين : الثلاثاء - ١٩ / ٣ والاربعاء - ٢٠ / ٣ / ١٩٤٠ من وقائع السفر . .

بابن النيل وإسماعه كلاماً لآذعاً أرغمه فيما بعد علىٰ النزول من السيارة والمشاركة معنا في حملات إلانقاذ . . .

وعلىٰ ذكر رداءة الطريق ووعورة الأرض التي يمر منها . . فقد كان لزاماً علىٰ سائق كل سيارة أن يقوم بعدة مناورات حركيّة لكي ينجح في قطع اكثر مسافة ممكنة بأقل جهد ومشقة . . وإلا ظل يراوح في مكانه الىٰ يوم القيامة . . . !

وينبغي أن نشهد لسائقي تلك السيارات ليس بالكفاءة في فن السياقة فحسب . . بل وبالشجاعة الشخصية أيضاً في اجتياز تلك العقبات . . ولقد بلغت شجاعتهم الذروة بعد بضعة أيام عندما نجحوا في اجتياز الطريق المرعب مابين (الحديدة) و (صنعاء) . . وعلىٰ الأخص القسم الممتد مابين (مدينة العبيد[1]) و (حمام[2] العليل) و (معبر[3]) فصنعاء . . حيث تكثر العقبات في المنعطفات والالتواءات التي تضع السيارة تارة علىٰ حافة الهاوية السحيقة للوادي العظيم . . واخرىٰ إلىٰ صفحة الجبل المتشامخ في الفضاء . . وقلما يجد سائق السيارة في هذه الطريق منعطفاً يسمح بمرور سيارتين متقابلتين . . الأولىٰ ذاهبة والثانية آيبة . . ! ولسوف يكون لنا حديث خاص عن هذه الطريق المرعبة التي تنتظرنا لنسلكها بعد بضعة ايام . . . . .

وبسبب وعورة الطريق . . فان قافلة سيارات البعثة لم تصل الىٰ (تعز) إلا ظهراً أو بعد الظهر . . رغم أن المسافة مابين (الراهدة) و (تعز) لم تتجاوز الستين كيلومتراً . . . !

وذهَبْ بنا هيئة الاستقبال الىٰ (دار الضيافة) الكائن خارج المدينة . . وكل المباني الحكومية بما فيها ثكنة الجيش ودار إلامارة وقصر الأمير تقع خارج المدينة القديمة (أنظر الصورة رقم – ٣٩) .

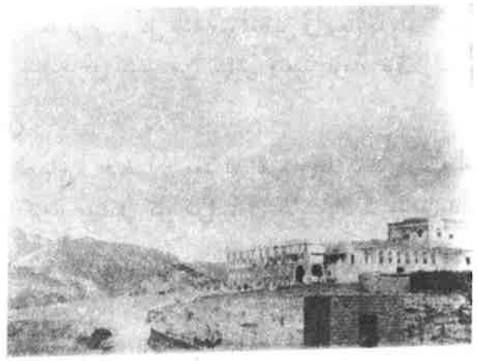

الصورة رقم (٣٩)
قصر إلامارة ودار الضيافة في مدينة (تعز) .

(١) و (٢) و (٣) – راجع الخريطة رقم (١) ص ٢٢ .

ودار الضيافة هذه عبارة عن مبنىٰ كبير ذو طابقين مشيد بالحجارة الجبلية السمراء وله باب كبير . . أنظر الصورة رقم ـ ٤٠)

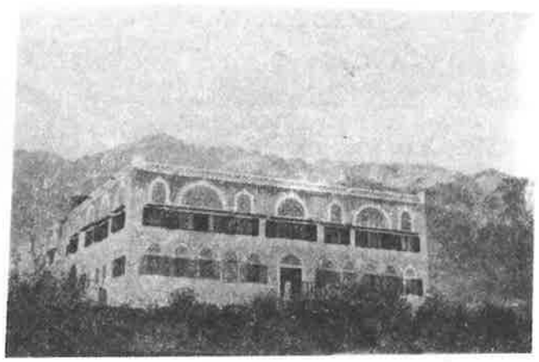

الصورة رقم (٤٠)
دار الضيافة في مدينة (تعز)

وقد خُصص جناح من الطابق العلوي لنزول هيئة البعثة العسكرية العراقية . . وهذا الجناح يتألف من عدة غرف متجاورة جعلوا واحدةً منها لكل ضابط ، وواحدةً من الباقي لكل ثلاثة من ضباط الصف . . ولهذا الجناح دورة مياه من غير أنابيب . . . ! فالماء موضوع في أوعية مختلفة يؤخذ منها لملاء القُلَل الخزفية المسماة بـ (الكُعَدْ) جمع كعدة ، وقد سبق لنا الإيضاح عنها في الفصل الثالث ، وهناك ماء موضوع في صفائح البنزين الخالية وهو مخصص للتغسيل والاستنجاء بواسطة الأباريق . . ، ومع ذلك فان دورة المياه البدائية هذه لاتخلو من صابون (البالموليف) الأجنبي . . الأخضر المعطر . . المشهور في ذلك الزمان . . . !

وقُلَل ماء الشرب (الكُعَدْ) في هذه الدورة يجري تبخيرها وتعطيرها بالعود الهندي الشهير . . وقد كنت شخصياً أتحمل العطش ولا أستسيغ هذا الماء المبخّر بالعود . . فاذا أمضّ بي العطش شربت من ماء التغسيل . . . . !

أما مكان قضاء الحاجة ، من تغوّط وتبوّل وتشطيف ، فهو علىٰ النمط الذي بحثناه مفصلاً في الفصل الثالث – القسم السادس – العمران في اليمن . .

لقد كانت سفرة الأمس واليوم ، من عدن إلىٰ الراهدة إلىٰ تعز ، سفرة متعبة . . ومزعجاتها اكثر من أتعابها . . فاذا أضفنا الىٰ ذلك امتناع النوم عنا ليلة أمس في الراهدة بسبب هجمات حشرة (الكُتن) التي استمتعت بمصّ دمائنا الطازجة طوال الليل . . أدركنا مقدار حاجتنا الىٰ النوم المبكر في هذه الليلة الأولىٰ بدار الضيافة في (تعز) . . وكان قد تعذّر علينا أن نستلقي علىٰ الأسرّة بعد تناول طعام الغداء وذلك لكثرة الغادين والرائحين للسلام علىٰ هيئة البعثة . . وقد تبين لنا فيما بعد أن هذا هو أسلوب متّبع للتعرف علىٰ الوافدين الىٰ اليمن قبل أن يُفسح لهم الطريق لمقابلة أمير المنطقة أو اللواء أو إلامام نفسه في صنعاء . .

ولقد أدركنا من طبيعة هذا الاسلوب (أو البروتوكول . . . .) أن أي أجنبي يصل الىٰ اليمن لايُستحسن له أن يغادر دار الضيافة ، أو أي مكان آخر يحلّ فيه الضيف . الىٰ المدينة أو الاتصال بأهلها قبل أن يُسمح له بمقابلة الأمير أو إلامام . . ولكنه تبين لنا في اليوم التالي أن هذا التقييد لايشملنا نحن . . لأننا علىٰ الأقل لسنا بالأجانب الذين يعنيهم أهل اليمن . . وقد جئنا لخدمة اليمن بناء علىٰ طلبٍ خاص من إلامام يحيىٰ حميدالدين ....

وقد تطول فترة الانتظار هذه . أو إلاحتباس في (المضافة) أياماً عديدة وربما أسابيع . . والأمر يتوقف علىٰ طبيعة قدوم هذا الوافد ومنزلته . . ولأجل أن لايسأم الوافد ويتضايق من هذا (البروتوكول المتوكلي) فقد رأوا أن يُشْغلوه أو يشاغلوه بجماعات متعاقبة من اليمنيين تقوم بزيارة الوافد أو الهيئة الوافدة للسلام عليها والترحيب بها . . وغالباً ماتكون هذه الجماعات الزائرة من موظفي ومأموري الحكومة المحلية

وبعض وجوه البلد . . وفي أذيالهم يتعلق عدد من «وعّاظ[1] السلاطين) أي مدّاحين انسلاطين شعراً أو نثراً بقصد الإرتزاق على أعتابهم . . . ! والشعّر في الأوساط اليمنية يفعل الأعاجيب . . . ! (انظر الصورة رقم – ٤١) .

الصورة رقم (٤١)
مع جمهرة من رجال إمارة (تعز) .

وكان البعض من هؤلاء الزوار يتميزون بحاسة شمّ قوية تفوق كثيراً حاسة الشم عند القطط . . اضف الى ذلك أنهم بالممارسة الطويلة قد ضبطوا مواعيد وجبات الطعام لنزلاء (دار الضيافة) . . خاصةً النزلاء من الدرجة الأولى . . وقد كانت هيئة البعثة العسكرية العراقية من هذه الدرجة والحمد لله . . ولذلك لم تَخْلُ مواعيد وجبات طعامنا من ذوي حاسة الشم القوية . . وفي مقدمتهم (وعّاظ السلاطين) . . ونحن لانلومهم على ذلك أبداً لو أنهم فقط سمحوا لنا بالخلود الى الراحة والنوم المبكر في هذا اليوم على الأقل . . يوم الوصول الى (تعز) . . .

ومهما يكن من أمر . . فقد أوينا إلى فراشنا بعد صلاة العشاء مباشرةً . . ولاندري على وجه الدقة كم كانت الساعة عندما غفونا لأول مرة . . ولكننا نتذكر جيداً أننا فزعنا على أصوات صارخة تشق ظلمات الليل شقاً وتدق في طبلة الأذن دقاً عنيفاً لم نعهد مثله في حياتنا من قبل . . .

كان دار الضيافة يجاور دار الإمارة الذي يجلس فيه أمير (تعز) ولي العهد سيف الاسلام أحمد بن الامام يحيى حميد الدين . . وفي دار الإمارة عدد كبير من جنود الحرس مع الطبول والأبواق النحاسية . . فلما حان موعد إقفال أبواب سور المدينة إيذاناً بتوقف حركة الدخول والخروج بدأت مجموعة الطبول تضرب ضرباً عنيفاً . . والأبواق تزعق زعقاً مخيفاً وعشرات من جنود الحراسة ينشدون بصوت واحد نشيد (الزامل)[2] فيصدر عنهم مزيج من النبرات الصوتية الحادة التي تكاد تشق طبلة الأذن شقاً . . !

ورغم هذا لم نستطع أن نفهم شيئاً مما كان يحدث أو يصل إلى أذاننا من هذا النشيد القاصف . . ولكننا سألنا عنه فيما بعد عندما صار يتكرر على آذاننا في كل ليلة قضيناها في العاصمة (صنعاء) طوال ثلاثة أعوام . . . وعندئذ أدركنا مدى جَهْلنا بأحوال هذا البلد وشعبه وجيشه وحكومته . . بل وكل شيء فيه . . !

وإذا كانت درجة حدّة الصريخ الذي أفزعنا من النوم في (تعز) تساوي عشر درجات صوتية ، على سبيل المثال ، فان شدة الصريخ في ليالي صنعاء كانت تساوي خمسين درجة صوتية . . والقضية هي قضية نسبة وتناسب . . فكلما طال السور المحيط بالمدينة وكثرت أبوابه وأبراجه كثرت عساكره وطبوله وأبواقه . . فيزداد الصريخ والهدير تبعاً لذلك . . . !

ونشيد الزامل هذا . . نشيد حربي ، إذا صح التعبير ، وهو يتضمن فيما يتضمن عبارات حماسية يمتدح فيها جنود الإمام أنفسهم بما

(١) للدكتور علي الوردي . الأستاذ الجامعي المتمرس في البحوث الاجتماعية في العراق . اكثر من كتاب ممتع عن الحياة الاجتماعية في العراق . . ومنها كتابه الممتع (وعّاظ السلاطين) . . . . !

(٢) الزامل : لفظ مشتق من الزمالة وهي الصُحبة أو الرفقة لأن الزامل يُنشد من قبل جماعات متزاملة . . وربما كان هناك تفسير اخر لمعنى الزامل لم نتوصل اليه في حينه . . .

يحملونه من الحب والوفاء والولاء الدائم لمولاهم الإمام يحيى حميدالدين . . على حدّ زعمهم . . . . .

إنه لنشيد صارخ هادر . . حين يُسمع من بعيد يكون وقعه في النفوس شديداً ومخيفاً . . خاصةً في الليل . . وحينما تتردد وتتضخم الأصداء بين الجبال والوديان . .

ويُنشَد (الزامل) أيضاً في ليالي رمضان . . وفي مواكب الإمام والأمراء – في مراكز إماراتهم – عند الخروج الى صلاة الجمعة وأيام الأعياد . . وفي كل مناسبة تستلزم إظهار الهيبة والسلطان . .

ولقد لاحظنا أن الطريقة المتشنجّة التي ينشد بها العساكر نشيد (الزامل) طريقة مرهقة جداً حيث تضطر المنشد الى الضغط بأصابع إحدى اليدين أو كلتاهما على حنجرته ورفع خياشيمه وشفته العليا الى أعلى . . وبدون ذلك لن تتحقق الأصوات اللازمة لهذا النشيد العجيب . . !

ومن محتويات (الزامل) مايكون على هيئة أبيات شعرية موزونة ومقفّاة مثل :–

يامن يخالف أمر مولانا ويعصيه × لابدّ من يومٍ تراه
لابد من يومٍ يشيب الطفل فيه × والطير يرسي في سماه

ومنها مايكون على هيئة أرجوزة مثل :–

سيد تكبّر والله اكبر × لابد مانهجم جُباه[1]
نضرب على اكباده بمعبر[2] × ونلْحق الذائب وراه

ومنها مايكون على هيئة أهازيج مثل :–

سَرَيْنا على مَوْر[3] حَلّ[4] السَّحر
ليلة مُعْذَرَة[5] مافَمَرْها هَليل[6]
وأصبح الصبح وحِنّا بُراس النَقيل[8]
فنْحور[9] العدى غارسين الفتيل
نعْقِرْ جوّادهم مثل عَقْر البقر

وكما بِتْنا ليلة أمس في (الراهدة) «ليلةً نابغّية»[10] بسبب حشرة (الكُتن) . . فقد بتنا اليوم في إمارة (تعز) «ليلةً زامِلّية»[11] . . . . !

الجمعة – ٢٢ / ٣ / ١٩٤٠ – تعز (اليوم الثاني) .

مابين الساعة الثامنة والعاشرة صباحاً إستمر وصول المرحبّين والمسلّمين على البعثة الى دار الضيافة ولم يحُرمْنا من طلعتهم البهيّة وأحاديثهم الشهيّة سوى حلول موعد صلاة الجمعة التي تقام عادة في اكبر وأشهر جامع في (تعز) . . وكان جامع الأشرفية[12] هو المكان

(١) جُباه : من لفظة (جُبا) وهو سطح المنزل . .
(٢) مَعْبَر : إطلاقة البندقية أو المسدس أو الرشاشة . .
(٣) مَوْر : هو وادي (مَور) من الوديان الشهيرة في غربي اليمن وينتهي مصبه في البحر الاحمر .
(٤) حَلّ السَحَر : وقت حلول السَّحَر . .
(٥) مُعْذَرَة : مظلمة . .
(٦) مافَمَرْها هَليل : أي ما أهَلَّ فيها قمر . .
(٧) وحِنّا : نحن .
(٨) النَقيل : المضيق في الجبال . .
(٩) فِنْحور : في نحور – جمع نَحْر . .
(١٠) نسبةً الى الشاعر الفحل النابغة الذبياني . . فقد مرّت عليه ليالٍ ثقال حرمته النوم . . فاشتهرت لياليه المزرقة بالليالي النابغية
(١١) نسبةً الى (الزامل) . .
(١٢) أنظر الصورة رقم (٤٢) . .

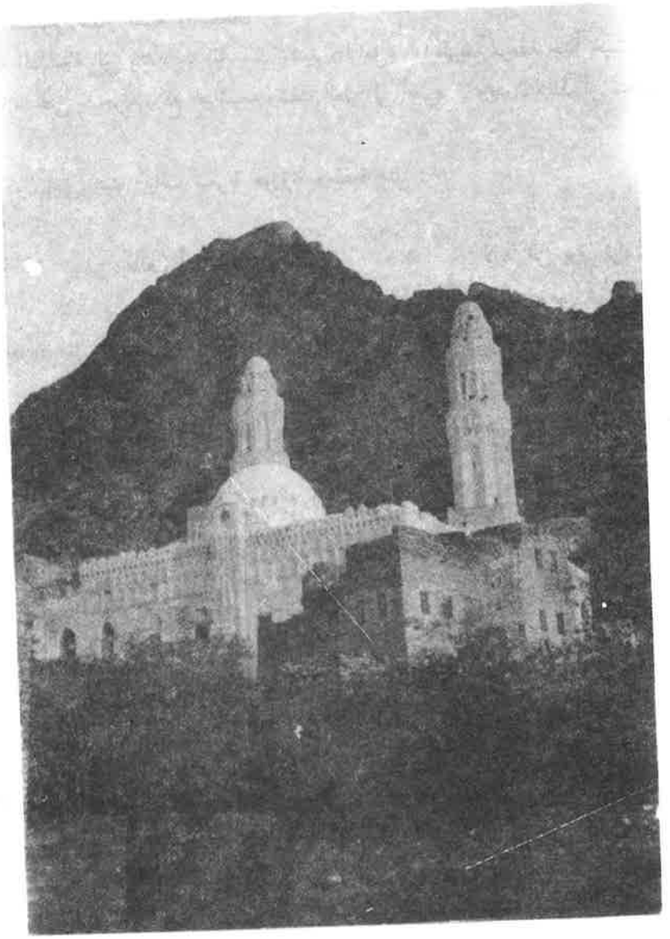

الصورة رقم (٤٢)
جامع الأشرفية في (تعز).

الذي أقيمت فيه صلاة الجمعة لهذا اليوم . . وأرجو أن لاتكون ذاكرتي قد أخطأت شيئاً في ذلك . .

فبادرنا الىٰ دورة المياه . . أو بالاحرىٰ (بيت الماء) كما يسمونه في اليمن . . ثم ارتدينا ملابس الخروج المدنية . . تلك الملابس الرائعة التي اعطت الصورة الثانية لأعضاء البعثة في أنظار العسكريين والمدنيين من أهالي (تعز) وهي مركز إلامارة التي تأتي في الدرجة الثانية من الاهمية بعد العاصمة (صنعاء) . . ففي (صنعاء) يوجد إلامام يحيىٰ . . وفي (تعز) يقيم ولي العهد أميراً عليها . . وإلىٰ جوارها المباشر حكومة (عدن) ومحمياتها العديدة . . . .

وكان علينا ، حسب إرشادات مرافق البعثة غير الرسمي (شيخنا مجي الدين العنسي . . .) أن نبكّر بالذهاب الىٰ الجامع قبل أن يضيق بالمصلين . . وقبل أن تنقطع الطريق اليه بموكب الأمير ولي العهد . . وبذلك أُضيفت بركة جديدة الىٰ بركات صلاة الجمعة ألا وهي فرصة التفرج علىٰ أغرب طراز من المواكب الأميرية والملكية في عالم القرن العشرين للميلاد . . . !

وصلنا الىٰ الجامع في وقت مناسب . . وانتحينا مكاناً جانبياً في الصفوف الخلفية يتيح لنا إجالة النظر علىٰ اوسع قوس ممكن داخل المُصَلّىٰ . . ولذلك لم ينشغل أهل الصفوف الأمامية بالنظر إلينا . . أما الجالسون في الخلف ، وهم الأقلية ، فقد ظلت أنظارهم تتفرّس في هيئاتنا بفضول عجيب وكأننا قد هبطنا عليهم من المرّيخ . . . !

وفي خلال الفترة مابين وصولنا الىٰ الجامع واقتراب موكب الأمير كنا نمعن النظر في هيئة الجامع من الداخل . . أما هيئته من الخارج فهي كما تُرىٰ في الصورة رقم (٤٢) .

وماهي إلا دقائق معدودات حتىٰ اقترب موكب الأمير من الجامع . . ولم نكن بحاجة الىٰ من يخبرنا عن ذلك . . فقد اهتزت أرجاء المسجد من الداخل والخارج بالصريخ الهادر المنبعث من حناجر وخياشيم الجنود الذين ينشدون (الزامل) في موكب الأمير . . وهذا الصريخ الهادر يبعث في النفوس شيئاً من الرهبة التي تدل دلالة قاطعة علىٰ عبقرية الشخص الذي ابتدع نشيد الزامل وإنشاده علىٰ هذا النحو المثير بالذات . . . !

وبما أننا كنا داخل المسجد قبل اقتراب موكب الأمير . . فلم تتيسر لنا مشاهدة قدوم الموكب الىٰ الجامع . . ودخل الأمير ولي العهد سيف الاسلام أحمد . . ودخلت معه ثلة من جنود الحرس الخاص وثلة من رجاله المقربين . . وأفسح لهم المصلّون طريقاً للوصول الىٰ الصفوف المتقدمة فجلسوا هناك . .

في رأينا إلاسلامي أن هذا الطراز من المواكب الصاخبة المتوجهة نحو بيوت الله تعالىٰ ماهي إلا بدعةٌ في الدين الاسلامي الحنيف . . وفيها نشز عظيم بالنسبة لأحكام صلاة الجمعة . . . !

قال تعالىٰ :

«ياأيها الذين آمنوا إذا نوديَ للصلاة من يوم الجُمعة فآسعْوا إلىٰ ذكر اللّه وذَروا آلبَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون» ٩-الجمعة .

والسعي الىٰ ذكر الله في صلاة الجمعة يجب أن يكون مشياً هادئاً رزيناً وقوراً منشغلاً صاحبُه علىٰ طول الطريق بالاستغفار والتحميد والتسبيح . . . ليس فيه صريخ ولاتشنّج ولاطبل ولامزمار . . فأين هذا من مواكب الأمير الذي جاء الىٰ الجامع والارض ترتجّ من تحت أقدام العُكْفَة [1] وهم يصرخون ويزعقون بدلاً من السكينة والوقار والاستغفار والتحميد والتسبيح . . . ؟ !

إن أحداً من الخلفاء الراشدين ، رضوان الله تعالىٰ عليهم ، لم يكن قد قال أو عمل بهذه (البدعة الزامليّة) . . . !

ولم يحفظ لنا التاريخ خبراً واحداً يفيد بأن الإمام زيد بن علي زين العابدين ، رضي الله تعالىٰ عنه ، كان يسعىٰ الىٰ صلاة الجمعة بالطبول والأبواق والزامل . . . !

وانتهت الصلاة . . وخرج الأمير من الجامع كما دخله أول مرة . . هرجٌ ومرجٌ وصخب . . ثم ضجّ الضجيج وعلا الصريخ من حناجر العكفة بالزامل من جديد . . وخرج الناس وراءهم . . فخرجنا معهم لننظر مايجري خارج بيت الله . .

توجّه موكب الأمير الىٰ (العُرْضي) . . والعرضي في لغة أهل اليمن يعني الثكنة العسكرية ، وهذا الاسم مشتق من الفعل (عَرَضَ ،

(١) **العُكفة** : جنود الحرس الخاص بالإمام والأمراء سيوف الاسلام . .

يعرض ، عرضاً) . . وتأتي هنا بمعنىٰ عَرَض أو استعرض الجنود . . وسبق أن قلنا بأن الثكنة العسكرية في (تعز) تقع خارج المدينة القديمة . . . .

وبما أن هيئة البعثة العسكرية العراقية لم تكن قد حظيت بعدُ بمقابلة الأمير ولي العهد فقد تعذّر علينا متابعة موكب الأمير الىٰ (قصر العرضي) للتفرج علىٰ الاستعراض العسكري الذي سيجري أمام شرفة معينة من القصر المذكور حيث تمرّ القطعات العسكرية المرابطة في تعز ، من أمام تلك الشرفة فتؤدي التحية العسكرية للأمير ثم تنصرف الىٰ ثكناتها . . ومثل هذا الاستعراض يجري في مركز كل إمارة تقليداً لما يجري في العاصمة (صنعاء) أمام الإمام يحيىٰ بمقياس اكبر . . .

لذلك نرجئ الحديث المفصل عن استعراضات أيام الجمعة لحين وصولنا الىٰ (صنعاء) . . إذا قُدّر لنا أن نصلها بسلام علىٰ «طريق الشياطين» . . . !

بقية يوم الجمعة – ٢٢ / ٣ / ١٩٤٠ – تعز

مابين وقت صلاة العصر والمغرب اكتشفنا في دار الضيافة – شيئاً جديداً . . ذلك أن الطابقَ العلوي منه يحتوي علىٰ جناح آخر فيه بضع غرف أخرىٰ مفروشة بفراش شرقي يمني يناسب الضيوف اليمنيين . . فهذه الغرف الشرقية لاتحتوي علىٰ أسرّة منام ذات أربعة قوائم ولا تحتوي علىٰ مناضد ولاكراسي . . بل هي مفروشة بالمطارح والبُسط وعليها (المتاكي) أي الوسائد الغليظة . . ومجهزة (بالمداعات – أي النارجيلات) ومستلزماتها . .

وليس عجباً أن نرىٰ بين هؤلاء الضيوف اليمنيين في هذه الدار بعض المعتقلين السياسيين الذين أُفرج عنهم قبل بضعة أيام وتحوّلوا في طرفة عين الىٰ مواطنين صالحين يحق لهم أن يستمتعوا بضعة أيام في دار الضيافة ريثما يصدر التصريح إلامامي (من صنعاء . . .) أو الأميري في (تعز) بالموافقة النهائية علىٰ المغادرة الىٰ أهليهم وذويهم . . . !

وكما اختلفت غرف الضيوف في أثاثها ومفارشها . . كذلك تختلف أنواع الطعام الذي يُقدّم لهؤلاء الضيوف من كلا الصنفين . . والطعام اليمني لا إشكال في تأمينه لأنه بسيط ومعروف للطباخ الذي يعمل في دار الضيافة . . ومايُقدّم منه للضيوف اليمنيين لايرجع منه شيءٌ الىٰ المطبخ بتاتاً . . . ! أما الطعام الذي تقدمه دار الضيافة للضيوف الأجانب فأمره في غاية الإشكال . . ولما كنا نحن هيئة البعثة العسكرية لسنا من الأجانب فقد سهّلنا مهمة الطباخ في دار الضيافة الىٰ حدٍ ما . . وبصورة عامة لم تكن نوعية الأطعمة التي كان يقدمها لنا طباخ دار الضيافة افضل من تلك التي تناولناها مساء أول أمس في (الراهدة) . . وربما كان مساعدو وطباخ دار الضيافة قد أُرسِلوا سلفاً الىٰ الراهدة لإعداد ذلك الطعام الذي تناولناه أمسية يوم الاربعاء المنصرم . .

بعد تناول طعام العشاء هذا اليوم جلسنا نستمع الىٰ مرافقنا غير الرسمي (شيخنا محيي الدين) وهو يقصّ علينا اكثر من شيءٍ عن شخص الأمير سيف الاسلام أحمد ، ولي العهد ، وأمير الجنوب اليمني .. وكان من جملة تلك الحكايات مايجدر ذكره علىٰ هذه الصفحات . .

قال الراوي . . والعهدة عليه :–

[. . . . وأحمد هذا في نظر الأطباء الذين تعاقبوا علىٰ معالجته يُعتبر من الاشخاص الذين تتحكم فيهم نوبات صوفية غامضة تنتابهم علىٰ فترات دورية يغيبون فيها عن العالم الذي من حولهم . . ويظلوا غارقين في بحورها وضائعين في متاهاتها لعدة ايام . . وهذا يعني أن إمارة (تعز) تظل هي الأخرىٰ معطلةً أو في إجازة غير طبيعية تتعطل خلالها شؤون العباد . . !

ويقيم ولي العهد أمير (تعز) وسيف إسلامها في قصرٍ متطرف عن المدينة التي تضم المواطنين من رعاياه . . حيث يعيش حياةً فيها البساطة الىٰ جانب التعقيد . . وله أربع زوجات شرعيات (علىٰ كتاب الله وسنة رسوله) . . ولكن إحدىٰ هذه الزوجات تقيم في قصر مستقل . . ليس في تعز . . بل في (صنعاء) . . !كانت احدىٰ (القهرمانات) قد وصفتها لسيدها (أحمد) . . ثم خطبتها له . . ثم عقد عليها . . ولكنه لم يرها في مخدعه حتىٰ اليوم . . وبذلك أصبح القصر الذي وضعها فيه بصنعاء مجرد دَيْر تعيش فيه راهبة غذراء بعمر الزهور المتفتحة في مطلع الربيع . . . !

هذه الراهبة العذراء إسمها الطفولي (مطيعة) . . فلما خطبوها وعقدوا عليها وزفّوها الىٰ (دَيْر أحمد) غيروا اسمها تجوّزاً الىٰ (بدر

الدين) . . والغريب في هذا هو أن لهذه الراهبة العذراء شقيق صغير إسمه (بدر)[1] . . . . !

أما والد هذه الراهبة فاسمه (الحاج محمد بشير الحلبي)[2] صانع اقمشة من مدينة (حلب) في سوريا . . جاء الىٰ صنعاء لينشئ مصنعاً بلدياً لصنع أقمشة الملابس علىٰ النمط الحلبي . . ولكن الرجل فشل في تحقيق هدفه بعد أن طوّح به شركاؤه من أهل اليمن فأكلوا ماله وغيّروا حاله ولم يبق لديه من رأس المال إلا القليل . . فاضطر الىٰ البقاء في صنعاء ريثما يستجمع شتات أمره . . . . وكان هذا الرجل إنساناً طيباً حقاً وذو خلق كريم . . .

كانت ابنته (مطيعة) معروفة بين بيوتات صنعاء بالحسن والأدب والجمال . . فوصل خبرها الىٰ ولي العهد سيف الاسلام أحمد . . فخطبوها له ووافق الأب علىٰ ذلك بطبيعة الحال . . ولعله كان ينوي إلاستعانة بولي العهد للإقتصاص من خصومه الذين أكلوا ماله وغيّروا حاله . . ولكن المسكين لم يكن ليدرك شيئاً مما كانت تخبئة الأقدار لهذا الزواج الذي لم يتم لَحتّه حتىٰ اليوم . . وظلت (الأميرة بدر الدين) أميرةً بدون أمير . . وزوجة من غير زوج . . ولاتزال حبيسة القصر المشيد في (بستان المخير) بحيّ بئر العزب في صنعاء . . لاتخرج منه إلا لزيارة أهلها مدة أسبوع في كل شهر . . ![3] . .

وقال الراوي في حكاية ثالثة والعهدة عليه :–

[. . . . قالوا ، والعهدة علىٰ من قال ، بأن إحدىٰ زوجات سيف الاسلام أحمد ولي العهد من أم انكليزية . . وليس في ذلك من غرابة لأن الدين الاسلامي قد أجاز زواج المسلم من المرأة الكتابية شريطة أن تدخل في الاسلام . . ولكن وجه الغرابة هنا هو أن الانكليز من أشد أعداء اليمن بوجه عام وأمير (تعز) ولي العهد بالذات بوجه خاص . . رغم (معاهدة صنعاء) المعقودة بين الطرفين في شباط عام (١٩٣٤) المتزامنة تماماً مع (معاهدة الطائف) المعقودة بين اليمن والمملكة العربية السعودية إثر الحرب التي وقعت بينهما بسبب مشكلة (عسير) في ربيع عام (١٩٣٤) . .

وحياة الأمير أحمد الرسمية لاتنفصل كثيراً عن حياته الخاصة . . فقد لايذهب الىٰ دار إلامارة الا لأمور مهمة جداً . . وديوان الأمير كديوان والده إلامام في صنعاء . . لايعرف المكاتب الحديثة ولا المناضد ولا الكراسي ولاغير ذلك . . فالكل يجلس علىٰ الارض فوق صف طويل من المطارح والوسائد الغليظة . . ومن وقت قصير فقط تعرّف أهل اليمن علىٰ أقلام الحبر الحديثة (الباندانات) . . ولشدة إعجابهم بها وإكراماً للقلم الذي علّم الانسان مالم يعلم . . فانهم دائماً يزينون طيات عمائمهم بأقلام الحبر هذه . . ولايقتنيها كل من هبّ ودبّ . . بل هي حِكْرٌ للطبقة المثقفة من الفقهاء والقضاة والأمراء . . . . ! ؟] . .

وحكايات (شيخنا محيي الدين) لم تنته طبعاً . . ولكننا اضطررنا إلىٰ إنهائها خشية الفتنة . . وقد حان موعد دق الطبول والزعبق بالأبواق النحاسية . . . إيذاناً بغلق الأبواب في سور المدينة والاستعداد للمنام . . . . !

السبت – ٢٣ / ٣ / ١٩٤٠ – تعز (اليوم الثالث) .

لم ينقطع تقاطر المرحّبين والمسلّمين علىٰ هيئة البعثة . . وكان من بين الذين قَدِموا علينا اليوم رجل عراقي في الستين من عمره إسمه (الحاج علي الموصلي) قال بأنه يسكن (تعز) منذ خمسة عشر عاماً ويعمل في التجارة . . وعندما سمع بوصول البعثة العسكرية العراقية وأن فيها ثلاثة من أهل الموصل هرع لمقابلتهم والسلام عليهم . . ولم يكن الموقف في حينه مناسباً لكي نسأله كيف ولماذا جاء الىٰ اليمن . .

في العام الثاني من وجودنا في صنعاء إستعان بي الرجل علىٰ مرضٍ ألمّ به واحتاج الىٰ الدواء المعدوم في كل اليمن عدا الصيدلية الحكومية الوحيدة في صنعاء . . وبعد جهد جهيد استطعت تحصيل العلاج وإرساله الىٰ (تعز) . . . . . !

إن لقاءنا اليوم مع الحاج علي الموصلي بعث الرغبة فينا للخروج من دار الضيافة للقيام بجولة عامة في المدينة . . فخرجنا اليها بعد الظهر فلما عُدنا من الجولة دوّنت في دفتر المفكرة اليومية المعلومات التالية عن مدينة (تعز) :–

إن مدينة تعز تتربع في أحضان جبل مشهور هو جبل (صَبِرْ) الذي يرتفع (٣٠٠٠) ثلاثة الآف متر عن مستوىٰ سطح البحر أو مايعادل (١٠٫٠٠٠) عشرة الآف قدم . . وقد تقوقعت بيوت (تعز) في سفح هذا الجبل علىٰ شكل مدرّجات بعضها فوق بعض . .

(١) و (٢) و (٣) – أنظر مذكرة يوم الاثنين – ٨ / ٤ / ١٩٤٠ ص ٢٣ جـ ٢ .
وانظر التسلسل (١١) من مذكرة يوم الجمعة ٢٨ / ٣ / ١٩٤١

والمدينة القديمة محاطة بسور قوي من اللبنات الضخمة المبنية بالطين اللازب – أي اللاصق . . ويبلغ عدد سكانها نحواً من خمسة الاف نسمة . . ويتضاعف هذا العدد إذا أضفنا اليه سكان القرىٰ المجاورة لمدينة تعز . . وهي في الواقع جزء لايتجزأ من تكوينها السكاني . .

وفي خارج السور تقع الدور والمباني الحكومية مثل دار الضيافة ودار الإمارة والثكنة العسكرية ودائرة البريد والبرق وغيرها . . وترتفع فوق المدينة القديمة رابية يتربع فوقها حصن قديم يحتجزون فيه الرهائن . . وحال الرهائن في اليمن واحد لايتغير ولايختلف . . ولكنه قيل بأن الرهائن في تعز اكثرهم من الفتيان الصغار الذين لاتتجاوز أعمار الكبار فيهم الخامسة عشرة . . !

إن عمارة الدور في (تعز) لاتلفت النظر كثيراً . . فهي ليست جذابة بأية حال . . ومعظمها مشيد بالآجر الأحمر والاحجار المنحوتة نحتاً رديئاً . . والنوافذ والعقود في هذه الدور هي الأخرىٰ رديئة الشكل والمنظر . .

أما عمارة الجوامع والمساجد فبسيطة ومتواضعة . . وفيها عدد غير قليل مما شيده الأتراك أثناء إقامتهم في اليمن علىٰ فترات . .

إن أقدم وأشهر جامع في اليمن كلها هو الجامع الكبير في صنعاء . . ويليه في القِدم جامع (أَلجَنَدْ) القريب من (تعز) . . بناه الصحابي الجليل (مُعاذ بن جبل) رضي الله تعالىٰ عنه حينما بعثه الرسول الكريم ، صلىٰ الله عليه وسلم ، إلىٰ أهل اليمن داعياً ومعلماً وقاضياً بالكتاب والسنة والاجتهاد . . ثم غازياً في حروب الردّة التي وقعت في اليمن . . ويقع هذا الجامع الاسلامي الأثري العظيم علىٰ مسافة ثماني كيلومترات تقريباً الىٰ الشمال من (تعز) . . وستكون لنا عودة قريبة جداً لاستكمال الحديث عن هذا الجامع المهم . . .

إن مدينة تعز لاتعتمد في مياه الشرب علىٰ الآبار اعتماداً رئيسياً . . والابار فيها قليلة . . ولكنها تعتمد علىٰ الينابيع الكثيرة التي تتدفق من أحضان جبل (صَبِرْ) ، وهي ينابيع غزيرة الماء . . وماؤها عذب قراح . . ولكنها علىٰ مارأينا في تجوالنا ليست سليمة من التلوث نظراً لعدم الاعتناء بها .

إن من يريد الوصول الىٰ داخل المدينة من خارجها لابد له من الدخول من الباب الرئيسية . . فاذا دخلها وجد السوق عن يمينه . . وقبل أن يتوغل فيها لابد وأن تقع عيناه علىٰ مبنىً حقير جداً يسمونه (المِحْدادة) . . وقد يوحي هذا الاسم لمن يستمع إليه لأول مرة أنه مكان للحدادة والحديد . . ولكنه في الواقع المرّ مكان لهدر كرامة الانسان الذي كرّمه الله تعالىٰ منذ الأزل . .

في هذه (المحدادة) . . يقيدون الانسان بالسلاسل والأطواق الحديدية قبل الاتهام وقبل التحقيق وقبل المحاكمة وقبل إصدار الحكم . . . ! وقد لا يُساقون إلىٰ كل هذه الاجراءات أو بعضها حتىٰ يخطرون علىٰ بال المسؤولين . . . ! إذ ليست هناك مذكّرات توقيف ولاضوابط قانونية غير أهواء السادة الذين أمروا بالتوقيف . . . وأوامرهم هذه لايتعدىٰ الواحد منها كلمتين قبيحتين تصدران عن فمٍ لايزال ملوثاً بنفايات (القات) الخضراء من (تخزينات) الأمس أو اليوم : «شُلّو ٱلحَبس» – أي شيلوه أو خذوه الىٰ السجن . . . . وقد تطرّقنا الىٰ ذلك في مبحث (السجون في اليمن) التابع للقسم الرابع من الفصل الثالث (لمحات اجتماعية عن اليمن) . .

أما سوق (تعز) فهي بعُمرِ سوق (صنعاء) التي تحدثنا عنها في القسم السابع من الفصل الثالث . . ولكنها أصغر حجماً . . ولاغرابة في احتوائها علىٰ مختلف أنواع البضائع والمصنوعات اليدوية المحلية والمستوردة . . فقد كانت (تعز) علىٰ الدوام مركزاً مهماً جداً لمرور القوافل التجارية . . ولكننا بعد أن تجولنا فيها ساعة من الزمن وقارناها مع الحوانيت والمخازن والمحلات التي شاهدناها في (عدن) . . تبين لنا وكأن حوانيت سوق (تعز) لاتزال تراوح في مكانها منذ القرون الوسطىٰ . . . ! علماً بأن (تعز) تُعتبر الميناء التجاري البري لليمن بالنسبة لعدن . . وخاصةً بعد أن فقدت مدينة (المخا) قيمتها وأهميتها كأول ميناء تجارية بحرية لليمن . . . .

ومما زاد في كآبة المنظر داخل سوق تعز كثرة المتسولين فيها والمتسكعين . . وفيهم الكثير من ذوي العاهات رجالاً ونساءً وأولاداً . . ولم نر شيئاً من هذا القبيل في (عدن) التي مررنا بها قبل أقل من اسبوع . . .

وعندما غادرنا سوق تعز الكئيب عائدين الىٰ دار الضيافة قلنا : إن اسم (تعز) لاشك أنه مشتق من العِزّة (أعزَّ يُعزّ إعزازاً . . وتعزيزاً . .) ، وأهل اليمن يلفظونها (تُعِزّ) بضم التاء وكسر العين كسراً مُخفّفاً وتسكين الزاي مع التشديد . . وهذا يعني أن هذه البلدة تُعِزُّ أهلها إعزازاً وتعزيزاً . . ولكن هل انطبق الإسم علىٰ المسمىٰ . . والمصفّدون بالسلاسل والاغلال يتجولون في سوقها ومعهم ذوُو العاهات يلتمسون الصدقات . . ؟ !

الأحد – ٢٤ / ٣ / ١٩٤٠ – تعز (اليوم الرابع)

إقترح علينا رفيق السفر (شيخنا محيي الدين العنسي) أن نخرج اليوم في جولة أخرىٰ على الأقدام نتسلق خلالها جانباً من جبل (صَبِرْ) الذي يحتضن مدينة (تعز) حيث سنجد في الأعالي مسجداً أثرياً صغيراً وخرائب قلاع وحصون قديمة . . وفي أطرافها عدد من الينابيع التي يتدفق منها الماء العذب طوال العام . . وأن هذه الينابيع هي التي يعتمد عليها أهل تعز للحصول علىٰ مياه الشرب . . . وأضاف العنسي يقول بأن القائمقام (سرّي بك شايع) قائد منطقة تعز العسكرية يرغب في مرافقتنا الىٰ هذه الجولة . .

ولم يظهر بيننا أي معارض ولا مُناقش لهذا الاقتراح العنسي الوجيه . . وكلٌ منا قد سئم الانتظار في (تعز) دونما مبرر معقول وسبب مقبول . . . !

وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً خرجنا من دار الضيافة وبصحبتنا القائمقام (محمد سرّي بك شايع) الذي أُعجِب به رئيس البعثة وارتاح إليه منذ ان التقينا به في (الراهدة) . .

وبعد مسيرة نصف ساعة تقريباً بدأنا نتسلق طرفاً من الجبل العظيم علىٰ مسلكٍ ضيق للمشاة . . وبعد ربع ساعة من التسلق صار المسلك يقطع سفح الجبل أفقياً . . فنظرنا عن يميننا فاذا بمدينة تعز كلها قد أصبحت من تحتنا . . ولكن صورتها من الأعلىٰ تختلف كل الاختلاف عن صورتها الواقعية في أسفل الجبل . . فقد كان منظرها من الأعالي رائعاً جداً نظراً لاتساع مجال النظر اليها . . فمن هنا يستطيع الانسان أن يرىٰ كل المعالم الطبيعية المجاورة لأطراف المدينة كالوديان والمزارع الخضراء وبعض القرىٰ الصغيرة القريبة من تعز . . .

وبعد قليل التقينا بالمسجد الأثري الذي لم يكن في الحقيقة هو هدفنا المقصود من هذه الجولة . . إنما كان وسيلةً للتهرب من الإحتباس في دار الضيافة المفروض أن الضيافة فيه لاتتجاوز الثلاثة ايام علىٰ مقياس عرب الصحراء والبوادي . . . إلا أن (المقياس المتوكلي) علىٰ مايظهر له مآرب أخرىٰ من إطالة أمد الضيافة . . . !

وانتهزتُ فرصة التجوال في عرض الجبل الشامخ فقمت بالتقاط هذه التصاوير المرقمة (٤٣ و ٤٤ و ٤٥) . .

الصورة رقم (٤٣)
رئيس البعثة مع قائد منطقة (تعز) العسكرية
القائمقام – أي العقيد – محمد سَرّي بك شايع

الصورة رقم (٤٤)
على قبة مزار (ضريح) في جبل (صبر) المشرف على مدينة (تعز).

الصورة رقم (٤٥)
في يسار الصورة
شيخنا محي الدين العنسي بالملابس اليمنية .... !

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر عُدنا إلىٰ (محبسنا) في دار الضيافة . . وبعد تناول طعام الغداء إستلقينا على أسرّتنا نستريح من رياضة الجبل . . فأخذتنا سِنة من النوم .

كنا نتناول شاي العصر حينما وصل إلينا رسول من لدن ولي العهد امير تعز ينقل الينا رسالة شفوية من الأمير يدعونا فيها لتناول طعام الغداء على مائدته ظهر يوم غدٍ الاثنين . . فتقبّل رئيس البعثة هذه الدعوة الكريمة التي بشـرتنا جميعاً بانفراج الأزمة وأعطت إشارة الضوء الأخضر لاستئناف السفر خلال ثمانٍ وأربعين ساعة . . .

وقبل أن يحين موعد اللقاء بولي العهد أمير (تعز) ويعقبه استئناف السفر . . وددنا أن نقدم للقارئ نبذة قصيرة ومركّزة عن تاريخ مدينة تعز التي أصبحت عاصمةً لليمن اكثر من مرة خلال تاريخ اليمن الحديث . . .

يُعتبر تاريخ مدينة (تعز) تاريخاً حديثاً إذا ماقورن بتاريخ (صنعاء) . . لأن تاريخ صنعاء يرجع الىٰ ماقبل الاسلام وقبل الميلاد بقرون عديدة . . بينما يرجع تاريخ تعز ، كمدينة متكاملة الىٰ مابعد الاسلام عندما قام الصحابي الجليل (مُعاذ بن جبل) ببناء مسجد (الجَنَدْ) في مطلع القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) علىٰ مسافة ثماني كيلو مترات الىٰ الشمال من موقع تعز الحالي وأصبح هذا المسجد المركز الديني والاداري في المنطقة . . وفي ذلك الوقت ربما كانت (تعز) تتألف من قلعة مشيدة في أعلىٰ جرف حادّ عند سفوح جبل (صَبر) وعدد قليل من بيوت المزارعين في السهل المجاور . . وكان هناك بعض المساكن الاكثر قِدماً في أعالي جبل (صبر) . . وأن خرائب القلاع الموجودة في أعلىٰ الجبل يعود تاريخها الىٰ ماقبل الاسلام . .

لقد جرىٰ التحول النهائي من قرية (الجَنَد) الىٰ موقع تعز الحالي في سنة (١١٧٤ م) عندما استولىٰ (توران شاه) الأيوبي[1] علىٰ مدينة (زبيد) في تهامة اليمن ثم تقدم جنوباً حتىٰ قرر الاقامة عند سفوح جبل (صبر) الذي يرتفع (٣٠٠٠) ثلاثة الآف متر عن مستوىٰ سطح البحر . . وربما كان ذلك بسبب ملاءمة المناخ . . لأن تعز ترتفع (١٤٠٠ – ١٥٠٠) متر عن مستوىٰ سطح البحر . .

أما سبب قدوم (توران شاه) الأيوبي الىٰ اليمن فيرجع الىٰ اضمحلال الدولة المهدوية في (زبيد) –١١٧٣ م– وشيوع الفوضى والاضطراب والاحتراب والخراب في اليمن خلال الفترة التي حكم فيها الاشتات من الدويلات الصغيرة المتفرقة في اليمن بعد الإنسلاخ عن الخلافة العباسية في بغداد . . وكان (بنو مهدي) مؤسسو الدولة المهدوية قد أغاروا علىٰ المخلاف السليماني في (جيزان) علىٰ البحر الأحمر . . وفي تلك الغارة قُتل أخو الشريف قاسم بن يحيىٰ أحد كبار أعيان المخلاف السليماني . . فاستنجد هذا بالخليفة الفاطمي (العاضد) في مصر . فقام هذا بتكليف وزيره الأول صلاح الدين الأيوبي لنجدة الشريف قاسم . . فبعث صلاح الدين أخاه (توران شاه) في جيش كبير الىٰ اليمن فوصل الىٰ (زبيد) عاصمة الدولة المهدوية في شهر شوال من عام (٥٦٩ هـ – ١١٧٤ م) بعد قتال مع القوات المهدوية انتهىٰ بأسر زعيمهم والاستيلاء علىٰ (زبيد) . . ثم عاد (توران شاه) الىٰ مصر وجاء أخوه (طغتكين) الىٰ اليمن بأمرٍ من صلاح الدين . . فتساقطت أمامه بقية الدويلات المتفرقة في اليمن . . وبذلك استقر الأمر وقامت الدولة الأيوبية في اليمن . . فحكمت فيه (٥٦) ستاً وخمسين عاماً . .

وعندما غادر اليمن اخر حكام الأيوبيين(المسعود بن يوسف بن الكامل)عائداً الىٰ مصر في عام(٦١٥ هـ –١٢٢٩ م)ترك في مكانه أحد مواليه المسمىٰ (نور الدين عمر بن رسول) ، الذي ينتهي نسبه الىٰ (جَبَلَة بن الأيهم) آخر ملوك الغساسنة في أرض الشام . ولكن نور الدين استغل المنازعات التي قامت فيما بعد بين فئات الأيوبيين وأعلن نفسه سلطاناً علىٰ اليمن واصبح مؤسس الدولة الرسولية في اليمن (١٢٢٩ - ١٤٥٤ م) ولقّب نفسه بالمنصور . . واشتهر بحروبه الطويلة ضد الأئمة الزيود في شمال اليمن . . والرسوليون أصلاً من عرب الغساسنة في أرض الشام كان آخر ملوكهم قد غُلب علىٰ يد خالد بن الوليد في أوائل الفتوحات الاسلامية . . فهاجرت قبائل رسول من غسان الشام الىٰ بغداد حيث تولوا فيما بعد مناصب مرموقة في الدولة العباسية . ومن ثم كان أستخدامهم كمماليك من قبل العباسيين ورافقوا العباسيين في احتلالهم لليمن . .

واختار الرسوليون مدينة (تعز) عاصمة دائمة لهم ووسعوا المدينة كثيراً وحصنوها بالأسوار والقلاع . وجلبوا الماء للمدينة من جبل (صَبر) في سواقي تمر فوق قناطر[2] حجرية . . ثم شيدوا في المدينة عدة جوامع وقصور فخمة . . ومن أشهر تلك الجوامع (جامع الاشرفية[3]) المتميز بمئذنة المزدوجتين . . وفي داخله مدرسة لتعليم القرآن الكريم . . والذي شيد هذا الجامع هو السلطان الأشرف من بني رسول . كما قام السلطان المظفر الرسولي بتشييد (جامع المظفر) الذي تهدمت منارته بعد أن قاومت عدة قرون ولم يعاد بناؤها ثانية . . ولقد ظلت (تعز) عاصمة للرسوليين اكثر من قرنين من الزمان . . امتد سلطان الرسوليين خلالها الىٰ مشارف (عُمان) شرقاً والىٰ مكة المكرمة شمالاً[4] . . !

الاثنين – ٢٥ / ٣ / ١٩٤٠ – تعز (اليوم الخامس)

في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم وصل الينا في دار الضيافة ، رجلان موفدان من قبل الأمير لاصطحابنا الىٰ قصره . . وكانت المسافة لاتحتاج الىٰ استخدام السيارات . . فخرجنا من دار الضيافة بصحبة الرجلين اللذين كانت هيأتهما تدل علىٰ كونهما من خاصة رجال الأمير . .

فلما وصلنا الىٰ باب القصر كان في استقبالنا بعض رجال الأمير فدخلنا الىٰ فناء واسع مكشوف ثم صعدنا سلّماً حجرياً مكشوفاً ادىٰ بنا الىٰ صالة كبيرة طويلة المحرّ جانبيها عدد من الغرف أبوابها مقفلة . . فلما صرنا الىٰ صدر الصالة دخلنا غرفة واسعة مؤثثة بالأرائك والكراسي والطاولات فسلمنا على المدعوين الذين كانوا قد سبقونا بالحضور الىٰ القصر حسب ترتيب مسبق . . ثم اخذ كل منا مجلسه . . وبعد بضع دقائق دخل الأمير ولي العهد يرحب بوصولنا ثم جلس يتجاذب أطراف الحديث مع رئيس البعثة . . وكان يستعين بالعربية الفصحىٰ أثناء

(١) توران شاه : أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي ...
(٢) و(٤) – أمعن النظر في همم أولئك الرجال الأفذاذ .. ثم قارن بينهم وبين وليّ العهد وأمير تعز سيف الاسلام أحمد بن يحيىٰ حميد الدين في القرن العشرين للميلاد ....
(٣) راجع الصورة رقم (٤٢) ..

الكلام .. لأنه لو تكلم باللهجة اليمنية لاستحال علىٰ أيٍّ منا أن يفهم شيئاً مما يقوله ولي العهد ...

بعد نصف ساعة من المقابلة قمنا الىٰ غرفة الطعام .. وهي غرفة واسعة طويلة .. وفي وسطها مائدة كبيرة للطعام يتسع محيطها لجلوس اكثر من عشرين شخصاً ..

كانت أدوات تناول الطعام الموضوعة علىٰ المائدة في غاية البساطة .. وكانت هناك بعض أوعية الطعام ذات شكل غريب لم نعهده من قبل .. إنها أوعية من الفخّار[1] علىٰ شكل مستدير وقد اسود لونها من الخارج كأنه الفحم .. وفي داخلها طعام لم نستطع تمييز نوعيته .. ولكنه كان يغلب عليه اللون الأخضر .. وهو أشبه مايكون بلون السبانخ الذي نطبخه عندنا في العراق علىٰ شكل مرق خُضار ..

وكانت هناك أطباق البيض المقلي وكبّة حلب .. وربما من أجلنا كانوا قد زينوا مائدة الطعام بالأرز والفاصوليا .. ونوع أخر من الخضار لاأتذكره الآن ..

وكان جوّ غرفة الطعام مشبعاً بروائح البخور التي أتضايق منها كثيراً لاكثر من سبب .. وسبق أن ذكرت بأن أهل اليمن يبخّرون حتىٰ مياه الشرب في القُلل... !

وافتتح الأمير تناول الطعام بالبسمله وقال : [هيا .. تفضلوا .. عسىٰ أن يعجبكم طعامنا في اليمن ...] ، فرد عليه رئيس البعثة بالعربية الفصحىٰ بما يناسب من عبارات المجاملة والامتنان .. و بدأ المدعوون بتناول الطعام .. فلفت نظري أن كل المدعوين من اهل اليمن أنهالوا علىٰ الأوعية الفخارية[2] السوداء يغمسون فيها قطع الخبز فتخرج مشبعة من ذلك المرق الأخضر الغليظ فيدفعون بها الىٰ داخل افواههم الفاغرة وبعض ذلك المرق الأخضر يتساقط من اللقمة إما فوق المائدة وإما فوق اللّحى فيسارعون الىٰ مسحها باليد الأخرىٰ... !

أما أنا .. فقد ذكّرني هذا المرق الأخضر الغليظ الذي يعبُّ منه المدعوون اليمنيون عباً داخل أفواههم المفتوحة كأفواه القِرب .. ذكّرني بمنظر جنود الحرس الذين رأيتهم في (الراهدة) قبل أربعة أو خمسة أيام وهم (يُخزّنون القات، ويبصقون منه بين الحين والآخر علىٰ الأرض .. فغثيت نفسي من تناول الطعام علىٰ مائدة الأمير ... وعندها سألت (شيخنا محيي الدين) عن ماهية ذلك المرق الأخضر الغليظ فقال : [هي «الحِلْبَة» .. ومنزلتها عند أهل اليمن كمنزلة «الباميا» عند أهل العراق .. أو «الملوخية» عند أهل مصر..] ...

ومنذ ذلك الحين ، كما ذكرتُ سابقاً ، ونفسي تعاف مرق السبانخ الذي نطبخه في العراق ....

لم يستغرق تناول طعام الغداء علىٰ مائدة الأمير اكثر من نصف ساعة .. إذ لم يكن هناك نظام تقديم للطعام من قبل خدم المائدة .. فكل أنواع الطعام كان مسطوراً أو جاهزاً فوق المائدة .. وكل مدعوٍّ حرٌّ في تناول مايريد من أنواع الطعام .. ولم تكن هناك أصناف منوعة الاشكال والأحجام من الملاعق والشوكات والسكاكين والأطباق .. بل كان كل شيء مختصر لاتعقيد فيه ولامراسيم ..

ثم قمنا وعُدنا ثانيةً الىٰ غرفة الاستقبال حيث أُديرت علينا أقداح قشر البن الذي يُعطي طعم ومذاق (البا بونك) المغلي ولون (الدارصيني) الفاتح .. ففيه قليل من المرارة يمكن معالجتها بقليل من السكر .. ولكن أهل اليمن لايفعلوا ذلك بتاتاً .. بل يضيفون الىٰ القشر المغلي شيئاً من (الهايل) أو الهيل أو الزنجبيل ..

وخلال فترة تناول قشر البن كانت عيناي لاتفارقان مُحيّا الأمير وليّ العهد سيف الاسلام أحمد بن الإمام يحيىٰ حميد الدين .... وماكنتُ لأجسر فاصطحب معي آلتي المتواضعة للتصوير الىٰ قصر الأمير لو لاشغي بالتقاط الصور للمشاهد الفجائية في أي مكان .. ماعدا حضرة الأمير ولي العهد .. فقد كنا على أعظم درجة من الحساسية والحذر في هذا الشأن ... لذلك تعذّر عليّ التقاط صورة للأمير الذي تكفّلت به أحداث المستقبل فرَوّضَتْه وطوّعته للوقوف أمام عدسات التصوير .. فصدرت له صور كثيرة علىٰ فترات ومناسبات .. من بعد عودتنا الىٰ العراق ..

وكل تلك التصاوير التي التُقِطت لسيف الاسلام أحمد ثم الإمام أحمد تكاد تكون علىٰ نمط واحد طابعه ظهور هذا الرجل في شكل مخيف : رأس كبيرة ، جبهة عريضة محدبة ، عينان سوداوان واسعتان كعيون البقر ، أنف غليظ يعلو فماً أغلظ منه يكاد يضيع ويختفي تحت شاربين غليظين ولحية عامرة ... وكل هذه الملامح تبعث الرهبة في نفوس الأخرين إذا أُصيب صاحبها بُسعار الغضب لأي سبب ... !

كانت آخر كلمات رئيس البعثة مع الأمير هي الاستئذان باستئناف السفر الىٰ صنعاء .. فقال له الأمير : [ولكن ليس قبل أن تشاهدوا معي أجمل مسجد قام للإسلام في اليمن .. إنه مسجد (الجَنَد) وهو لايبعد كثيراً عن تعز وسأكون معكم في زيارته غدا صباحاً إن شاء الله ..] .. وتظاهر الأمير بسروره من وجودنا في (تعز) وتمنىٰ إطالة هذا الوجود .. فشكره رئيس البعثة علىٰ ذلك .. ثم قمنا للإنصراف .. ولم يتواضع

(١) و (٢) قد يكون بعضها منحوتاً من حجر خاص .. وعندئذ تسمىٰ بـ (المقالي) .. راجع هامشنا رقم (١) صفحة ١٧٦ .

هذا الأمير المتكبّر بتوديعنا ولو حتىٰ الىٰ باب الصالة ... فتذكّرنا تواضع سلطان لحج (عبد الكريم فضل) الذي استقبلنا عند باب قصره ووودعنا عند نفس الباب .. !

فلما خرجنا من باب الصالة عند حوض السلّم الحجري المكشوف .. وجدنا مشهداً عجباً لانلوم أحداً إذا لم يصّدق وقوع مثله في قصر الأمير الذي لم يتواضع لله تعالىٰ ويخرج مع ضيوفه الىٰ باب الصالة ليري أي أمر عجيب يحدث عند باب صالته ... ولكن حمداً لله وشكراً لآلة التصوير المتواضعة التي عزّزت روايتنا هذه بصورة حية ناطقة حول ذلك المشهد العجيب (أنظر الصورة رقم - ٤٦) ..

الصورة رقم (٤٦)
مع الحاوي في قصر الأمير
سيف الاسلام احمد بن يحيىٰ حميد الدين ...

في هذه الصورة يظهر كلٌ من الزميل عبد القادر الناظمي ورفيق السفر (شيخنا محيي الدين العنسي) .. كما يظهر الضابط اليمني الذي استقبلنا عند مدخل القصر مع المستقبلين ..

أما هذا الذي يجلس في وسط الصورة .. فهو (الحاوي) المشعوذ المهرج .. وتراه يمارس عرضاً للأفاعي والثعابين .. ويقول لمن حوله من المتفرجين إنه يفعل ذلك بقوة خفيّة يستمدها من سيّده (احمد) .. فظننا أنه يقصد (السيد أحمد الرفاعي) الذي نسمع عنه أحياناً ولانعرف عنه شيئاً .. ولكننا بنفس الوقت أستبعدنا أن يصل صيت الرفاعي الىٰ مثل هذا المكان المجهول من العالم .. فسألنا المشعوذ عن سيده أحمد فلم يفهم لغتنا .. وتولّىٰ (شيخنا محيي الدين) هذه المهمة فسأل (الحاوي) بلغته فاجاب يقول: [هذا ببركة سيدي أحمد بن الإمام يحيىٰ حفظه الله ..] .. !

لاشك وأن هذا المشعوذ ماجاء الىٰ هذا المكان إلا ليصيب شيئاً من الطعام .. وشيئاً مما يمكنه تحصيله من النقود بعرض الأفاعي والثعابين علىٰ سلّم القصر الأميري .. فلما نفحناه ريالين ، أنا والناظمي ، نسي هذا الحاوي سيده (أحمد) وصار يكيل لنا الدعوات العريضة الىٰ الله تعالىٰ بدَون حساب ... !

الثلاثاء - ٢٦ /٣/ ١٩٤٠ - تعز (اليوم السادس)

لقد تحدثنا في الصفحات القليلة السابقة عن بعض الجوامع والمساجد في (تعز) .. وذكرنا أن أول جامع قام علىٰ أرض اليمن بعد الجامع الكبير في صنعاء هو جامع (الجَنَد) الذي شيده الصحابي الجليل (مُعاذ بن جبل) ، رضي الله تعالىٰ عنه ، و (الجَنَد) أصلاً هو الموقع الذي شُيّد فيه هذا الجامع ..

وكان (الجَنَد) عاصمة لواحدٍ من اكبر مخاليف اليمن قديما .. ولم يبق منه حالياً سوىٰ قرية صغيرة .

وكان ولي العهد سيف الاسلام أحمد قد أمتنّ علينا يوم أمس بعد تناولنا طعام الغداء علىٰ مائدته الكريمة .. فدعانا لزيارة (جامع الجَنَد) بصحبته ، وكانت حقاً إلتفاته كريمة من سموه أن يصحبنا بنفسه لزيارة هذا الجامع الكريم من دون موكب ولا طبول ولا أبواق ولا (زامل) ... !

والحقيقة أن هذه الإلتفاته الأخيرة من قبل الأمير غسلت عن قلوبنا آثار تقصيره معنا يوم أمس حينما غَفِل أو تغافل عن توديعنا ولو الى باب الصالة داخل قصره ..

غادرنا دار الضيافة في الساعة التاسعة صباحاً .. وخلال دقائق معدودة وصلنا الىٰ (الجَنَد) وهو لايبعد اكثر من ثماني كيلو مترات الى الشمال من تعز ..

وعند دخولنا الىٰ الجامع بادرنا الىٰ صلاة ركعتين تحية المسجد .. ثم القينا نظرات فاحصة علىٰ مافي داخله وما في خارجه فتبين لنا الاتي باختصار : – (أنظر الصورة رقم – ٤٧) .

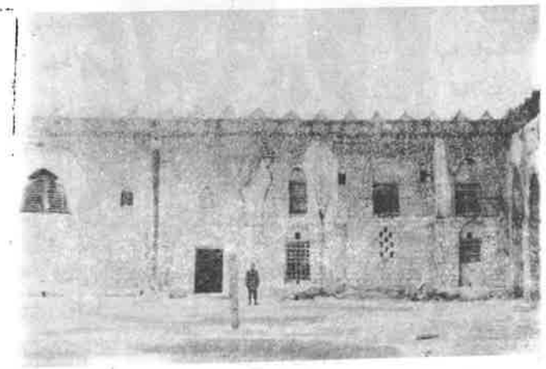

ألصورة رقم (٤٧)

جامع (الجَنَدْ) بالقرب من (تعز) .
ويظهر في الصورة عضو البعثة ضابط الصف
العريف المدفعي (عبد عتّيد) . . . . .

- للجامع فناء مربع واسع مكشوف تتوسطهُ (مِزْوَلة) حجرية علىٰ هيئة اسطوانة طويلة ...
- تحيط بالمسجد أربعة أروقة ذات أعمدة مربعة القواعد معقودة بأقواس حجرية ..
- وللجامع مئذنة مضلّعة الشكل يبلغ ارتفاعها (٧٠) سبعون متراً شُيدّت في زمن لآحق .. ذلك لأن جميع المساجد الاسلامية الأولىٰ لم تكن تعرف المآذن المرتفعة ..
- لاأعتقد أن هناك جامعاً في كافة الأقطار الاسلامية في العالم يضاهي جامع (الجَنَد) بكل مظاهر الفقر في أثاثه المفروشة في داخله .. والإهمال المزمن في صيانة عمارته سواء من ناحية الترميم أو التطوير اللازم في بعض محتوياته ..

أما الإهمال في عمارته من الخارج خاصّة فلا يحتاج إثباته الىٰ شاهدين عَدْلين .. وتكفي النظرة الواحدة الى واجهة الجامع في الصورة رقم (٤٧) لنرىٰ مدىٰ التخريبات الفظيعة التي أحدثتها مياه الأمطار المتدفقة من فتحات الميازيب :بسبب عدم وجود الميازيب أصلاً .. أو أنها قد هلكت ..!

وإذا نظرنا الى عمود المزولة الذي يتوسط الفناء الواسع لهذا الجامع لرأينا شاهد الإهمال والتقصير في أمر هذا الجامع ماثلاً أمام العين .. فقد ضاعت فائدة هذه المزولة بانحراف واعوجاج عمودها عن الوضع العمودي الذي يحدد وقت زوال الشمس ..! وتعديل هذا الانحراف لايحتاج الىٰ جهد كبير ولا مال كثير .. ولكنه بالتأكيد يحتاج الىٰ العقول الراجحة والضمائر الصالحة والشعور بالمسؤولية ..

الأربعاء – ٢٧ / ٣ / ١٩٤٠ تعز – الحُديدة .

في الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم كانت قافلة سيارات البعثة علىٰ وشك الحركة من أمام دار الضيافة في (تعز) حينما وصل إلينا رجلان .. سلّم أحدهما علىٰ رئيس البعثة ولم يسلّم الآخر ... ! فلما أمعنا النظر فيهما تذكّرنا أننا كنا قد شاهدنا الاول بين هيئة الرجال الذين استقبلونا أمس الأول عند مدخل قصر الأمير حينما ذهبنا لتلبية الدعوة الىٰ طعام الغداء .. أما الرجل الثاني فقد كان من جملة المدعوين اليمنيين الذين جلسوا معنا علىٰ مائدة الأمير ..

قال الأول لرئيس البعثة بلغة «الدبلوماسية المتوكلية» مامعناه : [سيدي القاضي زيد بن محمد الحَوْثي[1] يشتهي أن يذهب معكم صنعآ] ، أي أن هذا السيد المبجل يريد أن يركب معكم الىٰ صنعاء ...

هكذا قالها «الدبلوماسي المتوكلي» .. من دون إنذار سابق ولا إشعار لآحق .. ولاكلمة رجاء ولاكياسة في اختيار الألفاظ : [سيدي .... يشتهي ..... يركب معكم ...] .. ولاشيئ غير ذلك .. !

وإذا أضفنا اليها صلافة السيد القاضي الحوثي في عدم إلقائه تحية الاسلام علىٰ رئيس البعثة ، ولانقول هيئة البعثة التي كانت مجتمعة بالقرب من السيارات .. تبين لنا مدىٰ الكبرياء والعجرفة والاستعلاء الذي كان قد طبع بصماته الكالحة علىٰ قلوب السادة من أحبار الزيود في اليمن ... !

كان هذا السيد الزيدي .. ذو هيئة عجيبة ولا أقول مضحكة .. فهو رجل في الستين من عمره .. طويل القامة .. عظيم الهامة .. عريض مابين المنكبين .. يرتدي أفخر الثياب اليمنية .. ويتسنطق عليها بأجمل (جنبية) أي خنجر .. وهو فوق ذلك مكتحل العينين ، وليس كحيلها ، خفيف الشارب ، كثّ اللحية طويلها .. وقد فعلت فيها (الحِنّاء) فعلها .. إذ جعلتها حمراء ناريّة بعد أن كانت بيضاء سويّة .. !

وهذا السيد الزيدي ثقيل الدم .. عبوس الوجه .. مقطّب الجبين .. إذا انفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة غليظة بانت معظم أسنانه المصفحة برقائق الذهب ... !

ولم يكن في وسع رئيس البعثة الحصيف إلا أن يرحّب بهذا السيد المبجل ويُجْلِسه خير مقعد في القافلة .. هو المقعد المجاور لرئيس البعثة في أول سيارة ... ! وقال لنا رئيس البعثة ذات يوم بأنه لم يرتكب خطأً كبيراً طوال مقامه في اليمن كالذي ارتكبه ساعة استوىٰ هو والسيد الزيدي ذو اللحية الحمراء علىٰ مقعد واحد في تلك السفرة من تعز الىٰ صنعاء .. ! ذلك لأن هذا السيد الزيدي المبجل لم ينطق بكلمة واحدة يحادث بها رئيس البعثة علىٰ طول تلك الطريق الشاقة بين البلدين .. ولمدة ثلاثة أيام بلياليها في أوعر الجبال والوديان ... !

كان عضو البعثة الرئيس محمد حسن يرافق رئيس البعثة في سيارته معظم الطريق .. وعلىٰ الرغم مما عُرِف عن الزميل محمد حسن من ذلاقة اللسان في التحدث مع الناس من مختلف الأجناس .. فقد ضاق ذرعاً بهذا السيد المبجل .. !

فحينما كانت سيارات القافلة تحجم عن اجتياز العقبات الصعبة في الطريق الذي أخذ يزداد وعورة وخطورة في مراحله الأخيرة ونضطر الىٰ الترجل من السيارات كافة .. كان هذا السيد الزيدي المبجل يحجم عن النزول من السيارة التي يُشغل فيها مقعداً الىٰ جانب رئيس البعثة .... !

وكم من مرة حاول الزميل عبد القادر الناظمي أن يفعل بهذا السيد المبجل ما سبق أن فعله مع أخينا المصري (عبد القادر علام) حتىٰ تمكن ونجح في ترويضه وجعله ينزل من السيارة ويساهم في مشقة اجتياز العقبات .. إلا أن (شيخنا محيي الدين) اوضح للناظمي بأن أمثال هذا السيد المبجل كثيرون في اليمن .. وهم أصل البلاء في تخلّف اليمن عن بقية العالم .. ومن الأفضل أن نتجاهله حتىٰ نصل الىٰ صنعاء ...

في تمام السابعة تحركت قافلة سيارات البعثة تريد (الحديدة) .. فاعترضتنا في الطريق عدة وديان .. وحيثما كنا نلتفت نرىٰ المدرجات الزراعية الخضراء .. فهي ولاشك مزارع العودَيْن : (البن) و (القات) .. وأشجار الفاكهة .. ولا غرابة في وجود كل هذه الخضراء .. فمع الجبال والوديان يأتي إكسير الحياة : (الماء – وجعلنا من الماء كل شيئ حيّ) .. ! وهكذا تكون منطقة (تعز) الحدّ الفاصل بين وحشة الأرض في (عدن) و (لحج) و (الراهدة) وبين نضارة الأرض في (تعز) و (حَيْس) و (زبيد) .. !

---

(١) معذرةً إن كنت قد أخطأت شيئاً في ذكر هذا الإسم اليمني .. فانني اكتب هذا الكتاب بعد انصرام (٤٥) خمسة وأربعين عاماً علىٰ وقائع هذا السفر...

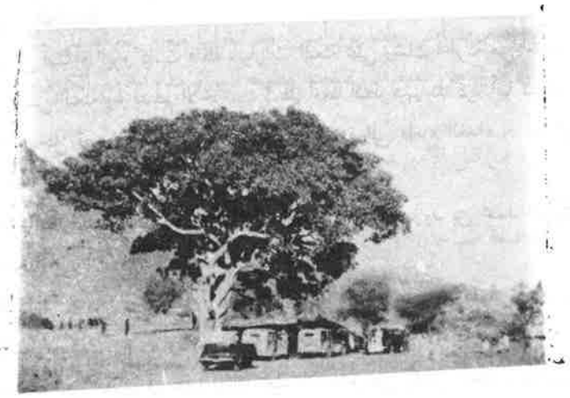

الصورة رقم (٤٨)
قافلة العنة تتوقف عند ينابيع عذبة تحت هذه
الشجرة المعمّرة بعد مغادرتها (تعز) بساعة
ونصف الساعة تقريباً ...

فاذا ما رفع المسافر نظره الىٰ أعالي الجبال من حواليه وجد التجمّعات السكنية الصغيرة من البيوت معلّقةً في ذرىٰ الجبال كأنها مجاثم النسور والعقبان ..

وبعد مسيرة ساعة ونصف تقريباً توقفت سيارات القافلة عند شجرة عظيمة تراها في الصورة رقم (٤٨) ..... حيث توجد ثلاثة عيون جارية تجود بالماء الغير .. وفي لحظات تجمهر من حولنا رجال وصبيان لاتدري من أي مكان انشقت عنهم الارض .. ولاشك في أن هؤلاء الناس قد شاهدوا فيما مضىٰ عدداً غير قليل من الأجانب الذين حملتهم هذه الطريق نفسها الىٰ عاصمة الزيود (صنعاء) .. فقد كان فيهم الانكليزي والايطالي والفرنسي في أزياء شتىٰ وهيئات مختلفة .. ولكن هؤلاء الناس الذين تجمهروا من حولنا اليوم لم يروا في حياتهم عراقياً واحداً بهذه الملابس العسكرية الخاصة .. ولقد ازداد فيهم العجب حينما استمعوا الينا ونحن نتكلم بالعربية ولو بلهجة مختلفة ... وعندئذ ازدادوا اطمئناناً فازدادوا قرباً وصاروا يتفرّسون في صورنا وهيئاتنا ثم ينظرون بين الحين والآخر الىٰ السيد المبجل القابع داخل السيارة ولايزيد أن يترجل منها .. ! لقد كان هؤلاء الناس البسطاء الذين تجمعوا حول القافلة هم في نظر السيد المبجل مجرد رعاع من أتباع المذهب الشافعي .. فهم ليسو سواءً مع الزيود .. !

وبعد وقفة دامت ربع ساعة عند هذه الشجرة الضخمة وينابيع الماء العذبة استأنفت القافلة مسيرتها في أرضٍ فرضت عليها الوديان المعترضة لها وعورةً خاصة مع حالة الانحدار التدريجي نحو البحر الأحمر .. حتىٰ وصلنا الىٰ مفرق طريق (تعز – الحديدة) – (تعز – المخا) الذي يبعد عن (تعز) حوالي (٦٥) كيلو متراً .. (راجع الخريطة رقم – ١ – ص ٢٢) . واعتباراً من هذا المفرق أخذت طبيعة الأرض تتبدل من الصخرية الجبلية الىٰ الترابية الرملية .. كما تبدلت معها حالة الطقس من الاعتدال الىٰ الحرارة .. وتبدلت أيضاً نوعية عقبات الطريق بالنسبة للسيارات .. حتىٰ وصلنا ظهراً الىٰ بلدة (حَيْس) الواقعة علىٰ مسافة (١٣٤) كيلو متر الىٰ الشمال الغربي من تعز . وتوقفنا عند (حيس) مقدار نصف ساعة ريثما تناولنا طعام الغداء الذي نحمله معنا .. ثم استأنفنا المسير .. ولم تتبدل طبيعة الارض كثيراً من بعد (حيس) حتىٰ وصلنا الىٰ مدينة (زبيد) التي تبعد عن (حيس) مسافة (٣٣) كيلو متراً تقريباً ..

كان وصولنا الىٰ (زبيد) في حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر .. وكان لابد لنا من التوقف في هذه البلدة المهمة لبعض الوقت .. فقد فاجأنا عامل المدينة ورجاله وبعض جنود الحرس باستقبال شعبي متواضع من دون طبول ولا أبواق ولا (زامل) .. ثم اصطحبنا معه

الىٰ دار الضيافة حيث قدم لنا أقداح قشر البن وأعرب عن أسفه لعدم توقفنا ومبيتنا في (زبيد) هذه الليلة .. فاوضح له رئيس البعثة بأننا قد تأخرنا كثيراً في (تعز) ولم يعد بامكاننا أن نتأخر اكثر من ذلك ..

ومدينة (زبيد) هذه لها ذكر حسن وأثر خالد في تاريخ اليمن .. ولذلك يجدر بنا أن نقدم للقارئ لمحة موجزة عن تاريخ هذه المدينة التي قلما عرف عنها الناس شيئاً خارج اليمن ..

إنك لو نظرت الىٰ (زبيد) من خارج أسوارها لظننت أنها إحدىٰ مدن القرون الوسطىٰ وقد برزت أمامك فجأة من بين صفحات التاريخ .. فأسوارها عالية وأبراجها عاتية تضم منصّات الرصد والحراسة .. والأبواب فيها حصينة ومنيعة .. فاذا دخلتَ فيها وجدت الحياة تجري في كل ناحية منها .. ومع ذلك فقد يعتريك شعور مثير بأنك قد رجعت خمسة قرون من الزمن الىٰ الوراء .. ولا عجب في ذلك ..

فقد كانت (زبيد) مركزاً أكاديمياً لجامعةٍ قيل بأن علم الجبر في الرياضيات كان قد نشأ فيها .. هذا فضلاً عن جمهرة علماء الفقه الاسلامي من السُنّة الذين تخرجوا في هذه المدينة العلمية علىٰ مرّ العصور .. فكان هؤلاء العلماء السنّيون الشافعيون في (زبيد) وعلماء الزيدية في (ذمار) يتناوبون عقد مجالس النقاش الفقهي العميق بين المذهبين .. وكانت مدينة (ذمار) هي معقّل الزيدية وموضع كرسيّها المذهبي ..

كانت (زبيد) قد اشتهرت بصناعة الاقمشة والثياب الجميلة صناعةً محلية بالأنوال الشرقية القديمة .. أما اليوم فزبيد مدينة زراعية متواضعة يسكنها حوالي خمسة الآف نسمة .. وهي أهم المناطق الزراعية في تهامة اليمن .. وذلك بفضل الوديان التي تحمل اليها مياه الأمطار الغزيرة .. أهمها وادي (زبيد) الذي ينحدر من الجبال الواقعة غربي منطقة (يريم) فيمر بمناطق هي في غاية الخصوبة الزراعية ثم ينتهي الىٰ البحر الاحمر غربي (زبيد) .. . وكذلك وادي (ريمة) الذي ينحدر اليها من جبال (آنس) ويمر بجبل (ريمة) ثم ينعطف نحو (زبيد) بمياهه الغزيرة .. ولذلك ازدهرت منطقة (زبيد) بأشجار النخيل المتنوعة الأصناف وأشجار الفاكهة وحتىٰ بعض الأزاهير العطرية ...

وفي (زبيد) بيوت للسكن أجمل منظراً من تلك التي شاهدناها في (تعز) .. مبنية بالآجر الاحمر والحجارة .. وقد يعلو بعضها الى ثلاثة طوابق .. ولكنها قليلة النوافذ بسبب العامل الأمني الذي تفرضه طبيعة الأحوال في هذه المنطقة ..

وتذكر المصادر التاريخية أن أول من اختط مدينة (زبيد) هو (محمد بن عبد الله بن زياد الأموي) عامل المأمون العباسي .. وكان ذلك في أواسط عام (٢٠٤ هـ) .. أما تفصيل ذلك فكما يلي :–

ثارت قبيلتان في وادي (زبيد) ضد العامل العباسي في صنعاء .. فأرسل الخليفة المأمون في بغداد (محمد بن عبد الله بن زياد الأموي) لقمع تلك الثورة واستعادة النظام .. ونجح ابن زياد ليس في قمع الثورة فحسب بل وأسس له دولة سميت فيما بعد بدولة بني زياد . واختط له مدينة (زبيد) لتكون عاصمة له .. واختار موقع المدينة قريباً من بئر وجامع أبي موسىٰ الأشعري ..

لم يكن محمد بن زياد مجرد رجل محارب . بل كان رجلاً متعلماً ومثقفاً ثقافة عالية فأراد أن يجعل دولته (دولة العلم) . وبالتعاون مع القاضي والمفتي التغلبي البغدادي تمكن من نشر حركة التعليم عن طريق الجامع الأشعري وأوجد مدارس عديدة ، ولم يكن في جامع الأشعري حتىٰ ذلك الوقت اكثر من مدرسة لتعليم العلوم القرآنية بعد تعليم القراءة والكتابة .. وكان عام (٢٠٤ هـ – ٨١٩ م) هو العام الذي وضع فيه أسس مدينة (زبيد) وجامع الاشعري ايضاً .. ويجب أن لانخطئ الفهم في تسمية هذه المدارس بالجامعة كما نفهمها في يومنا هذا . ولكنه بامكاننا اعتبار كل المؤسسات التعليمية البسيطة في (زبيد) هي بمثابة الجامعة . وكان يؤمها أناس من جميع أرجاء الجنوب العربي اليمني وتهامة وكانت لهم أماكن سكن في جامع الاشعري .. وكان تمويل الإنفاق علىٰ هذه المدارس يجري من واردات الأوقاف ..

وذاعت شهرة زبيد كمركز ثقافي وتعليمي وفق المذاهب السنّية وانتعشت حركة البحوث العلمية .. ومن المعتقد أن رجلاً يُدعىٰ (أحمد أبو موسىٰ الجلادي) كان قد ابتكر أسلوباً علمياً في الرياضيات أطلق عليه إسم "الجبر" .. وعندما فُتحت مدارس الأزهر الشهيرة في مصر عام (٩٧١ م) . وهي أيضاً تتبع المذاهب السنّية . فان عدداً من أساتذتها كانوا قد جاءوا اليها من (زبيد) .. !

علىٰ أن جامعة (زبيد) فقدت نشاطها الأكاديمي بعد زوال الدولة الزيادية وقيام الدولتين النجاحية والمهدوية (١٠١٣ – ١١٧٤ م) .. ولم تستعد ذلك النشاط إلا عندما قامت الدولة الايوبية التي استطاعت أن تحكم اليمن باجمعه كما أسلفنا في الحديث عن تاريخ مدينة (تعز) .. وعندما قامت الدولة الرسولية بعد الايوبيين (١٢٢٩ – ١٤٥٤ م) بلغ نشاط جامعة (زبيد) ذروته .. فقد كان فيها (٥٠٠٠) خمسة الآف طالب جاءوا اليها من جميع أقاليم الجنوب العربي والحبشة والصومال ليدرسوا في حوالي (٢٥٠) مدرسة وجامع .. وكان من

بين المواضيع الدراسية خمسة رئيسية هي : الشريعة الاسلامية والتاريخ والنحو والرياضيات والأدب .

وفي الوقت الذي كان فيه الأزهر يمثل المركز الروحي بين اقطار الشرق الاوسط . كانت جامعة (زبيد) الأشعرية تمثل المركز العلمي والثقافي بين أقطار الجنوب العربي . .

وانتكس نشاط جامعة (زبيد) مرة أخرىٰ بعد زوال الدولة الرسولية في الجنوب اليمني ، وخاصة إبان الاحتلال التركي العثماني الأول لليمن (١٥٣٨) . . ومع ذلك فان الرحالة الألماني (كارستن نيبور- Carsten Niehpur) الذي زار اليمن عام (١٧٦٣ م) كتب عن (زبيد) يقول : [... إن زبيد لاتزال مركزاً علمياً حيث يؤمها شباب من تهامة واليمن ليدرسوا فيها مختلف العلوم الدينية الخاصة بمذهبهم ...] ..

ولكن جامعة (زبيد) أو جامعة الأشعري التي كانت قد اشتهرت في يوم من الأيام .. وزمن من الأزمان .. لم يعدلها وجود في يومنا هذا .. ولم يبق منها غير جامع أبي موسىٰ الأشعري ... !

في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر غادرنا مدينة (زبيد) ... وبعد ساعة تقريباً تبدلت طبيعة الأرض تماماً .. وصارت السيارات هذه المرة تعاني من التغريز في الرمال .. ولم يخفف عنا هذه المشكلة سوىٰ كون السيارات كانت جديدة وقوية فضلاً عن كفاءة السائقين .. وكلما كنا نتوقف لهذا السبب أو ذاك تجمّع من حولنا أطفال وصبيان عراة «ربي كما خلقتني» .. وقد انتفخت بطونهم لأسباب مرضية .. أما رجال هذه المنطقة التهامية فقد كانوا شديدي سمرة البشرة الىٰ حدّ السواد .. وقد وضعوا علىٰ رؤوسهم القبعات القشيّة الكبيرة ذات التقبّب المخروطي المدبب .. فهؤلاء هم قبائل (الزرانيق) .. الذين أتعبوا الأئمة الزيود وقادة الجيش التركي العثماني ببسالتهم في الحرب .

والزرانيق من أشد القبائل التهامية بأساً واكثرها عدداً واكبرها قوة .. وأقلها صدقاً ووفاءً .. مهنتهم الوحيدة قطع الطرق والنهب والسلب والقرصنة البحرية بالسنابيك[1] ، كما يعملون في تهريب الأسلحة ويتاجرون بالرقيق ..

والزرانيق قسمان : زرانيق الشام – أي القسم الشمالي من تهامة اليمن ، وتستثنىٰ منهم قبيلة عربية مشهورة بالبأس وعزة الجانب هي قبيلة (القحراء) التي تنتشر ما بين وادي سهام ووادي سردود الىٰ الشمال من الحديدة .. وكل منتسبيها من الشوافع .

وزرانيق اليمن – أي القسم الجنوبي من تهامة اليمن ..

وكانت قوتهم تقرب من (١٠٫٠٠٠ – ١٥٫٠٠٠) بندقية ، ثلثاها عند زرانيق اليمن .. وكان الزرانيق في عهد الاتراك العثمانيين عصاة عتاة يتقاضون المشاهرات النقدية من الدولة العثمانية .. وبنفس الوقت يقطعون أسلاك البرق وينهبون في البر والبحر .. ولم يستطع أحد خضد شوكتهم وإذلالهم سوىٰ سيف الاسلام احمد بن الإمام يحيىٰ حميد الدين .. وكان ذلك في عام (١٩٢٨ م) واستغرقت حملته عليهم قرابة عامين ..

وبعد أن قطعنا نحواً من (٣٦) كيلو متراً وصلنا في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر الىٰ بلدة (بيت الفقيه) التي تُعتبر عاصمة الزرانيق .. ولم يكن هناك مايغري علىٰ التوقف عند هذه البلدة رغم أن في تسميتها بـ (بيت الفقية) مايسترعي النظر .. فقد قيل بأن هذه المدينة كانت قد سميت بأسم رجل يدعىٰ أحمد بن موسىٰ بن عُجَيْل من قبيلة (عك) التي تقطن في وادي (زبيد) .. وكان احمد بن موسىٰ كثير الأسفار في البلاد العربية ثم استقر اخيراً في هذا الموضع الذي نشأت فيه بلدة (بيت الفقيه) ، وسرعان ماتبعه أناس كثيرون استحسنوا فيه الارشاد الروحي والتعليم ... فلما توفي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر سميت المساكن القريبة من قبره بـ (بيت الفقيه) .. ثم شيدوا جامعاً أدخلوا فيه قبر احمد الفقيه .. ولايزال هذا الجامع يستعمل كُتّاباً لتعليم القران الكريم ..

وقد كان لبيت الفقيه فيما مضىٰ أهمية تجارية كبيرة عندما كانت (المخا) الميناء الأول لليمن علىٰ البحر الأحمر . . فلما أفل نجم (المخا) أفلت معه نجوم بقية المدن الساحلية في تهامة اليمن . . ومنها (بيت الفقية) .

كانت أمامنا (٥٣) كيلو متراً من الطريق الرملية القفراء يجب قطعها للوصول الىٰ نهاية مرحلة اليوم عند (الحُديدة) .. وقد وصلناها في الساعة الخامسة مساءً .. وكان في استقبالنا عند مدخل المدينة عامل الحديدة يومها السيد عبد الله أحمد الوزير وبرفقته عدد من رجال الحكومة وضباط الجيش .. وبفضل وصولنا المتأخر قبيل حلول الظلام تخلصنا من صخب الطبول والأبواق .. فدخلنا المدينة بهدوء

(١) السنابيك : جَمْع سنبوك وهو شكل من اشكال القوارب التي تعمل في البحر .. ويلفظها بعضهم (زمبوق) ..

وسكينة .. وذهب بنا عامل المدينة الىٰ دار الضيافة الكبير المطل علىٰ البحر الأحمر مباشرةً .. حيث خُصّص لإقامة البعثة جناح خاص من هذه الدار التي ستقضي فيها ثلاثة أيام كاملة .. عانينا خلالها أشد المعاناة من حرارة الطقس ورطوبة البحر ومرارة الانتظار وكان هذا الانتظار أشد علينا من حرارة الطقس .. ولم يكن في وسعنا أن نغير شيئاً من قواعد (البروتوكول المتوكلي) .. ذلك أن أمير الحديدة يومها (سيف الاسلام عبد الله) لايستطيع نفسه أن يأذن للبعثة بمواصلة السفر الىٰ صنعاء قبل أن يعرض أمر وصول البعثة الىٰ الحديدة علىٰ والده الإمام في صنعاء .. ومع ذلك فان هذا الإجراء لايستغرق في الواقع اكثر من يوم واحد نظراً لوجود السلك البرقي[1] مابين الحديدة وصنعاء وبين جميع مراكز الألوية الرئيسية في اليمن ..

الخميس – ٢٨ / ٣ / ١٩٤٠ – الحديدة (اليوم الأول بعد الوصول) .

منذ وصولنا الىٰ الحديدة مساء الأمس ونحن نفكر في الوسيلة التي تمكننا من اختصار فترة التوقف فيها .. وجاء عامل الحديدة لزيارتنا مبكراً صباح اليوم ونحن قد انتهينا لتوّنا من تناول الفطور .. وقبل أن ينصرف عنا كلّمه رئيس البعثة حول رغبتنا في استئناف السفر بأقصر وقت ممكن .. فقال العامل : [أنا ذاهب الآن الىٰ سمو الأمير لأنقل اليه رغبتكم ولو أنها تخالف رغبتنا .. فقد انتظرنا وصولكم إلينا بكل شوق .. والوقت لايزال متسع ...] ، فأوضح له رئيس البعثة بأننا قد تأخرنا في (تعز) كثيراً وأننا نفضل الوصول الىٰ صنعاء فقد طال علينا السفر ..، وانصرف العامل ..

وانقضىٰ هذا اليوم باستقبال الوافدين للسلام علىٰ هيئة البعثة في دار الضيافة .. وهذه الدار ذات طابقين ، طابق أرضي وطابق علوي .. وكِلا الطابقين يغلب عليهما طابع عمراني خاص لا هو يمني ١٠٠٪ ولا هو تركي ١٠٠٪ والظاهر أن يد الأحداث لها بالغ الأثر في تلوّن الطابع العمراني في هذه الدار .. ففي الوقت الذي نجد فيه الكثير من الطابع التركي علىٰ الواجهة العريضة الواسعة من الدار بما في ذلك طراز النوافذ والمشربيات الخشبية المُخرّمة .. فاننا نلاحظ أن الطابق الارضي من الداخل يغلب عليه الطابع اليمني من حيث نوعية بعض المرَافِق .. فيما عدا الأبواب الخشبية الرئيسية فانها ليست من الطابع اليمني ...

وحتىٰ نوعيات الطعام التي كانت تُقدّم في هذه الدار ذات عدة طوابع مختلفة .. كان بعضها يمنياً خالصاً .. وكان بعضها يكشف عن بصمات تركية .. وأخرىٰ هندية .. وأخرىٰ شبه إفرنجية ممسوخة ... !

ولاعجب في كل هذه الاختلاطات .. فقد كانت (الحُديدة) لفترة تاريخية طويلة تتقاذفها صروف الدهر .. فتارةً هي بيد الاتراك العثمانيين .. وتارةً بيد الانكليز .. وأخرى بيد الايطاليين .. وأخيراً بيد أهلها الأصليين .. ولقد ترك كل واحد من هؤلاء الأطراف غير المتجانسة بصماته التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والمعيشية وحتىٰ الأخلاقية علىٰ صفحات تاريخ هذه المدينة الساحلية المفتوحة .. ناهيك عن تعدد واختلاف الجنسيات والعرقيات التي تسكن هذه المدينة باعتبارها الميناء البحري الوحيد حالياً في اليمن ...

كان أول شيءٍ افتقدناه في (الحديدة) منذ أن غادرنا مدينة (تعز) هو صخب الطبول والأبواق و (الزامل) بالشدة التي كنا نسمعها في (تعز) .. والظاهر أن السبب في ذلك ربما يعود إلىٰ انعدام الأسوار والأبراج العالية في الحديدة ...

ميناء الحُديدة

عندما أبحر الرحالة الألماني (كارستن نيبور – carsten Niehbur) الىٰ اليمن في عام (١٧٦٣ م) كان قد القىٰ مراسيه في البلدة اليمنية الساحلية المسماة بـ (أللحّية) الواقعة علىٰ مسافة (١٣١) كيلومتر إلىٰ الشمال من الحديدة ، وقد وصف (اللّحية) و (المخا) بأنهما اكبر وأهم ميناءين في اليمن .. بينما ذكر (الحُديدة) ذكراً عرضياً ....

فالحُديدة هي من مدن القرن العشرين تقريباً .. والميناء الرئيسي لليمن حالياً علىٰ البحر الأحمر ..

والميناء فيها حوض صغير لا قيمة له من الوجهة العملية الفنية .. وليس فيه من مقومات الميناء بالمعنىٰ المعاصر اكثر من حاجزين للأمواج يمتدان داخل البحر أحدهما بوضع موازي للشاطئ والآخر يتعامد عليه .. وليس هناك أي ترابط بين الحاجزين . وإذا ما اقتربت إحدىٰ السفن الكبيرة ، وهذا ما لا يحدث إلا نادراً ، فإن عليها أن ترسو في عرض البحر .. وإلا تعرضت للإرتطام بالكتل المرجانية التي تكثر مستعمراتها عادةً في شواطئ البحر الأحمر .. وفي حالة رسوّ السفينة في عرض البحر يجري نقل الحمولات منها بواسطة السفن الشراعية

(١) السلك البرقي ، أو البرق السلكي ، هو (التلغراف) .. وقد تحدثنا عنه في آخر الفصل الأول من هذا الكتاب (لمحات جغرافية عن اليمن) ..

المتوسطة إلىٰ مسافة معينة ثم تتقدم **الزوارق** الشراعية الصغيرة لاستلام الحمولات من السفن الشراعية وتأتي بها قريباً من حاجز الميناء لتقوم قوارب التجذيف الصغيرة (السنابك) **بإتمام عملية النقل** الىٰ الشاطئ حيث يكون الحمالون . ومعظمهم من العبيد . ينتظرون عند الشاطئ لنقل الأحمال علىٰ ظهورهم الىٰ البرّ ... !

إنها عملية أعقد من ذنب الضبّ .. فلاعجب إذا ما فشل هذا الميناء في تقديم أية خدمة نافعة للاقتصاد اليمني بالشكل المطلوب ... .

بلدة الحديدة :

الحديدة قسمان : الأول هو البلدة الأصلية .

الثاني ـ هو عبارة عن قرية بدائية تقع الىٰ الجنوب من البلدة الأصلية .. وتسمىٰ بقرية الصيادين .. لأن أهلها يعملون في صيد الاسماك .. والبيوت فيها اكواخ من القشّ والطين كبقية اكواخ تهامة ..

ويربط بين القسمين طريق ساحلي بدائي يمتد من البحر الىٰ باب المدينة القديمة ثم ينعطف حول مجموعات من بيوت المدينة ويمر من جوار دار الإمارة ... .

والأسواق . أو سوق الحديدة . هي الاخرىٰ لا تزال تحمل طابع القرون الوسطىٰ بكل مظاهرها .. فتجار الجلود ـ مثلاً ـ لايرون بأساً من فرش الجلود الخام كيفما وحيثما اتفق لغرض تجفيفها في الشمس .. فلا يهمهم انسداد الطرقات وتعطيل حركة مرور الناس .. ولا يهمهم انتشار الروائح الكريهة .. وقد يضعون حارساً لحراسة هذه الجلود ليس خوفاً من السرّاق الآدميين .. بل خوفاً من الصقور والغربان التي تَنقضّ من حين الىٰ آخر لاختطاف احد الجلود التي لاتزال طرية بعد الذبح والسلخ في المجزرة .. وأية مجزرة ؟ إن جميع المدن في اليمن . ومنها الحديدة . لاعهد لها بالمجازر النظامية . ولانقول الحديثة .. . فالمجزرة عندهم مجرد بقعة من الأرض في العراء نصبوا فيها خوازيقاً ثلاثية من الأغصان الغليظة اليابسة علىٰ شكل هرم .. يذبحون عندها ويعلقون ويسلخون .. وينقلون الىٰ سوق اللحم .. أما نظافة المكان من بعد ذلك .. فقد تركوها أمانةً في عنق الطبيعة من شمسٍ وهواءٍ ومطرٍ وغربانٍ وصقورٍ ونسور ... ! (راجع **الصورتين رقم ـ ١٧ و ١٨ علىٰ التوالي**) ..

وليس تجار الجلود وحدهم أصحاب الامتياز في تعطيل حركة المرور في الاسواق والحارات والطرقات .. بل هناك ايضا بائعو الحبوب الذين يفرشون الارض بالحصير ويكدّسون عليها الحبوب .. ويقومون بعمليات التعبئة في الزكائب والغرائر ... !

والطرق المؤدية الىٰ السوق تتنافس عليها قوافل الجمال والحمير يزيد أصحابها تنزيل أحمالهم مباشرةً أمام الدكاكين والحوانيت .. وعندئذ يعلو رُغاء الجِمال ونهيق الحمير وصراخ الحمالين مع أصحاب الجمال والحوانيت .. فتغار كلاب أصحاب القوافل علىٰ سادتها فيشتد عواء الكلاب .. وبذلك تكتمل كافة أبعاد هذه الصورة الحية الناطقة عن حالة الاسواق في ثغر اليمن السعيد عند شاطئ البحر الأحمر . .. !

وكل هذا الصخب والضجيج لايزعج اولئك الناس الجالسين عند حواشي السوق يستمتعون بتدخين التنباك في (المداعات) القذرة ... وكأنهم جالسين علىٰ شواطئ الريفيرا الزرقاء ... !

فإن بقيت هناك فسحة من طرق أو حارة خالية من الجلود والحبوب والجمال والحمير والكلاب .. أسرع اليها بعض الأهالي لإقامة حفلة عرس أو ختان أو غير ذلك .. فيفرشون المكان بالحصير والبُسط والسجاجيد الملونة حتىٰ يصبح ذلك المكان علىٰ هيئة صالة تليق باستقبال حضرات المدعوين من السادة والسيدات . ... !

تُرىٰ .. هل هنالك في العالم كله ميناء بحري واحد يطاول ميناء (الحديدة) في هذا الجاه العريض والمجد التليد ... ؟ !

ومناخ الحديدة مناخ تهامي .. حار جداً ورطب جداً حتىٰ في فصل الشتاء .. ومع ذلك فان للحديدة حمّام للشفاء ذو مياه معدنية ساخنة تقع علىٰ مسافة (٧٠) سبعين كيلومتراً الىٰ الشرق من الحديدة تسمىٰ (السُّخْنَة) .. فهي إسم علىٰ مسمىٰ . يقصدها المرضىٰ من الناس للاستشفاء .. وكأنهم ذاهبون الىٰ حمّامات (أبا نو ترمي) الشهيرة في شمال إيطاليا ... . !

وليس في الحديدة أي مشروع لإسالة مياه الشرب أو الإنارة بالكهرباء .. بل يُنقل اليها ماء الشرب علىٰ ظهور الإبل من مسافة (٨٠) ثمانين ميلاً باتجاه الشرق حيث توجد بعض الينابيع عند سفوح المنحدرات الغربية . ..

يبلغ عدد سكان الحديدة نحواً من (١٠٠ر٠٠٠) مائة ألف نسمة كما قيل .. ولكننا نستكثر هذا العدد .. وربما كان الرقم (٦٠ر٠٠٠) ستين ألفا هو الأقرب للصحة .. لأن مدينةً في مثل هذه الحالة السيئة لا تشجع بني البشر علىٰ الاقتراب منها فضلاً عن السكن فيها . .. !

ومعظم سكان الحديدة من الفقراء الأغراب .. يعيشون علىٰ صيد الاسماك وأشغال الميناء الشاقة .. ولا زراعة في هذه المنطقة .. ومع ذلك فالحديدة ـ حالياً ـ هي المستودع الرئيسي للبن اليمني .. وكان التجار اليونانيون يحتكرون تصدير البن اليمني الىٰ الخارج ..

وعلىٰ شاطئ البحر تقوم بيوت التجار . وبيوت بعض الأجانب من الروس والهنود .. وكذلك **قصر عامل الحديدة** الذي يرتفع عن غيره من البيوت المجاورة .. وهو مطلي من الخارج بالجبس الأبيض تقليداً لبيوت صنعاء .. ولكن ثمة ما يُفسد جمال هذا البيت من الخلف ـ مباشرةً .. حيث يقع (السجن) الكئيب .. ونزلاؤه غالباً من أفراد قبيلة الزرانيق الذين تحدثنا عنهم آنفاً .. وهؤلاء السجناء غالباً ما يُساقون من محبسهم الىٰ شاطئ البحر لأجل الاستحمام وهم يجرّون قيودهم وأصفادهم الحديدية فتُحدث أصواتاً كئيبةً وحزينة يسمعها الناس من بعيد قبل أن تقع أعينهم علىٰ السجناء التعساء ... !

الجمعة ـ ٢٩ / ٣ / ١٩٤٠ ـ الحديدة (اليوم الثاني بعد الوصول) .

في حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحاً وصل إلينا في دار الضيافة عامل الحديدة السيد عبد الله الوزير وهو يحمل الىٰ رئيس البعثة دعوةً من أمير الحديدة (سيف الاسلام عبد الله) لحضور مأدبة غداء في دار الإمارة بالساعة الثانية بعد ظهر اليوم .. وكانت هذه الدعوة بمثابة إجابة علىٰ رغبة رئيس البعثة باستئناف السفر ....

وذهبنا في الوقت المناسب لتلبية الدعوة بصحبة عامل الحديدة .. وعند وصولنا الىٰ دار الإمارة استقبلنا عدد من رجال الأمير ثم دخلنا وإياهم الىٰ صالة الاستقبال حيث رحبّ الأمير بوصولنا وعبرّ عن مشاعره الطيبة تجاه وصول البعثة الىٰ اليمن .. وأشار تلميحاً بأنه كان يود بقاءنا الىٰ جانبه في الحديدة لفترة أطول ثم استدرك يبرر استعجالنا بالسفر بسبب حالة الطقس في الحديدة ..

كانت مائدة الطعام عند هذا الأمير هي الأخرىٰ تضم ألواناً من الأطعمة اليمنية والتركية المشوّهة .. ولكن شيئاً واحداً لم يتغير طابعه في هذا المكان ألاَ وهو ماء الشرب المُبَخر بالعود الهندي .. ! وقد ظل هذا الشيء لا يتغير في كل مدينة باليمن .. وكأنه القاسم المشترك الأعظم بين الجميع .. !

وبعد الانتهاء من تناول الطعام عُدنا الىٰ صالة الاستقبال حيث أُديرت علىٰ الحاضرين أقداح قشر البن .. والشاي أيضاً .. فكان حضور الشاي هذه المرة يشير الىٰ دقة الملاحظة لدىٰ المضيفين الذين لاشك أنهم قد تعلّموا ذلك من كثرة تردد الزوار الأجانب علىٰ الحديدة .. !

وكانت آخر كلمات رئيس البعثة مع الأمير هي طلب الاستئذان باستئناف السفر .. فرّد الأمير قائلاً : [ولكن ليس قبل أن تشهدوا عرضاً عسكرياً يقام يوم غدٍ السبت تكريماً لكم .. وبنفس الوقت ستكون فرصة مناسبة لكم لكي تطلعوا علىٰ حالة الجيش اليمني في الحديدة قبل أن تذهبوا الىٰ صنعاء ..] . فابتسم رئيس البعثة ثم قال للأمير : [حُجّتكم دامغة ياسمو الأمير .. ونؤجل السفر ليبعد غدٍ إن شاء الله] .. ثم قمنا للانصراف .. فودّعنا الأمير ورجاله حتىٰ الباب الخارجية . ..

السبت ـ ٣٠ / ٣ / ١٩٤٠ ـ الحديدة (اليوم الثالث والأخير) .

أراد أمير الحديدة سيف الاسلام عبد الله بن الإمام يحيىٰ أن يُرينا صورة نموذجية من الجيش اليمني المرابط في الحديدة .. ولاشك أنه قد أراد ذلك بوصفه رئيساً للمجلس العسكري الأعلى في حكومة الإمام رغم إقامته في الحديدة ... ! وقد تطرّقنا الىٰ هذا الموضوع في **الفصل** الثالث عند كلامنا عن نظام الحكم في اليمن .. حيث قلنا بأن هذا الأمير (صاحبُ سبع صنايع) .. فهو أمير علىٰ الحديدة . ووزير للمعارف . ورئيس للمجلس العسكري الأعلىٰ . ومندوب لوالده الإمام الىٰ المؤتمرات العربية والدولية ... !

في الساعة السابعة من صباح اليوم ذهبنا الىٰ مكان الاستعراض المجاور للثكنة العسكرية المؤلفة من أعشاش طويلة تشبه المسقفات الجملونية (البنا كل) ـ أنظر الصورة رقم (٤٩) ..

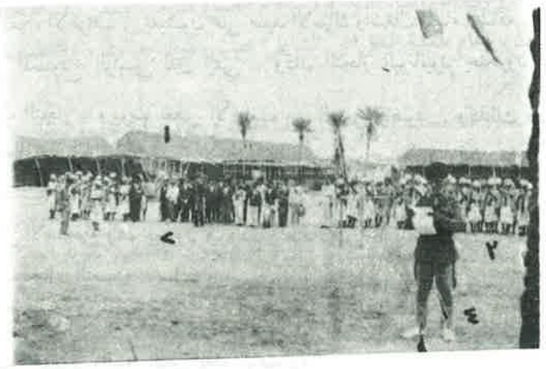

الصورة رقم (٤٩)
أعشاش الثكنة العسكرية في (الحُديدة)

١ ـ هذه هي العُشَّة الواحدة .. التي تمثل القاعة .. !
٢ ـ الجوق الموسيقي .. في وضع الإسترخاء .... !
٣ ـ كتلة بشرية تُسمىٰ بالجيش تنتظر القيام بشيئ يُسمىٰ الاستعراض .. !
٤ ـ أتراه .. عريف الحفل .. ؟ أم آمر الاستعراض ..؟
التفاصيل في الصفحة ٢٣٧

وهذا الطراز من العَرافِق السكنية في ثكنة عسكرية قد يلائم حالة المناخ القاسية في الحديدة .. ولكنه أبداً ليس بأفضل الحلول .. لأن هذا الطراز من المرافق لا يلائم المقتضيات العسكرية من جميع الوجوه ...

كانت هناك منصّة خاصة لجلوس المدعوين مزينة بالأعلام اليمنية فقط .. ليس بينها علم عراقي واحد .. ولاندري كيف غاب ذلك عن ذاكرة الأمير ورئيس المجلس العسكري الأعلىٰ .. وهو بنفس الوقت وزير معارف ومندوب حكومته الىٰ المؤتمرات العربية والدولية ... ؟ ! (أنظر الصورتين رقم ـ ٥٠ و ٥١) ..

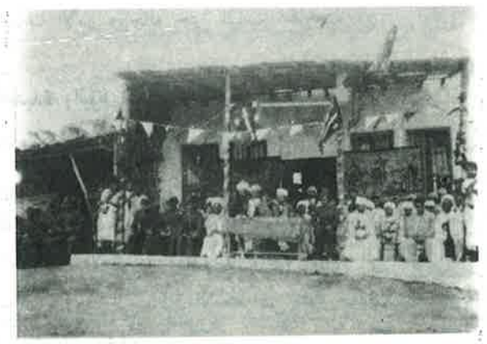

الصورة رقم (٥٠)
منصّة الإستعراض (الحُديدة) .

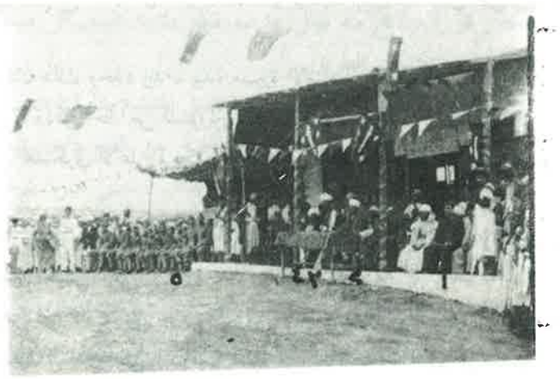

الصورة رقم (٥١)
صورة أخرى لمنصة الاستعراض (الحُديدة)

١ ـ الملازم سيف الدين سعيد .. ولم تظهر صورة بقية ضباط البعثة بوضوح .
ولكنني أستطيع أن أميز صورة رئيس البعثة جالساً
خلف سيف الاسلام عبد الله ، والرئيس جمال جميل
الىٰ يمين المنضدة .
٢ ـ سيف الاسلام عبد الله ـ أمير الحديدة .
٣ ـ السيد عبد الله احمد الوزير ـ عامل الحديدة .
٤ ـ السيد الزيدي صاحب اللحية المُحَمَّرة بالحناء ... !
٥ ـ ضباط صف البعثة العسكرية العراقية .

كان المقرر أن يبدأ العرض في الساعة السابعة والنصف صباحاً .. ولكن أمير الحديدة ورئيس المجلس العسكري الأعلىٰ لم يصل الىٰ موقع الاستعراض إلا في الساعة الثامنة وبرفقته عامل الحديدة السيد عبد الله أحمد الوزير وبعض خاصّته من موظفي الإمارة .. ! وما أشد دهشتنا حينَ وقعت انظارنا علىٰ السيد الزيدي (القاضي زيد بن محمد الحرثي) ذو اللحية الحمراء الذي أردفه الجبلي الىٰ قافلتنا من (تعز) قبل ثلاثة أيام (راجع مذكرة يوم الاربعاء ـ ٢٧ / ٣ / ١٩٤٠ ص ٢٢٩) .. لقد جاء هذا السيد الزيدي في معية أمير الحديدة وعامل الحُديدة صنعاء .. ثم جلس عن يمين الأخير فوق منصة المتفرجين كما هو ظاهر في الصورة رقم (٥١) ..

وبوصول الأمير ورهطه الىٰ مكان الاستعراض عزفت جوقة الموسيقي العسكرية بآلاتها النحاسية المستهلكة لحناً مبحوحاً يخدش الآذان ... لاشك وأنه السلام الأميري الذي لايفهمه إلا الراسخون في علم الألحان القديمة ... !

وكان لهذا الاستعراض افتتاح خطابي .. حيث برز الىٰ ميدان العرض ضابط يمني مخضرم بين العهدين التركي العثماني واليمني المتوكلي .. وكان هذا الضابط (كما يظهر في الصورة رقم (٤٩) ... يرتدي (القلباغ) العثماني في رأسه .. مع سترة (فْراك) انكليزية مدنية وسروال (جوت بوت) انكليزي عسكري .. وحذاء رياضة خفيف أبيض اللون .. إنه لنموذج مألوف في الجيش اليمني المتوكلي ..

كان هذا النموذج (الضابط) في الستين من عمره .. وهو قائد حامية الحديدة إن صح التعبير .. خرج من حيث لا ندري الىٰ ساحة العرض ووقف علىٰ مسافة خمسين متراً عن منصة المتفرجين .. ثم استخرج من أحد جيوبه صفحة كبيرة من الورق ، وهو أمرٌ غير مألوف في اليمن لأن ذلك يُعتبر تبذيراً في الورق .. ، وبدأ يقرأ مما فيها .. وكان مضمون الخطاب ولاشك يرحب بالأمير ثم برجال البعثة العسكرية العراقية .. ولكن صوت هذا الضابط العجوز لم يصل إلىٰ أذن أحد من الجالسين فوق منصة المتفرجين أو من حولها ... !

وعلىٰ كل حال .. فقد انتهىٰ الرجل مشكوراً من تلاوة الخطاب .. وصفّق له العساكر وبعض المتفرجين .. وأستعدت الوحدات العسكرية للانطلاق بمسيرة الاستعراض .. وتقدمت (جوقة الموسيقىٰ الأثرية ..) الىٰ وسط ميدان العرض .. ثم سمعنا أصواتاً توحىٰ بأنها

إيعازات عسكرية خاصة بحركات السلاح .. ولكن تنفيذ تلك الايعازات كان يبعث ليس علىٰ الضحك فحسب .. بل وعلىٰ اليأس أيضاً ... !

وعزفت جوقة الموسيقىٰ .. فكان ذلك وحده إيذاناً ببدء مسيرة الاستعراض .. وصارت كراديس الجنود تتعاقب مروراً أمام منصة المتفرجين وتؤدي التحية كيفما اتفق .. ولكن أحداً من المسؤولين لم يقف علىٰ قدميه لردّ التحية علىٰ تلك الكراديس المتكردسة في المسير .. ولا أشكّ بتاتاً في أن رئيس المجلس العسكري الأعلىٰ لم يكن يعرف هذه الأصول في الاستعراضات العسكرية .. وأنّىٰ له أن يعرف ذلك .. !

لم يشترك في هذا الاستعراض سوى وحدات المشاة .. ولم نعرف أين صارت وحدات (الطوبجية) ـ أي المدفعية ـ وأين صارت (وحدات الرشاش) علىٰ حدّ تعبير الجيش اليمني ... ؟ !

أما نوعية مسير الجنود في العرض فقد كانت علىٰ جانب كبير من عدم الإنضباط والسيطرة .. فقلّما شاهدتُ أربعةأنفار منهم يمشون في خطوة موحدة ... ! وكانت وضعية البنادق علىٰ اكتافهم أسوأ من حركات أقدامهم في المسير ...

وكانت قيافة الضباط وهيئاتهم أردأ حالاً من قيافة قائد الحامية التي وصفناها آنفاً .. ولقد كان وصْفنا لها بتحفّظ شديد ..

وإنك لوفتشت كافة ضباط الجيش اليمني يومذاك لما استطعت أن تظفر بضابطين اثنين في قيافة واحدة .. أللهم إلا اولئك الضباط القلائل الذي كانوا قد عادوا من العراق بعد تخرّجهم في المدرسة العسكرية الملكية العراقية .. وحتىٰ هؤلاء فقد كانت ملابسهم العسكرية العراقية قد أوشكت علىٰ الاستهلاك ... !

وهكذا انتهىٰ ذلك الاستعراض المرتجل دون أن يحقق شيئاً من أحلام الأمير .. ومع ذلك فقد التفت الىٰ رئيس البعثة العسكرية العراقية الجالس عن شماله يسأله عن رأيه فيما شاهده من الاستعراض .. فرأيتُ الرئيس يبتسم له ويقول : [إنه استعراض رائع سمو الأمير .. ولكن هل الجيش اليمني كله علىٰ هذه الشاكلة .. ؟] ..

فردّ الأمير يقول : [نعم .. كله والحمد لله علىٰ هذه الشاكلة .. ونرجو أن يكون علىٰ أيديكم خيراً من ذلك إن شاء الله ..] .

ثم انصرف القوم .. وانصرفنا معهم ونحن نفكر سلفاً بالذي ينتظرنا من مشاكل هذا الجيش بعد الوصول الىٰ صنعاء .. !

الأحد – ٣١ / ٣ / ١٩٤٠ – الحديدة – عُبال . (راجع الخريطة رقم – ١ – ص ٢٢) .

في الساعة العاشرة قبل ظهر اليوم تحركت قافلة سيارات البعثة من (الحديدة) تريد بلدة (باجل) علىٰ مسافة (٥٧) كيلومتراً ومنها الىٰ بلدة (عُبال) علىٰ مسافة (٣٨) كيلومتراً من (باجل) ، وعند (عبال) تنتهي مرحلة اليوم في الطريق الىٰ (صنعاء) ..

كانت السيارات تعقب طريقاً ساحلية باتجاه الشمال والشمال الشرقي ، وكانت هذه الطريق قفراء موحشة لايرى الانسان علىٰ جانبيها غير نخيلات هزيلة .. وبعض شجر الدوم القريب من ساحل البحر .. فاذا نظر الانسان اليها من بعيد ظن أنها تنبت وتبرز من مياه البحر ..

بعد مسيرة نصف ساعة تقريباً انعطفت الطريق قليلاً با تجاه شمال الشرقي .. فاعترضتنا بعض الكثبان الرملية التي أعاقت سير السيارات .. وأتعبتنا لبعض الوقت .. ثم بدأت الارض ترتفع تدريجياً بعد أن اختفت الكثبان الرملية .. وظهرت أمامنا وديان فرعية متعاقبة .. واعتباراً من هذا المكان اتضحت معالم اليمن الجغرافية وطبيعتها وهي تشير الىٰ ما فيها من تربة زراعية خصبة ..

وعندما وصلنا الىٰ (باجل) لم نتوقف عندها .. بل مررنا بها مروراً عابراً نريد نهاية المرحلة في (عُبال) .. وستكون لنا عودة للحديث عن (باجل) بعد ثلاثة أعوام في طريق عودتنا من اليمن الىٰ أرض الوطن .. العراق ..

ومما يجدر ذكره هنا هو أن مراحل السفر علىٰ هذه الطرق البدائية جداً لاتقررها المسافات بالكيلومتر ولاسرعة السيارة .. إنما تقررها طبيعة الارض والا ماكن التي تصلح للتوقف عندها .. لذلك كان انتهاء مرحلة اليوم عند (عُبال) أمرٌ تقرره حالة الطريق من بعد (عُبال) كما سنرى بعد قليل ..

وصلنا الىٰ بلدة (عبال) في حوالي الساعة الواحدة ظهراً .. فلما ألقيتُ عليها نظرة فاحصة عجبت أشد العجب لاختيار هذه القرية البدائية نهاية مرحلة يومية في الطريق الىٰ صنعاء .. بينما الظاهر من بلدة (باجل) التي مررنا بها مروراً عابراً يوحي بأنها بلدة تفوق قرية (عبال) في كل شيء يتعلق بحاجة المسافر من مأوىٰ وراحة ومنام وطعام .. أضف الىٰ ذلك أن المسافة مابين (باجل) و (عُبال) لاتزيد عن (٤٠) كيلو متراً

علىٰ الخريطة .. ثم عَلمنا أن سبب اختيار (عُبال) نهاية مرحلة علىٰ هذا الطريق بالذات هو موقعها عند تقاطع الطريق بوادي (سهام) الذي غالباً مايتعرض للفيضان عند هطول أمطار غزيرة فيندفع منه سيل جارف يقطع طريق السفر الىٰ صنعاء .. ففي مثل هذه الحالة يمكن اللجوء الىٰ (عُبال) ريثما تخف حدة السيل وينكشف الطريق ..

وعلىٰ كل حال .. فقد وصلنا الىٰ (عُبال) وتقرر مبيتنا فيها .. فلما جاء الليل افترشنا مفارشنا العسكرية السفرية في العراء .. تحت السماء الدنيا بنجومها وكواكبها ومجرّاتها .. وكان ذلك ألف ألف مرة أفضل من النوم داخل العُشش أو الاكواخ التهامية .. !

وعلىٰ الرغم من التماسنا النوم في العراء فقد عزّ علينا النوم في تلك الليلة .. حتىٰ صرنا نترحم علىٰ الليلة التي لم ننمها في (الراهدة) ... ! لقد هاجمتنا أنواع الحشرات والهوام .. ولم تنفع معها الكُلّل (الناموسيات) التي سبق وأن استخرجناها من صناديق السفر في (تعز) بعد التجربة القاسية التي مرت بنا في (الراهدة) ..

إن (عُبال) قرية صغيرة تشبه الىٰ حد كبير القرىٰ الافريقية عبر البحر الأحمر ... وأهلها كذلك يشبهون الأفارقة ... وترىٰ أطفالهم يركضون في دروبها الضيقة حفاة عراة .. ومعظم بيوتها من القش والطين .. وربما كان فيها بعض البيوت المبنية جدرانها بالحجارة وسقوفها من الأغصان والقش .. لذلك تكثر الهوام والحشرات الضارة في هذه البيوت .. ويستحيل علىٰ الإنسان من غير أهل البلاد أن ينام في الليل حتىٰ ولو استعصم بعشرين ناموسية .. !

وأهل (عُبال) غالباً ينامون علىٰ الارض .. والقليل منهم من ينام علىٰ شيءٍ يشبه السرير يسمونه (العنقريب) وهو عبارة عن أربعة قوائم غليظة من اغصان الشجر تربطها عوارض خشبية أيضاً .. أما موضع الفراش فيكون علىٰ هيئة شبكة منسوجة من حبال الليف .. أما أطفالهم فينامون في ارجوحات صغيرة معلقة بين قوائم العنقريب ..

وأهل (عُبال) ليلاً لا يعرفون غير مصابيح الزيت .. وترىٰ شبابهم ورجالهم يشبهون العرب في سائر الأقطار من ناحيتين : يتكحّلون ويتطيّبون .. وفيما عدا ذلك يختلفون .. فالشبان لهم شعور طويلة مجعّدة مصفوفة يحسبهم الجاهل إناثاً لولا الشوارب والعضلات وضخامة الصوت .. فهم يدهنون شعورهم بالزيت ويربطونها بشرائط من القماش أو الجلد .. ويغرسون في طياتها الريش أو الأزاهير أو الريحان .. ويشذبون شعورهم كالنساء .. أما ملابسهم فهي (الفوطة) يتزرون بها كسكان (الحج) في الجنوب .. وقد تكون الفوطة طويلة ملونة ومخططة فيشدونها علىٰ الوركين ويرتدون فوقها صدرية بيضاء يفصل بينها وبين الفوطة زنار من القماش أو الجلد لتثبيت الخنجر وخرطوش البنادق ..

وأهل (عُبال) كبقية سكان تهامة .. رجالهم ونساؤهم وشبابهم يحمون رؤوسهم من شمس تهامة الحارقة بارتداء القبعات المستديرة ذات الأطراف الواسعة و (القُبّع) العالي المدبب .. وهم يصنعونها من القشّ اللين ويكون نسيجها متراخياً لكي يساعد علىٰ تسرّب الهواء ..

وآخر ما يفعله شباب (عُبال) ورجالها هو تخضيب أرجلهم بالحناء .. وبهذا فهم لا يتركون لنسائهم من هذه الامور إلا القليل ... !

الاثنين – ١ / ٤ / ١٩٤٠ – عبال .

لقد قضينا ليلة أمس بكاملها ما بين تهويمةٍ وإغفاءةٍ وأرق .. فلا أذكر أن شيئاً من السّحاب حجب عني كواكب السماء ونجومها المتلألئة .. ولكنْ .. ما أن انبلج الصبح حتىٰ تلبدت السماء فوق رؤوسنا بالسّحب يزحُم بعضها بعضا .. فأسرعنا بالتهيؤ للحركة علّنا ندرك تقاطع الطريق بوادي سهام فنجتازه قبل انهمار المطر ومداهمة السيل لنقطة العبور ..

ولكن الأمطار في اليمن لا تنزل علىٰ مهلٍ واستحياءٍ وخجل .. ولا تنهمر كأفواه القِرَب .. إنما تنحطّ سيلاً عارماً وهي لا تزال في الفضاء ثم تقع علىٰ الارض وقعةً واحدة فتكتسح كل شيءٍ سائب علىٰ الارض .. حتىٰ ولو كان هذا الشيءُ سيارة مشحونة بالركّاب .. !

ولم نكد نصل الىٰ نقطة العبور في أسفل الوادي حتىٰ أصبح الماء بارتفاع نصف قطر العجلات من السيارة الأمامية التي يركب فيها رئيس البعثة .. ! فتوقفت كل السيارات عن الحركة .. وبعد لحظات قليلة شاهدنا سيارة الرئيس تستدير الىٰ الخلف باتجاه (عُبال) .. وعندها صار كل سائق يتسابق مع القدر .. ويرغم العجلة علىٰ الاستدارة في لُجّة السيل .. ولحسن الحظ أن سيارة الحمل (اللوري ٣ / طن) المحمّلة بعفش البعثة كانت لا تزال تقف عند حافة الوادي من جهة (عُبال) .. وخلال ربع ساعة تقريباً تمكنت سيارات القافلة من العودة ثانية الىٰ(عُبال) وتقرر المبيت فيها لليلة اخرىٰ إذا استمر سيل الوادي بالجريان الىٰ ما بعد الظهر .. ولكن السيل استمر

وازداد ارتفاعاً وشدةً في بطن الوادي حتىٰ ظننا أنه لن ينحسر عنه قبل يومين أو ثلاث . . ولكن ما إنْ جاء وقت العصر حتىٰ توقف انهمار المطر وخف السيل وانقشعت السُحب الداكنة عن صفحة السماء . . وكأن شيئاً لم يحدث علىٰ الاطلاق في هذا الوادي العظيم . . وادي سهام . . !

ولكن الوقت كان قد فات لاستئناف السفر . . لأن ثمة مانع آخر كان يحول بيننا وبين نهاية المرحلة اليومية . . لا يقل خطورة عن (سيل العَرِم) في وادي سهام . . ذلك هو بعوض الملاريا الخبيثة المستوطنة منذ زمن بعيد في منطقة (مدينة العبيد) التي تبعد عن (عُبال) حوالي (٧٠) كيلو متراً . . .

والحقيقة أن المنطقة الكائنة ما بين (عُبال) و(مدينة العبيد) كلها موبوءة ببعوض الملاريا . . إلا أن (مدينة العبيد) أشد وباءً . . لذلك كان سكان هذه المنطقة في غاية الضعف والهزال . . وبطونهم منتفخة وآثار الحمىٰ بادية علىٰ وجوههم . .

وهناك حقيقة جغرافية ثابتة هي أن جميع المناطق الواقعة عند سفوح الجبال الغربية هي مناطق غير صحية لأن كثرة الوديان والأغوار تؤدي الىٰ ركود المياه علىٰ شكل مستنقعات . . يضاف الىٰ ذلك ارتفاع درجات الحرارة . . كل هذا يشكل بيئة صالحة لتكاثر وانتشار بعوض الملاريا .

لذلك تقرر مبيتنا ليلةً ثانية في (عُبال) ثم ننظر ما يكشف عنه صباح الغد من جديد . . وقد كنت شخصيا أفضل العودة الىٰ (باجل) والمبيت فيها بدلاً من (عُبال) . . خاصةً وأن المسافة بينهما قليلة حوالي (٤٠) كيلو متراً . . والمبيت في (باجل) أفضل ألف مرة من السهر والأرق والهوام والحشرات في (عُبال) . .

الثلاثاء - ٢ / ٤ / ١٩٤٠ - عُبال - مدينة العبيد - حمام العليل .

كان صباح اليوم مشرقاً والحمد لله . . فأسرعنا بالرحيل من (عُبال) . . وعندما اقتربنا من نقطة تقاطع الطريق مع الوادي كانت بقية باقية من مياه السيل لا تزال تترقرق بين الصخور في قعر الوادي . .

وبعد اجتياز العُدْوَة القصوىٰ من الوادي بنصف ساعة تقريباً بدأت سيارات القافلة تقترب شيئاً فشيئاً من بداية السفوح الغربية لهضبة اليمن . . ولكن عدداً من الوديان الفرعية المتشعبة من وادي سهام الكبير كانت تعترض الطريق الوحيد الذي تسلكه سيارات القافلة . . وكان هذا الجزء من الطريق يمر أحياناً في أماكن منخفضة إنحبست فيها بعض مياه الأمطار . . ولكنها لم تشكل عائقاً كبيراً لمرور السيارات . . وبعد ساعتين تقريباً من المسير البطيء كثرت من حولنا المنخفضات الارضية أو الأغوار المغمورة بمياه راكدة قذرة . . فادركنا أننا أوشكنا علىٰ الوصول الىٰ (مدينة العبيد) . . وما هي ألا بضع عشرة دقيقة حتىٰ بانت لنا بيوتها الحجرية البدائية . . ولكننا لم نتوقف عندها لحظة واحدة بسبب سُمعتها الصحية السيئة . . إلا أن سائق سيارتنا أتحفنا بهذه المعلومات التالية عن (مدينة العبيد) فقال بما يعني : [إن هذه المدينة التي تُسرعون في اجتيازها تنعقد فيها سوق أسبوعية يصل اليها رجال القبائل المجاورة للمقايضة علىٰ مواشيهم بما يحتاجونه من السكر وقشر البن والكيروسين والملح والأنعلة وبعض الاقمشة والملابس . .

وأن في بعض الأودية المجاورة التي تعترض الطريق الىٰ الهضبة توجد مجموعات صغيرة من القرود التي حين تجفل من رؤية المسافرين تفرّ الىٰ أعالي الجبال المشرفة علىٰ الطريق . . حتىٰ إذا اطمأنت وشعرت بالأمان أطلقت من حناجرها صرخات عالية غاضبة وكأنها تعلن لعنتها علىٰ سيارات المسافرين الذين أزعجوها في باطن الوديان . .] . .

لم يكد سائق السيارة ينتهي من حديثه عن القردة . . حتىٰ أخذت وعورة الطريق تشتد . . واشتدت معها معاناة السيارات . . حتىٰ هبط معدل سرعة السير الىٰ سبع أو عشر كيلو مترات في الساعة . . وكان علينا أن نتقيد بسرعة سيارة الحمل (اللوري ٣ / طن) التي تحمل عفش البعثة . . . وإن الصورة الفوتغرافية رقم (٥٢) تمثل إحدىٰ العقبات الكأداء التي كانت تعترض طريق السيارات . . ونشاهد زميل البعثة الرئيس جمال جميل وقد اعتلىٰ هذه الصخرة الهائلة وهو يشير بذراعه الىٰ قرية (عُبال) التي أصبحت تُرىٰ من فوق هذه الصخرة وكأنها بقايا سفينة شراعية غاطسة في مياه البحر الأحمر . . ويشير الىٰ (مدينة العبيد) وكأنها كدس من الأحجار المركوم بعضه فوق بعض . . ! فلقد ارتفعنا عن مستوىٰ سطح البحر عند هذه الصخرة العاتية ما لا يقل عن ثلاثة الآف قدم . . ومع ذلك فاننا لا نزال علىٰ عمق أربعة الآف قدم أخرىٰ عن سطح هضبة اليمن . . وهذا يعني مزيداً من التسلق ومزيداً من العقبات ومزيداً من المشاق . .

كان جُلّ اهتمامنا اليوم هو اجتياز المنطقة الموبوءة بالملاريا في أطراف (مدينة العبيد) التي لم نصل اليها إلا في الساعة الثانية بعد الظهر

الصورة رقم (٥٢)
الرئيس جمال جميل فوق الصخرة العالية العاتية في الطريق الوعر إلى (صنعاء) . .

فلم نتوقف عندها لحظة واحدة . . وتم توزيع طعام الغداء علىٰ افراد البعثة وهم في داخل السيارات . . !

وبعد ساعتين من المسير الشاق ونحن ندور ، أو بالأحرىٰ ، الطريق يدور من سفح الىٰ سفح في الجبال الشامخة العاتية التي تهيمن علىٰ وادي سهام العظيم وصلنا الىٰ نهاية مرحلة اليوم بالقرب من (حمّام العليل) حيث يقوم بناء كبير علىٰ جانب الطريق شُيّد علىٰ ظهر صخري واسع يشرف علىٰ الوديان الفرعية من حوله إشرافاً كاملاً وهو يقع الىٰ الجنوب من موقع (حمام العليل) بمسافة قليلة . . وهذا البناء عبارة عن حصن يسنده برج واحد مدور الشكل يقيم فيه عدد من الجنود لحراسة الحصن الذي يُعتبر بمثابة دار استراحة للعائلة المالكة والمقربين اليها . . يأتون اليها لقضاء بضعة أيام بقصد الاستحمام في مياه (حمام العليل) المعدنية الساخنة . . وكثير من أهل اليمن يقصدون هذه المياه للاستشفاء ولكن علىٰ طريقتهم البدائية الخاصة . . .

ولما كنا قد وصلنا الىٰ هذا المكان في غير الموسم الخاص بارتياده من قبل العائلة المالكة فقد حللنا ضيوفاً ليس علىٰ الحصن . . بل علىٰ البرج المدور الذي يحرس الحصن . . وكان الحصن بطبيعة الحال مقفلاً . .

إن (حمّام العليل) اليمنية هذه ذكّرتني بأختها العراقية (حمام العليل) الموصلية . . بلدي الموصل الحبيبة . . . ، ولكن شتان بين الأختين . . أخت تعيش في العصر الحجري بجبال اليمن البركانية . . والأخرىٰ تعيش في عصر ملوك الطوائف ، منازل أهلها أعشاش من القصب . . !

فحمام العليل اليمنية ليست اكثر من مجموعة كهوف صخرية في صفحة الجبل . . يتوسطها الكهف الكبير الذي يحتوي علىٰ بُرْكة كبيرة أو حوض كبير تغمره مياه كبريتية ساخنة تتصاعد منها الأبخرة نحو سقف الكهف وجدرانه الداكنة . . وهذه الأبخرة تسبب حدوث طبقة لزجة خفيفة علىٰ سطح الصخر . . وليست هناك منافذ لدخول الضوء الىٰ داخل الكهف الكبير ما عدا فتحة ضيقة يتسرب منها شعاع ضئيل من الضوء الىٰ داخل الكهف المظلم . . . !

وفي الكهوف الصغيرة دكات حجرية يفرشون عليها الحصير للجلوس وخلع الملابس . . ولاشيء غير ذلك علىٰ الاطلاق . . . !

كان المفروض ، كما أسلفنا ، أن نحلّ ضيوفاً علىٰ البرج المدور القائم الىٰ جوار الحصن . ولكن هذا البرج لا يمكن بأي حال من

الاحوال أن يؤوي قافلةً تتألف من ستة وعشرين نسمة . . واحتار جنود الحرس الخمسة المرابطين في هذا البرج لعدم علمهم بوصول مثل هذه القافلة اليهم في هذا اليوم . . !وبعد جدل ونقاش دار بينهم وبين السيد الزيدي ذو اللحية الحمراء الذي يحتل مقعداً في سيارة رئيس البعثة . . استجاب جنود الحرس ، بعد أن عرفوا مكانة السيد الزيدي في صنعاء ، وفتحوا لنا باب الحصن لنقضي الليلة فيه على اية حال . .

فلما دخلنا الى الحصن وألقينا نظرةً على ما في داخله استغربنا لوضع خمسة جنود لحراسة مثل هذه الخربة الكبيرة التي ليس فيها من مقومات الإسكان ما يُخشى عليه من العبث أو السرقة . . . !

ثم عَلمنا أن شيئاً من الحياة قد يدب الى هذا المكان فقط عندما يصل اليه عدد من أفراد العائلة المالكة أو المقربين اليهم بقصد الهروب من الحياة . . أو الإستفادة من (الحمّام) . . حمام العصر الحجري . .

وجاء الليل . . وكنا قبل مجيئه نُمنّي أنفسنا بنومٍ هانئٍ لذيذ في (منتجع العائلة المالكة المتوكلية) بحمام العليل اليمنية . . ولكن الليل خيّب ظننا فيه هذه الليلة أيضاً . . !

فقد اصابنا في هذا المنتجع الملكي المتوكلي نفس ما أصابنا في ليلتين سابقتين بعبال . . . ! ولا أراني في حاجة الى تكرار التفاصيل . . . وإذا كان الأرق قد أقَضّ مضجعي هذه الليلة . . فعتابي لا ألقيه على الحصن المهجور . . أنما ألقيه على السؤال الذي دار في خاطري وأنا مستلقٍ على ظهري فوق سريري العسكري السفري . . فأرقّني حتى الصباح :

ترى . . لولا أن هذا السيد الزيدي كان برفقتنا في هذه الطريق المقطوعة . . هل كان ينبغي على رئيس البعثة أن يشكل معسكراً ذا نطاق ويرتب له حماية عسكرية من أفراد البعثة لقضاء تلك الليلة في العراء إلى جوار (منتجع العائلة المالكة المتوكلية) في منطقة حمام العليل اليمنية . . ؟ !

الاربعاء ـ ٣ / ٤ / ١٩٤٠ ـ حمام العليل ـ معبر ـ صنعاء

حينما انبلج الصبح عن شمسٍ مشرقة . . هرعنا الى السيارات . . وتركنا لجنود الحرس الخمسة معظم ما كان قد تبقّى لدينا من زاد الطريق . . فنحن اليوم وبعد ساعات سنكون عند أبواب (صنعاء) بإذن الله . .

وعندما كنا نقدم الطعام لجنود الحرس . . وقع نظرنا فجاةً على بناء صغير يربض فوق إحدى الذرى البعيدة . . ولولا أنه كان مطلياً بالجبس الابيض لتعذّرت علينا رؤيته بالعين المجردة . . .

كان موضع البناء بالذات يجلب الانتباه نظراً لانفراده العجيب في تلك المنطقة . . فسألنا واحداً من جنود البرج عن هذا البناء فقال بما يعني :ـ

[ياسيدي . . هذا ضريح قديم طالما سمعنا عنه الحكايات العجيبة والروايات الغريبة . . فقد قيل بأن هذا الضريح كان قد شيده سكان هذا الجبل قبل دخول الاتراك العثمانيين الى اليمن . . وذلك تكريماً للوليّ الذي يرقد في تربته . . وهذا الولي كان قد جلب الثراء العريض لقبيلته مما كان ينهبه ويسلبه بعد قطع الطريق على المسافرين عبر هذا الوادي الكبير . . وليس لهم طريق غيره في ذلك الزمن . . . وقالوا أيضا بأن هذا الولي لم يكن كبقية الأولياء الكسالى الخاملين . . فقد كان بطلاً شجاعاً وحكيماً وعاقلاً . . مما جعله يحوز على ثقة جماعته وولائهم . . فلما وافاه الأجل دفنه قومه في هذا المكان البارز المرتفع . . ثم أقاموا له هذا الضريح اعترافاً بجميله عليهم أيام السلب والنهب وقطع الطريق . . .] . . !

قلتُ : حاشا لله تعالى ولأوليائه إن كان هذا من الأولياء الصالحين . . «ألاَ إنّ أولياء اللّه لا خوفٌ عليهم ولاهُم يَحزنون» . . . . !

والتفتَ أحد جنود الحرس نحوي يسألني : [أوَ تقرأون القرآن مثلنا ياسيدي ؟ !] .

قلت له : نعم ياسيدي . . فنحن مثلك عرب مسلمون . . وأصلنا من أصلكم واحد . . ولكنْ . . لعن الله الذين فرّقونا أيدي سبأ . . . .

وحملق الجندي في وجهي يسأل : [أوَ تعرفون سبأ أيضا ياسيدي ؟ !] .

قلت له : نعم ياسيدي . . ونعرف مأرب وسدّ مأرب أيضا . .

فابتسم الجندي ابتسامةً عريضة وصاح بأعلى صوته : [ألله يحفظ الإمام . .] . .

وتحركت سيارات القافلة في الساعة السابعة صباحاً وأعيننا تحدّق فيما حولنا من جبال تناطح السحاب . . وتعلو عليه أحياناً . . فادركنا

أنه لاتزال أمامنا بضعة الاف أخرى من الأقدام يجب أن نتسلقها بالدواليب . . وراحت السيارات تلفّ وتدور من سفح الى سفح وهي تتسلق على زوايا ارتفاع مختلفة يصل بعضها أحياناً الى (٤٥°) درجة وعندئذ يعلو الصريخ في محركات السيارات وأنفاسُها تكاد تتقطّع . . .

وكانت الطريق التي نتسلق عليها طريقاً بدائيةً جداً فعرضُها لايتسع لمرور اكثر من سيارة واحدة في اتجاه واحد . . وكان القليل من منعطفات الطويق تتيسر فيها فجوات اجتياز لسيارتين متقابلتين . .

أما أرضية الطريق فمليئة بالحجارة الصغيرة مما يزيد في صعوبة التسلق بالدواليب . . والجانب الوحشي من الطريق ـ أي الجانب المحاذي للوديان السحيقة ـ هو أخطر ما في الطريق . . فاذا زلّت إحدى الدواليب عن هذا الجانب السائب هوت السيارة في الوادي . . فلا يصل من حطامها شيئ الى القعر . . . !

وكنت أشاهد السيارة التي تتقدمنا فأعرف منها أيّ طريقٍ جهنميةٍ نحن سائرون عليها . . فقد كانت العجلتان الجانبيتان من اليمين تلاصقان الحدّ المحفور من صفحة الجبل . . أما العجلتان الأخريان من اليسار فكانتا تدرجان على حاشية رخوة من الحجارة الدقيقة والتراب السائب . . . !

لقد كان الحل الأفضل لتحاشي التفكير في حالة الطريق وخطورتها هو التطلّع الى المزارع الخضراء المنتشرة على شكل مدرّجات فوق جنبات الوديان التي تقاطع الطريق أو توازيه . . ثم رفع النظر الى أعالي الجبال لمشاهدة تلك القرى الصغيرة المعلقة في الذُرى كأنها مجاثم النسور . . !

وفجأةً توقفت سيارتنا على منحدر خفيف . . ورأيت السائق يشد بيده وقدميه على جميع الموقّفات (أي الفرامل) شداً عظيماً وقسمات وجهه تنّم عن عصبية وذهول . . ولسانه لاينفكّ عن لعن الذين شقّوا هذه الطريق بهذه الحالة المزرية . .

لقد توقفت سيارتنا بسبب عطلٍ أصاب العجلة الخلفية اليسرى . . وكان من حسن حظنا ، والأعمار والآجال بيد الله ، أن هذه العجلة أو الدولاب لم يكن على الجانب السائب من الطريق . . وإلا لكنا منذ ذلك اليوم في خبر كان . . . ! وكان من حسن حظنا ايضا أن المكان الذي تعطلت فيه السيارة كان مجاوراً لمنعطفٍ من الطريق فيه فسحة من الارض تؤدي الى مكان يشبه المغارة داخل سفح الجبل . . ولاشك أن السائق هو الذي أرغم السيارة على الوصول الى هذا المنعطف لأنه يعلم أن من ورائه سيارتان أخريان يركب فيهما ضباط صف البعثة . . ومن ورائهم سيارة الشحن التي تحمل عفش البعثة . . وأنه لابد من فسح المجال لمرور هذه السيارات . .

والحقّ أن هؤلاء السوّاق المهرة الشجعان قد اكتسبوا هذه المهارة في السياقة بعد تدريبات وخدمات طويلة في (عدن) والمحميات . . ثم على هذه الطرق الشيطانية في اليمن . . . !

وأسرع السائق فترجل من السيارة ودفع بعدد من الأحجار خلف الاطارات . . فترجلنا نحن في أثره . . وعلى الرغم من فسحة المنعطف التي توقف فيها السائق . . فإن عملية اجتياز السيارات الثلاث من ورائنا لم تتم إلا بمجازفة كبيرة بعد أن ترجل منها الركّاب . . . أما سيارة الشحن التي كانت تعاني سكرات الموت من ذلك التسلق العسير فقد فشلت في امتحان الاجتياز حتى النهاية رغم شجاعة السائق والجهد المبذول . . وهكذا ارتبط مصير سيارة الشحن بمصير سيارتنا . . . !

وبرك سائق سيارتنا عند الدولاب العاطل ـ وليس فيه عطل في أنبوب الاطار ـ وباشر برفع الغطاء المعدني (الكب ـ cup) عن الدولاب . . فلما انكشف ماتحت الغطاء وجدنا أن الدولاب على وشك الانفصال من قاعدته (الافلنجة ـ Flange) بسبب سوفان أسنان الصامولات المثبتة في الافلنجة . . ولم يبق منها سوى صامولة واحدة سالمة !

تصوّروا . . دولاب خلفي لسيارة صالون (فورد) جديدة معلق بصامولة واحدة فقط الى القاعدة . . . . . !

فلو كان هذا الدولاب في الجانب الآخر من السيارة ، أي الجانب المشرف على الوادي السحيق ، لسقطت السيارة بركّابها الى الحضيض الذي لاقرار له في هذه الخوانق والوديان . . . !

إن العطل الذي أصاب هذه السيارة يحتاج تصليحه الى معمل تصليح وليس الى سائق معلّق بسيارته على خازوق جبلي يرتفع آلاف الأقدام عن سطح الارض أو قعر الوادي . . .

ومن العجائب التي لايمكن تصديقها في غير اليمن هو أن هذه السيارات ، التي أمر الإمام بشرائها جديدة من (عدن) وخصيصاً لنقل البعثة العسكرية العراقية الى صنعاء لم يكن في حوزة سائقيها من الأدوات الاحتياطية الجوهرية لمثل هذا الطريق الظالم سوى المفتاح المربع

الخاص بفتح صامولات الدواليب ، والعتلة الرافعة (الجك ـ Jack) ليس إلا ... ! وفوق ذلك .. أن السيارة ليست مزودة بالدولاب الخامس الاحتياطي ... ! فهل يُعقل أن الشركة التي باعت هذه السيارات الجديدة للسيد (الجبلي) ـ وكيل الإمام في عدن ـ سرقت من تلك السيارات دواليبها الإحتياطية .. ؟ لاشك أن الإجابة على مثل هذا الاستفسار لايعلمها غير الله تعالى والسيد (الجبلي) ..... !

وأخيراً اضطررنا الى ترك السيارة العاطلة وسيارة الشحن المحصورة خلفها بعد أن أعطينا لسائقيهما كمية من الطعام والماء ريثما نصل الى (معبر) أو (صنعاء) ونخبر المسؤولين بالحادث لكي يقوموا لنجدة السيارتين المتروكتين على طريق الشياطين ... !

وبعد صعود مرهق لنا وللسيارات دام قرابة ساعتين شعرنا فجأةً بهبوط ملحوظ في درجات حرارة الطقس .. فادركنا أننا اصبحنا الآن على ارتفاع لايقل عن (٢٠٠٠) ألفي متر عن مستوى سطح البحر ... وأول ظاهرة طبيعية وقعت عليها أنظارنا ونحن ننظر الى مكان بعيد في سطح الهضبة هياج عاصفة ترابية على شكل مخروط مقلوب ..

وقبل أن نمضي قُدماً على سطح الهضبة بعد ذلك التسلق الفظيع يجدر بنا أن نشير الى تلك اللعنات التي صبّها سائق سيارتنا العاطلة على الذين شقّوا ذلك الطريق الشيطاني مابين (عُبال) و (مَعْبر) ...

إن هذا الطريق الشيطاني هو من منجزات حكومة الإمام يحيىٰ منذ وقت قريب .. وكل مسؤول في هذه الحكومة كان يتبجح مفاخراً بفتح هذا الطريق .. ولكنهم لايجرأون أن يذكروا كيف وبأي الوسائل شقّوا هذا الطريق الذي لايمكن أن تسلكه إلا أقوى السيارات العسكرية ذات السرعات الأربع (4 W. D) ـ أي (أربعة كير) ... !

لقد شقوا هذه الطريق بقانون (السُّخرة) .. لذلك سَخِرت منهم الجِبال .. لأن الطريق التي شقّوها لاتصلح لمسير سيارات الحمل الثقيلة .. ولذلك ظل الجمل هو سيد الجبل في اليمن كما هو سيد الصحراء في غير اليمن من دون منازع ...

وقانون (السخرة) هذا يُقسّم الطريق المراد شقّها الى عدة قواطع تتناسب ومواقع القبائل المستوطنة على جانبي الطريق .. ثم يجري تحديد مسؤولية كل قبيلة في تلك القواطع ...

أما كيف ؟ وبأي الوسائل ؟ وبأي النفقات سيجري شقّ هذه الطريق البالغ طولها مئات الكيلو مترات .. فذلك أمر لايهم حكومة الإمام في صنعاء ... !

بقي أن نعلم أن عبارة «شقّ الطريق» أو «تمهيد الطريق» لاتعني على الإطلاق أن في هذا الطريق شبر واحد مبلط بالأسفلت .. ولاتعني على الاطلاق أن هذا الطريق له أية علاقة بهندسة الطرق وفنونها التي لاتدخل تحت حصر ... إنه (طريق الشياطين) وكفىٰ ...

عندما صِرنا فوق سطح الهضبة كنا نعتقد بأن فترات التسلق الشاق قد ولّت الى الأبد .. وأن الهضبة ليس فيها جبال .. ولكننا كنا خاطئين .. بل جاهلين في جغرافية اليمن .. فحيثما التفتنا من حولنا وجدنا الجبال على مسافات متفاوتة وارتفاعات مختلفة .. إلا أن الطريق الذي نسير عليه الآن أصبح اكثر وضوحاً وأقل وعورة وتسلقاً .. لذلك نشطت السيارات في مسيرها .. وكنا نشاهد على الجوانب البعيدة من الطريق مجموعات متفرقة من المزارع على ذلك المنبسَط الفسيح من الارض وبينها مجموعات من البيوت والقرى الصغيرة المشيدة فوق الآكام والمرتفعات ولكنها لم تبدُ جذابة للعين كتلك القرى المعلقة في ذرىٰ الجبال التي مررنا بها في الطريق قبل اليوم ...

في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً مررنا ببلدة (مَعْبر) التي تبعد عن صنعاء (٧٣) كيلو متراً .. وترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي (٢٣٥٠) متراً .. ولذلك كان المناخ في هذه المنطقة لطيفاً .. إلا أننا لم نتوقف عند (معبر) وواصلنا السفر نريد (صنعاء) .. وكما قال الروّاد الأوائل : «لابد من صنعآ وإن طال السفر» .. وستكون لنا عودة للحديث عن (معبر) بعد ثلاثة أعوام من الآن.حينما سنكون في طريق عودتنا الى أرض الوطن .. العراق .

لم يبق بيننا وبين صنعاء اكثر من (٧٣ ـ ٨٠) كيلو متراً .. ولم تتغير معالم الطريق كثيراً منذ أن صعدنا الى سطح الهضبة .. ولكن بعد أن قطعنا بضع كيلو مترات عن (معبر) أخذ الطريق في التصعيد تدريجياً .. فكنا نشاهد أمامنا في الأفق القريب جبلاً يعترض الطريق التي نسير عليها .. فصارت السيارات تلفّ وتدور في منطقة من الأراضي المتموجة تشبه الى حدٍ كبير الاراضي الواقعة عندنا في العراق مابين (أربيل) و (صلاح الدين) .. ثم تتسلق المنحدرات الجنوبية للجبل المستعرض أمامنا . وبعد نصف ساعة تقريباً شاهدنا سيارة رئيس البعثة تتسلق طريقاً يشبه تماماً الطريق الصاعد من أسفل جبل صلاح الدين إلى أعلاه .. ثم توقفت عند ذروة الجبل ولم تتحرك بعد ذلك .. فلحقنا بها

الى الذروة بعد قليل فاذا هي تقف فوق رقبةٍ[1] من الجبل المستعرض وليس ذروته .. وكان رئيس البعثة قد ترجل من السيارة يصافح هيئة من ضباط الجيش اليمني هرعت لاستقبال البعثة العسكرية العراقية على مسافة (٥٥) كيلو متراً الى الجنوب من (صنعاء) ...

كان هذا اللقاء التاريخي بيننا وبين إخواننا الضباط من الجيش اليمني هو الثالث من نوعه .. فقد كان اللقاء الأول في (الراهدة) بعد اجتيازنا الحدود اليمنية الجنوبية .. وكان اللقاء الثاني في (الحُديدة) عند وصولنا الى الحدود اليمنية الغربية على ساحل البحر الأحمر .. وكان هذا اللقاء الثالث في (نَقيل يَسْلُح)[2] عند العتبة الجنوبية للعاصمة اليمنية (صنعاء) ..

ولقد سرّنا كثيراً أن نجد مع المستقبلين عند (نقيل يسلح) عدداً من زملائنا الضباط اليمنيين الذين درسوا وتخرّجوا في المدرسة العسكرية الملكية في بغداد مابين عام (١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ م) .. واستغرق الوقت على (النقيل) حوالي ربع ساعة .. كنتُ خلالها أفتش عن (صنعاء) في الأفق البعيد من خلال الناظور العسكري الذي كان يلازمني وألازمه طوال الطريق .. ولكنني لم استطع أن أتبين من ملامح (العاصمة البيضاء) اكثر من تشكيلتها العامة نظراً لبعد المسافة واعتراض بعض المعالم الارضية لخط النظر ...

إن من مميزات (صنعاء) كمدينة كبيرة في اليمن اختلاف رؤيتها عن بُعد من الجهات الأربعة .. فالقادم اليها من الجنوب لاتنكشف له قبل صعوده فوق (نقيل يسلح) ، وكلما اقترب اليها من هذا الاتجاه بدت له (صنعاء) وكأنها الباخرة العظيمة (تيتانيك) بضعفَيْ طولها وهي تمخر عباب المحيط الأطلسي باتجاه الأمريكتين .. وقد شبّهتُها بالباخرة العظيمة لاكثر من وجهٍ للشبه .. ذلك لأن الأجزاء السفلى من الباخرة تكون عادة بلون قاتم .. والأجزاء العليا تكون بلون أبيض ناصع .. وفيها النوافذ الكبيرة والصغيرة .. وفيها المرافق بمختلف الحجوم والهيئات .. وفيها الصواري والمداخن الضخمة والاعتيادية .. وكذلك (صنعاء) .. فالأجزاء السفلى من منظرها العام ذات لون داكن بسبب بناء الطوابق الأرضية بالحجر الاسود أو الأسمر .. فضلاً عن السُور المحيط بصنعاء .. أما الأجزاء العليا من مبانيها ذات الطوابق المتعددة فطلية بالجبس الابيض الناصع .. وأن مآذنها الكثيرة والمختلفة طولاً وعرضاً وطرازاً تمثل الصواري والمداخن المختلفة في الباخرة العظيمة .. وأن كثرة النوافذ الكبيرة والصغيرة في طوابق مبانيها تشبه الى حدٍ كبير النوافذ المختلفة في الباخرة .. وهكذا تتعدد أوجه الشبه في هذا الصدد .. فلا يبقىٰ من أوجه الاختلاف الرئيسية سوى ميزة الحركة في الباخرة وعدمها في (صنعاء) .. فلو أن عفريتاً من جنّ سليمان عليه السلام حمل صنعاء على منكبيه وسار بها مابين الجبلين (نُقُم) و (عَصُر) لظننتها هي الباخرة (تيتانيك) قد بعُثت للحياة من قاع المحيط الذي ابتلعها منذ زمن بعيد .. !

أما القادم الى (صنعاء) من جهة المشرق فلابد من مروره بقمة جبل (نُقُم) المشرف على صنعاء إشرافاً مباشراً .. فاذا نظر الى صنعاء من ذلك الارتفاع وجدها وكأنها بين قدميه .. فاذا أمعن النظر فيها من مكانه هذا بدت له وكأنها عنكبوت هائل ألقىٰ بنفسه من قمة (نُقُم) الى سهل (سنحان) فانتشر نسيجه تحت رأسه الذي استقر عند (قصر غُمدان) ... !

أما القادم اليها من المغرب فانه سيرى صنعاء تماماً بعكس مارآه القادم من المشرق وذلك بسبب طول المسافة مابين صنعاء وجبل (عصر) .. فهذا القادم من المغرب والهابط من (عصر) سيرى صنعاء وكأنها ذلك العنكبوت الهائل يلملم نسيجه المنتشر ويرفع رأسه الضخم من خرائب (قصر غُمدان) يريد الصعود الى مكمنه في أعالي (نُقُم) .... !

فاذا جئنا صنعاء من شمالها .. فسوف لن تبدو لنا بأية صورة من الصور الثلاث المتقدمة نظراً لانبساط الارض وانعدام العوارض الارضية المرتفعة .. فضلاً عن وجود البساتين وبعض الأحراش ....

أما من جاء صنعاء جواً فقد تختلف صورتها في نظره اختلافاً كلياً عن كل التصورات السابقة .. إنه سيراها على هيئة خارطة مجسمة فُرِشت تحته في سهل (سنحان) .. وبما أن هذا القادم جواً لم يتجشم شيئاً من عناء السفر على الارض فسوف تكون صورة صنعاء عنده كصورة أي بلد آخر في العالم يصل إليه على متن طائرة ... !

ومثل (صنعاء) يجب أن تكون نهاية سفر شاق على الطريق .. وكلما كانت وسيلة النقل والسفر بدائية والطريق كذلك كلما كان اللقاء مع صنعاء اكثر عجباً وأشد تأثيراً وأعمق أثراً في النفوس والذكريات ..

---

(١) رقبة الجبل : إصطلاح طوبوغرافي (تخطيطي) في الجيش العراقي للتعبير عن موضعٍ متقعّر في ظهر الجبل يمر منه طريق أو مسلك .. ويسمى أحيانا بصهرة الجبل.

(٢) النقيل : في عُرف أهل اليمن هو المضيق .. ولفظة (يَسْلُح) هي إسم الجبل المعترض للطريق ولكن (المضيق) جغرافياً وطبوغرافياً هو غير (الرقبة).

إن الجزء الاكبر من الانطباع الجمالي عن مدينة (صنعاء) يعود الى وحشة الطرق التي يسافر عليها الانسان داخل اليمن للوصول الى صنعاء .. ذلك لأن المسافر على هذه الطرق نادراً مايرى أو يصادف إنساناً أو حيواناً يمر على هذه الطرق .. وقد لايرى أية قرية على مقربة من هذه الطرق .. باستثناء الطريقين أو الطرق الثلاثة الرئيسية التي تربط بين (صنعاء) والحديدة وتعز ... ومن يسلك غير هذه الطرق الرئيسية سيُخيّل اليه أن سكان الارياف جميعاً قد هاجروا الى خارج اليمن ...!

إن اللقاء المفاجئ مع (صنعاء) من الجنوب هو اكثر اللقاءات الأخرى تأثيراً في النفس .. ذلك لأن (نقيل يسلح) يتكفل بوضع المسافر وجهاً لوجه مع صنعاء وهي تتربع مكان الصدارة من سهل (سنحان) الرحيب .. ليس فيه غير الحقول الخضراء على امتداد البصر .. لاتنتهي إلا تحت أسوار صنعاء .. وهذه الأسوار جزء لايتجزأ من تاريخ صنعاء يربط حاضرها بماضيها ويُضفي عليها جمالاً ذا طابع خاص .. ويخطئ كثيراً من يفكر في إزالة هذه الاسوار مع أبوابها وأبراجها .. فدول الحضارة في العالم تنفق الملايين من الأموال لصيانة القلاع والحصون والقصور التراثية والمحافظة عليها وترويج زيارتها لجحافل السّواح القادمين من جميع أقطار الدنيا .. وبذلك يحفظون صورة القديم الى جانب الحديث في إطار واحد يجمع تراث الأمة كله ويصونه من الضياع ...!

وانحدرت بنا السيارات من (نقيل يسلح) تطوي بقية الطريق الى صنعاء .. وبعد مسيرة (١٤) كيلو متراً مررنا بقلعة قديمة للأتراك العثمانيين ولم نتوقف عندها طبعاً .. وماهي إلا نصف ساعة أو تزيد حتى صرنا من أسوار صنعاء قاب قوسين أو أدنى .. وكان أول ما وقعت عليه أنظارنا من معالم صنعاء خارج أسوارها تلك الثكنات العسكرية الكبيرة .. فقيل لنا في حينه : هذه هي ثكنة الجيش الدفاعي .. وتلك هي ثكنة المدفعية .. وتلك هي ثكنة الجيش المظفر .. وكان ذلك أول ماتلقيناه من المعلومات العسكرية عن الجيش اليمني الذي جئنا لخدمته بحماس وإخلاص ..

وبعد لحظات وصلنا الى أحد الابواب الجنوبية من سور صنعاء أسموه لنا بـ (باب خُزَيْمة) ومنه دخلنا الى (بئر العزب) حيث أوصلتنا هيئة الإستقبال الى مبنىً كبير أسموه (دار الصناعة) وقالوا : [هذا هو مقامكم في صنعاء فادخلوه بسلام آمنين] .. فنظرت الى ساعتي فاذا هي تشير الى الواحدة والنصف بعد الظهر من يوم الاربعاء ـ ٣ / ٤ / ١٩٤٠ .

* **إنتهى الفصل الخامس من الكتاب .**

تصويبات مطبعية للجزء الأول من كتاب
" تأريخ البعثة العسكرية العراقية الى اليمن "
١٩٤٠ - ١٩٤٣

لقد صححنا هذه النسخة بموجب هذا الجدول وملحقه في ٧/٧/١٩٨٧

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	٣	ينصت	ينصبّ
=	الهامش (١)	ص(٢٢٧)جـ٢	ص(٤٧٣)جـ٢
٢٤	التسلسل ٢٠	سلطنة شه	سلطنة شهر
=	= =	ويخاط	ويُخاطب
٢٧	٢	في المدينة	في المدن
٣٣	٢٨	(موسج)	(موشج)
٤٦	يضاف السطر التالي فوق خط الهوامش مباشرةً :		
	عندما استمع قسطنطين الى هذه الرواية اليمنية تفتقت قريحته الشعرية عن الأبيات التالية :		
٤٧	١	الصّحاب	الصّحاب
=	١٣	تحذف الكلمات التالية من آخر السطر :	
		وقاموس (ويبستر - Webster) وغيرهما٠	
٥٤	الفقرة ثالثا -	أحمد	أحد
٥٧	٨	وننهي	وننهىٰ
=	هامش	(٨)	(٧)
٦٣	٦	.....)(٢)	.....)(١)
=	الهامش (١)	يُلغىٰ منه الرقم (١) فقط٠	
=	الهامش (٢)	يُصحح الرقم (٢) الى (١) وتضاف العبارة التالية الى آخر الهامش : أنظر هامشنا (١) ص (٩٠) جـ١	
٦٧	١١	أفكار الكثير	أفكار الكثيرين
٦٨	١	جمدان	جمدان
=	٢٠	قطع رأسه	قُطعت رأسه
٦٩	أسفل الهامش (١)	تعليق :	تعليق :
٧٠	٥	والوطائف	والوظائف
=	١٢	يمتهنو	يمتهنون
٧٨	١٢	في مستهل في	في مستهل
٧٩	١٤	عن وجهة	عن وجهه
٨٠	٦	المتكات	المتكآت
=	٢٥	هي	ما هي
٨٣	٨	ءب	ءاب
٨٤	٨	المرسلات	المراسلات
=	هامش (٢)	بوزارة المالية في	بوزارة المالية أو وزير المالية
٨٧	٤ من الأخير	الشيوخ القبليّون	الشيوخ القبليين
٨٨	٢١	ما يتم	ما يتمم
٨٩	١٥	(الطبع غير واضح)	وقلما يحوي
٩٠	هامش (١) سطر ٣	بمقاطعة	بمقاطعة
=	هامش (١) سطر ٥	(الطبع غير واضح)	خاص
٩٤	٢	يخيم	يخيمان
٩٦	١١	الخلاقة	الخلافة
=	١٤	وحده	وحدة"
=	السطر الأخير	كانو	كانوا
٩٧	٢	عمله	عملة
٩٨	السطر ٢ من المادة ٤-	لاحقاً(٣)	لاحقاً(١)
=	الهامش	(٣)	(١)
=	نفس الهامش	المادة (١)	المادة (١١)
١٠٢	الهامش (٢)	(الطبع غير واضح)	تخزين
=	الهامش (٣)	الى أحد الحمامات	الى احدى الحمّامات
١٠٣	١٥	وشانة	وشأنه
=	٨ من الأخير	نجاه	تجاه
١٠٤	١٠	يقفون على	يقفون عند

وفي ذات يوم من أيام الفصل الثاني

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	٤	في السنة الأولى	في السنة الثانية
=	٧	وفي السنة الأولى اليوم التالي -	وفي السنة الثانية اليوم التالي -
		١٩ تشباط/١٩٤٨	١٩ شباط/١٩٤٨
١٧	١٦	شهر شباط عام ١٩٤٨	(٥) شهر شباط عام ١٩٤٨
			ومحتوى الهامش (٥) هو : الاربعاء - ١٨/ شباط/١٩٤٨
١٨	١٧	في الوقت المعين..	في الوقت المعين (٥)
			ومحتوى الهامش (٥) هو : الساعة (٩٠٠) من يوم الخميس - ٢٦/ شباط/١٩٤٨ وكان سبب التعجيل بالقاء المحاضرة هو صدور الأمر بنقل الأمين من الكلية و إحلال العقيد الركن رفيق عارف محله اعتباراً من يوم ٢٨/ شباط/١٩٤٨ .
"	٦ من الأخير	وفي بداية الثمانينات أو قبلها بقليل انتقل اللواء الركن..	وفي بداية السبعينيات انتقل الفريق الركن..
"	٧ " "	وانتقال اللواء الركن..	وانتقال الفريق الركن..

٨٨ سطر ١٩ استمرار يرتبط الى ما بعد

استمرار يرتبط الى ما بعد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٦	١٢ من الأخير	(غمان)	(غيمان)
=	٧ من الأخير	(الطبع غير واضح)	وسدود
١٠٩	٩	= =	بأبعاد
١١٠	٥	أحداث	بإحداث
١١١	٥ من الأخير	غليضة	غليظة
١١٢	٣	(الطبع غير واضح)	الطابق
١١٣	٥ من الأخير	والإختلاف	والإختلاق
١١٧	٥	يحلو	يُحْلو (١)
=	٥	الضواحي	الضواحي
=	تحت نهاية السطر الأخير تُكتب العبارة التالية : التتمة على ص ١١٩		
=	يوضع الهامش التالي في أسفل الصفحة : (١) أنظر الخريطة رقم (٤) ص١١٨		
١٢٣	١	(الطبع غير واضح)	المقطوعة
١٢٥	٢٤	تشبه كل شيء	تشبه أي شيء
١٢٧	٢	نقلهها	نقلها
١٣٨	٢٤	الى (تعز)	الى (تعز) (٤)
=	يضاف الهامش التالي أسفل الصفحة : (٤) في طريقها الى صنعاء		
١٣٩	٧ من الأخير	(١٥) خمسة عشر	(١٤) أربع عشرة
١٤٠	٦	يُحذف التسلسل ١٥. حمّام طلحة	
١٤١	٢	الاسبوع أن	الاسبوع الثامن أن
١٤٢	الصورة رقم (١٩)	الجامع الكبير في (صنعاء)	(ان هذه الصورة ليست للجامع الكبير في صنعاء بل هي لجامع البكيرية ، وقد وقع الخطأ عند عملية تبويب التصاوير)
١٤٩	١٣ من الأخير	لن نستطيع	فلن نستطع
١٥١	١٦	الأوسطي	الاسطئ
١٥٢	٨ من الأخير	أحد عشر ألفاً	خمسة وثلاثين ألفاً (١)
١٦٢	٨	غذاءً خليعاً ماجناً	غناء خليع وماجن
=	١٣	فلما رحل	فلما ارتحل
=	السطر الأخير	(الطبع غير واضح)	مجالس
١٦٣	٢٢	= = =	ممضوغة
١٦٤	١٧	أما الأيمن	إما الأيمن
١٦٧	٢	تجيش النفس	تجيش لها النفس
=	١١	طعام الغذاء	طعام الغذاء(٣)
١٦٨	٢ من الأخير	للقتل باب	للقتل باب
=	السطر الأخير	إنّ	أنّ
١٦٩	١٧	كفوءاً	كفءاً
١٧٠	٥	فنباً	فنياً
١٧١	٥ من الأخير	(الطبع غير واضح)	إهتزاز ترح
١٧٢	٥	= = =	تسوّد
=	٦	من اليمن	عن اليمن
=	١٤	يحكي	يُحكئ
١٧٣	يضاف الهامش التالي الى أسفل الصفحة : (١) راجع ص (٨٣)		
=	٩ من الأخير	وحدهم المسموح	وحدهم هم المسموح
١٧٤	٢	(الطبع غير واضح)	والعمامة الإمامية
=	السطر الأخير	= = =	الا المطبخ
١٨٦	٨	فجأةً	بفجأةٍ
=	١٧	(الطبع غير واضح)	راجعاً الى
١٨٧	يضاف السطر التالي مباشرة بعد السطر الخامس: أما الباقون من طلاب الوجبة الأولى ـ وعددهم ستة ـ فقد تحولوا لدراسة المخابرة في فوج المخابرة الأول ببغداد.		
=	٦	(المدرسة العسكرية الملكية) في بغداد	(المدرسة العسكرية الملكية) والمخابرة في بغداد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٧	٩	تشطب عبارة (المدرسة العسكرية الملكية العراقية) وتحل محلها كلمة العراق.	
١٩٨	١	(الطبع غير واضح)	رافقنا كلٌ من
٢٠٩	٩ من الأخير	= = =	الكابتن سيجر
=	٨ من الأخير	= = =	الإمام
=	٧ من الأخير	= = =	حدود المدينة
٢١٥	٥ من الأخير	= = =	لا يشملنا نحن
٢١٦	١١	= = =	كان
=	٢ من الأخير	وأبراجه	وأبراجه
٢٢٥	٣ من الأخير	الى جانبيها	على جانبيها
٢٢٦	٥	(الطبع غير واضح)	من الفخّار
=	١٣	= = =	المرق
=	١٦	= = =	ويبصقون
=	٦ من الأخير	= = =	لسيف
=	٢ من الأخير	أول مسجد	ثاني مسجد
٢٣٠	١٠	(الطبع غير واضح)	الشافعي
٢٣١	١٦	= = =	الأزاهير العطرية
=	٤ من الأخير	(١٠١٢ـ١١٧٤م)	(١٠١٣ـ١١٧٤م)
=	٢ من الأخير	(١٢٢٩ـ١٤٥٤م)	(١٢٢٩ـ١٤٦٢م)
٢٣٤	١	الزوارف	الزوارق
=	٤	ملا عجب	فلا عجب
=	١٩	باائعو	بائعو
٢٣٥	٢	فاحديدة	فالحديدة
=	٦ من الأخير	(الطبع غير واضح)	الامام يحيى أن يُرينا
٢٣٨	٢ من الأخير	= = =	يوحي
٢٤٢	١	= = =	المرابطين
٢٤٣	٧ من الأخير	بصامولة واحد	بصامولة واحدة

تصويبات لآخر للجزء الأول

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	١	و أنه	و إنه
٢٧	٨	(١٩٥ / ٠٠٠) كيلومتر مربع	وجاء في ص (٥٧٥) من قاموس المجد (القسم العامي) أن مساحة اليمن تساوي (١٩٠ / ٠٠٠) كم٢
٣٦	٧	المكنى	المكنى — أي المستقى ، محل الاستقاء.
٤٦	٤	القاتيون	القاتيون
٤٨	١٠ من الأخير	قبلي	قبلي
٥٦	٧		
٥٧	١	اليمنية المتوكلية	اليمنية المتوكلية المستقلة
٧٠	٩	الرسي	الرسي
٨٤	١٠	إثني عشر	إثنا عشر
٨٨	١	ويضحك	ويُضحك
٩١	١٠	(بيت الرهائن)	(بيت الرهائن)
٩١	٨ من الأخير	وبسبعة الإصرار	وبسبعة الإصرار
١٢٧	٧ من الأخير	ولكن الإمام	ولكن الإمام
١٢٦	١٩	أقضت وضاجع	اقضّت وضاجع
١٥١	١٦	طريقة خلفه	طريقة خَلفه
١٦٧	٨	الأوسطي.	الأُوسطي.
١٨٧	٢ و ٣ من الأخير	البرقي .... الجريء	البريء .... الجريء
١٩٢	٧	(الغاو) هي سفينة « ذات الصواري » نفسها. فالتحقت بزاغي (الغاو)	(الغاو) تتألف من سفينتين هما «ذات الصواري» و « عبد الرحمن » فالتحقت بذات الصواري
١٩٢	٤	الكيلو مترات...	الكيلو مترات لمدة ثلاث سنوات
١٩٢	٧	بصندوق جلدي واحد من صناديق وحدات الميدان الطبية..	بصندوق واحد من صناديق المخابرة وليس من صناديق وحدات الميدان الطبية..
١٩٤	٤	المدفع الطبي العسكري	مستشفى الميدان الأول بمعسكر الوشاش.
١٩٤	٦ من الأخير	علم مخابرة.	مخابرة.
٢٠٠	٨	بتاريخ ٢٤/٧/١٩٤٢	بتاريخ ٢٢/٧/١٩٤٢
٢١٣	٢	وخلال اليومين التاليين	وخلال اليوم الثالث
٢٢١	١٢	قطعت رأسه بالسيف	قُطعت رأسه بالسيف في مدينة (تعز)
٢٢١	في الهامش (١)	وجه الغرابة هنا هي	وجه الغرابة هنا هو
٢٢٥	١٦	ص ٢٧ جـ ٢.	ص ٢٧٩ جـ ٢.
٢٢٥	٧ من الأخير	(١٤٥٤ — ١٤٧٩م).	(١٤٦٧ — ١٤٧٩م).
٢٤٧	٥	المدعو بن الذي	المدعو بن الذي
٢٤٧	١٧	(Carsten Oiehpur —	(Carsten Niehbur —
٢٤٧	١٥	— أي القسم الشمال	— أي القسم الشمالي.
٢٤٤	١٢	صنعاء.	الحديدة
٢٤٤	٥ من الأخير	السرعات الأربعة	السرعات الأربع
		صعدنا على	صعدنا إلى

١٩٦٧

يتبع الجزء الثاني

المطابع العسكرية